

إيزابيل الليندي

لعبة نازع الأحشاء

رواية



ترجمة: رفعت عطفة

إيزابيل ألليندي

لعبة نازع الأحشاء

رواية

ترجمة: رفعت عطفة



لعبة نازع الأحشاء

♦ إيزابيل ألليندي
♦ لعبة نازع الأحشاء
♦ ترجمة: رفعت عطفة
♦ التدقيق اللغوي: حسام بركات

♦ الطبعة الأولى 2015
♦الناشر : دال للنشـــــر والتوزيـــــع
سورية - دمشق- ص. ب: 29170
هاتف: 00963 936 092496
البريد الالكتروني: n_hammdan@yahoo.com

إلى وليم سي. غوردون

شريكي في الحب والجريمة

"مازالت أمّي حية، لكنّهم سيقتلونها في منتصف ليلة جمعة الآلام" حذّرت أماندا مارتين رئيسَ المفتشين وهذا لم يُخالجهُ شكّ، لأنّ الفتاة كانت قد برهنت على أنّها تعرفُ أكثر منه ومن جميع زملائه في قسم جرائمِ القتلِ. كانت المرأة مخطوفة في نقطة ما من ثمانية عشر كيلومترا مربعا من خليج سان فرانسيسكو، ولم يكن لديهم إلا ساعات قليلة كي يعثروا عليها حيّةً وهو لم يكن يعرف من أين يبدأ.

سمّى الفتيةُ عمليةَ الاغتيال الأولى "جريمة المضرب في غير مكانه"، كيلا تُهان الضحيّةُ بتسمية أكثر صراحةً. كانوا خمسة مراهقين وسيّداً مُتقدماً في العمر قليلا يجتمعون بواسطة حواسيبهم كي يشاركوا في لعبة نازع الأحشاء، وهي لعبة أدوار.

في الثامنة والربع من صباح الثالث عشر من تشرين الأوّل 2011، دخل طلاب الصف الرابع الابتدائي في مدرسة غولدين هيلز العامة إلى الصالة الرياضية مُهَرولين على إيقاع صفير المدرّب، الذي كان يشجعهم من الباب. كانت الصالة الرياضيّة واسعةً، حديثةً وحسنة التجهيز، شُيِّدَت بفضل طالب سابق، جمع ثروته خلال الفقاعة العقارية قبل انفجارها، وكانت تُستخدَم أيضا لحفلات التخرّج والموسيقى والمسرح. كان على صفّ الأطفال أن يدور دورتين حول

ملعب كرة السلّة للإحماء، لكنّه توقّف في الوسط أمام اكتشافه المفاجئ لشخص منطو فوق حصان القفز، مُشَمّرَ البنطلون حتى الركبتين، مكشوفَ المؤخّرة، ومقبض مضربِ بيسبول في شرجه. أحاط الأطفالُ بالجثة مذهولين إلى أن قام واحد في التاسعة من عمره كان أكثر جرأة من البقيّة وانحنى كي يمرّ بإصبعه على بقعة داكنةٍ على الأرض وحسم بأنّها إن لم تكن شوكولاتة فهي بالتأكيد دم جاف، بينما أخذ طفل آخر خرطوشَ رصاصة ووضعه في جيبه كي يُبادله في الاستراحة بقصةٍ إباحيّة مصوّرة وراحت بنت جسورة تصوّر الجثّة بجوّالها. اقترب المدرّبُ، الذي بقي يصفر مع كلّ زفير، قافزاً، من الجمع الطلابي المتراصّ وحين رأى ذلك المشهدَ، الذي لم يكن له مظهر المزاح أصيب بأزمة عصبيّة. شدَّ صخبُ الأطفال مُعَلّمينِ آخرين، أخرجوهم بالصياح والدفع من الصالة وحملوا المدرّب جرّاً، وانتزعوا مضرب البيسبول من مؤخرة الجثّة ومدَّدوها على الأرض، عندها تبيّن لهم أنّ هناك فجوة دامية وسط جبينه. غطوها بكنزتين ثمّ أقفلوا الباب بانتظار الشرطة، التي وصلت في أقلّ من تسع عشرة دقيقة، وكان مسرحُ الجريمة قد صار وقتها من التلوّث بحيث أنّه صار من المحال أن يُحدّد بدقّة ما الذي حدث.

بعدها بقليل وضّح رئيس المُفتّشين بوب مارتين في مؤتمر صحفيّ أنّه تمّ التعرّف على هوية الضحيّة، إنهّ إدْ ستيتون في التاسعة والأربعين من عمره. "وماذا عن مضرب البيسبول؟" سأل صحفيّ فضوليّ صائحاً. فأجابَ المُفتّشُ، الذي انزعج عندما علم أنّ ذلك التفصيل المشين بالنسب لإدْ ستيتون والمحرج بالنسبة للمؤسسة التربوية قد تسرّب، بأنَّ هذا ما سيحدّده تشريح الجثّة. "هل هناك من يُشك بهم؟"، هل كان الحارس مثليّاً؟" لم يُولِ بوب مارتين اهتماماً برشقةِ الأسئلة واعتبر المؤتمرَ الصحفيّ منتهيا، لكنّه أكّدَ بأنّ قسم جرائم القتل سوف يضعُ الصحافة في صورة ما سيتكشّف عنه التحقيق.

في مساء اليوم السابق كان يتدرّب في صالة الجمباز آخرُ صفّ على مسرحية موسيقية تتناول موضوع ما بعد الموت لعيدِ كلِّ القديسين، شيء عن الزومبي والروك أند رول، لكنّهم لم يُدركوا ما حدثَ حتى اليوم التالي. في الساعة التي ارتكبت فيها الجريمة، منتصف الليل، بحسب تقديرات الشرطة لم يكن قد بقي أحدٌ في المدرسة، فقط كان هناك ثلاثة من أعضاء فرقة الروك في موقف السيارات يحملون آلاتهم الموسيقيّة في سيارة نقل مغلقة. كانوا آخر من رأى إدْ ستيتون حيّاً. شهدوا بأنّ إدْ ستيتون حيّاهم بيده وابتعد في سيارة صغيرة نحو الساعة الثانية عشرة والنصف ليلاً. كانوا على مسافة قليلة من ستيتون والموقف لم يكن مُضاءً، لكنّهم كانوا واثقين من أنّهم عرفوا ثيابه الموحدة تحت ضوء القمر على الرغم من أنّهم لم يستطيعوا أن يتفقوا على لون وماركة السيارة التي غادر فيها. كما أنّهم لم يستطيعوا أن يقولوا ما إذا كان هناك في الداخل رجل آخر، لكنّ الشرطة استنتجت أنّ السيارة لم تكن للضحية، لأنّ سيارته اللؤلئية رباعية الدفع كانت على بعد أمتار قليلة من سيارة الموسيقيين المغلقة. لكنّ الخبراء أخذوا بنظريّة أنّ ستيتّون ذهب مع أحدٍ كان ينتظره ثمّ عاد ليبحث عن سيارته.

في لقاء ثان مع الصحافة وضّح رئيس قسمٍ جرائم القتل أنّ مناوبة الحارس كانتً تنتهي في السابعة صباحاً وأنّ الدافع الذي خرج لأجله في تلك الليلة من المدرسة مجهول وعاد بعدها إلى البناء، حيث كان يترصده الموت. هتفت له ابنتُهُ أماندا التي رأت المقابلة في التلفاز كي تُصحِّح له، بأن الموت لم يكن يترصد إدْ ستيتون بل القاتل.

دفعت هذه الجريمة الأولى لاعبي لعبة نازع الأحشاء إلى ما سيتحوّل عندهم إلى هوس خطير. طرحَ المراهقون الخمسة الأسئلة ذاتها التي طرحتها الشرطة: أين ذهب الحارس خلال الوقت القصير الذي جرى ما بين مشاهدة الموسيقيين له والساعة التي قُدّر أنّه قُتل فيها؟ كيف عاد؟ لماذا لم يُدافِع الحارسُ عن نفسه قبل أن يصيبوه في جبينه. ماذا كان يعني المضرب في تلك الفتحة الخاصّة؟

ربّما استحقَّ إذْ ستيتون نهايته، لكنّ العبرةَ لم تكن تهمّ الصبيةَ، الذين كانوا يتمسّكون بحزم بالأفعال. كان لعب الأدوار يقتصر حتى ذلك الوقت على جرائم خياليّة من القرن التاسع عشر، في لندن المكسوة دائماً بالضباب الكثيف، حيث كانت الشخصياتُ تواجهُ أشراراً مسلّحين بالفؤوس أو بمغارز الثلج أو معكرين آخرين لصفو المدينة، لكنّه أدرك صيغةً أكثر واقعية عندما قبل المشاركون اقتراحَ أماندا مارتين للتحقيق فيما كان يجري في سان فرانسيسكو، التي يلفها الضباب أيضاً.كانت المُنجِّمة الشهيرة ثِلستِ روكو تكهنت بحمّام من الدم في المدينة وقررت أماندا مارتين أن تستخدمَ هذه المناسبة الفريدة كي تضع على المحك فنّ العرافة. وحصلت لهذه الغاية على تعاون لاعبي لعبة نازع الأحشاء وأفضل أصدقائها، بلاك جاكسون، الذي كان بالمصادفة جدّها، دون أن ينتابها شكّ بأنّ التسلية ستتحوّل إلى عنف وأنّ أمّها إنديانا جاكسون ستكون إحدى ضحاياها.

كان لاعبو نازع الأحشاء مجموعة مختارة من المهووسين الموزّعين في العالم، يتواصلون عبر الشبكة العنكبوتية كي يمسكوا بجاك نازع الأحشاء، متخطين العقبات وهازمين الأعداء الذين يظهرون في طريقهم.كانت أماندا،كمعلّمة للعبة تضع خطّةَ كلّ مغامرة بحسب مهارات وإمكانيات الشخصيات، التي كان كلُّ لاعبٍ يبدعها كأَنَاهُ الأخرى.

صبيّ في نيوزلندا، أصيب بالشلل إثرَ حادث، محكوم بكرسيّ بعجلات، لكنه يتمتع بعقل حرّ كي يتيه في العوالم الخيالية ويعيش في الماضي كما في المستقبل، تبنّى دورَ اسمِرالدا (زمرّدة)، وهي غجرية ماكرة وفضولية. في نيوجرسي مراهق انعزاليّ وخجول يعيش مع أمّه ولم يخرج في السنتين الأخيرتين من غرفته إلاّ إلى المرحاض، هو السير إدموند بّادينغتون، الكولونيل الإنكليزي المتقاعد، الفحوليّ المتعجرف، المفيد جدّاً في اللعبة، لأنّه خبيرُ أسلحة واستراتيجيات عسكرية. في مونتريال شاب في التاسعة عشرة من عمره، جرت حياته

القصيرة في عياداتِ الاعتلال الغذائي، ابتدع شخصية أباثا، النفسانية التي تستطيع أن تقرأ الأفكار وتحفز الذكريات وتتواصل مع الأشباح. يتيم أمريكي أفريقي في الثالثة عشرة من عمره بدرجة ذكاء قدرها 156، حاصل على منحة من أكاديمية أطفال رنو المتفوّقين، اختار أن يكون شارلوك هولميز لأنه يستخلص ويصل إلى اَستنتاجاته دون جهد.

لم يكن لأماندا شخصية خاصّة بها. كان دورهاِ أن تدير وتؤمّن احترام القواعد، لكنّها سمحتٍ لنفسها في مسألة حمام الدم أن تقومٍ ببعض التغييرات الطفيفة.، مثلاً نقلت الحدث الذي كان يجري تقليديا في لندن 1888ٍ إلى سان فرانسيسكو 2012، كما أنّها اخترقت القاعدة وعيّنت مِأموراً لها يُدعى كابل، وهو ثقيل، قليل الفطنة، لكنّه مُطيع ووفيّ، مُكَلّف بتنفيذ أوامِرها، مٍهما كانت غريبة. لم يفت جدّها أنّ اسم المأمور كابل كان جناساٍ ناقصاً لبلاك. كان بلاك جاكسون في الرابعة والستين من عمره كبيراً جدّاً على لعبةِ الصبية، لكنّه كان يُشارك في لعبة نازع الأحشاء كي يشاطر حفيدتَهُ شيئاً آخر غير أفلام الرعب ومباراة الشطرنج ومسائل المنطق التٍي كان يتحدّى فيها الواحد منهما الآخر، والتي كان يفوز بها أحياناً بعد استشارة مسبقة لصديقين له، مدرسي فلسفة ورياضيات من جامعة كاليفورنيا في بركلي.

كانون الثاني

الاثنين، 2

كان ريان ميلِرْ يغفو منكبّاً على وجههِ فوق طاولة التدليك، تحت التأثير النافع ليدي إنديانا جاكسون، الممارسة من الدرجة الأولى للريكي، بحسب التقنية التي طوّرها الهندوسي الياباني ميكاو أوسوي في عام 1922. كان ميلِرْ يعرفُ، لأنّه قرأ ستين صفحة ونيّفاً بهذا الخصوص، بأنّه لا يوجد دليل علميّ يفيد بأنّ الريكي تنفع في شيء، لكنّه كان يتكهن بأنّ قوة سرية ما يمكن أن يكون فيها، ذلك أنّه في مؤتمر المطارنة الكاثوليكيين في الولايات المتحدة أعلن في عام 2009 عن أنّها خطيرة على الصحّة الروحيّة المسيحية.

كانت إنديانا جاكسون تشغل المكتب رقم 8 من الطابق الثاني من العيادة الشمولية الشهيرة في نورث بيِث، في سرّة الحيّ الإيطالي في سان فرانسيسكو وكان بابها مطليّاً بلون نيليّ، لون الروحانية، وجدرانها بالأخضر العفني، لون الصحّةً، ولوحة بحروف مائلة تُعلن: "إنديانا، مُعالِجَة" وتحتها طرقها : تدليك عفويّ، ريكي، مغناطيس، بلورٍ، معالجة بالعطور. على جدار غرفة الاستقبال الصغيرة كانت تُعلّق قطعة قماش صارخ اللون، حصلت عليها من حانوت آسيوي عليها صورة الإلهة شاكتي، وهي شابة شهوانيّة سوداء الشعر، ترتدي الأحمرَ، مغطاة بالمجوهرات الذهبية، تحمل في يدها اليمنى سيفاً وفي اليسرى زهرة. كانت الإلهة تتضاعف بعدد

من الأذرعِ والأيدي التي تحمل رموزَ قوى أخرى، بدءاً من الآلة الموسيقية وحتى شيء يبدو للنظرة الأولى هاتفاً جوّالاً. كانت إندِيانا من الورع تجاه شاكتي حتى كادت أن تتبنّى اسمها، لكنَّ أباها بلاك جاكسون أقنعها بأنه ما من أمريكية شمالية، ضخمة وشقراء لها مظهر دمية قابلة للنفخ يليق بها اسم إلهة هندية.

على الرغم من أنّه كان شكّاكاً، بسبب طبيعة عملِهِ وتربيته العسكرية إلا أنّه كان يستسلم لعناية إندِيانا بامتنان عميق وكان في نهاية كلّ جلسة يخرج خفيفاً ومسروراً، سواء بسبب التأثير اللذيذ والحماس الغرامي، كما كان يعتقد صديقه بدرو ألاركون، أو بسبب وضعية نقاط الطاقة، كما كانت تؤكّد إندِيانا. كانت تلك الساعة الوديعة أفضل ما في حياته الانعزالية. وكان يجد في الجلسة العلاجية مع إندِيانا دفءً حميماً أكثر من شقلباته المعقدة مع جنيفر يانغ، أكثر عشيقاته استمراراً معه. كان رجلاً طويلاً ومفتولاً، له عنق وكتفا مصارع، ذراعان ثخينان وصلبان كجذعين لكنّه أنيق اليدين كصانع حلوى، شعر كستنائي تتخلله شعرات شائبة، مجزوز بآلة الحلاقة، ، أسنان أكثر بياضاً من أن تكون طبيعية، عينان فاتحتا اللون، أنف مكسور وثلاث عشرة ندبة ظاهرة بما في ذلك ندبة الجدعة، كانت إندِيانا تشكّ بأنّ عنده مزيداً منها، لكنّها لم تره من دون سروالٍ داخليّ بعد.

- كيف تشعر بنفسك؟ –سألته المعالجة.
- رائع! رائحة العقبة فتحت شهيّتي.
- إنّه زيت خلاصة البرتقال. إذا كنتَ ستسخر، لا أدري لماذا تأتي، يا ريان.
- كي أراك، يا امرأة، فلماذا أريد أكثر.
- إذن هذا ليس لك –أجابته منزعجة.
- ألا ترين أنّه مزاح، يا إندي؟

- البرتقال، عطر شباب وفرح، خاصتان تنقصانك، يا ريان.
الريكي من القوة بحيث أن مدرّبي المستوى الثاني يستطيعون أن يقوموا به عن بعد،دون أن يروا المريض، لكن عليّ أن أدرس عشرين سنة في اليابان كي أصل إلى هذا.
- لا تحاولي. فهذا من دونك سيكون تجارة سيّئة.
- العلاج ليس تجارة.
- يجب أن يكون هناك شيء نعيشُ منه. تتقاضين أقلّ من زميلاتك في هذه عيادات الطبِ البديل. هل تعلمين كم تُكلف جلسة وخز بالإبر عند يوميكو، مثلا؟
- لا أعلم، وهذا ليس شأني.
- ضعف ما تُكلّف عندك تقريباً. دعيني أدفع لكِ أكثر—أصرّ ميلِرْ.
- أُفضّلُ ألاّ تدفعَ لي شيئاً، لأنّك صديقي، لكنِ إذا لم تدفع لي بالتأكيد قد لا تعود. أنت لا تستطيع أن تكون مديناً لأحدٍ بشيء، خطيئتك اعتزازك بنفسك.
- هل ستشتاقين إليّ؟
- لا، لأنّنا سنبقى نلتقي في الخارج، كما هو الحال دائماً، لكن أنتَ ستشتاق إليّ. اعترفْ بأن معالجتي لك تُساعِدُك. تذكّر كم كنتَ موجوعاً حين جئت في المرّة الأولى. في الأسبوع القادم هناك جلسة مغناطيس.
- وتدليك أيضاً، آملُ. لكِ يدا ملاك.
- حسن، تدليك أيضاً. ارتدِ ملابسك وخلّصني، يا رجل، فهناك مريض آخر ينتظر.
- ألا يبدو لكِ غريباً أن يكون كلّ مرضاكِ من الرجال تقريباً؟ سأل ميلِرْ وهو ينزل عن الطاولة.
- ليسوا كلهم رجالاً. أيضاً عندي نساء وأطفال وكلب صغير مصاب بالروماتيزم.

كان ميلِرْ يعتقد أنّه إذا كان بقيّة زبائن إنديانا الذكور مثله، فإنّهم بالتأكيد يدفعون كي يبقوا بجانبها أكثر من كونهم يؤمنون بطرقها

بالشفاء بعيد الاحتمال. ذلك كان دافعه الوحيد لزيارة العيادة رقم 8 وهكذا اعترف لإنديانا خلال الجلسة الثالثة، لتفادي سوء الفهم، لأنّ جاذبية البداية أفسحت المجال إلى استلطاف وقور. راحت تضحك، فهي معتادة إلى هذا الحدّ أو ذاك على ذلك وأكدت له أنّه سيُغيّر رأيه خلال أسبوعين أو ثلاثة عندما يرى النتائج. راهن ريان على عشاء في مطعمه المفضّل: "إذا شفيتني أدفع أنا وإلاّ فأنت"، قال لها، آملاً أن يراها في جوّ مناسب أكثر للحديث من جوّ تلكما الغرفتين الصغيرتين البائستين اللتين تُراقبهما شاكتي العليمة بكل شيء.

تعارفا في عام 2009 في أحد ممرات حديقة صموئيل بي. تايلور المتعرّجة، بين أشجار ألفية طولها مئة متر. كانت إنديانا قد اجتازت خليجَ سان فرانسيسكو في سيارة فيري ودراجتها على ظهرها وحين أصبحت في منطقة مارين قطعت على دراجتها عدة كيلومترات حتى وصلت إلى تلك الحديقة، كتمرين من أجل سباق على مراحل حتى لوس أنجلوس كانت تُفكر أن تقوم به خلال أسابيع قليلة. كانت إنديانا تصنّف الرياضةَ على أنّها من حيث المبدأ نشاط غير مُجدٍ فالحفاظ على قوامها لم يكن من أولويّاتها، لكن في تلك المناسبة كان الأمر يتعلّقُ بحملة ضدّ الإيدز، قرّرت ابنتها أماندا المشاركة فيها ولم تكن تستطيع أن تسمح لها بأن تذهب وحدها.

كانت المرأة قد توقّفت لحظة كي تشرب ماء من زجاجة، مشتبكةسندت قدمها إلى الأرض، حين مرّ ريان ميلرْ جارياً بجانبها وأتيلا مربوط إلى زناره. هي لم ترَ الكلبَ حتى صار فوقها وسقطت من الخوف،مشتبكة بالدراجة. ساعدها ميلرْ على النهوض مُقدّماً ألف اعتذار، وحاول أن يُقوّم عجلة ملتوية، بينما هي تنفض الغبارَ مهتمّةً بأتيلا أكثر من اهتمامها بكدماتها، لأنّه لم يسبق لها أن رأت حيواناً بمثل ذلك القبح: ندوب متداخلة وصدر مقشور وفم سقط عدد من أسنانه ويطلّ منه نابا دراكولا معدنيان وأذن ممسوحة كما لو أنّها

قصّت بمقص. حكّتْ له رأسه مشفقةً وحاولت أن تُقبّله على أنفه، لكنّ ميلِرْ أوقفها بفظاظة.

– لا، لا تُقرّبي وجهكِ منه. فأتيلا كلبُ حرب—حذّرها.

– ما سلالته؟

– مالينواز بلجيكي. عندما تكون حالته جيّدة يكون أكثر نعومةً وقوةً من باستور ألماني مع ميّزة أنّ ظهره مستقيم ولا يُعاني من وركيه.

– ما به هذا الحيوان المسكين؟

– لقد نجا من انفجار لغم—أخبرها ميلِّرْ، بينما هو يُبلّل منديله بماء الجدول البارد، حيث رأى في الأسبوع السابق أسماك السلمون تقفز بعكسِ التيار في رحلتها المجهدة كي تبيض.

مرّر ميلرْ المنديلَ لإنديانا كيٍ تُنظفٍ المناطقَ المكشوطة من رجليها. هو كان يرتدي بنطلوناً رياضياً غليظاً، وكنزة وصدرية لها مظهرٌ مُدَرَّع، تزن، بحسب ما وضّح، عشرين كيلوغراماً وتفيد للتدريب، حين يخلعها للمنافسة يشعرُ بأنّه يطير. جلسا ليتحادثا بين جذور شجرةِ غليظة، يُراقبهما الكلب، الذي كان يُتابع باهتمام كلّ حركة من الرجل، كما لو أنّه ينتظر أمراً، ويُقرِّب من حين لآخر أنفه من المرأة كي يشمّها بحذر. كان المساء دافئاً يعبق برائحةِ الصنوبر والدُّبال وتنيره أشعةُ شمس تخترق ذؤابات الأشجار مثل السهام، وتُسمَعُ أصوات العصافير وأزيز البعوض وخرير المياه بين حجارة الجدول والنسمات بين الأشجار. المسرح المثالي للقاء الأوّل في رواية رومانسيةٍ.

كانٍ ميلرْ واحداً من جنود النخبة، التي تُنفذ أكثر المهمات سرّيةً وخطورة، وقد انتسب إلى سيل تيم 6، ذاتها التي ستُهاجم في أيار 2011 مقر إقامةَ أسامة بن لادن في باكستان، ويَقتلُ فيها أحدُ رفاقه زعيمَ القاعدة، لكن بالطبع لم يكن ميلرِ يعلم أنّ ذلك سيحدث بعد سنتين وما من أحدٍ كان باستطاعته أن يتنبّأ به، باستثناء ثِلِثتِ روِكو بدراستها للكواكب. تقاعد في عام 2007، بعد أن فقد رجلا في المعركة، لكنّ هذا لم يمنعه من المنافسة في السباق الثلاثي، كما قال

لإنديانا. انتبهت، هي التي نظرت إليه حتى تلك اللحظة أقلّ مما نظرت إلى الكلبِ، إلى أنّ إحدى رجليه تنتهي بحذاء رياضي والأخرى بلوح معقوف.

- هذه قدم فهدٍ صيادٍ مرنة أساسها آلية اندفاع الفهد، ابن فصيلة القطط الأسرع في العالم –قال لها وهو يريها رجله الاصطناعية.

- كيف تُثبّت؟

رفع بنطلونه وفحصت هي أداة تَلْتفّ حول الجدع.

إنّها من ألياف الفحم، خفيفة وتامّة إلى حدّ أنّ أوسكار بيستوريوس، وهو أفريقي جنوبي، مقطوع الساقين أرادوا منعه من المشاركة في الألعاب الأولبية لأنّه يتفوّق بهما على الرياضيين الآخرين. هذا النموذج يفيد للجري. لدي أرجل اصطناعية أخرى للمشي ولركوب الدراجة –قال الجنديُّ السابق وأضاف بنوعٍ من الغرور إنّها آخر ما أنتجته التكنولوجيا.

- هل تؤلمك؟
- أحياناً وأحياناً أخرى تؤلمني أكثر.
- مثل ماذا مثلا؟
- أشياء من الماضي.
- أشياء من الماضي. لكن يكفي الكلام عنّي، احكِ لي شيئاً عنكِ.
- ليس عندي شيء بأهمية رجْل اصطناعية، والندبة الوحيدة عندي لا يمكن الكشف عنها. في طَفولتّي سقطت على شريط شائك– اعترفت له إنديانا؟

مرَّ الوقت على إنديانا وريان في الحديقة العامّة وهما يدردشان عن هذا الشيء وذاك تحت نظر أتيلا. هي قدّمت نفسها نصف جدّية ونصف مازحة، موضّحة أنّ الرقمَ 8 هو رقمُ حظّها والحوتَ هو برجُها ونبتون كوكبُها الراعي والماءَ عنصرُها وحجرَ القمر الشفاف، الذي يدلّ على طريق الحدس، وكذلك الزبرجد الذي يرشد الرؤى ويفتح العقلَ ويدعم الطيبة، هما حجرا ولادتها. لم تكن تريد أن تُغري ميلرْ لأنّها

عاشقة منذ أربع سنوات للمدعو ألان كِلِّرْ واختارت الوفاء، لكنّها لو أرادت لتدبّرت أمرها وأدخلت في الحديث موضوع شاكتي، إلهة الجمال والجنس والخصوبة. ذِكْرُ هذه الخصائص سيذهب بحذر أيِّ رجل—كانت مغايرة الجنس—في حال لم يكن جسدها الطافح كافيا، لكنّ إنديانا كانت تحذف الخصائص الأخرى لشاكتي، الأم المقدّسة، الطاقة الأساسية والقوّة الأنثوية المقدّسة، لأنّه كان فيها تأثير رادع على الذكور.

لم تكن إنديانا تُقدّم بشكل عام توضيحاتٍ حول ممارستها للطب التقليدي، لأنّها اصطدمت في أكثر من مرَّة بمُستَهْتِر يستمع إليها وهي تتكلّم عن الطاقة الكونية بلطفٍ بينما هو يسبرُ ما بين نهديها. ومع ذلك وبما أنّ جنديَّ النخبة أوحى لها بالثقة فقد قدّمت له رواية مقتضبة عن طرقِها، على الرغم من أنّها حين عبّرت عنها بالكلمات بدت أقل إقناعاً حتى بالنسبة إليها. بدت بالنسبة لِميلرْ أقربَ إلى الفودو منها إلى الطب، لكنّه تظاهر باهتمام كبير، ذلك أنّ تلك الفرصة السعيدة تمنحه ذريعةً جيدة كي يعود ويلتقي بِها. ذكر لها التشنجات التي تُعذّبه ليلاً وكانت تحجّره أحياناً وسط سباق، فوصفت له مزيجاً من التدليك العلاجي ومخفوق الموز مع الكيوي.

كانا مستغرقين في الحديث إلى درجة أنّ الشمسَ مالت للمغيب حين انتبهت هي إلى أنّها سوف تفوتها سفينة النقل إلى سان فرانسيسكو، فوقفت بقفزة واحدة وودّعته بسرعة، لكنّه كان يملك شاحنة صغيرة عند مدخل الحديقة فعرض عليها أن يحملها معه، لأنّهما كانا يعيشان في المدينة ذاتها. كان للسيارة محرِّك هائل وعجلات شاحنة ضخمة وشبك معدنيّ في السِقف وركيزة للدراجات ووسادة من القطيفة الوردية للكِلب، ما كان ميلرْ ولا أتيلا ليختاراها أبداً، أهدتها لهما عشيقة ميلرْ، جنيفِر يانغ في استعراضٍ للمزاج الصينيّ.

بعد ثلاثة أيّام حضرَ ميلرْ إلى العيادات الشاملة فقط كي يرى امرأةَ الدراجة، التي لم يستطيع أن يُبعدها عن ذهنه. لم تكن إنديانا تُشبه

أبـداً الصـورةَ المعتـادةَ في تخيُّلاتـه الإيروسـيّة: كان يُفضِّـل النسـاء الصغيرات والآسيويات، مثل جنيفر يـانغ، الـتي يسـتطيع أن يطبـق عليها سلسلة من الكليشيهات—بشرة عاجيـة، شـعر حريـري وعظـام تُثير الشفقة– ثمّ إنّهـا كانـت موظفـة بنـك تنفيذيـة طموحـة. كانـت إنديانا بالمُقابل نموذجَ الأمريكيّةِ الضـخمة، المعافـاة وحسـنة النوايـا، التي تصيبه بالملل عادة، لكن لسببٍ مـا بـدت لـه لا تُقـاوم. وصـفها لِبـدرو ألاركـون بــ"الطافحة والشـهيّة"، الصـفتان الخاصـتان بطعـام بمحتوى عال من الكولسترول، كما جعلـه يـرى صـديقه.. بعـد قليـلٍ عندما قدّمها لـه رأى ألاركـون أنّ في إنـديانا حسّـية عشـيقات أفـلام عصابات شيكاغو الأقرب إلى الهزليـة في أفـلام السـتينيات، بنهـدَيِ مغنيةِ سوبرانو، شعر أشقر وإفراطٍ في المنحنيات والأهداب، لكنّ ميلـرْ لم يتذكر أيّاً من مغنيات أوبرا الشاشة السابقة على ولادته.

أربكت عيادات الطبّ البديل ميلرْ. فقد توقّع شيئاً بوذيـاً، ووجـد نفسه أمام بناء قبيح من ثلاثة طوابق مطليّ بلون صلصة الغواكامول[1]. لم يكن يعرف أنّه بُني في عـام 1930 وأنّـه شـكّلَ في عصـر ازدهـاره نقطةَ جذبٍ سياحية بسبب عمارته التي تعـود إلى المدرسـة الزخرفيـة وزجاجِهِ المعشّق المستلهم من جوّ غوسـتاف كليمـت، لكنّـه فقـد كـلّ روعته في زلزال 1989، حين صار الزجاجُ المعشّـق لنافـذتين طـوليتين شظايا وبيعت النافذتان الأخريان اللتان نجتا في أفضـلِ مـزاد علـني. ركّبوا للنوافذ بدلاً من الزجـاج لأصـلي زجاجـاً مُحجّـراً لـه لـون زرق الدجاج، يُسـتخدَم عـادة في مصـانع الأزرار وفي الثكنـاتِ؛ ومـن بـين التعديلاتِ السيِّئة على المخطط، التي تعرّضَ لها البناءُ، كان استبدال أرضيةِ الرخام الأبيض والأسود، المصمّمة هندسـيّاً بمـادّة بلاسـتيكية، أسهل للتنظيـف. بيعـت الأعمـدةُ التزيينيـة المصنوعة مـن الغرانيـت الأخضـر المسـتوردة مـن الهنـد وبـابُ اللـك الأسـود المـزدوج لمطعـمٍ

---

[1] صلصة مكسيكية مصنوعة من الأفوكاتودينية مناهضة الفلفل الحار والليمون والكزبرة

تايلاندي. لم يبقَ من ذلك العصر سوى درابزين حديدِ الدرج المطروق وثريتين، لو كانتا كريستالاً من صنع لاليك حقيقةً لنالتا نصيبَ البابِ والأعمدة ذاته. صالة الدخول الفسيحة والحسنة الإضاءة في الأصل اقتطعوا من عمقها عدداً من الأمتار وأغلقوا غرفة البواب كي يُضيفوا مكاتب وحوّلوها إلى جُحر مظلم. ومع ذلك حين وصل ميلْر كانت الشمس تسقط على الزجاجِ الضارب إلى الصفرة مباشرة فتحوّل المكان خلال نصف ساعة سحرية إلى عنبري اللون وعلى الجدران راح يسيل سكر محروق وعاش البهوُ للحظة عابرة عظمتَهُ القديمة.

صعد الرجلُ إلى المكتب رقم **8** مستعداً للخضوع لأيّ علاجٍ مهما كان غريباً. كاد يتوقّعُ أن يرى إنديانا ببهرجة كاهنة، لكنّها استقبلته بدثار طبيبٍ وقبقابٍ أبيض وشعر مربوط بمطاطة إلى النقرة. لا شيء من الشعوذة. جعلته يملأ استمارةً طويلة، أخرجته إلى الممرّ كي تراه يمشي من أمام ومن خلفٍ، أخذته بعدها إلى غرفة المعالجة وأمرته بأن يتجرّد من ملابسهِ، باستثناء البنطلون القصيرِ وأن يتمدّد فوق الطاولة. ثمّ وبعد أن فحصته حدّدت أن عندهِ وركاً أعلى من آخرَ وعمودَه الفقري ملتوٍ وهو أمر لم يكن مستغرباً عند رجل بساق واحدة. أيضاً قالت له إنّ طاقته محجوزة عند الحجاب الحاجزِ وإنّ هناك عُقَداً في الكتفين والعنق وتوتّراً في كلّ العضلات وتصلباً في الرقبة وحالة عامّة من الاستنفار غير المُبرّر. بكلمات قليلة كان ما يزال جنديَّ نخبة.

أكّدت له إنديانا أنّ باستطاعتِها أن تُساعده ببعض طرقها، لكن عليهِ كي يصل إلى نتيجة أن يتعلّم الاسترخاء، نصحته بالوخز بالإبر عند يوميكو ساتو، جارتها، بعد بابين في الممر على اليسار، ثمّ ودون أن تطلب إذنه أخذت الهاتف وأخذت له موعِداً مع معلّم الشي كونغ في تشايناتاون، فأطاع إرضاءً لها ووقعت له مفاجأتان لطيفتان.

كانت يوميكو ساتو امرأة متقدّمة في العمر وغير محدَّدة الجنس، لها قصّةُ شعرهِ العسكرية ذاتها، تضع نظارة سميكةَ العدستين،

ولها أصابع راقصة رقيقة ومهابة جنازة قامت بتشخيصاتها ووصلت إلى استنتاجات إنديانا ذاتها. نبّهته بعدها إلى أنّ الوخز بالإبر يُستخدم للآلام الجسدية، لكنّه لا يُخفّف من عذاب الضمير. ظنّ ميلرْ أنّها فهمته خطأً فخاف. تركته هذه الجملة مشغولاً وبعد أشهر عديدة عندما صارت بينهما ثقة تجرّأ ميلرْ على سؤالها عما أرادت أن تقوله له فأجابته يوميكو ساتو بقسوةٍ بأن البلهاءَ وحدهم لا يُعَذّبهم ضميرهم.

جاءُ الكيونغ مع المعلّم كسال، وهو عجوز من سيئول له تعبيرُ وجهِ قدّيس وكرشُ انتهازيّ حقيقيّ، كشفا بالنسبة لميلرْ، المركّب المثالي للتوازن، التنفس، الحركة والتأمّل، تماماً ما كان يحتاجه جسدُهُ وروحُهُ فضمّه إلى روتين تمارينه اليومية.

لم يُشْفَ ميلرْ من التشنجات في ثلاثة أسابيع، كما وعدته إنديانا، لكنّه كذب عليها كي يخرجَ للعشاء معها ويدفعَ الحساب، لأنّه بدا له واضحاً أنّ وضعَها الاقتصاديّ كان يُلامِسُ حدَّ الفقر. كان المطعم أنيساً وصاخباً وقد ساهمت أطباق مطبخه بمذاقاتها الفيتناميّة وتأثرها الفرنسيّ وزجاجة نبيذ بينو نوار فلورس الكاليفورنية في أن يبدأا صداقة صارت بالنسبة إليه كنزه الأندر. كان قد عاش دائماً بين الرجال، عائلته الحقيقيّة كانت جنود النخبة الخمسة عشر الذين تدرّبوا معه في العشرين من عمره ورافقوه في الجهد الجسديّ والرعب وحماس المعركة وكذلك من ملل ساعات الخمول. عدد من هؤلاء الرفاق لم يرهم منذ سنوات وبعضَهم منذ أشهر، لكنّه بقي على تواصل معهم جميعاً: سيبقون دائماً إخوته.

قبل أن يفقد رجله كانت علاقة الجنديّ السابق بالنساء بسيطة، شبقيّة، متباعدة وقصيرة إلى حدّ أنّ الوجوه والأجساد كانت تنصهر في جسدٍ واحد، يُشبه كثيراً جِنيفر يانغ. كنّ نساء عابرات، وإذا كان قد عشق إحداهنّ فالعلاقة لم تدم إلا لوقت قصير جداً، لأنّ أسلوبه

في الحياة، التنقل الدائم من جانب إلى آخر ومصارعة الموت، لم يكن يسمح له بالتزامات عاطفية، خاصّة بالزواج وإنجاب الأولاد. عمله كان الحرب على الأعداء، بعضهم حقيقيّون وبعضهم مبتدعون، وخلال ذلك فاته الشباب.

كان ميلِّرْ يشعر بنفسه في الحياة المدنية بأنّه مرتبك وخارج سياقه ويجد صعوبة في القيام بحديث مبتذل وكانت حالات صمته الطويلة بالنتيجة مهينة لمن لا يعرفه كثيراً. في سان فرانسيسكو جنّة المثليين، كانت تفيض النساء الجميلات، المستقلات والناجحات، وكنَّ مختلفات عن اللواتي يجدهن في البارات أو يحمن حول الثكنات. كان باستطاعة ميلِّرْ أن يمرّ كوسيم، بحسب الضوءِ وعرجه، بالإضافة إلى أنّ عرجه يمنحه مظهر المعاني الذي ضحّى في سبيل الوطن، كان ذريعة جيدة للبدء بحديث. لم تنقصه فرص للرومانسية، لكنّه عندما كان يلتقي بنساء ذكيات، وهنّ اللواتي كان يهتمّ بهنّ كان ينشغِلُ أكثر من اللازم بالانطباع الذي يتركه عندهنّ فينتهي بإضجارهنّ. ما من شابّة في كاليفورنيا كانت ترغب بأن تقضي برهة تستمع فيها إلى قصص الجنود، مهما كانت ملحمية، بدل أن تذهب للرقص، باستثناء جِنيفر يانغ، وريثة الصبر الأسطوريّ لأسلافها في إمبراطوريّة السماء، والقادرة على التظاهر بالاستماع إليه بينما هي تُفكر بشيءٍ آخر. ومع ذلك شعر منذ البدايةِ بالراحة مع إنديانا في حديقة أشجار السكويا وفي عشائه معها في المطعم الفيتنامي بعدها بأسابيع، لم يُضطرّ لأن يُجهد دماغه بحثاً عن مواضيع للحديث، لأنه كفاها نصف كأس من النبيذ كي تصير ثرثارة. مرّ الوقت بلمح البصر وحين نظرا إلى الساعة كانت قد تجاوزت منتصف الليل، ولم يبقَ في المطعم غير نادلين مكسيكيين يجمعان ما على الطاولات بانزعاجٍ من أنهى نوبتَهُ ويرغب بالذهاب إلى البيت. في تلك الليلة، قبل ثلاث سنوات، صار ميلِّرْ وإنديانا صديقين حميمين.

اضطرَّ الجنديُّ، على الرغم من عدم ثقته في البداية لأن يعترف بعد ثلاثة أو أربعة أشهر بأنّها لم تكنِ صفيقة من صفيقات العصر الجديد[2]، بل كانت تملك بالفعل مَلَكَةَ الإشفاء. كانت المعالجات تشعره بالاسترخاء. صار ينام أفضلَ بكثير واختفت تشنجاتُهُ تقريباً، لكنّ أهمَّ ما في تلك الجلساتِ هو السلام الذي كانت تُحْدِثُهُ عنده: كانت يداها تنقلان إليه دفئاً عاطفياً وكان حضورها الجميل يُسكتُ أصواتَ الماضي عنده.

اعتادت إنديانا من ناحيتها على هذا الصديق القويّ والرزين، الذي كان يحافظ على صحتها بجعلها تخبّ في دروب التلال والغابات التي لا تُحصى في محيط سان فرانسيسكو ويخرجها من ضائقات ماليةٍ عندما لم تكن تجرؤ على اللجوء إلى أبيها. كانا يتفاهمان جيداً، ومع أنّهما لم يعبّرا قط عن هذا بالكلمات إلا أنَ شكاً كان يُحسّ في الجوّ بأن تلك العلاقة يمكن أن تتحوّل إلى ولهٍ لولا أنّها مرتبطة بألان كِلرْ، عشيقها المُراوِغ، وأنّه فرضَ على نفسه التكفير عن خطاياه بتفادي الحبّ كوسيلة قصوى.

في الصيف الذي تعرّفت فيه أمّها على ريان ميلرْ، كانت أماندا مارتين في الرابعة عشرة من عمرها، لكنّها كانت تبدو في العاشرة. كانت طفلة نحيلة، سمجة بنظارة ومُقوِّمات أسنان، تُغطي وجهها بشعرها أو بقلنسوة البرنس لتحمي نفسها من ضجيج العالم الذي لا يرحم ومن ضوئه الذي لا يُحتَمل، مختلفة عن أمّها الضخمة إلى حدّ أنّهم كثيراً ما كانوا يسألونها عمّا إذا كانت مُتبنّاة. عاملها ميلرْ منذ البداية بجديّة وعن بعد، كما لو أنها بالغة من بلدٍ آخر، لنقل من سنغافورا. لم يصرَّ كثيراً على أن يُسهّل عليها الأشياء خلال السباق

---

[2] العصر الجديد موجة ثقافية فلسفية دينية مناهضة للوضع الحالي للبشرية وتريد أن تدفع بالبشرية نحو وعي وضمير جديدين، نحو شكل جديد للكائن الروحي. ويسمى أيضاً بعصر الدلو، ظهرت في نهاية القرن العشرين وبداية هذا القرن.

على الدرّاجة إلى لوس أنجلوس، لكنّه ساعدها في التدرِّيب والإعداد للسفر، ولأنّه كان له تجربة في السباق الثلاثي كسبَ ثقة الفتاة.

خرج الثلاثة، هو وإنديانا وأماندا من سان فرانسيسكو في السابعة من صباح يوم جمعة إلى جانب ألفي مشارك متحمّس يحملون شرائط حملَةِ مكافحةِ الإيدز الحمراء على صدورهم يُرافقهم موكِبٌ من سياراتِ وشاحنات متطوّعين تحمل خيماً وكلَّ أنواع المؤن. وصلوا إلى لوس أنجلوس يوم الجمعة التالي وقد تكشّفت مؤخراتهم عن اللحم الحيّ وتشنّجت أرجلهم وفرغت أدمغتهم من التفكير كأنّهم مولودون جدد. الأيام السبعة من قيادة الدراجات في التلال والطرق، التي تخلّلتها مسافات طويلة من المناظر الشاعرية وأخرى من الازدحام الجهنّمي، كانت سهلة على ريان ميلَرْ، الذي كانت تمر عليه الساعات الخمس عشرة على الدرّاجة كلمح البصر، بينما كانت قرناً من الجهد المضني بالنسبة للأمّ والابنة اللتين لم تصلا إلى النهاية إلاّ لأنّه كان يحثّهما مثل رقيب عندما كانتا تضعفان وكان يشحنهما بالمنشطات وببسكويت الطاقة.

كان المشاركون الألفان يسقطون ليلاً في معسكرات أقامها المتطوّعون على الطريق كأسراب طيور مهاجرة، في آخر أنفاسها من الإنهاك، يلتهمون خمسة آلاف حُريرة، يتفقّدون درّاجاتهم، يستحمون في قاطِرات، ويفركون ربلات أرجلهم وأفخاذهم ببلسم مُسكّن وكان ريان ميلَرْ يضع لإنديانا وأماندا كمادات ساخنة قبل النوم ويشجعهما بدردشة ملهمة حول ميزات التمرين في الهواء الطلق. ما علاقة هذا بالإيدز؟ سألته إنديانا في اليوم الثالث بعد أن ساقت عشر ساعات باكية من الإنهاك ومن كلَ آلام حياتها. "لا أعرف، اسألي ابنتك"، كان جواب ميلِرْ النزيه.

قليلة كانت مساهمة السباق في مكافحةِ الوباء، لكنّها عزّزت صداقة ميلِرْ الحديثة مع إنديانا وحقّقت ما لم يخطر ببال

لأماندا: منحتها صديقاً. بالمجمل كان لهذه الصغيرة ذات النزعة النسكيّة ثلاثة أصدقاء: جدّها بلاك، خطيبها المستقبلي برادلي وجندي النخبة ريان ميلِّرْ. لم يدخل المشاركون في لعبة *نازع الأحشاء* في هذه المرتبة، لأنّهم كانوا يعرفون بعضهم فقط في اللعب وبقيت العلاقة بينهم على تخوم الجريمة.

الثلاثاء، 3

تنبّأت ثِلِستِ روكو، مُنجِّمةُ كاليفورنيا الشهيرة وإشبينة أماندا، في التلفزيون بحمَّام الدم في أيلول 2011. كان برنامج أبراجها واستشاراتها الفلكيّة اليوميّ يُنقل باكراً، قبل النشرة الجوّيّة ويُعاد قبل نشرة الأخبار المسائية. كانت روكو امرأة في الخمسين ونيّف من عمرِها، وسيمة بفضل لمسات الجراحة التجميليّة، جذّابة على الشاشة وفظّة في شخصها، يعتبرها المعجبون بها أنيقة وجميلة. تُشبه إيفا بيرون، تزيدها بعدد من الكليوغرامات. كان في الاستوديو صورة مكبّرة لجسر غولدن غيت في نافذةٍ مزيفة وخريطة كبيرة للنظام الشمسي وعليها كواكب تُضاء وتُحَرَّكُ بجهاز تحكم عن بعد.

روحانيون ومنجّمون وممارسون آخرون للفنون الخفية يميلون إلى التنبؤ بالمستقبل عشيّة العام الجديد، لكنّ روكو لم تكن تستطيع أن تنتظر ثلاثة أشهر كي تنبّه سكان سان فرانسيسكو بما سيحلّ بهم. وبلغ الإعلان عياراً استحوذ على اهتمام الجمهور، فانتشر مثل فيروس في الإنترنت وأثار تعليقات ساخرة في الصحف المحليّة وعناوين تحذيرية في الجرائد تنبّأت بأعمال شغبٍ في سجن سان كينتين، بحرب بين عصابات لاتينية وزنجية وبزلزال جهنّميّ آخرَ في فالق سان أندرس. ومع ذلك فإنّ ثِلِسْتِ روكو التي كانت توحي من خلال مَسيرتها كَمحللة نفسية يونغية وتاريخِها الطويل من التنبؤات

الصائبة بمعصوميتها عن الخطأ، أكّدت أنّ الأمر يتعلّق بجرائم قتل. وهذا ما أحدث ارتياحاً عامّاً بين المؤمنين بالتنجيم، لأنّه كان الأقل قسوةٍ بين الكوارث التي كان يُخشى منها. هناك احتمال واحد للموت قتلاً بين عشرين ألف في شمال كاليفورنيا وهذا شيء يحدث لأشخاص آخرين، ونادرا ما يحدث للشخص نفسه.

في يوم التنبّؤ ذاته قرّرت أماندا مارتين وجدُّها أن يتحدّيا ثِلِسْتِ روكو، فقد سئما من التأثرات التي تمارسها الإشبينة على العائلة بذريعة معرفتها بالمستقبل. كانت امرأة قويّة وتملك ذلك اليقين الذي لا يتزعزع، الذي يُميّز من يتلقون رسائل من الكون أو من الله. لم تستطع قط أن تُوجّه قدر بلاك جاكسون، الذي كان منيعاً على التنجيم، لكنّها كانت تنجح كفاية مع إنديانا، التي كانت تستشيرها قبل أن تتخذ قراراتها وتهتدي بإملاءات الأبراج.. في مناسبات عديدة تدخلت قراءات النجوم في أفضل خطط أماندا: كانت الكواكب تُقرِّر مثلاً، أنّ اللحظة لم تكن مناسبة كي يشتروا لها زلاجة، لكنّها كانت بالمقابل مناسبة كي تأخذ دروساً بالباليه وكانت تنتهي بالبكاء من الإهانة من تنورة البالية الوردية.

عندما أتمّت أماندا الثالثةَ عشرة من عمرها اكتشفت أنّ إشبينتها لم تكن معصومة. كانت الكواكب قد أمرت أنّ عليها أن تذهب إلى مدرسة ثانوية عامّة، لكنّ جدّتها لأبيها دونيا إنكارناثيون مارتين المريعة أصرّت على أن تُسجّل في مدرسة كاثوليكية خاصّة. لمرّة واحدة كانت أماندا إلى جانب إشبينتها، لأنّ فكرة المدرسة المختلطة كانت أقل ترويعاً من الراهبات، لكنّ دونيا إنكارناثيون هزمت ثِلِسْتِ روكو بتقديمها شيك التسجيل، دون أن يخطر ببالها أنّ الراهبات كنّ ليبراليات ومناصراتٍ للمرأة، ويرتدين البنطلونات ويدخلن في شجارات مع البابا ويُدَرِّسنَ في درسِ العلوم الاستخدامَ المناسب للواقي بمساعدة موزة.

كانت أماندا، وبتحريض من جدّها الشكّاك، الذي نادراً ما كان يواجه ثِلِسْتِ وجهاً لوجه، تشكّ بأن يكون هناك علاقة بين نجوم السماء وأحوال الكائنات البشرية؛ فالتنجيم كان بعيدَ الاحتمال مثله مثل سحر أمّها الأبيض. قدّم التنبّؤ للجدّ والحفيدة فرصةَ التنزيل من مكانةِ النجومِ لأنّ التنبّؤ بأن الأسبوع التالي مناسب للمراسلات شيء والقول بحمّام دم في سان فرانسيسكو شيء آخر، فهذا لا يحدثُ كلَّ الأيام.

عندما حوّلت أماندا والجدُّ ورفاقُ لعبةِ *نازع الأحشاء*، اللعبةَ إلى طريقة للتحقيق في الجرائم، لم يتصوّروا ما حشروا أنفسهم فيه. بعد عشرين يوماً من إعلان المُنَجّمة وقعت جريمةُ قتل إدْ ستيتون، التي كان من الممكن أن تُعزى للمصادفة، لكن وبما أنّهَا كانت تنطوي على مواصفاتٍ غير معهودة –المضرب في ذلك المكان– فقد قرّرت أماندا أن تبدأ بجمع أرشيفٍ من الأخبار المنشورة في وسائل الاتصال، ومما استطاعت أن تستخلصه من أبيها، الذي كان يقود التحقيق بسرّية تامة، ومن تلك التي حصل عليها جدّها بوسائله الخاصّ.

بلاك جاكسون، الصيدلاني، المُحِبّ للأدبِ والكاتبُ الذي بقي خائباً إلى أن استطاع أن يُعطي شكل رواية للأحداث العاصفة التي أعلنت عنها ثِلِستِ روكو، وصف حفيدته أماندا في كتابه، بطريقة منمّقة بالكلام ميّزته بين زملائه الصيدلانيين على أنّها غريبة في مظهرها، خجولة في طبيعتها، ورائعة في دماغها. انتهت قصّة هذه الأحداث الحاسمة بأن أصبحت أوسع مما كان هو نفسه قد تصوّر، على الرغم من أنّه لم يشملْ إلاّ بضعة أشهر وبعض الارتدادات كما يُسمونها. كان النقد قاسياً مع المؤلف واتهمه بالواقعية السحرية، الأسلوب الأدبي الذي مضت تقليعته، لكنّ أحداً لم ينجح في أن يُبرهن على أنّه حرفَ الأحداث لصالح ما هو باطني، فأي شخص يستطيع أن يتأكد منها في مديرية شرطة سان فرانسيسكو وفي صحافة اللحظة.

في كانون الثاني 2012 كان عمر أماندا مارتين سبعة عشر عاماً وكانت في السنة الأخير من الثانوية، ولها أبوان منفصلان: إنديانا

جاكسون، مُعالجة فيزيائية، وبوب مارتين، مفتّش شرطة، وجدة مكسيكية، دونيا إنكارناثيون، وجدّ أرمل، بلاك جاكسون المذكور. في كتاب جاكسون، هناك أيضاً أشخاص آخرون يظهرون ويختفون، يختفون على وجه الخصوص، كلّما تقدّم المؤلفُ في كتابته. كانت أماندا ابنة وحيدة ومُدلّلة جدّاً، لكنّ الجدّ كان يعتقد أنّها ما إن تُنهي الثانوية وتنطلق من دون مقدّمات إلى العالم حتى تُحَلّ هذه المشكلة تلقائياً. كانت نباتية لأنّها لا تطبخ وحين تُضطرّ لأن تفعل ذلك، تُحَضِّر وجبةً أقل تعقيداً. كانت قارئة نهمة منذ نعومة أظفارها. على الرغم من المخاطر التي تنطوي عليها هذه العادة. كانت جرائم القتل ستحدث في كلّ الأحوال، لكنّ أماندا ما كانت لتجد نفسها متورطة في التحقيق بها لولا أنّها قرأت رواياتٍ بوليسيةً لمؤلفين اسكندينافيين بمثابرةٍ كبيرة طوّرت عندها فضولاً كريهاً نحو الشرّ بعامةٍ والقتل المتعمّد عن سابق إصرار وتصميم بخاصّة. كان جدّها بعيداً عن أن يقبلَ أن يُراقبها، لكن كان يُقلِقهُ أن تقرأ تلك الكتب في الرابعة عشرةٍ من عمرها. أسكتته أماندا بحجّة أنّه هو نفسه كان يقرؤها أيضاً، ويبدو أن بلاك اقتصر على تحذيرها من المضمون المريع. وكانت النتيجة المتوقعة بأن اهتمامها بالتهامها تضاعف. وقد ساعد كونْ والد أماندا، بوب مارتين، رئيسَ قسم جرائم القتل في سان فرانسيسكو في الهواية المؤذية للصغيرة، لأنّها كانت تَعْلَم بكلّ الأعمال السيّئة التي تحدثُ في المدينة، مكان مثالي لا يدعو للجريمة، لكن إذا كانت هذه تنتشر في بلدان في غاية التحضّر مثل السويد والنرويج فلا يُمكن أن يُنتظَر أن تُستثنى منها سان فرانسيسكو التي أسّسها مُغامِرون جشعون وواعظون_متعددو الزوجات، ونساءٌ مشكوك بفضائلهن. شدّتهم حمى الذهب في أواسط القرن الثامن عشر.

كانت الطفلة في مدرسة داخلية للبنات، واحدة من آخر المدارس في بلدٍ اختار مزج الأجناس، حيث تدبّرت أمرها كي تعيش أربع سنوات في حالة لامرئية بين رفيقاتها. لكن ليس بين المعلمات

والراهبات القليلات المتبقيات. كانت تحصل على علامات جيدة، لكنّ الأخوات، النساء القديسات، لم يشاهدنها تدرس قط، ويعرفنٍ أنّها كانت تقضي جزءاً كبيراً من الليل أرقةً أمام حاسوبها، مشغولة بألعابٍ وقراءاتٍ غامضة.كن يحذرن أن يسألنها عمّا تقرأ بمثل تلك المتعة، لأنّهنّ كنّ يَرْتَبْن بأنّه الشيء ذاته الذي_كنّ يتلذّذن به خفيةً؛ وهذا ما يفسّرُ ولعَ الصغيرة المَرَضِيّ بالأسلحة والمخدرات والسموم والتشريح وأشكال التعذيب وامتلاك الجثث.

أغمضت أماندا مارتين عينيها، استنشقت ملءَ رئتيها الهواء النقيّ لذلك الصباح الشتويّ، وعرفت من شذا الصنوبر اللاذع أنّ السيارة تتقدّم في شارع الحديقة العريض وعرفت من رائحة الروث أنها تمرّ أمام الإسطبلات. قدّرت أن الساعة هي الثامنة وثلاث وعشرون دقيقة. كانت قد تخلت قبل سنتين عن الساعة كي تُطوّر عادةَ أن تُقدّر الوقتَ، كما تُقدّر درجاتِ الحرارة والمسافات، ودرّبت لسانها كي تحدّد المكونات المريبة في الطعام. كانت تصنّف الناسَ من خلال حاسّة الشمّ: بلاك، جدُّها، له رائحة الطيبة، مزيج مِن رائحة الصدريّة الصوفية والزهورات؛ بوب، أبوها، له رائحة الجلد: معدن وتبغ وغسول الحِلاقة؛ بردلي له رائحة الشهوانية، أي رائحة عرق وكلور؛ ريان ميلرْ له رائحة ثقة ووفاء، رائحة كلب، أفضل رائحة في العالم. أمّا بالنسبة إلى إنديانا، أمّها، فلها رائحة سحر، لأنّها كانت مشبعة بروائح مهنتها.

ما إن تركت سيّارةُ الجدِّ، الفورد موديل الـ95 بشخير محرّكها التشنّجي، الإسطبلاتِ خلفها حتى حَسَبَت أماندا ثلاث دقائق وثماني عشرة ثانية وفتحت عينيها أمام باب المدرسة. "وصلنا" أكّدَ جاكسون، كما لو أنّها لم تكن تعرف. رِفع الجدُّ، الذي كان يُحافظ على لياقتِهِ باللعب بكرة الجِدار، حقيبة الظهر المليئة بالكتب وصعِد بها إلٍى الطابق الثاني بخفة، بينما راحت حفيدته تصعد بمشقة حاملة الكمان في يد والحاسوب المحمول في أخرى. كان الطابق

فارغاً، بقيّة الطالبات الداخليات سيلتحقن عند حلول الليل كي يبدأن في اليوم التالي دروسهن، بعد عطلة عيد الميلاد ورأس السنة. إحدى نزوات أماندا الأخرى هي أن تكونَ أوّل من يصل إلى كلّ مكان، كي تستكشفه قبل أن يصلَ الأعداءُ بالكمون. كان يزعجُها أن تُشاركها غرفتها تلميذات أخريات: الثياب المرمية، الثرثرة، رائحة الشامبو، طلاء الأظافر والسكاكر الزنخة، الهمْهمة المتواصلة، مآسي الحسد العاطفية، والنميمة والخيانات التي كانت مستثناة منها.

– يعتقدُ أبي أنّ جريمةَ قتل إدْ ستيتون انتقامٌ بين مثليين– قالت أماندا لجدّها قبل أن تودّعه.

– إلامَ تستند نظريّته؟

– إلى مضرب البيسبول المُدْخَل في... أنت تعرف أين –ذكّرتُه وهي محمرّةً لأنّها تذكرت الفيديو الذي رأته في الإنترنت.

– دعينا لا نستبق الاستنتاجات، يا أماندا. ما زال هناك الكثيرُ من الأشياء المجهولة والعالقة.

– تماماً. مثلا، كيف دخل القاتل؟

– كان على إدْ ستيتون أن يُغلِقَ الأبوابَ والنوافذ ويُفَعّل الإنذار عندما تنتهي النشاطات في المدرسة. بما أنّه ما من قفل قد عولج بالقوة، فهذا يفترض أنّ الفاعلَ اختبأ في المدرسة قبل أن يغلقها ستيتون– غامرَ بلاك جاكسون بالقول.

– لو أنّها جريمة قتل عن سابق تصميم لكان القاتل قتل ستيتون قبل أن يذهب، لأنّه لم يكنّ يستطيع أن يعرف أنّه كان سيعود.

– ربّما لم يكن عن سابق تصميم، يا أماندا. أحد دخل إلى المدرسة بهدف السرقة وفاجأه الحارسُ في الحال.

– بحسب أبي، وخلال السنوات التي مضت على وجوده في القسم رأى مجرمين يخافون ويقومون بردّات فعل عنيفة، لكنّه لم يحدث أن صادف أحداً يبقى في موقع الجريمة ويمنح نفسَهُ الوقتَ كي يُمثّل بالضحية بتلك الطريقة.

- وماذا يقول بوب إضافة إلى ذلك؟
- أنت تعرف كيف هو أبي، عليّ أن أسحب منه المعلومة سحباً. يرى أنّه ليس موضوعاً لصغيرة من عمري. إنّه من سكّان الكهوف.
- لا بد أنّ عنده بعض الحقّ: فهذا فيه شيء من القذارة، يا أماندا.
- إنّه في متناول الجميع، خرج في التلفزيون وإذا سمحت لك معدتُك تستطيع أن ترى في الشبكة العنكبوتية ما صوّرته طفلة بجوّالها عندما اكتشفوا الجثّة.
- يا للهول، يا للجرأة، صِبْيَة اليوم يُشاهِدون من العنف ما يجعلهم لا يخافون شيئاً. في زماننا... —علق بلاك جاكسون متنهّداً.
- هذا زمانك. تُسئمني عندما تتكلّم كعجوز. هل تحققت من موضوع إصلاحية الفتية، يا كابل؟
- عليّ أن أعمل، لا أستطيع أن أُهمِل الصيدلية، لكنّني سأفعل ما إن استطعت ذلك.
- أسرعْ، وإلا لكان عليّ أن أبدّل مأموري.
[illegible] من سيحتملك.
- هل تحبّني، يا جدّي؟
- لا.
- وأنا أيضاً —قالت وألقت بذراعيها حول عنقه.
غاص بلاك جاكسون بأنفه في خصلة شعر حفيدته الخشن، مستنشقاً رائحة السَّلَطَةِ فيه — خطر لها أن تغسله بالخلّ—، وفكر أنّها ستذهب خلال أشهر إلى الجامعة ولن يكون قريباً منها ليحميها، فهي لم تذهب بعد وصار يشتاق إليها. تتذكر في متتاليةٍ مُدوِّخة مراحلَ تلك الحياة القصيرة، الطفلة الشكِسة والشكاكة، مغلقة على نفسها لساعات تحت خيمةٍ مرتجلة من الملاحف، حيث لا يدخل غير الصديقة اللامرئية، التي رافقتها بضع سنوات، وكانت تُدعى سالبِ-إل-أتون[3]، قطتها

[3] Salve-el-Atún وتعني أنقذِ التونا. ونظرا لثقلها في العربية أبقيت على الاسم بصيغته الإسبانية.

جينا وهو، إذا ما حالفه الحظُّ ودُعِيَ إلى تناول شاي وهمي في فنجانين بلاستيكيين صغيرين، "من تُشبه هذه التافهة؟" سأل بلاك جاكسون نفسه عندما هزمته في الشطرنج وهي في السادسة من عمرها. لا يمكن أن تشبه إنديانا، التي كانت تسبح في الجوّ، تُبشّر بالسلام والحبّ بعد نصف قرن من الهيبيين فكيف ستشبه مارتين، الذي لم يكن قد قرأ حتى ذلك الوقت كتاباً واحداً كاملاً. "لا تقلق، يا رجل، كثير من الأطفال العباقرة في طفولتهم ينطوون بعدها على أنفسهم. حفيدتك سوف تنحدر إلى مستوى البلهِ العام حين تنفجر هرموناتها" نصحته ثِلِسْتِ روكو، التي كانت تحضر إلى بيته في أيّ لحظة دون أن تُخبر، وكان بلاك يخافها كما يخاف الشيطان.

لمرّة واحدة أخطأت المنجّمة، لأنّ أماندا لم تنطوِ على نفسها في مراهقتها والتبدّل الوحيد الذي تسبّبت به الهرمونات كان في مظهرها. في الخامسة عشرة شبّت وأدركت طولاً طبيعياً، وضعوا لها عدسات لاصقة، نزعوا أسلاك التقويم من بين أسنانها، تعلّمت ترويضَ شعرها الخشن وظهرت صبية نحيلة، ناعمة القسمات، داكنة الشعر كشعر أبيها، صافية البشرة كأمّها، دون أدنى وعي بجمالها. في السابعة عشرة كانت ما تزال تجرجرُ قدمَيْها وتقضم أظافرها وترتدي ما تقع عليه في دكان الملابس المستعملة، الذي كانت تعدّله بحسب إلهام اللحظة.

شعرت أماندا بعد أن تركها جدّها بأنّها مالكةٌ للمكان لبضع ساعات. كان ما يزال أمامها ثلاثة أشهر كي تتخرّج من تلك المدرسة التي كانت فيها سعيدة، باستثناء تبديل غرفة النوم والذهاب إلى معهد ماساتشوستس التكنولوجي، حيث كان يدرس برادلي، خطيبها الافتراضيّ، الذي كان قد كلمها عن ميديا لاب، جنّة التصوّر والإبداع، تماماً ما كانت ترغب به. كان رجلاً تامّاً حشرة غريبة مثلها، طريفاً وليس قبيحاً إطلاقاً، مديناً بكتفيه العريضين وشعره الأخضر الليموني ولونه البرونزي السليم للسباحة ولمنتجات المسابح الكيميائية. كان من الممكن أن يمرّ على أنّه أسترالي. كانت أماندا قد

قرّرت الزواجَ منه في مستقبلٍ بعيد، لكنّها لم تعلن له عن ذلك حتى الآن. كانا يتواصلان مؤقّتاً عبر الشبكة العنكبوتية كي يلعبا بالغو ويتحدثّا بموضوعات مُغلقة والتعليق على كتب.

كان بردلي متعصّباً جدّاً للخيال العلمي، الذي كان يُسبب الكآبة لأماندا، لأنّ الكوكب كانت تغطيه طبقة من الرماد والآلات تتحكّم بالبشرية. هي، التي قرأت الكثير من تلك الروايات ما بين الثامنة والحادية عشرة من عمرها، كانت تختار الخيالية، التي تحدث في أزمنة متخيلة، حين كانت التكنولوجيا في حدودها الدنيا والاختلاف بين الأبطال والأوغاد واضحا تماما، الجنس الأدبيّ الذي كان يعتبره بردلي طفولياً ويُسبّب الإدمان. هو كان يميل إلى التشاؤم المقنِع. لم تكن أماندا لتجرؤ على أن تعترف له بأنّها التهمت مجلدات بزوغ الشمس[4] الأربعة ومجلداتِ الألفية[5] الثلاثة، لأنّه لم يكن يضيع وقته مع مصاصي الدماء ومختلّي العقول.

كان الشابّان يتبادلان رسائلَ إلكترونية رومانسية، مطعّمة بالسخرية لتفادي السوقيّة، وقبلاتٍ افتراضية ليست فيها أيّ جرأة زائدة. في كانون الأوّل طردت الراهباتُ من المدرسة طالبة أنزلت على الشبكة العنكبوتية فيديو عن نفسها وهي تستمني مفتوحة الساقين وعارية ؛ لم يلفت هذا انتباه بردلي إطلاقاً لأنّ اثنتين من خطيبات أصدقائه نشرتا مشاهد مماثلة. فاجأ أماندا أنّ زميلتَها في الصفّ كانت منتوفةَ الشعر تماماً ولم تحتط بتغطيةِ وجهها، لكن أكثر ما أدهشها كان ردّ الفعل العنيف عند الراهبات، اللواتي كنّ مشهورات بالتسامح الشديد.

تفرّغت أماندا، ريثما يحين وقتُ الدردشة مع برادلي، لتصنيفِ المعلومات التي جمعها جدُّها حول "جريمة المضرب خارج مكانهِ" وأخبار أخرى دموية راحت تجمعها منذ أن أطلقت إشبينتُها

---

[4] رواية استيفاني ماير.
[5] رواية ستيج لارسون.

تحذيراتها في التلفزيون. بقي لاعبو لعبة نازع الأحشاء يُقلّبون في عددٍ من الأسئلة في قضية إدْ ستيتون، بينما كانت هي تخطط لموضوعٍ آخر، للعبةِ القادمة: مقتل دوريس وميشيل كونستانْت.

كان ماتيوس برِيْرا ذو الأصل البرازيلي، واحداً آخرَ من عشّاق إنديانا جاكسون، لَكنّ الأمر كان في حالته يتعلّق بحبّ أفلاطونيّ، لأنّ الفنَّ كان يستنفده حتى العظم. كان يؤكد أنّ الفنّ يتغذّى من الطاقة الجنسية، وعند الاختيار بين الرسم وإغواء إنديانا، التي لم تبدُ مستعدةً للمُغامرة، اختار الأوّل. ثمّ إنّ الماريجوانا كانت تُبقي عليها في حالة من الوداعة لا تسمح له بمبادرات حميمة. كانا صديقين جيّدين ويلتقيان يوميّاً تقريباً ويحمي الواحد منهما الآخر عند الضرورة. عادة ما كانت تُزعجه الشرطة وهي كان يزعجها بعض الزبائن الذين يتمادون معها والمفتشُ مارتين الذي كان يعتقد أنّ له الحقّ في أن يُحقق فيما كانت تقوم به زوجته السابقة.

- تشغلني أماندا؛ هي الآن مهووسة بالجرائم —علّقت إنديانا قائلة للفنان، بينما هي تُدلكه بخلاصة الكينا كي تُخفف من ألم عرق النساء عنده.

- هل ملّت مصاصي الدماء؟ —سألها ماتيوس.

- كان هذا في العام الماضي. هذه أخطر، فهي جرائم حقيقيّة.

- طلعت البنت لأبيها.

- لا أدري ما يشغلها، يا ماتيوس. هذا هو السيّئ في الشبكة العنكبوتية. يمكن لأيّ منحرف أن يتحرّش بها وأنا لن أعلم.

- لا شيء من هذا، يا إندي. إنّهم بعض الجسورين يَتَسلّون باللعب. السبت رأيتُ أماندا، كانت تتناول فطورها مع زوجك السابق. هذا الرجل يكرهني، يا إنديانا.

- ليس صحيحاً. بوب أنقذَك من السجن في أكثر من مناسبة.

- لأنّكِ أنتِ طلبت منه ذلك. كنتُ أحكي لك عن أماندا. بقينا نتحدّث برهة ووضحّتْ هي على ما تقوم اللعبة. يبدو أنّها تُسمى *نازع*

الأحشاء، أو شيئاً من هذا القبيل. هل كنتِ تعرفين أنّهم أدخلوا مضربَ البيسبول في مُـ..أحد القتلى؟

- بلى، يا ماتيوس، أعرفٍ —قاطعته إنديانا—. تماماً هذا ما أشير إليه. هل يبدو لك طبيعياً اهتمام أماندا بشيء مريع كهذا؟ فتيات أخريات بعمرها يتعلقنَ بممثّلي سينما.

كان بّريْرا يعيش فوق سطح العيادات الشاملة، في ملحق غير مُرَخّص منَ البلدية وكان يعملُ لغاياتٍ عمليةٍ حارساً للبناء. الملحق الذي يسميه استوديو كان يستقبل نوراً رائعاً للرسم وزراعة الماريجوانا غير الربحية، والمُخصّصة لاستهلاكهِ الشخصيٍّ، وكان كثيراً، ولاستهلاك أصدقائه.

في نهاية عقد التسعينيات وبعد أن مرّ العقار بأيدٍ عديدة اقتناه مُستثمِرٍ صينيّ له عين تجارية جيدة، خطرت له فكرة أن ينشئ مركزاً للصحة والصفاء النفسي، مثل مراكز أخرى كانت تزدهر في كاليفورنيا، أرض المتفائلين. طلا الخارجَ ووضع لافتة العيادات الشاملة على الواجهة كي يُميزه عن محلات سمك تشاينتاون، ما تبقى قام به المستأجِرون، الذين راحوا يشغلون الطابقين الثاني والثالث، وجميعهم ممارسون لفنون وعلوم المعالجة. كان في الطابق الأرضي محلان يُطلان على الشارع، واحد لليوغا والثاني للفن. كان المحل الأوّل لتدريس الرقص التانتري الشعبيّ جداً والثاني يحمل اسم أوروغا بلودا غير المفهوم، يعرض أعمالاً لفنانين محليين، وتدبّ فيه الحيويّة ليلتَي الجمعة والسبت بالموسيقيين الهواة والنبيذ السيّئ في كؤوس ورقية مجاناً، ومن يكن متورطاً في المخدرات غير الشرعية يستطيع أن يحصل عليها في لا أوروغا بلودا بسعر مغر أمام أنف الشرطة، التي كانت تتسامح مع هذا النوع من التجارة ما دام يُراعي الحذر. كان الطابقان العلويان مشغولين بعيادات صغيرة مكونة من غرفة انتظار، حيث لا تكاد تتسع لمكتب مدرسي وكرسيين وغرفة

أخرى مُخصّصة للمعالجة، وكان الدخول إلى الطابقين الثاني والثالث محدوداً نظراً لعدم وجود مصعد، العائق الخطير بالنسبة إلى بعض المرضى ولكن كان لهذا فضيلة استبعاد الأكثر سقماً، الذين على كلّ الأحوال لن يستفيدوا كثيراً من الطب البديل.

كان الرسام قد عاش في ذلك العقار ثلاثين سنة دون أن يستطيع أحد من الملاك المتعاقبين عليه أن يُخليه. المستثمر الصيني لم يُحاول ذلك لأنّه كان لصالحه أن يبقى أحدٌ بعد انتهاء ساعات الدوام، وبدل أن يتخاصمَ مع ماتيوس بْريرو سمّاه مراقباً وسلّمَهُ نسخة من مفاتيح جميع المكاتب وقدم له راتباً رمزيّاً، كي ينزل مزلاج الباب الرئيسي ليلاً ويُطفئ الأضواءَ ويكون صلة وصل بينه وبين المستأجرين ويهتف له في وجود خلل أو حالة شيءٍ طارئ.

كانت لوحات البرازيلي المستوحاة من التعبيرية الألمانية تُعرض من حين لآخر في رواق أوروغا بلودا دون ما نجاح في البيع وكانت تزيّن بهوَ البناء. تلك الصور المنحرفة المكوّنة من ضربات ريشة حانقة كانت تتعارض مع آثار فن الزخرفة ومهمّة العيادات الطبّ البديل في تقديم الراحة الجسدية والعاطفية للزبائن، لكن ما من أحد كان يجرؤ على أن يقترح نزعها خوفاً من أن يجرحوا مشاعر الفنان.

– الذنب ذنب زوجك السابق، يا إندي. من أين تعتقدين أنّها جاءت بالإعجاب بالجريمة؟ –قال ماتيوس عند الوداع.

– بوب مشغول مثلي بهذه الحماقة الجديدة عند أماندا

– الأسوأ أن تعتادِ على المخدرات...

– انظروا من يتكلم –ضحكت هي.

– تماما، أنا حجّة في المادّة.

– غداً بين زبونين أستطيع أن أعمل لك مساجاً لعشر دقائق – عرضت عليه.

– لقد رعيتني مجاناً لسنوات، يا امرأة. سوف أهديك لوحة من لوحاتي.

– لا ، يا ماتيوس. لا أستطيع أن أقبلها ولا بشكل من الأشكال. أنا واثقة من أنّه سيأتي يوم تكون فيها أعمالك ذات قيمًة كبيرة جـدّاً —قالت إنديانا، محاولة أن تخفي الذعر في صوتها.

الأربعاء. 4

انتهى بـلاك جاكسٍـون مـن قـراءة الروايـة الـتي كـان دورهـا في القراءة في العاشرة ليلاً وذهب إلى المطبخ ليعـدّ الشـوفان بالحليـب، الذي يأتيه بذكريات الطفولةِ ويواسيهِ حين يشـعر بنفسـه متضـايقاً من البله الإنساني. هكذا كـان يـؤثّرُ فيـه بعـضُ الروايـات، كانـت مساءات الأربعاء محجوزة لمباراة كرة الجـدار، لكـنّ الصـديق الـذي كان سيلعب معه في ذلك الأسبوع كان مسـافراً. وقـف أمـام الملعـب مستنشقاً رائحة العسل والكرميلا الناعمة وهتف إلى أماندا بـالجوّال دون خوف من إيقاظها، لأنّها لا بدّ كانـت تقـرأ في تلـك السـاعة. كانت غرفة إنديانا بعيدة ومن المستحيل أن تسمع الحديث، لكنّـه كان يتكلم همساً إفراطاً في الحذر. كان مـن الأفضـل ألا تعلـم ابنتُـهُ بما يدور بينه وبين الحفيدة.

– أماندا؟ أنا كابلْ.

– أعرف صوتك. قلْ ما عندك.

– عن إدْ ستيتون.. استغللتُ درجة الحرارة اللطيفة لهذا النهار الجميل، الحرارة 22 درجة. كما في الصيف...

– ادخل في الموضوع، يا كابل، ليس الليل بكامله تحت تصـرّفي كي أسمع عن ارتفاع حرارة الكوكب.

– ذهبتُ لأتناول بيرة مع أبيك وتحقّقتُ من بعض الأشياء التي يمكن أن تهمّك.

– ما هذه الأشياء؟

- اسم الإصلاحية التي كان يعمل فيها ستيتون قبل أن يأتي إلى سان فرانسيسكو معسكر الأولاد ويقع وسط صحراء أريزونا. بقي ستيتون هناك عدداً من السنوات، إلى أن طردوه في آب 2010، على أثر فضيحة سبّبها موت صبيّ في الخامسة عشرة من عمره. ليست هذه الحالة الأولى، يا أماندا ثلاثة، فقد قتل ثلاثة فتية في السنوات الثماني الأخيرة، ومع ذلك ما زالت الإصلاحية تعمل. اقتصر القاضي في كلّ مناسبة على إيقاف العمل بالرخصة مؤقّتاً، ريثما ينتهي التحقيق.

- وكيف مات هؤلاء الأطفال؟

- بالنظام شبه العسكري، بأيد غرّةٍ أو ساديّة. إهمال وتجاوز وتعذيب. يضربون الأولاد ويُجبرونهم على ممارسة التمارين حتى يغيبوا عن الوعي، يُقنّنون عليهم الطعام وساعات النوم. الصبيّ الذي مات كان مصاباً بالتهاب الرئة، وكان يفور من شدّة الحرارة ويُغمى عليه، ومع ذلك أجبروه على الجري مع البقية والشمس في أوجها، في حرارة أريزونا التي تشبه الفرن وحين انهار رفسوه على الأرض. بقي أسبوعين مريضاً قبل أن يموت. اكتشفوا بعدها أنّ في رئتيه لترين من الصديد.

- وكان إدْ ستيتون واحداً من أولئك الساديين —استنتجت أماندا.

- كان ملفّه طويلاً في معسكر الأطفال. يظهرُ اسمُهُ في عددٍ من التقارير ضد الإصلاحية بسبب استغلاله للأطفال الداخليين، لكنّهم لم يطردِوه حتى عام 2010. يظهرُ أنَّ مصير هؤلاء الصبية التعساء لا يهمّ أحداً. تبدو رواية طويلة بائسة من رواياتٍ تشارلز ديكنز.

- أوليفر تويست. تابعْ، لا تُحلق بعيداً.

- حاولوا أن يطردوا إدْ ستيتون بتكتُّم، لكن هذا كان محالاً، لأنّ موت الصبيّ سبّب بعض الاضطراب. ومع ذلك تعاقدوا معه في مدرسة غولدن هيلز في سان فرانسيسكو. شيء غريب، ألا ترى ذلك؟ كيف لن يعرفوا سوابقه!

- لا بدّ أنّه كان عنده اتصالات جيدة.
- لم يُتعب أحدٌ نفسه بالتحقّق من ماضيه. مدير غولدن هليز كان راضياً عن الرجل لأنّه كان يعرف كيف يُحافظ على الانضباط، لكنّ بعضَ التلاميذ والمعلمين كانوا يصفونه بالسفّاح، بواحدٍ من أولئك الجبناء الذين يزحفون أمام السلطات، لكنهم إذا ملكوا ذرّةً من قوّة يتمادون في همجيتهم. من سوء الحظّ أنّ العالمَ مليءٌ بناس من هذه النوعيّة. في النهاية عيّنه المديرُ في نوبةٍ ليلية، لتجنّب المشاكل. كان ستيتون يبدأ نوبته في الثامنة ليلاً ويذهب في السادسة صباحاً.
- ربّما قتله واحدٌ ممن كانوا في تلك الإصلاحية وعانى على يديه.
- والدك يدرس هذا الاحتمال وإنٍ كان ما يزال متمسّكاً بنظريّة الشجار بين مثليين. كان ستيتون مولعاً بأفلام الخلاعة المثلية وكان يلجأ إلى خدمات المرافقين.
- ماذا؟
- مُرافقون هكذا يدعون الرجال الذين يمارسون الدعارة الذكورية. كان مرافقا ستيتون المعتادان شابين من بورتوريكو، استجوبهما والدُك، لكنّ دفاعهما جيّد. بالنسبة إلى جهاز الإنذار في المدرسة، قولي للاعبي لعبة نازع الأحشاء إنّ إدْ ستيتون كان يُشغله ليلاً، لكنّه لم يشغله في تلك الليلة. ربّما خرج على عجلة، وفكر بأنّ يُشغِّلَهُ عندما يعود.
- أعرف أنّك تحتفظُ بأفضل ما عندك إلى النهاية —قالت الحفيدة.
- أنا؟
- ما هو، يا كابل؟
- غريب بما يكفي، فهو أيضاً يُحَيِّر أباك—قال بلاك جاكسون— في الصالة الرياضيّة يوجد كرات وقفازات ومضارب بيسبول، لكنّ المضرب الذي استخدموه مع ستيتون لم يكن يعود للمدرسة.
- أعرف ما ستقول! المضرب يعود لفريق من أريزونا!

- شياطين أريزونا مثلاً؟ في هذه الحالة الارتباط بمعسكر الأطفال يمكن أن يكون واضحاً، يا أماندا، لكنّه ليس كذلك.
- من أين هو؟
- عليه خاتم جامعة أركنساس الحكومية.

بحسب ثِلِسْتِ روكو، التي درست خارطةَ نجوم كلّ صداقاتها وأقربائها، فإنّ طبيعة إنديانا جاكسون تنطبق على برجها، الحوت. هذا ما يفسّرُ ميولها الباطنية واندفاعها الجامح لنجدة كل من يكون في كارثة وتُصادفه في طريقها، بمن فيهم من لا يطلبونها ولا يشكرونها عليها.كارول أندرووتر كانت الهدف المثالي لشفقة إنديانا الفوضوية. 47

تعارفا ذات صباح من كانون الأول 2011؛ كانت إنديانا تقيد دراجتها في الشارع ورأت بطرف عينها امرأة مستندة إلى شجرة قريبة كما لو أنّها ستدوخ. هرعت لمساعدتها، أسندتها وحملتها بخطوات قصيرة إلى العيادات البديلة وساعدتها على صعود الدرج حتى المكتب رقم 8، حيث ارتمت المجهولة، منهكةً على أحد الكرسيين الضعيفين في غرفة الاستقبال. حين استعادت نَفَسَها أعطتها اسمها وحكت لها أنّها تُعاني من سرطان شرس وأنّ المعالجة الكيميائية جاءت أسوأ من المرض. قدّمت لها إنديانا سَرير التدليك كي تستلقي برهة، لكنّ الأخرى ردّت بصوت متردّدٍ أن الكرسيّ تكفيها وأنه إذا لم يكن هناك إزعاج كبير فإنّ شيئاً ساخناً تشربه مُناسِب لها. تركتها إنديانا وهرعت لتشتري لها، زهورات، آسفة أنّه لا يوجد في عيادتها الصغيرة طباخاً لغلي الماء. عندما عادت وجدت أنّ المرأة تحسنت كِفايةً، بل وبذلت جهداً كي تُصلِح زينتها قليلاً، فطلت شفتيها، وكان فمها بلونه القرميدي يُضفي مظهراً سيّئ الذوق على ذلك الوجه الزيتوني الذي غضّنَهُ المرضُ، حيث كانت العينان مثل زرين في وجه دمية. كان عمرها ستّةً وثلاثين عاماً، حسب قولها، لكنّ شعرَها المستعار المجعّد والمتيبّس كان يجعلها تبدو أكبر من عمرها بعشر سنوات.

هكذا بدأ تحالفٌ يرتكزُ على المأساة عند الأولى وعلى النزعة السامريّة عند الأخرى._في أكثر من مناسبة عرضت عليها إنديانا طرقها لتقوية جهازها المناعي، لكنّ كارول كانت تبتدع الأعذار كي تؤجّلها. شكت إنديانا أنّ من المحتمل أنّها لا تستطيع أن تدفع لها وأبدت استعدادها كي ترعاها مجاناً، كما كانت تفعل مع مرضى آخرين، لكنّها أمام أعذار كارول المتكرّرة تخلّت عن إصرارها. كانت تعي أنّ كثيراً من الناس لا يثقون بالطبّ البديل. كلاهما كانت تحب السوشي، والمشاوير في الحديقة العامّة والأفلام الرومانسية وكذلك احترام الحيوانات الذي كان يُترجم عند كارول أندرووتر بأنّها نباتية مثل أماندا، لكنّها كانت تستثني السوشي، بينما كان يقتصر عند إنديانا على الاحتجاج على تعذيب الفراريج في المداجن والفئران في المختبرات، وكذلك على استخدام الجلود في الموضة. إحدى منظماتها المفضّلة _كانت جمعية الرفق بالحيوانات، التي طلبت في العام الماضي من عمدة سان فرانسيسكو أن يغير اسم تنديرليون، لأنّه كان من غير المقبول أن يُسمى حيٌ من المدينة باسم كاسم سلامي البقر الذي يتعرض لسوء المعاملة وأنّ من الأفضل أن يُسمّى باسم نبات. العمدة لم يردّ.

على الرغم من الأفكار المشتركة، بدت الصداقة مفتعلة، لأنّ إنديانا، حاولت أن تبقي على مسافة بينهما، لأنّ كارول كانت تلتصق بها كالقشرة. كانت المرأة تشعر بنفسها عاجزة ومهجورة، وبحياتها حاصل هجران وخِدَع، تشعر بنفسها مُضجرة، لا جاذبية عندها، ولا فطنة ولا مهارة اجتماعية، وتشكّ بأنّ زوجها تزوّجها كي يحصل على التأشيرة الأمريكية. اقترحت عليها إنديانا أن تراجع سيناريو الضحية هذا وأن تُغيّره، لأنّ الخطوة الأولى للشفاء تكمن في التخلص من الطاقة السلبية والندم، تحتاج إلى قصّة إيجابية تصلها مع كلّ الكون والنور الإلهي. لكنّ كارول بقيت متمسّكة بمأساتها. كانت إنديانا تخاف أن يمتصّها الفراغ بعيدُ الغور لتلك المرأة، التي تشكو لها بالهاتف في ساعات غير مستحبّة، وتجلس منتظرة في

عيادتها ساعات وتهديها سكاكر ناعمة، لا بدّ تُكلفها نسبة مهمة من شيك ضمانها الاجتماعي، وكانت هي تستهلكها حاسبة الحرَيْرات، ومن دون متعة حقيقيّة، لأنّها كانت تُفضّلُ الشوكولاتة السوداء بالشطة الحارة كتلك التي كانت تشارك بها عشيقها، ألان كِلِّرْ.

لم يكن لكارول أولاد ولا أقرباء، لكن عندها صديقتان أو ثلاث، لم تكن إنديانا تعرفهن، وكنّ يُرافِقنها إلى العلاج الكيميائي. كان موضوعاها المستحوذان عليها هما زوجُها، الكولومبي المبعد بسبب تجارته بالمخدرات، والذي كانت تُحاول هي أن تعيده إلى جانبها، وسرطانُها.. حتى اللحظة لم يكن المرض يؤلمها، لكنّ السمّ الذي كانوا يحقنونه في عروقها راح يقتلها. كان لها لون الرماد وطاقتها ضعيفة وصوتها واهن، لكنّ إنديانا كانت تحتضن الأمل بأنّها ستتحسّن، لأنّ لونها كان مختلفاً عن لون مرضى سرطان آخرين عالجتهم في عيادتها. ثمّ إنّ حساسيتها ذاتها للتكيّف مع أمراض الآخرين لم تكن تتوافق مع كارول وهذا ما بدا لها علامة جيّدة.

ذات يوم بينما هما تتحدّثان عن هذا وذاك في مقهى روسيني، اعترفت كارول بذعرها من الموت وبأملها بأن ترشدها إنديانا، المسؤوليّة التي لم تكن إنديانا تشعرُ بأنها قادرة على تحمّلها.

- أنت امرأة روحانية جدّاً، يا إندي —قالت لها كارول.
- لا تُخيفيني، يا امرأة، الناس الذين يزعمون أنّهم روحانيون أعرفهم، مُزيفون يسرقون كتب الباطنية من المكتبات —ضحكت إنديانا.
- هل تؤمنين بالتقمّص؟ – سألتها كارول.
- أؤمن بخلود الروح.
- إذا كان موضوع التقمّص صحيحاً، فهذا يعني أنّني أسأت استهلاك حياتي هذه وسوف أتقمّص صرصورا.

أعارتها إنديانا كتابها المرجعيّ وهو مختارات من الصوفية والأفلاطونية والبوذية وعلم النفس الحديث، لكنّها امتنعت عن أن

تقول لها إنّها منذ تسع سنوات وهي تدرس وإنّها توّاً بدأت خطواتها الأولى في طريق التفوّق الذي لا ينتهي، وكانت تنقصها دهور كي تختبر كلية الكائن وعتق روحه من الصراع والمعاناة. كانت تأمل ألّا تخونها غريزتها كمعالجة طبيعية وأن تتعافى كارول من السرطان وأن يسعفها الوقتُ في هذا العالم كي تصل إلى حالة الاستنارة التي تصبو إليها. 50

كانت كارول وإنديانا قد اتفقتا على أن تلتقيا في الخامسة من مساء ذلك الأربعاء من شهر كانون الثاني، في مقهى روسيني، مستغلة أن زبوناً ألغى جلسة الريكي والمعالجة بالعطور. الموعد اقترحته كارول التي أعلمت صديقتها مسبقاً بالهاتف أنّها بدأت المعالجة بالأشعّة، بعد أن أمضت أسبوعي استراحة من المعالجة الكيميائية. كانت الأولى في الوصول ترتدي لباساً تقليديّاً عادياً، لا يكاد يخفي جسدها المتداعي وحالتها السيّئة: بنطلون وسترة قطنية، من الزي المراكشي قليلاً، وحذاء كرة مضرب وطوقاً وأساور من البذور الأفريقية. استقبلها داني دانجلو، النادلُ الذي خدمها عدداً من المرات، بالبشاشة التي تعلّم بعضُ الزبائن على الخوف منها. كان الرجل يتبجّح بأنّه صديق نصفِ العالم في نورث بيث وبخاصّة زبائن مقهى روسيني، الذي خدم فيه سنوات كثيرة إلى حدّ أنّه ما من أحد كان يتذكر المحلّ من دون حضوره.

- انظري، يا عزيزتي، هذه العمامة التي تضعينها تناسبك أكثر بكثير من الشعر المستعار -تلك كانت تحيته لكارول أندرووتر-. المرّة الأخيرة التي جئت فيها قلتُ لنفسي، يا داني، عليك أن تنصح هذه المرأة بأن تخلع هذا الثعلب البائس عن رأسها، لكنّني في الحقيقة لم أجرؤ.

- عندي سرطان -أعلمتْهُ شاعرةً بالإهانة.

- واضح، يا جميلة، باستطاعة أيّ شخص ينتبه إلى ذلك. لكن مظهرك صلعاء أجمل، الصلع دارج الآن . ماذا أقدّم لك؟

- شاي بالزهورات وبيسكوتي، لكنّني سأنتظر إنديانا.

- إنديانا مثل الأم تيريزا البائسة، أليس صحيحاً؟ أنا مدين لها بحياتي -قال داني، جاهزا للجلوس إلى الطاولة كي يحكي لها بعضٍ النكات عن عزيزته إنديانا جاكسون، لكنّ المحلّ كان ممتلئا وصاحب المحل يؤشر له كي يستعجل في خدمة بقية الطاولات. 51

لمح داني إنديانا عبر النوافذ وهي تعبر جادة كولومبوس باتجاه المقهى فطار ليحضّر لها كابوتشينو مضاعفا ومتوجا بالقشدة، كما كانت تُحبّ كي يستقبلها بالفنجان في الباب. "حيّوا الملكة، أيّها السفلة". أعلن بصوت عال كما كان يفعل دائماً، فأطاعه الزبائن المعتادون على هذا الطقّس. قبّلته إنديانا على خدّه وحملت الكابوتشينو إل طاولة كارول.

- من جديد عاد إليّ الغثيان، ولا قوّة عندي لشيء، يا إندي. لا أعرف ماذا أفعل، الشيء الوحيد الذي أريده هو أن ألقي بنفسي من الجسر -تنهّدت كارول.

- عن أيّ جسر؟ - سأل داني دانجلو الذي كان يمرّ ومعه صينية لطاولة أخرى.

- هذا مجرّد كلام لا أكثر، يا داني -وبّخته إنديانا.

- أنا أسألك، يا عزيزتي، لأنّك إذا كنتِ ستقفزين من فوق جسر غولدِن غات، فأنا لا أنصحكِ به. وضعوا عليه شبكا وكاميرات كي يثنوا المنتحرين الانفصاميين والمكتئبين من كلّ أنحاء العالم من فوق هذا الجسر اللعين، إنّه يشكل جاذبية سياحية. والجميع يقفزون من الجانب ذاته نحو الخليج، لا يرمون بأنفسهم من جهة البحر خوفاً من أسماك القرش.

- داني - صاحت إنديانا، مُمرّرةً منديلاً ورقياً لكارول كي تُمخّط.

تابع النادلُ طريقه ومعه الصينية، لكنّه عاد بعد دقيقتين مشدوداً للحديث، بينما إنديانا تجهد في أن تواسي صديقتها وتقدم لها قِلادة

من الخزف كي تعلّقها على رقبتها وثلاثة مرطبانات صغيرة وداكنة فيها زيت نياولي وخزامى ونعناع وشرحت لها أنّ خلاصة الزيوت علاجات طبيعية يمتصّها الجلدُ خلال دقائق، وهي مثالية لمن لا يستطيع تحمّلَ الدواء عن طريق الفم. عليها أن تضع قطرتين من النياولي على القلادة وأن تستخدمه يومياً ضدّ الغثيان وأن تضع بضعَ قطرات من خلاصة زيت النعناع على الوسادة وأن تفرك أخمص قدميها بزيت النعناع كي تحسّن مزاجها. هل تعلمين أنّهم يضعون زيت النعناع على خُصياتِ الثيران الهرمة من أجل...

- إندي! –قاطعتها كارول– لا أريد حتى أن أُفكّر فيما يمكن أن يكون هذا! مسكينةٌ الثيران.

فُتِحَ في هذه الأثناء بابُ الخشب والبلور المشدوف، القديم والمُضعضع مثل كل شيء في مقهى روسيني، لتدخل لولو غادنِر التي كانت تبدأ جولتها المعتادة في الحيّ. كان الجميع باستثناء كارول أندروِوتر، يعرفون تلك العجوز الصغيرة الدرداء والمجعدة مثل تفاحة جافة، برأس أنفها الملتصق بذقنها ودثارها وقبّعتها التي لطفلة، القبعة الحمراء، الموجودة منذ جيل البتنيك[6] وتسمي نفسها المصوّرة الرسمية للحياة في نورث بيث. كانت العجوز العجيبة تؤكد أنّها صوّرت سكان الحيّ القدماء في بداية القرنِ العشرين حين بدأ يستوطنه المهاجرون الطليان بعد زلزال 1906، طبعاً وبعض الشخصيات التي لا تُنسى، مثل جاك كيرواك، الذي كان يُجيدُ، بحسب قولها الكتابة على الآلة الكاتبة، وألان غينسبيرغ، الشاعر والناشِط المفضّل لديها، جو ديماجيو، لاعب البيسبول الأسطوري، الذي عاش هناك مع زوجته في الخمسينيات، ومارلين مونرو وراقصات التعرّي في نادي الكندور اللواتي شكّلن تعاونية في الستينيات، أي أنّها صوّرت

---

[6] جيل البيت ظاهرة ثقافية أمريكية تشكلت في العقد الخامس بدأتها مجموعة من الكتاب وعرفت برفضها للقيم الأمريكية التقليدية وباستخدامها للمخدرات وبدراستها للفلسفات الشرقية والحرية الجنسية.

صالحين وطالحين، وجميعهم بحماية القديس فرانسيس الأسيزي الذي يحمي المدينة من كنيسته في شارع باليخو. كانت لولو تمشي متكئة على عكاز بطولها ومعها كاميرا فورية من تلك التي لم تعد دارجة وألبوم كبير تحت ذراعها.

وكانت تدور كلّ أنواع الشائعات حول لولو، التي لم تكن تكذّبها أبداً: كانوا يقولون إنّها تبدو متسوّلة، لكن عندها ملايين الدولارات مخبّأة في مكان ما، وإنها نجت من معسكر اعتقال وأضاعت زوجها في بيرل هاربور. فقط كان يُعْرَفُ بشكل مؤكّد أنّها كانت يهودية ملتزمة، لكنّها كانت تحتفل بأعياد الميلاد. في العام السابق اختفت بشكل غامض ثمّ وبعد ثلاثة أسابيع من عدم رؤيتها في شوارع الحيّ، اعتبرها الجيران ميتة وقرّروا أن يُقيموا لها حفل تكريم لاحق على الوفاة. وضعوا في مكان بارز من حديقة واشنطون لوحات مكبّرة لولو غاردنِر ابنة المئة عام، وترك الناس حولها أزهاراً ودمى دببة ونسخاً عن صور التقطتها هي، وقصائد ورسائل مؤثّرة، وفي يوم الأحد مساء عندما اجتمع تلقائياً عشرات الأشخاص بالشموع المشتعلة كي يودّعوها وداعاً أخيراً ولائقاً وصلت لولو غاردنِر سائلةً منْ الميِّت، جاهزة كي تُصوّر أقرباءه. شعر عدد من الجيران بأنها سخرت منهم فلم يغفروا لها بقاءها حيّة.

تقدّمت المصوِّرة بخطوات قصيرةٍ راقصة على إيقاع موسيقى البلوز البطيئة في مكبّر الصوت مدندنة وعارضةً خدماتها من طاولة إلى طاولة. اقتربت من إنديانا وكارول تراقبهَما بعينين دامعتين، قبل أن تستطيع المرأتان أن ترفضا، كان داني دانجِلو قد وقف منحنياً بين الاثنتين كي يكون بمستواهما وضغطت لولو غاردنِر على الزر. كارول أندرووتر التي باغتها ضوء الفلاش انتصبت على قدميها بعنف جعلها تسقط على الكرسيّ، وصرخت: "لا أريد صورك البائسة، أيتها العجوز الشمطاء!" محاولة أن تنتزع منها الكاميرا. تراجعت لولو

مذعورة وتدخّل داني دانجلو كي يوقف كارول. حاولت إنديانا أن تهدّئ صديقتها، مستغربة ردّة فعلها المبالغ بها جدّاً، بينما علت همهمة استنكار بين زبائن المحل. ارتمت كارول، التي شعرت بالإهانة، على الكرسيّ ووجهها بين يديها. "أعصابي مهترئة"، وأجهشت بالبكاء.

الخميس 5

انتظرت أماندا حتى تتعب رفيقاتُها في الغرفة من التعليق على طلاق توم كروز المحتمل وينمن كي تتصل على الفور بجدّها.

- إنّها الثانية صباحاً، يا أماندا. لقد أيقظتني. في أيّ ساعة تنامين، يا صغيرة؟
- أنام في الصفّ. هل أتيتني بأخبار.
- ذهبتُ لأتكلّم مع هنرييتا بوست —تثاءب الجدُّ.
- الجارة التي عثرت على جثتي الزوجين كونستانت؟سألت البنت.
- نفسها.
- وماذا كنتَ تنتظر كي تتصل بي؟ –عتبت عليه حفيدته.
- أن يطلع الفجر.
- مرّت أسابيع عديدة على القتل. ألم يحدث ذلك في تشرين الثاني؟
- بلى، يا أماندا، لكنّني لم أستطع الذهاب قبل ذلك. لا تهتمّي، المرأة تتذكر كلّ شيء. كاد الخوف يرسلها إلى العالم الآخر، لكنّه لم يمنعها من أن تسجّل في ذاكرتها حتى آخر تفصيل مما رأته في ذلك اليوم، الأكثر هولاً في حياتها بحسب ما قالت لي.
- احكِ لي كلّ شيء، يا كابل.
- لا أستطيع. الوقت متأخر جدّاً وأمّك ستتصل في أيّة لحظة.
- اليوم خميس وأمّي مع كِلِرْ.

- هي لا تبقى كلَّ الليل معه دائماً. ثمَّ إنّ عليّ أن أنام. لكنّني سأرسل لك ملاحظاتي عن حديثي مع هنرييتا بوست وما حصلت عليه من أبيك.
- هل كتبته؟
- سأكتبُ ذات يوم كتاباً —وضّح لها المأمورُ—. أكتب ما يبدو لي مهمّاً، لا يمكن أن نعرف فيما سيفيدنا في المستقبل.
- اكتب مذكراتك، كلّ الشيوخ يفعلون ذلك —اقترحت الحفيدة.
- سوف تكون ثقيلةٍ، فأنا لم يمرّ بي شيءٌ جديد بأن يُحكى، أنا الأرمل الأكثر إضجاراً في العالم.
- صحيح. أرسل لي ملاحظاتك عن الزوجين كونستانتِ، ليلة سعيدة يا مأموري. هل تحبّني؟
- لا.
- وأنا أيضاً.

بعد دقائق كانت حصيلة زيارة بلاك جاكسون إلى أوّل شاهدٍ على عملية قتل الزوجين كونستانت في بريد أماندا الإلكتروني.

في الحادي عشر من تشرين الثاني، نحو الساعة العاشرة والربع صباحاً كانت هنرييتا بوست، التي تعيش في الشارع ذاته، تتنزه مع كلبها حين لاحظت أنّ بابَ بيت الزوجين كونستانتِ مفتوح على مصراعيه، الشيء غير المعتاد في الحيّ، الذي عانى أهله من عصابات وتجار المخدرات. قرعت هنرييتا بوست الجرس كي تنبّه الزوجين كونستانتِ، اللذين تعرفهما جيّداً، وبما أنّه لم يهرع أحد إليها دخلت منادية عليهما. جابت الصالونَ، حيث كان التلفزيون مفتوحا، والحمّامَ والمطبخ، ثمّ صعدت الدرجَ بصعوبة، لأنّها في الثامنة والسبعين من عمرها وتعاني من مرض القلب. أقلقها صمتُ ذلك البيت، المفعم بالحياة دائما، فهي نفسها شَكَتْ في أكثر من مناسبة من صخبه.

لم تجد أحداً في غرف نوم الأطفال، فتقدّمت في الممر الصغير باتجاه الغرفة الرئيسية، نادت لصاحبي البيت بالقليل من الصوت

الذي بقي لها. قرعت بابها ثلاث مرّات قبل أن تتجرّأ على فتحه والإطلال على داخلها. تقول إن الغرفة كانت مظلمة فالستائر الخارجية والداخلية مسدلة، كانت باردة والهواء ثقيلاً، كما لو أنها لم تُهوَّ منذ أيام عديدة، خطت خطوتين في الغرفة، ضابطةً نظرها، وتراجعت على الفور مُتَمْتِمة بالاعتذارات لأنّها رأت كتلة الزوجين في سرير الزوجية.

كانت الجارة ستتراجع بحشمة، لكنّ الغريزة نبّهتها إلى أن شيئاً غيرَ طبيعي في سكون ذلك البيت وبما أنّ الزوجين كونستانتِ لم يردّا على نداءاتها وكانا نائمين في ضحى يوم عمل من الأسبوع، جعلها تدخل إلى الغرفة وتحاول العثور على زر الكَهرباء باللمس. كانت دوريس وميشيل كونستانت على بطنهما مغطيين حتى الرقبة، مُتخشّبين وعيناهما مفتوحتين. أطلقت المرأةُ صرخة مخنوقة، وشعرت برفسةٍ في صدرها واعتقدت أنّ قلبها انفجر. لم تتمكّن من القيام بردّ الفعل حتى سمعت كلبها ينبح، وعند ذلك سارت راجعةً في الممر، نزلت الدرجَ متعثرة وتقدّمت مستندة إلى قطع الأثاث حتى هاتف المطبخ. 57

هتفت إلى الرقم **911** في العاشرة وتسع وعشرين دقيقة تماماً، بقيت تُكرّرُ أنّ جاريها ميتان إلى أن قاطعتها عاملة المقسم كي توجّه إليها عددا من الأسئلة على علاقتها بالموضوع آمرةً إيّاها أن تبقى حيث هي وألّا تلمس شيئا وأنّ المساعَدة ستصلها فورا. بعد سبع دقائقٍ وصلت دوريتان كانتا موجودتين في المنطقة تلتها بعد قليل سيارة إسعاف وتعزيزات من الشرطة، رجال الإسعاف الطبي لم يستطيعوا عملَ أيّ شيء للزوجين كونستانتِ، لكنّهم حملوا معهم إلى المستشفى هنرييتا بوست التي تسرّع قلبها وصار ضغطها في السحاب.

حضر بوب مارتين، رئيس المفتشين، في حدود الساعة الحادية عشرة، بعد أن كانوا قد سيّجوا الشارع، تُرافقه طبيبة شرعية، هي

أنغريد دون ومصوّر من مكتب جرائم القتل. لبس مارتين قفازين، وصعد إلى غرفة الزوجين كونستانتِ. الانطباع الأوّل الذي تولد عنده حين رأى الزوجَيْن في السرير هو أنّ الأمر يتعلّق بانتحار مزدوج، لكن كان عليه أن ينتظر التقرير الشرعي للدكتورة دون، التي راقبت بعناية الأجزاء المرئية من الزوجين كونستانتِ، دون أن تُحرّكهما. ترك مارتين المصوّرَ يقوم بعمله، ريثما تصل بقية الفريق الشرعيّ، بعدها أمرت الطبيبة الشرعية بأن يأتوا بالحمّالتين ويحملوا الزوجين إلى مستودع الجثث، فمسرح العملية للشرطة لكن الجثتين لها. 58

كانت دوريس وميشيل محترمين في المجتمع وكانا صديقين ناشطين للكنيسة المنهجية، تتمّ في بيتهما اجتماعات موسمية معتادة لكحوليين مُغْفَلي الاسم. وكان ميتشل قد احتفل في فناء بيته،، قبل أسبوع من الليلة المشؤومة، بالذكرى الرابعة عشرة لتركه للمخدرات قدّم خلالها الهمبرغر والسجق المطفأة ببونتش الفواكه. يبدو أنّ شجاراً وقع بين ميشيل وأحد الحاضرين، لكنّه لم يكن خطيراً أبداً.

حصل الزوجان كونستانتِ، اللذان لم يكن عندهما أطفال، في العام 1991 على ترخيص بأن يكونا أبوين مؤقتين لأطفال أيتام، أو خطرين جدّاً تُكلّفهما بهم المحاكم. كان عندهما ثلاثة أطفال من أعمار مختلفة، يعيشون معهما، لكن في ليلة العاشرِ من تشرين الثاني، حين وقوع الجريمة، كانا لوحدهما، لأنّ إدارة حماية الطفولة أخذت الأطفال في رحلة لأربعة أيّام إلى بحيرة تاهوي. كان المنزل غير مرتب ومتسخاً وكان حضور الأطفال واضحاً من الثياب المكوّمة للغسيل والأحذية والألعاب المبعثرة والأسرّة غير المرتّبة. كان في البرّاد بيتزا وهمبرغر مجمّدة ومشروبات غازيّة وحليب وبيض وكذلك زجاجة مغلقة لمشروب كحوليّ مجهول.

كشف التشريح أنّ دوريس، ابنة السابعة والأربعين من عمرها وميشيل ابن الثامنة والأربعين، ماتا بجرعةٍ زائدة من الهيروين محقونة في شريان في الرقبة ووُسِما على كفليهما بالنار بعد موتهما.

أيقظ صوتُ الهاتف بلاك من جديد، بعد عشر دقائق.

- يا مأموري، عندي سؤال —قالت الحفيدة.
- أماندا، تعبت منك. تخليت عن أكون مأمورك—صاح الجدُّ

ساد صمت جنائزي بعد هذه الكلمات.

- أماندا — سأل الجدّ بعد ثوان.
- ماذا؟ – ردّت هي بصوت مرتًعش.
- كنتُ أمزح. ما هو سؤالك.
- وضّح لي موضوع الحروق في المؤخرتين.
- اكتشفوها في المستودع، عندما نزعا عنهما ثيابهما —قال الجدّ– نسيتُ أن أذكر في ملاحظاتي أنهم عثروا في الحمّام على محقنتين مستعملتين، عليهما آثار هيروين وفرد لحام بالغاز، استخدم بالتأكيد للحرق، وكلها خالية من آثار الأصابع.
- هل تقول إنّك نسيت أن تذكرها؟ هذا شيء أساسيّ.
- فكرت أن أضيفها، لكنّني سهوتُ. أعتقد أنّ هذه الأشياء تُركت عمداً، كسخريةٍ، وُضِعت نظيفة في صينية وغُطّيت بمنديل أبيض.
- شكرا، يا كابلْ.
- ليلة سعيدة، يا مُعلّمة.
- ليلة سعيدة. لن أهتف لكَ أكثر. نم جيّداً.

كانت ليلة من تلك الليالي التي تقضيها إنديانا مع ألان كِلِرْ مستبقة الخطوبة، وإن كانا قد أقاما علاقة روتينية قليلةً فيها المفاجآت و مارسا الحبّ كزوجين عجوزين. أربع سنواتٍ معاً: صارا خلالها زوجين قديمين. يعرفان بعضهما بعضا جيّداً، لا يستعجلان ويمنحان نفسيهما وقتاً للضحك وتناول الطعام والحديث. كانا بحسب كِلِرْ، يُمارسان الحبّ دون قلق، وبحسب إنديانا كجدين عجوزين. لم يكن هناك ما يشكوان منه، لأنّهما بعد أن جرّبا بعض بهلوانيات صناعة أفلام الخلاعة المعتادة والتي سبّبت له ألماً في ظهره وعكرت

لها مزاجها، وجرّبا كلّ ما يمكن لخيال سليم أن يُقدّمه، دون أن يُقحما أشخاصا ولا حيواناتٍ أخرى معهما، راحا يختصران قائمتهما إلى أربعة خيارات تقليدية. كان يتخلّل هذه بعض التنويعات، لكنّها كانت قليلة، يقومان بها في فندق فيرمونت، مرّة أو مرّتين في الأسبوع، بحسب متطلبات الجسد.

حكت إنديانا لألان كِلِرْ بينما هي تنتظر المحارَ والسلمون المُدَخّن الذي طلبته من خدمة الغرف، مأساة كارول أندرووتر وتعليقات داني دانجلو الخرقاء. كان كِلِرْ يعرف داني، لأنّه كان ينتظر إنديانا في مقهى روسيني أحيانا ولأنّه تقيّأ في العام الماضي بشكل هائل في سيارته، اللوكس الجديدة، بينما كان ينقله بناء على طلب إنّديانا إلى خدمة الطوارئ في المستشفى. اضطُرّ لأن يغسل السيارة مرّات عديدة كي يزيل البقع والنتانة.

ضاع داني في عرض المثليين السنوي في حزيران، لم يذهب إلى العملِ ولم يعرف أحدٌ عنه شيئا إلا بعد ستّة أيام حين تلقت إنديانا مكالمة بنبرة أمريكية لاتينية من مجهول بأنّ صديقها في وضع مزر، مريض ووحيد في غرفته ومن الأفضل أن تهرع لنجدته إذا كانت لا تريد أن تراه ميتا. كان داني يعيش في بيت بائس في تندرليون، الحي الجامح، الذي تخاف الشرطة ذاتها أن تدخله ليلا. فهو منذ بدايته شدّ الأفاقين والمجرمين وتميّز بالكحول والمخدرات والمواخير والنوادي سيّئة السمعة. كان قلب الخطيئة، كما كان يُسميه داني ببعض الغطرسة، كما لو أنّ العيش هناك يستحق ميدالية الشجاعة. كان البناء بُني في الأربعينيات وكان مُخصّصاً للبحارة. لكنه مع مرور الزمن تدهور ليصبح ملاذا للمُهملين والمرضى والمدمنين. تواجدت إنديانا هناك في أكثر من مناسبة كي تأخذ طعاما ودواءً لصديقها، الذي صار مثل خرقة، بعد إفراطه بالشرب في بعض ليالي الصخب المؤذية.

ما إن تلقتِ المكالمة المجهولة حتى ذهبت إنديانا مرّة أخرى لنجدة داني. صعدت إلى الطابق الخامس عبر درج مُغطّى بالكلمات

البذيئة والرسوم الفاحشة، مارّةً بعددٍ من الأبواب المفتوحة قليلاً، شقق بائسة لسكارى التهمتهم الفاقة، عجائز معتوهين وفتية يمارسون البغاء مقابل المخدرات. كانت غرفة داني معتمة وتفوح منها رائحة نتن قيءٍ وعطر باتشولي رخيص، فيها سرير في زاوية، وخزانة ثياب وسرِير كوي وخُوان زينة لطيف، عليه تنورة أطلس ومرآة مكسورة ومجموعةٍ قوارير ماكياج. كان هناك اثنا عشر حذاء عالي الكعب، مصفوفاً ومشجبان يُعلق عليهما ملابس مُغنيةِ كابريه مريّشة، مثل عصافير كريهة ودائخة. لم يكن يدخلها النور الطبيعي، لأنّ النافذة الوحيد تراكم على زجاجها وسخ عشرين سنة.

وجدت إنديانا داني مرميّاً على السرير بنصف ثيابٍ خادمة فرنسيةٍ لمعَ فيها في عرض المثليين، كان متسخاً مشتعلا بالحمّى ومصاباً بالتجفاف المتزامن مع اِلتهاب رئويٍّ وتسمّم كحول ومخدرات مريع. لمٍ يكن في البناء غير حمامٍ واحدٍ لكلّ طابق، يستخدمه عشرون مستأجرا، وكان الوهن يمنعُ المريضَ من أن يُجرجر نفسه إلى هناك. لم يردّ عندما حاولت إنديانا أن تُنهضه كي تسقيه ماء وتغسله، المهمّة المحالة بالنسبة إليها وحدها. لذلك هتفت لألان كِلِرْ. 61

حدس كِلِرْ أنّ إنديانا هتفت له مُكرهة كملاذٍ أخير لها. لأنّ سيارة والدها كانتٍ في الإصلاح ولا شكّ أنَّ ريان ميلرْ، ابن العاهرة ذاك، كان مسافراً. كان يناسبه الاتفاق الضمني على اقتصار علاقته مع إنديانا على لقاءات المتعة، لكن كان يهينه أن يتبيّن أنّها رتّبت حياتها مِن دونه.كانت إنديانا في عوز مالي دائم، وإن لم تكن تذكر ذلك أبداً، لكن إذا أراد أن يُساعدها ترفض بنبرة مازحة، بالمقابل كانت تلجأ إلى أبيها ومع أنّ كِلِرْ لم يكن يملك براهينَ إلا أنّه يستطيع أن يُقسم بأنّها كانت تقبل من ريان ميلِرْ ما ترفضه منه. "أنا حبيبتُك ولست عائلتك"، كانت تردّ عليه إنديانا عندما يعرض عليها أن يدفع إيجار العيادة أو حسابَ طبيبِ أسنانِ أماندا. أراد أن

يشتري لها بمناسبة عيد ميلادها سيارةَ فولكس فاغن سلحفاة، صفراء بلون فرخ البطّ أو حمراء بلونٍ طلاءِ الأظافر، اللونين اللذين كانت تُسْحَرُ بهما، فرفضت رفضا قاطعاً بذريعة البيئة واكتفائها بالنقل العام والدراجة. كما أنّها رفضت أن يُعطيها بطاقة اعتماد مصرفية أو أن يفتح لها حساباً في المصرف، كما لم تكنٍ تُحبّ أن يشتري لها ملابس، لأنّها كانت تعتقدُ، وهي على حق في ذلك، أنّه يريد أن يُحَسِّنَ هندامها. كانت الملابس الداخلية الحريرية المُخرّمة التي يعطيها لها، تبدو لإنديانا مثيرة للسخرية، وكانت ترتديها إرضاء له، كجزء من ألعابهما الشهوانية. كان كِلِرْ يعرف أنّه ما إن يكاد يغفل حتى تهديها لداني، الذي، ربّما كما هو مفترض، كان يُقدّرها.

كان كِلِرْ مُعجباً بشخصيّة إنديانا، لكن كان يغيظه أنّها لا تحتاجه، يشعر بنفسه مُصغَّراً وبائساً أمام تلك المرأة المستعدة لأنّ تعطي أكثر مما تأخذ. في السنوات التي عاشا فيها معاً، لم تطلب مساعدته إلا في مناسبات نادرة جدّاً، لذلك استجاب على الفور عندما هتفت له من غرفة داني دانجِلو. 63

كان حي تِندرِلوين أرضَ نهبٍ وسلبٍ وقتل لعصابات فلبينية وصينية وفيتنامية، حيث ندر جدّاً أن تواجد كِلِرْ، على الرغم من أنّ الحيّ يقع في وسط سان فرانسيسكو، على بعد شوارع قليلة من البنوك والمكاتب والمجموعات التجاريّة والحوانيت والمطاعم التي كان يتردّد عليها. كانت فكرته عن تِندِرلوين قديمة ورومانسية: 1920، صالات ألعاب سرّية، بطولات مُلاكمة وبِارات غير قانونية ومواخير والحياة السيّئة. كان يتذكر أنّها كانت مسرحا لإحدى روايات داشيل هاميت، ربّما كانت الصقر المالطي. لم يكن يعرف أنّه امتلأ بعد حرب فيتنام باللاجئين الآسيويين، بسبب الإيجارات الرخيصة وقربه من تشايناتاون، وأنّه كان يعيش في الشقق المشادة لشخص واحد حتى عشرة أشخاص. عندما رأى متسولين مرميين على الأرض بأكياس نومهم وعربات السوق الصغيرة المليئة بالأكياس، رجالا غريبي الفكوك يكمنون في الزوايا ونساء شعثاوات

الشعر، درداوات، يُكلّمن أنفسهنّ، أدرك أن من غير المناسب ترك السيارة في الشارع وبحث عن مرآب مأجور.

تعب قليلاً حتى عثر على بناء داني، لأنّ الأرقام محتها عواملُ الطبيعة والتآكل ولم يجرؤ على السؤال. أخيراً عثر عليه وكان أوسخ وأكثر بؤساً مما كان يتوقع. صادف عند صعودِهِ إلى الطابق الخامس سكارى، صعاليك وعناصر لهم مظهر المجرمين في عتبات جحورهنّ، أو يسيرون متثاقلين في الممرات فخاف أن ينقضوا عليه أو أن يسقط عليه برغوث. مرّ بينهم مسرعاً، دون أن ينظر إلى عيونهم، منتصراً على دافع إغلاق أنفه، واعياً لعدم ملاءمة حذائه الإيطالي الشمواه ومعطفه الإنكليزي في ذلك الوسط. بدا له الطريق إلى غرفة داني خطيراً وعندما وصل أوقفته النتانة جامداً في الباب.

رأى تحت ضوء المصباح الوحيد المتدلي من السقف إنديانا منحنية فوق السرير تُنظفُ وجهَ الآخر بخرقة مُبلّلة. "علينا أن ننقله إلى المستشفى، يا ألان. علينا أن نُلبسَهُ بنطلوناً وقميصاً" أمرته. امتلأ فم كِلِرْ باللعاب وهزّته تقلصات معدية، لم تكن اللحظةُ لحظةَ أن يضعف مثل جبان. ساعد وهو يتجنّب أن يوسّخ نفسه، إنديانا على غسل ذلك الرجل الهاذي وإلباسِه. كان داني نحيلاً، لكنّه ثقيل في ذلكَ الظرف مثل كبش ميت. رفعاه فيما بينهما وحملاه بما يشبه الجرّ على طول الممر والدرج نازلين درجة درجة حتى الطابق الأرضي أمام النظرات الساخرة للمستأجرين. أجلسا داني في باب البناية على البلاط بين صناديق القمامة تعتني به إنديانا بينما هو يجري بضعة شوارع في طلب سيارته. عندما تقيّأ المريض دفقة صغيرة من القيء الصفراوي في سيارة اللوكس الذهبية، خطر لكِلِرْ أنه كان باستطاعته أن يهتف لسيارة إسعاف، لكنّ هذا الحلّ لم يخطر ببال إنديانا، لأنّها كانت ستُكلّف ألف دولار وداني لا يملك ضماناً صحّياً.

بقي دانجِلو أسبوعاً في المستشفى، إلى أن تمكنوا من التحكّم بالتهاب الرئة والالتهابات المعوية والضغط وأمضى أسبوعاً آخر في

بيت والد إنديانا، الذي وقع على عاتقه أن يُصبح ممرّضاً مرغماً، إلى أن تمكن الآخر من أن يخدم نفسه ويعود إلى زريبته وعمله. كانت معرفة بلاك جاكسون به قليلة جداً في ذلك الوقت، لكنّه قَبِلَ أن يذهب في طلبه إلى المستشفى حين خرّجوه، لأنّ ابنته طلبت منه ذلك واستضافه واعتنى به للسبب ذاته.

الشيء الأول الذي جذب ألان كِلِرْ عند إنديانا كان مظهرها، مظهرُ حورية البحر المتوردة، ثمّ تعلّق بطبيعتها التفاؤلية، أي أنّها أعجبته في النهاية لأنّها كانت نقيضَ النساء الهزيلات القلقات اللواتي كان يتردّدُ عليهنّ. ما كان ليقول أبداً إنّه عاشق، يا للسوقية! لم يكن هناك حاجة لأن يضع اسماً لذلك الشعور. كان يكفيه الاستمتاع بالوقت الذي يشاركها فيه، والمتفق عليه دائماً بشكل مسبق، من دون أيّ مفاجآت. اكتشف كِلِرْ في جلساته الأسبوعية مع طبيبه النفسي، وهو يهودي أصله من نيويورك يمارس بوذية الزن مثل كلّ أطباء نيويورك النفسيين تقريباً، أنّه كان يحبّها جداً، وليس قليلاً أن يقول هذا، ذلك لأنّه كان يتبجّح بأنّه بمنأى عن الولهِ، الذي لا يُقدّره إلا في الأوبرا حيث يُغيّرُ مصيرَ المغنّي والمغنية. كان حُسْنُ إنديانا يثير عنده متعة جمالية أكثر إلحاحاً من الرغبة الجسدية، وكانت طلاوتُها تُحرّك مشاعره فراح الإعجاب الذي تظهره له يتحوّل إلى إدمان سيصعب عليه التخلي عنه. لكنّه كان واعياً للهوّة التي تفصل بينهما: هي كانت تنتمي إلى وسط اجتماعيّ أدنى. كان جسدها الوفير وشهوانيتها المفتوحة المتعين له في خلوتهما الحميمة، يخجلانه بين الناس. كانت إنديانا تأكل بمتعة، تدهن الخبز بالمرق، تمصّ أصابعها وتُكرّر صحنَ العقبة أمام ذهول كِلِرْ، المعتاد على نساء طبقته، اللواتي يعتبر فقدانُ الشهية عندهن فضيلة ويفضلن الموت على فظاعة السمنة المريعة. الأثرياء تُشاهَدُ عظامهم، كانت إنديانا بعيدة عن أن تكون سمينة، لكنّ أصدقاء كِلِرْ لا يُقدّرون جمالها المُقلق، جمال بائعة الحليب الفلامنكية (الفنلندية) ولا بساطتها، التي كانت

تلامس أحياناً حدّ الدهمائية. لذلك كان يتفادى أن يأخذها إلى حيث يمكن أن يلتقيٍ مع أحدٍ يعرفه وفي المناسبات النادرة التي كان يفعل فيها ذلك، مثلاً الكونشرتو أو المسرح، كان يشتري لها ملابسَ مناسبة ويطلب منها أن تسرحَ شعرها تسريحة الكعكة. كانت إنديانا تدخل بطريقة المقنّعة اللعوب لكن لا يلبث الفستانِ الأسود المحتشم بعد برهة يبدأ يضغط على جسدها وينهكها نفسياً. 65

إحدى أفضل هدايا كِلِّرْ كان أنه أوصى لها على باقة زهر أسبوعية لعيادتها، إكيبانا[7] من محلّ أزهارٍ في جابانتاون، التي كانً يسلمها بدقّة في عيادات الطب البديل شابٌ يُعاني من حساسية غبار الطلع يضع قفازين أبيضين وقناعَ جرّاح. قدَّم لها هدية أخرى ناعمة هي سلسلة ذهبية مع تفاحة مغطاة بقِطعٍ من الماس صغيرة لتحل محلّ طوق الكلب الذي اعتادت أن تلبسه. كانت إنديانا تنتظر بفارغ الصبر إكِبانا يوم الاثنين، كان يسحرها الترتيب المقتصد لساق نباتية ملتوية وورقتين وزهرة وحيدة، بالمقابل لم تستخدم السلسلة معً التفاحة إلا مرّتين إرضاءً لكِلِّرْ، خبّأتها بعد ذلك في غمدٍ من القطيفة في عمق منضدة السريرٍ لأنّها كانت تبدو في التضاريس الهائلة لشقّ ما بين الثديين حشرة ضائعة. ثمّ إنّها كانت قد رأت فيلماً وثائقياً عن ماس الدمّ في مناجم أفريقيا الرهيبة. في البداية كان كِلِّرْ يرغب بأنٍ يجدّد لها كلّ ملابسها، وأن ينمي عندها أسلوباً مقبولاً ويعلمها آداباً، لكنّ إنديانا، غضبت منه بحجة دامغة هي أن التغيير من أجل إرضاء رجلٍ جهد كبير وأنَّ الأنسب له أن يبحثَ عن امرأةٍ على ذوقه.

كانٍ ألان كِلِّرْ بثقافتهِ الواسعة ومظهرهِ الأرستقراطيّ الإنكليزي وَرَقةً رابحة في المجتمع، العازبَ الأشهى في سان فرانسيسكو، كما كان يُصنفه أصدقاؤه، لأنه بالإضافة إلى وسامته، تُعزى له ثروة. كان إجمالي ممتلكاته غامضا، لكنّه يعيش على أحسن وجه، وإن كان

---

[7] تنسيق الأزهار اليابانية.

دون إفراط، يدعو قليلاً، ويستخدم الملابس ذاتها التي استهلكتها السنون، لا شيء من مسايرة الموضة أو العلامات التجارية الظاهرة كما يفعل الأثرياء الجدد. كان يسأمُ المالَ، فهو دائماً يملكه ويشغل مكانته الاجتماعية بالعطالة الذاتية، بفضل دعم عائلته، دون أن يقلق على المستقبل. كان يخلو من خشونة جدِّه، رجل الأعمال، الذي جمع ثروة من أيام منع الكحول وبفضل ليونة أبيه الأخلاقية التي زادتها صفقاتُهُ التجارية غير النظيفة في آسيا وجشعُ أخويه الخرافيّ، اللذين حافظا عليها بالمضاربة في البورصة. 66

تـذكَّر ألان كِلِرْ في جناح فندق فيرمونت بستائر أطلسه وأثاثهِ الكلاسيكيّ ذي الأرجل المخروطة وثريات كريستاله ولوحات حفره الفرنسية الأنيقة على الجدران، حادثَ داني دانجِلو المزعج، الذي يُعزِّز من جديد قناعته باستحالة تعايشه مع إنديانا. كان ينقصه التسامح مع من طبيعته فوضوية، كأنجِلو، ومع القبح والفقر، وكذلك مع طيبة إنديانا التي لا تُميّز بين أحد، التي إذا نُظِر إليها من مسافةٍ معينة بدت فضيلة، لكن إذا ما صادفٍ وشوهدت عن قرب صارت كابوساً. كان كِلِرْ في تلك الليلة جالساً على كرسيّ كبير وما يزال بملابسه وفي يده قدح نبيذ سوفينيون بلانك أبيض، الذي كان ينتجه في مزرعته لنفسه وأصدقائهِ وثلاثة مطاعم غالية في سان فرانسيسكو، ينتظر وصول الطعام ريثما تبلل إنديانا نفسها في الجاكوزي.

كان باستطاعته أن يراها من كرسيّه عاريةً في الماء، بكتلة شعرها الأجعد الجامح، المسوكة من أعلى بقلم، وبعض الخصلات التي تؤطّر وجهها، ببشرتها المحمرّة ووجنتيها المتوردتين وعينيها اللامعتين بالرضى، ومظهر الطفلةِ الساحر في عربةٍ في مدينة ملاهي. أوّل ما كانت تفعله حين يتواعدان في الفَندق هو أنّها تُحضِّر الجاكوزي، الذي يُشكّل برأيها قمة الانحطاط والبذخ. لم يكن يُرافقها في الماء، لأنّ الحرارة ترفع له ضغطه –كان عليه أن يحذر من نوبة قلبية–

ويُفضّل أنٍ يتأمّلها من كرسيه المريح. كانت إنديانا تحكي له من هناك شيئاً عن داني دانجِلو وواحدةٍ تُدعى كارول، امرأة مصابة بالسرطان ظهرت على مسرح صداقاتها الغريبة، لكنّ ضجّة أعاصير الماء كانت تمنعه من سماعها جيداً. لم يكن الموضوع يهمّه، فقط كان يريد أنِ يتأملها منعكسةً في المرآة الكبيرة خلفَ المغطس، مستبقاً اللحظةَ التي سيصل فيها المحار والسلمون، كي ينزع فلينةَ زجاجةِ سوفينيون بلانك الثانية وتخرج هي كفينوس من البحر. عندها سيُدثرها بالمنشفة، ويلفها بذراعيه ويُقبّلُ تلكَ البشرةَ الشابةَ، الرطبة والحارّة، وسيبدأان بعدها بألعاب الحبّ، تلك الرقصة البطيئة المعروفة. كان هذا أفضل ما في الحياة: استباق المتعة.68

السبت، 7

اتفقَ لاعبو لعبة نازع الأحشاء، بمن فيهم كابلْ، الذي كان مجرّد شريك متواضع تحت أمرةِ سيّدته، بلا صوت في اللعب،على أن يلتقوا على السكايب وتواجدوا في الساعةِ المُحدّدة أمام شاشاتهم وزهر النرد وورق اللعب النظامي بين يدي المعلمة، كانت الساعة الثامنة مساءً بالنسبة لأماندا وكابلْ فيٍ سان فرانسيسكو وإلى شارلوك هولميز في رنو، والحادية عشرة ليلا بالنسبة للسير إدموند بادينغتون في نيوجَرسي وأباثا في مونتريال والخامسة مساءً من اليوم التالي بالنسبة لإسمِرالدا التي كانت تعيش في المستقبل، في نيوزيلندا. في البداية فقط كانوا يتواصلون عِبر دردشة خاصة في الشبكة العنكبوتية، لكنّهم عندما بدؤوا يُحققون في الجرائم المقترحة من قبل أماندا مارتين، اختاروا الحديث عن الفديو.صاروا من الاعتياد على الشخصيات التي ابتدعها كلٌّ منهم لنفسِه بحيث أنّهم كانوا يقفون مُستَغْرِبين وجوههم قبل البدء باللعب. كان من الصعب التعرّف على الغجرَية إسمِرالدا

المشاكسة المُجسّدة فيذلك الصبيّ في كرسّي عجلاته وعلى الشرطي السرّي الشهير كونان دويل في الطفل الزنجيّ بقبعته، قبعةِ البيسبول، وعلى كولونيل المستعمرات الإنكليزية القديمة في المراهق الهزيل المُنَمَّش والمصابِ برُهاب الفضاء المفتوح، المنغلق على نفسه في غرفته. وحدها الفتاة المصابة بالقَهَم في مونترِيال كانت تُشبه أباثا، عالمة النفس، التي كانت هيكلاً عظميّاً. سلَّمَ الصِّبْيَةُ دورياً على مُعلِّمةِ اللعبِ وطرحوا عليها قلقهم من الجلسة السابقة، حيثُ كان تقدّمهم ضئيلاً جدّاً في قضية إدْ ستيتون.

– لنرَ ما الجديد حول "جريمة المضرب في غير مكانِهِ" قبل أن نتكلّم عن "الزوجين كونستانت —اقترحت أماندا–. بحسبِ أبي، أدْ ستيتون لم يُدافع عن نفسه، لم يكن هناك آثار لعراك ولا خثارات دم في الجثّة.

– هذا يمكن أن يدلّ على أنّه كان يعرفُ القاتل —قال شارلوك هولميز.

– لكنّه لا يُفسّر أنّ ستيتون كان على ركبته أو جالساً حين تلقّى الطلقة في رأسه —قالت المعلمة.

– وكيف تعرفين ذلك؟—سألت إسمرالدا.

– من زاوية دخول الرصاصة. أطلقوا عليه عن قرب كبير، عن بعد أربعين سنتيمترا تقريبا؛ الرصاصة بقيت في الجمجمة، ليس هناك ثقب خروجٍ. كان السلاح مسدّساً صغيرا شبهَ آليّ.

– شائع جداً، صغير، يسهلُ إخفاءه في جيبٍ أو حقيبةِ امرأة؛ لم يكن سلاحا جدّياً. المجرم المُتَمرّس يستخدم عادة أسلحة أكثر فتكاً من هذا —تدخّل الكولونيل بادينغتون.

– لا بدّ أنّه كذلك، لكنّه أفاد في تصفية ستيتون. بعدها وضعه القاتل أفقيّاً على حصان القفز. وأنت تعرفين ما فعل بمضربِ البيسبول.

– ليس من السهلِ أن يُنزِل له بنطلونه ويرفع جسده إلى حصان القفز. كان ستيتون طويلا وثقيلا. لماذا فعل ذلك؟ —سألت إسمِرالدا.

- رسالة، رمز، تنبيه—همست أباثا.
- المضرب سلاح عاديّ. يُستخدَمُ كثيراً، بحسب الإحصائيات، في حالات العنف المنزليّ — ثبَّتَ الكولونيل بادينغتون بنبرته البريطانية المتبجّحة.
- لماذا جاء القاتلُ ومعه مضرب ولم يستخدم مضرباً من المدرسة؟ —أصرّت إسمِرالدا.
- لم يكن يعلم أنّ في الصالة الرياضية مضاربَ وجاء ومعه الذي كان عنده في بيته —ارتأت أباثا.
- قد يدلُّ هذا على وجود رابط بين القاتل وأركان ساس، أو أنّ الأمر يتعلّق بمضرب خاص —تدخّل شارلوك.
- هل تأذنون لي بالكلام؟ —طلب كابِلْ.
- تفضّل —قالت معلمة اللعب.
- هو مضرب عادي من الألمنيوم، طوله ثمانون سنتيمتراً، من النوع الذي يستخدمه طلابُ الثانوية ما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة. خفيف وقوي ويدوم.
- لغز مضرب البيسبول... —تمتمت أباثا— أحدُسُ أنّ القاتلَ اختاره لأسبابٍ عاطفية.
- هه! هكذا إذن كان رجلنا عاطفياً!... —سخر السير إدموند بادينغتون.
- لا أحد يُمارس اللواط لأسبابٍ عاطفية —تدخّلت أباثا.

مرّت الدقائق الخمس عشرة التالية في نقاش احتمالات مختلفة، إلى أن اعتبرت المُعلّمة أنه صار يكفي الكلام عن إدْ ستيتون، وعليهم أن يحققوا في "جريمة فرد اللحامِ المزدوجة"، كما عمّدَتْها، التي وقعت يوم العاشر من تشرين الثاني من العام الفائت. وأمرت على الفور مأمورَها أن يطرح الأحداث. قرأ لهم كابل ملاحظاته وأضاف، كمُتطلّعٍ جيّدٍ للكتابة، الزخارفَ الضرورية لإغناء الحكاية. 70

في هذا الجوِّ بدأ الصَّبيةُ يلعبون.كان الجميعُ متفقين على أنّ لعبةَ *نازع الأحشاء* تطوَّرت إلى شيء أهمَّ من اللعبة الأصلية وعلى أنَّهم لا يستطيعون أن يقتصروا على ما يُقرّره الزهرُ والورق، اللذان كانا يُحدِّدان قبل ذلك الحركات. قرّروا أن ينكبّوا فقط على حلِّ المسائل بالمنطق، باستثناء أباثا، التي كانت مُخوّلة باستخدام المناهج النفسية. سيتفرّغ ثلاثة من اللاعبين لتحليل جرائم القتل. ستلجأ أباثا إلى الأرواح، سيتولى كابل التحقيق وأماندا ستأخذ على عاتقها تنسيق جهود البقية وإدارة العمل.

كان بلاك جاكسون بخلاف حفيدته، التي كانت لا تنظر إلى ألان كِلِرْ بعين الرضى، يُقدّره ويأمل أن تنتهي مغامراته الغرامية مع إنديانا إلى الزواج. كان يُفكر بأنّ بعض الاستقرار مُناسبٌ لابنته، فهي تحتاج إلى رجل رزين يعتني بها ويرعاها، بكلمات قليلة تحتاجُ إلى أبٍ، لأنّه لن يدوم لها إلى الأبد. كان كِلِرْ أصغر منه بتسع سنوات فقط ولا شكّ أنّ عنده بعض النزوات التي تزداد حدَّتها في الشيخوخة، كما يحدث مع الجميع، لكنّه يمكن أن يُصنّفٍ بالمقارنة مع رجال آخرين من ماضي إنديانا، بالأمير الأزرق. مبدئياً كان الوحيد الذي يستطيع أن يُقيم معه حديثا منسرحاً عن الكتب أو عن أي جانب من جوانب الثقافة، كان الرجالُ السابقونٍ عليه جميعاً من النوع الرياضي، لهم عضلات ثور ودماغه، بدءاً من بوب مارتين. لم تكن ابنته تروق للمثقفين؛ وكأن عليه أن يشكر السماء على ظهور كِلِرْ المناسب.

عادة ما كانت أماندا تسألُ بلاك في صغرها عن أبويها،لأنّها أذكى من أن تبلع روايةَ جدّتها إنكارناثيون، المحلاة. كانت الصغيرة في الثالثة من عمرها عند انفصال إنديانا وبوب، لا تتذكر المرحلة التي عاشتها معهما تحت سقف واحد وكان يصعب عليها أن تتصوّرهما معها على الرغم من فصاحة دونيا إنكارناثيون. تلك الجدّة الكاثوليكية التي كانت تُصلي صلاة السبحة يومياً، ومضى عليها خمسة عشر

عاماً تعاني من طلاق ابنها وتلجأ إلى معبدِ القديس يهوذا تداوس، راعي الأمل في الحالات الصعبة، لتُشعلَ شموعاً كي يتصالح الزوجان.

كان بلاك يُحبّ بوب مارتين كابن لم يُنجبه قط. لم يكن يستطيع تفادي ذلك. فصهره السابق كان يؤثّر به بالتفاتات ودّه العفويّة، وتكريس نفسه المطلق لأماندا وصداقته المخلصة لإنديانا، ومع ذلك لم يكن يرغب بأن يقوم القديس يهوذا تداوس بمعجزة المصالحة. لم يكن عند هذا الثنائي شيءٌ مشترك غير الابنة. كانا حين يتباعدان يصيران مثل أخوين صالحين وحين يجتمعان ينتهيان بالضرب. كانا قد تعارفا في المدرسة الثانوية هي كانت في الخامسة عشرة وهو في العشرين. كان بوب أكبر من أن يكون في المدرسة، ولو أنّ أيّ طالب آخر بلغَ الثامنةِ عشرةِ لفصلوه، لكنّه كانَ رئيسَ فريقِ كرة القدم الأمريكي، مُدَلّلاً من المدرّب ويشكّلُ كابوساً بالنسبة للمُعلمين، الذين كانوا يتحمّلونه لأنّه أفضل رياضيّ عرفتهُ المدرسة منذ تأسيسها في عام 1956. كان بوب، الوسيم والمغرور، يُثيرُ غرامياتٍ عنيفة عند الصغيرات، اللواتي كنّ يُحاصرنه بعروض غراميةٍ عاصفةٍ أو تهديدات بالانتحار، ومزيج من الخوف والإعجاب عند الصبية، الذين كان يحتفلون بمآثره ومزاحه الثقيل، لكنّهم يبقون على مسافة ذكيةٍ، لأنّ بوب كان يستطيعُ عند أيّ تبدّل في مزاجهِ أنِ يُطيح بهم أرضاً بصفعة هائلة منه. كانت شعبية إنديانا تعادلُ شعبية رئيس فريق كرة القدم، بوجهها الملائكيّ وجسدها، جسد المرأة المكتمل والميّزَة الخلابة لكونها تمضي في الحياة بقلبٍ سليم وأبيض. كانت نموذج البراءة وكان هو مشهورا بأنّه الشيطان. يبدو أنّه كان لا مفرّ من أن يعشق الواحد منهما الآخر، لكن إذا كان هناك من ينتظر أن تُمارس هي تأثيرا عليه فقد حملَ خيبةَ أمل، لأنّ ما حصل هو العكس: بقي بوب الوحشيّ ذاته وضاعت هي فيَ الحبّ والكحول والماريجوانا.

بعد وقت قصير لاحظ بلاك جاكسون أنّ ابنته تبكي وثيابَها تضيقُ. استنطقها بقسوةٍ إلى أن اعترفت أنّ الطمث لم يأتها منذ ثلاثة أو أربعة وربّما خمسة أشهر. لم تكن مُتأكدة، لأنّ دوراتها لم تكن

منتظمة وهي لا تحسب. أمسك جاكسون برأسه بين يديه، يائساً: عذره الوحيد في جهله لأعراض حمل إنديانا الواضحة، وغضٍّ طرفه عنها حين كانت تأتي مترنحَة مَن الكحول أو طافية في سحابةِ ماريجوانا، كان مرض ماريان، زوجته، الذي استحوذ على كلٍّ اهتمامه. أخذ ابنته من ذراعها وجرّها إلى سلسلة من الزيارات، بادئا بطبيبِ النسائية، الذي أكد أنّ الحملَ مُتَقدّم ولم يعد ممكناً التفكير بالإجهاض، تلاه مدير المدرسة وانتهى بمواجهة المغوي.

فاجأ بيتُ مارتين في حيّ لاميسيون بلاك لأنّه كان يتوقّع شيئاً أكثر تواضعاً. اقتصرت ابنته على إعلامه مقدّماً بأنّ أمَّ بوب تعمل طاهية عجّة فحضّر نفسَهُ لمواجهة عائلة من المهاجرين قليلي الموارد. عندما علم بوب بمجيء إنديانا مع أبيها تبخّر ولم يترك أثراً وكان على أمّه أن تواجه نيابة عنه. وجد بلاك نفسه أمام امرأة ناضجة وجميلة، بثياب كلّها سوداء، لكن بأظافر وشفتين مطلية بالأحمر الناريّ، قدّمت نفسها باسم إنكارناثيون، أرملة مارتين. كان البيتُ من الداخل مؤنساً متينَ الأثاث، متآكل السجاد وهناك دمى مرمية على الأرض وصور عائلية ورفوف عليها جوائز رياضية، وقطان سمينان مستلقيان على أريكة خضراء. على كرسيّ رئاسيّ عالي الظهر لهُ قوائم أسدٍ جلست جدّة بوب، السيدة المستقيمة مثل وتد، مسربلةَ بالسواد، مثل ابنتها، رماديّة الشعر، الذي جمعته في كعكة مضغوطة بحيث بدت من أمام حليقة. نظرت إليهما من أعلى إلى أسفل دون أن تردّ على تحيّتهما.

- أنا حزينة لما فعله ابني، يا سيّد جاكسون. فشلتُ كأمٍّ، لم أنجح في تلقين بوب معنى الالتزام. أقولُ: بماذا تفيد هذه الجوائز إذا لم يكن هناك آداب؟ -سألت الأرملة ببلاغة، مشيرة إلى رفوف كؤوس كرة القدم.

قَبِلَ الأبُ فنجانَ القهوة السوداء الصغير الذي جاءت به خادمة من المطبخ وجلست على الأريكة المليئة بشعر القطّيْن. بقيت الابنةُ

واقفةً، محمرّةَ الوجنتين، خجلة، ساندة قميصها بيديها كي تُغطي بطنها، بينما دونيا إنكارناثيون تباشر بتقديم خلاصة تاريخ العائلة.

- أمّي الحاضرة هنا، حفظها الله، كانت مُعلّمة في المكسيك وأبي غفر الله له، كان رجلا غير مسؤول تركها بعد قليل من زواجهما كي يجمع ثروة في الولايات المتحدة. لم تتلق منه غير رسالتين، مرت بعدها أشهر دون أخبار عنه وعندها وُلِدتُ أنا، إنكارناثيون تحت أمِرتك. باعت أمّي القليلَ الذي كانت تملكه وشرعت بالسفر تتعقب خطواتِ أبي وأنا بين ذراعيها. جابت كاليفورنيا لاجئة في بيوتِ عائلات مكسيكية أشفقت علينا حتى وصلت إلى سان فرانسيسكو، حيث علمت أنّ زوجها سجينٌ لأنّه صفى رجلا في مشاجرة. ذهبتْ لزيارته في السجن وطلبت منه أن ينتبه إلى نفسه، وسرعان ما شمرت عن ساعديها وراحت تعمل. هنا كمعلمة لم يكن أمامها مستقبل، لكنّها كانت تتقن الطهي.

فكّر جاكسون أنّ جدّةَ الكرسيّ الجليل لم تكن تفهم الإنكليزية، نظراً لأنّ ابنتها كانت تشير إليها كأسطورةٍ، كما لو أنّها ميتة. تابعت إنكارناثيون شرحها بأنّها ترعرعتٍ ممسكةً بطرف تنورةِ أمّها، عاملة منذ طفولتها. بعدٍ خمسةٍ عشر عاماً، حين أُنهى الوالدُ حكمَهُ وخرج من السجن، هرماً ومريضاً مغطى بالوشوم، أُبعد، كما يأمرُ القانون، لكنّ زوجته لم تُرافِقه في العودة إلى المكسيك، لأنّ حبّها جفَّ وعملها ناجحٌ في بيع التاكو وأطباق شعبية أخرى في قلب الحي اللاتيني في ميسيون. بعدها بقليل تعرّفت الصغيرة إنكارناثيون على خوسِهْ مانول مارتينِ، المكسيكي ابنَ الجيل الثاني، الذي كان يملكُ صوتَ بلبلَ وفرقة مارياتشي وجنَسية أمريكية. تزوّجا وانضمّ هو إلى تِجارةٌ مأكولات حماته. استطاعٍ الزوجان مارتين أن يُنجبا خمسةَ أولاد ويملكا ثلاثةَ مطاعم ومصنعاً للعجّة قبل أن يتوفى مارتين بغتةً.

- أخذ الموت خوسِهْ مانويل، جعله الله بجواره وهو يُغنّي راتشِرات —تابعت الأرملةُ وأضافت أنّ بناتها يُدرن محلاتِ

مارتين والابنين الآخرين يعملان في مهنتهما، وجميعهم مسيحيون صالحون، ملتصقون بالعائلة. بوب الابن الأصغر هو الوحيد الذي سبّب لها مشاكل، لأنّه كان في الثانية من عمره حين ترمّلت فنقصته يدُ الأب الصارمة.

- عفواً، سيّدة –تنهّد بلاك جاكسون–. الحقيقة لا أدري لماذا جئنا، لأنّه لم يعد هناك ما يمكن عمله، فحمل ابنتي متقدّم.

- كيف لا يوجد ما يمكن عمله، يا سيّد جاكسون؟ على بوب أن يتحمّل مسؤوليّته! ليس في عائلتنا من يزرع أبناء حرامٍ، اعذرني على الكلمة، لكن لا يوجد كلمة أخرى ومن الأفضلً أن نتفاهم بوضوح. علي بوب أن يتزوّج.

- يتزوّج؟ لكِن ابنتي في الخامسة عشرة من عمرها! –استغرب جاكسون، منتصباً على قدميه بقفزة واحدة.

- في آذار أكمل السادسة عشرة – أشارت إنديانا هامسة.

- أنتِ تسكتين! –صرخ بها أبوها، الذي لم يرفع قط صوته عليها.

- أمّي عندها ستّة أبناءِ أحفادٍ، همٍ أحفادي –قالت الأرملة–. وساعدنا نحن الاثنتين في تربيتهما، تماماً كما سنفعل مع المخلوق القادم في الطريق، بعون الله.

خلال الوقفة التي تلت هذا التصريح نهضة أم الجدّة عن عرشها تقدّمت من إنديانا، بخطوات واثقة، فحصتها بصرامة وسألتها بإنكليزية جيّدة:

- ما اسمك؟
- إندي، إنديانا جاكسون.
- هذا الاسم لم أسمع به. هل هناك من قديسة هندية؟
- لا أعرف، أسموني كذلك لأنّ أمّي ولدتني في ولاية إنديانا.
- آه –هتفت المرأة مرتبكة. اقتربت ولمست بطنها بعناية–. هذا الذي تحملينه في داخلكِ طفلة. أعطها اسماً كاثوليكياً.

في اليوم التالي مَثُلَ بوب مارتين في بيت آل جاكسون القديم في بوتررو هيل بطقم أسود وربطة عنق جنائزية وباقة أزهار مُحتضرة، ترافقَه أمّه وأحد أخوته، الذي كان يأخذه من ذراعه مثل مخلب سجّان. لم تظهر إنديانا، لأنّها بقيت تبكي طوال الليل، وكانت في حالة يُرثى لها. عندها كان بلاك جاكسون قد أذعن لفكرة الزواج، لأنّه لم ينجح في إقناع ابنته بأنّ هناك حلولاً أقل قطعية. لجأ إلى كلّ الموضوعات المتداولة باستثناء موضوع التهديد البائس بإرسال بوب مارتين إلى السجن بتهمة اغتصاب حدث. سجلا زواجهما بلا صخب في السجل المدني، بعد أن وعدا دونيا إنكارناثيون بأن يفعلا ذلك في الكنيسة ما إن تُعَمّد إنديانا، التي ترعرعت عند أبوين ملحدين.

بعد أربعة أشهر، في الثلاثين من أيار 1994 وُلِدت طِفلة، تماماً كما تنبّأت جدّةُ بوب. خرجت المولودة، بعد ساعاتٍ مجهدة، من بطن أمّها كي تقع بين يدي بلاك جاكسون، الذي قطع حبلَ السرّة بالمقص الذي مرّره له الطبيبُ المناوب. حمل بعدها حفيدته، ملفوفة في بطانية ورديّة وقبعة أدخلت حتى الحاجبين ليُقَدّمها إلى آل مارتين ورفاق المدرسة، الذين هرعوا جَمْعاً ومعهم دمىٍ وبالونات. راحت دونيا إنكارناثيون تبكي، كما لو أنّ الأمر يتعلق بجنازة: كانت حفيدتها الوحيدة، الستة الآخرون لم يكونوا يعنون لها كثيراً لأنّهم ذكور. كانت قد حضّرت نفسها خلال أشهر، كان عندها مهد بأطراف منشاة وحقيبتان من الثياب الأنيقة وزوج من حلق اللؤلؤ كي تضعهما في أذني الطفلة ما إن تغفل أمّها. كان قد مضى على أخوي بوب ساعات وهما يبحثان عنه كي يحضر ولادة ابنته، لكنّه كان يوم أحد، والأبُ الجديد يحتفل مع فريق كرة قدمهِ بفوزهم ولم يعثرا عليه حتى الفجر.

ما كادت تخرجُ إنديانا من قاعة التوليد واستطاعت أن تجلس في كرسي بعجلات، حتى حملها أبوها مع المولودة إلى الطابق الرابع، حيث كانت تُحْتَضَرُ الجدّةُ الأخرى.

– ماذا ستُسمونها؟ –سألت ماريان بصوتٍ لا يكاد يُسمَع.
– أماندا. تعني "التي يجب أن تُحَبّ"
– حلو جدّاً. بأيّ لغة؟
– بالسانسكريتية، لكن آل مارتين يعتقدون أنّه اسم كاثوليكيّ– وضّحت لها ابنتها، التي كانت منذ نعومة أظفارها تحلم بالهند.

استطاعت ماريان أن ترى حفيدتها مرّات قليلة جدّاً قبل أن تموت. وقدّمت بين تنهدات نصيحتها الأخيرة لإنديانا. "سوف تحتاجين للكثير من المساعدة لتربية الطفلة، يا إندي. اعتمدي على أبيك وعائلة مارتين، لكن لا تتركي بوب يغسل يديه منها، فأماندا تحتاج لأبٍ وبوب فتى طيّب، لا ينقصه إلاّ أن ينضج". وكانت على حقّ.

الأحد، 8

من حسن الحظّ أنّ هناك شبكة عنكبوتية، فكّرت أماندا، بينما هي تُحَضّر نفسها للحفلة، لأنّها لو سألت فتيات المدرسة الأخريات لبدت بلهاء، كانت قد سمعتهنّ يتكلمن عن الحفلات الموسيقية السرّية، الاجتماعات السرية الهاذية للشباب، لكنّها لم تستطع أن تتصوّرها إلا بعد أن بحثت عنها في الشبكة، حيث تحقّقت من اللباس المناسب. وجدت الضروريّ منه بين ثيابها، فقط اضطرّت لأن تنزع أكمامَ أحد قمصانها وتقصّ أطرافَ تنورةٍ بشكل غيرِ منتظم وتشتري ماسورة طلاء فسفوري. كانت فكرة أن تطلب إذناً من أبيها كي تذهب إلى الحفلة حماقة لم تخطر ببالها، فهو لن يعطيه لها أبداً وإذا علم حضرَ مع فصيلة من الشرطة ليُدّمر حفلة اللهو. قالت له إنّها لا تحتاج للمواصلات وإنّها ستذهب إلى المدرسة مع صديقتها، ولم يلفت انتباهه أنها ستعود إلى المدرسة بلباس كرنفال لأنّه كان مظهر ابنته المعتاد.

أخذت أماند سيارة أجرة تركتها في السادسة مساء في أونيون سكوير، حيث استعدت لتنتظر برهة طويلة. في تلك الساعة كان عليها أن تكون في المدرسة الداخلية، لكنّها اتخذت الحيطة بأن أعلمت المدرسة بأنّها ستصل يوم الاثنين صباحاً، وهكذا تفادت أن يهتفوا لأبويها. تركت الكمانَ في غرفة نومها، لكنّها لم تستطع أن تتحرّر من حقيبة الظهر الثقيلة. أمضت خمس عشرة دقيقة تتأملُ جاذبية اللحظة في الساحة: شاب مطليّ بالذهبِ من حذائه وحتى شعره، بلا حراك كتمثال، يقف السياحِ ليلتقطوا معه صوراً. ذهبت بعدها لتدور في ميسيز، دخلت حماما ورسمت خطوطاً بالطلاء على ذراعيها. في الخارج كانت قد أظلمت، ولكي تُمرِّرَ الوقتَ ذهبت إلى محل للمأكولات الصينية وعادت في التاسعةإلى الساحة، حيث لم يبقَ غير القليل من الناس، فقط بعض السائحين المتدثرين وبعض المتسولين الموسميين الذين يأتون من مناطقَ أبردَ كي يقضوا الشتاء في كاليفورنيا، يتدبرون راحتهم الليلية في أكياس نومهم.

جلست تحت أحدِ المصابيح لتلعبَ الشطرنج بالهاتف المحمول، متدثرة بسترة جدّها الصوفية، التي كانت تُريحُ أعصابها. كانت تنظرُ إلى الساعة كلَّ خمس دقائق، متسائلة بضيق عمّا إذا كانوا سيمرّون بحثاً عنها، كما وعدتها ثينتيا، رفيقة الصفً، التي أنهكتها لأكثر من ثلاث سنوات وفجأة ودون توضيحات دعتها للحفلة بل وقدمت لها وسيلة النقل إلى تيبورون، على بعد أربعين كيلومترا عن سان فرانسيسكو. قبلت أماندا على الفور غير مُصَدّقة، لأنّها كانت المرّة الأولى التي يضمونها إليهم.

فكّرت: على الأقل لو أنّ برادلي، صديق طفولتها وزوجها المستقبلي، كان معها لشعرت بأمان أكثر. تكلّمت معه مرّتين أو أكثر على امتداد النهار، دون أن تذكر له خططها خوفاً من أن يُحاول أن يثنيها. كان من الأفضل أن تحكي لبرادلي وأبيهاالأحداث بعد

الكارثة. كانت تشتاق إلى الطفل الذي كانه برادلي، كان أكثر وداً ومرحاً من النموذج الثقيل الذي صار إليه عندما بدأ يحلقُ ذقنه. في صغرهما كانا يلعبان لعبة أنّهما متزوّجان وألعاباً أخرى شاقّة، كي يرضيا فضولاً لا يرتوي، لكنّه ما كاد يدخل في المراهقة، قبل عامين منها، حتى دارت تلك الصداقة الرائعة دورة نحو الأسوأ. برز براندلي في الثانوية كبطل في السباحة، وفازبفتيات أجسادهنّ أهمّ وبدأ يعاملها كأخت صغرى؛ لكنّ أماندا، كانت تملك ذاكرة جيّدة، لم تنسَ الألعابَ السرية في الحديقة وكانت تنتظر أن تذهبَ في أيلول إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجياكي تُذكر برادلي بها. في غضون ذلك كانت تتفادى إقلاقه بتفاصيل كالحفلة.

اعتادت أن ترى في برّادِ أمّها سكاكرَ وبسكويتٍ سحريّة، هدايا الرسام ماتيوس بِّريْرا،كانت إنديانا تنساها شهوراً، إلى أن يغطيها زغبٌ أخضر وتذهَب لتلقي بها في حاوية القمامة. سبق لأماندا أن جرَّبتها كي تنسجم مع بقية أبناء جيلها، لكنّها لم تكن ترى ظرافة في أن تسير خاوية العقل، هي ساعات ضائعة من الأفضل استخدامها في لعبة نازع الأحشاء، ومع ذلك فكّرت في مساء ذلك الأحد وهي متقوقعة في سترةِ جدّها الصوفية تحت مصباح الساحة، مشاقة إلى بسكويت برّيرا، الذي ساعدها على التحكم برعبها.

في العاشرة والنصف أوشكت أماندا أن تنفجر بالبكاء، واثقة من أنَّ ثينثيا قد خدعتها لمحض الخِسَّةِ. عندما يدبّ الصوتُ بإهانةِ أنّها تركتها مصلوبةً هناكَ ستصبح محطَّ سخريةِ المدرسة. لن أبكي، لن أبكي. في الوقت الذي مدّت يدها إلى الجوّال كي تهتف لجدّها كي يأتي ليبحث عنها، توقفت سيارة نقل مغلقة في زاوية شارعي غيري وبويل، أطلّ أحدهم بنصف جسمه من النافذة أشار إليها.

هرعت أماندا راكضةً بقلبٍ مغتاظ. كان في داخلها ثلاثة فتية ملفوفين بسحابة من الدخان مُحَلّقين مثل مذنبات بمن فيهم السائق.

ترك أحدهم المقعدَ الأماميّ وأشار لها أن تجلس إلى جانب السائق، وكان شابّاً أسودّ الشعر، وسيماً جدّاً في تقليعته القوطيّة. "مرحباً، أنا كليف، أخو ثينثيا" قدّم نفسه ضاغطاً على دواسة السرعةِ حتى النهاية قبل أن تتمكن هي من إغلاق الباب، تذكرت أماندا أنّ ثينثيا قد عرّفتها عليه في كونشرتو عيد الميلادِ الذي قدّمته أوركسترا المدرسة لأُسر الطالبات. كان ليف قد جاء مع والديه، بطقمٍ أزرق وقميص أبيضَ وحذاءٍ لامع، مختلف جدّاً عن هذا المجنون البنفسجيّ المحجرين والشاحب شحوبَ الموت، الموجود إلى جانبها في تلك اللحظة. عند الخروج من الكونشرتو هنّأها كليف على عزفها المنفرد على الكمان برسميّة مفرطة وسخرية. "آمل أن أعودَ وأراك" قال لها غامزاً عندما ودّعها واعتقدت أنّها سمعته خطأً، لأنّه، حسب علمها، ما من فتى نظر إليها مرّتين حتى تلك اللحظة. استنتجت أنّه لا بدّ أن يكون هو سبب دعوة ثينثيا لها. هذه النسخة الشبحية من كليف وسلوكه الأرعن وراء المِقوَد أقلقاها، لكن على الأقل كان الأمر يتعلّق بشخص معروف تستطيع أن تطلب منه أن يوصلها في اليوم التالي إلى المدرسة في الوقت المناسب.

راح كليف يطلق زعيقَ سكران ويشرب من قنينة معدنية كانت تمرّ من يدٍ إلى يدٍ، لكنّه نجح في أن يعبر جسر غولدن غات ويتابع في الطريق السريع 101 دون أن تنفجر السيارة أو يلفت انتباهَ الشرطة. في ساوساليتو صعدت ثينثيا وفتاة أخرى إلى السيارة، اتخذتا وضعيّة مريحة في المقعد وبدأتا تشربان من القارورة ذاتها دون أن تمنحا أماندا نظرةً واحدةً أو تردّا على سلامها. مرّر كليف الكحولَ إلى أماندا بحركة صارمة لم تجرؤ على رفضها. شعرت بأنّها مرتبكة وفي غير مكانها، كما كان يحدث لها دائماً ضمن مجموعة، بل ومضحكة، لأنّه ما من واحدة من أولاء الفتيات كانت مُقنّعة مثلها. كان الوقت قد تأخرّ كي تُغطي ذراعيها بالطلاء، لأنّها قبل أن تصعد إلى السيارة وضعت سترة جدّها الصوفية في حقيبة ظهرها. حاولت أن تتجاهل

الدمدمةَ الساخرةٍ في المقاعد الخلفية. أخذ كليف مخرج تيبورون وقاد السيارة متعرجا في الطريق الطويل على ضفة الخليج، صعد بعدها بعضَ الهضاب وراح يدور باحثاعن العنوان.انتبهت أماندا حين وصلوا أخيرا أنّ الأمر يتعلق بإقامة خاصة، معزولة عن بيوت الجيران بجدار بمظهر منيع، وإلى أنّ في الشارع عشرات السيارات والدراجات النارية. نزلت من السيارة بركبتين مرتجفتين وتبعت كليف عبر حديقة معتمة. عند أسفل الدرجات التي تقود إلى الباب خبّأت حقيبةَ ظهرها تحت إحدى الشجيرات، لكنّها تمسّكت بالجوّال كما تتمسّك بسترة النجاة.

في الداخل كان هناك عشرات الشبان، بعضهم يهتز على إيقاع الموسيقى المدوّية،وبعضهم يشرب وآخرون مرميّون على الدرج بين علبِ البيرة والقناني التي تتدحرج على الأرض، لا شيء من الأضواء الليزرية ولا الألوان الهاذية، مجرّد بيت عار، دون أيّ نوع منٍ الأثاث، مع بعض صناديق الشحن في الصالون؛ كان الهواء كثيفا كمستحضر نشويّ، صعبَ الاستنشاق من الدخان وتطفو في الجوّ رائحة كريهة، خليطٌ من الدهان والماريجوانا والقمامة. توقّفت أماندا مذعورةً، غيرَ قادرة على الحركة، لكنّ كليف ضغطها على جسده وبدأ يهتزّ على إيقاع الموسيقى الجنوني، جاراً إيّاها نحو الصالون، حيث الكلّ يرقصون، كلٌّ على هواه، ضائعاً في عالمه الخاصّ. مرّر لها أحدهم كأساً ورقيّاً فيه عصير أناناس وكحول أتت عليه بثلاث جرعات بفم جاف. بدأت تختنق من الخوف ومن رهاب الانحباس، كما كان يحدث لها في طفولتها حين كانت تختبئ في خيمتها المرتجلة هرباً من أخطاء العالم الهائلة، من وجودِ البشر الماحق، من الروائح الثقيلة والأصوات المُصمّة.

قبّلها كليف على عنقها، باحثاً عن فمها، فردّت هي بضربة من جوالها على وجهه، كادت تُحطم أنفه، لكنّ هذا لم يثبط عزمِهِ على

المُحاولة. تخلّصت أماندا من اليدين اللتين كانتا تبحثان في فتحة القميص وتحت تنورتها القصيرة وحاولت أن تشقّ طريقها. هي التي كانت لا تقبل بالاحتكاك الجسدي إلاّ مع أبناء عائلتها المباشرين وبعض الحيوانات، وجدت نفسها مجرورة، ومَغزوّة معصورة بأجساد أخرى فراحت تصرخ وتصرخ، لكنّ الموسيقى الصاخبة ابتلعت صرخاتها. كانت في قاع البحر، بلا هواء ولا صوت، كانت تموت.

أماندا التي كانت تتبجّح بمعرفة الساعة دون النظر إلى الساعة، لم تستطع أن تُقدّر الوقت الذي مكثته في ذلك البيت، كما لم تعرف ما إذا عادت وصادفت ثينثيا وكليف في تلك الليلة، ولا كيف استطاعت أن تخترق أولئك الناس وتكمن وراء عدد من صناديق النقل، التي استقرّت فوقها الفرقة الموسيقيّة. بقيت هناك أبديّة، مَنقبضة داخل أحد تلك الصناديق، مطويّة مئة طية، مثل بهلوان، ترتعش بلا تحكّم، بأجفان مضغوطة ويدين على الأذنين. لم يخطر لها أن تهرب إلى الشارع أو أن تلجأ إلى جدّها أو تهتف لأبويها.

في لحظة ما وصلت الشرطة بضجيج صفاراتها الفاضح، أحاطت بالعقار واقتحمت البيت، لكنّ الخوف بلغ عند أماندا حدّاً جعلها لا تنتبه، إلّا بعدَ مرور دقائق، إلى أنّ صخب الشباب والموسيقى انقطع وحلّت محله الأوامر والصفير والصراخ. تجرّأت وفتحت عينيها وأطلّت من بين شقوق ألواح خشبِ مخبئها، عندها رأت حزم أنوار المصابيح اليدوية وأرجل الناس الذين تدفعهم الشرطة. كان بعضهم يُحاول أن يهرب، لكنّ الغالبية أطاعت أمرَ الخروج والاصطفاف في الشارع، حيث فتّشوهم بحثاً عن أسلحة أو مخدرات وبدؤوا باستجوابهم، عازلين الأحداث. حكى الجميع القصّةَ ذاتها، تلقوا دعوة عبر رسالة نصية أو الفيسبوك منٍ صديق، لم يكونوا يعرفون لمن البيت ولا أنّه كان خالياً ومعروضاً للبيع، كما لم يستطيعوا أن يُوَضّحوا كيف فُتِح.

بقيت الفتاة خرساء في مخبئها وما من أحد فتّش بين الصناديق، على الرغم منٍ أنّ شرطيّين أو ثلاثة جابوا البيت من أعلاه إلى أسفله، فاتحين أبوابًا ومفتشين زوايا كي يتأكدوا من أنّه لم يبقَ أحدٌ متخلّفاً. وشيئا فشيئا راح الهدوء يسودُ في الداخل، والأصوات والجلبة تصل من الخارج. عندها استطاعت أماندا أن تُفكر. شعرت في الصمت وفي غياب الناس المتوعِّد أنّ الجدران تتلوّى وأن باستطاعتها أن تتنفس. قرّرت أن تنتظر أن يذهب الجميع لتخرج من مخبئها. لكنّها سمعت في تلك اللحظة الصوت الآمر لضابط يُعطي تعليماته بإغلاقه وإقامة حراسة عليه ريثما يأتي فنّيٌّ يستبدل جهاز الإنذار.

بعد ساعة ونصف اعتقلت الشرطة المتسمّمين وفرّقت آخرين وأخذت الأحداث إلى القسم، حيث عليهم أن ينتظروا آباءهم. في هذه الأثناء أقفل مستخدمٌ من شركة التأمين الأبوابَ والنوافذ وبدّل الإنذار ولاقط الحركة. وجدت أماندا نفسها محبوسة في البيت الكبير الفارغ والمظلم، حيث كانت تستمرّ رائحة الحفلة المثيرة للغثيان، دون أن تستطيع أن تتحرّك أو تفتح نافذةً من النوافذ، لأنّ صفارات الإنذار سوف تنطلق. بدا وضعها مستعصياً على الحلّ بعد تدخل الشرطة. لا تستطيع أن تلجأ إلى أمّها، التي لا تملك سيّارة كي تذهب وتبحث عنها ولا لأبيها الذي سيشعر بالعار من مواجهة زملائه بسبب حماقة ابنته، فكيف بجدّها، الذي لن يغفر لها أنّها ذهبت إلى ذلك المكان دون أن تُخبره. اسم وحيد خطر ببالها، الشخص الوحيد الذي سيساعدها دون أن يسألها. دقّت الرقم مرّةً وأخرى حتى فرغ شحن الجوّال، دون أن تلقى جواباً آخر غير جواب المجيب الآلي. تعال وابحث عنّي، تعال ابحث عنّي. عادت بعدها لتقبع في صندوقها، مُتجمّدة من البرد بانتظار أن يأتي الفجر، متوسّلةً كي يأتي أحد ليُحرّرها.

بين الثانية والثالثة فجراً ارتعش هاتف ريان ميلرْ بشكل متكرّر، بعيداً عن سريره، موصولاً بالجدار بينما تُشحن البطارية. كان البردُ

قطبياً في شقته، الطابق الواسع الذي كان مطبعة قديمة أُعيد تأهيلها، بجدرانها القرميدية وأرضيتها الإسمنتية وشبكة أنابيبها المعدنية في السقف، مفروشة بما هو أساسي، بلا ستائر ولا سجاد ولا تدفئة مركزية. كان ميلِرْ ينامُ في سرواله الداخلي، مغطى ببطانية كهربائية ووسادة فوق رأسه. قفز أتيلا، الذي كانت ليالي الشتاء تصير بالنسبة إليه لانهائية فوق السرير كي يُنبّهه إلى أنّ الساعة حانت كي يبدأ طقوسه الصباحية.

نهضَ الرجلُ، المعتاد على الحياة العسكرية، آليّاً، وهو ما يزال مشوّشاً بحلم مقلق، تَلمَّس الأرضَ بجانب السرير بحثاً عن ساقهِ الاصطناعية، التي وضعها خلال الظلمة. نبح أتيلا سعيداً وهو يدفعه برأسه، فردّ على تحيّته بربتتين على ظهره. أشعل بعدها النور، ارتدى بلوزة وجوربين سميكين وذهب إلى الحمّام. عند خروجه وجد أتيلا ينتظره بلا مبالاة زائفة، لكنْ خانته حركة ذيله الخارجة عن السيطرة، الروتين ذاته الذي كان يتكرّر كلَّ يوم. " ها أنا قادم، يا رفيقي، كن صبوراً"، قال له ميلِرْ وهو ينشّف وجهه بمنشفة. كيّل طعام أتيلا ووضعه له في الصحن، بينما الحيوان يتخلى عن كلّ تصنّع، بدأ رقصته المتزلفة التي يستقبل بها فطوره، لكن دون أن يقترب من الصحن، إلى أن سمح له ميلِرْ بإيماءة منه.

قبل أن يبدأ ميلِرْ تمارينَ الكيغونغ البطيئة، نصفَ ساعة من التأمل بالحركة، ألقى نظرة على الهاتف، عندها انتبه إلى مُكالمات أماندا، الكثيرة إلى حدّ أنه لم يُحاول أن يحصيها. تعال ابحث عنّي، أنا مُختبئة، جاءت الشرطة، لا أستطيع أن أخرج، أنا حبيسة، تعال ابحث عنّي، لا تقلْ شيئاً لأمّي، تعال ابحث عنّي... عندما دق رقم الطفلة ووجد أنّه لا توجد إشارة، استطاع قلبه أن يقفز قفزة في صدره قبل أن يغزوه هدوؤه المعروف، الهدوء الذي تَعلّمه في أقسى تدريب عسكريّ في العالم. خلص إلى أنّ ابنة إنديانا في مأزق، لكنّه

ليس قاتلاً: ليست مخطوفة ولا في خطر حقيقيّ، وإن كان كانت خائفة جدّاً، لو كانت قادرة على أن تُوضّح ماذا كان يحدث لها أو أين هي.

ارتدى ملابسه خلالَ بضع ثوان، جلس أمام حواسيبه، كان يملكُ أحدث وأعقد آلة وبرامج، شبيهة بتلك الموجودة في البنتاغون، التي تسمح له بالعمل عن بعد في أيّ مكان. تحديد منطقة خليوي رنّ ثماني عشرة مرّة سهل. هتف لثكنة شرطة تيبورون، عرّف بنفسه، طلب أن يتكلم مع الرئيس وسأله ما إذا حدثت عندهم مشكلة ما في تلك الليلة. أعلمه الضابط، الذي اعتقد أنّه يسأل عن أحد الشبان المحتجزين، بالحفلة وذكر العنوان، مستبعداً أهمية ذلك، لأنّها لم تكن المرّة الأولى التي يحدث فيها شيء مشابه ولم يكن هناك تخريب. كلّ شيء كان مُرَتّباً، قال، أصلحوا جهاز الإنذار وأبلغوا الوكالة العقارية المُكلفة ببيع البيت كي يُرسلوا خدمة التنظيف. بالتأكيد لن يكون هناك مستحقات على الصبية، لكنّ هذا القرار ليس مسؤولية الشرطة. شكره ميلِرْ، وفي لحظة كان على شاشته مشهد البيت وخارطة الوصول. "هيّا بنا، يا أتيلا!"، قال للكلب، الذي لم يكن باستطاعته أن يسمعه، لكنّه فهم من موقف الرجل أنّ الأمر لا يتعلق بالخروج للتجوال في الحي: كان نداءً للعمل.

هتف، بينما كان يسرع باتجاه سيارته، لِبدرو ألاركون، الذي لا شكّ كان في تلك الساعة يحضِّرُ دروساً ويشرب متّة. حافظ صديقه على بعض عادات الأوروغواي، بلده الأصلي تماماً كما هي. مثلُ ذلك المشروبُ الكريه الأخضر والمرّ، الذي كان يبدو لميلِرْ مريعاً. كان دقيقاً في التفاصيل لا يستعمل غير المتّة والمصاصة الفضيّة الموروثة من أبيه، المتّة المستوردة من مونتفيديو، ومياهاً مصفاة بدرجة حرارة دقيقة.

— البسْ ملابسك، سأمرّ عليك لآخذك خلال إحدى عشرة دقيقة، أحضِرْ معك ما هو ضروري لفكّ جهاز إنذار —أخبره ميلِرْ.

- في هذا الوقت المبكّر يا رجل! ما المسألة؟
- دخول غير شرعي —أجاب ميلِرْ.
- ما نوع جهاز الإنذار؟
- جهاز إنذار بيت، لا يجبٍ أن يكون معقّداً.
- على الأقل لن نسرق مصرفاً —تنهّد ألاركون.

كان الوقت مظلِماً ولم تكن حركةُ سير يوم الاثنين قد بدأت بعد، حين عبر ريان ميلِرْ وبدرو ألاركون وأتيلا جسرَ غولدِن غات. كانت الأنوار الصفراء تُنير هيكلَ الحديدِ الأحمر، الذي بدا مُعلّقاً في الفراغ، وكان يصل من بعيد عويلُ صفارة الميناء، تهدي السفنَ في الضباب. بعد قليل، عندما وصلا إلى المنطقة السكنية في تيبورون، كانت السماء قد بدأت تشعشع وراحت سيارات تدور والرياضيون المبكرون يخرجون ليخبّوا. صفّ جنديُّ النخبةِ الشاحنةَ الصغيرة على بعد كتلة من الأبنية، مُفكراً بأنّ السكان في ذلك الحيّ يرتابون من الغرباء وتظاهر بأنّه يتدرج مع كلبه بينما هو يُراقب. 87

تقدَّم بدرو ألاركون من البيت بخطى ثابتة، كما لو أنّ المالكَ أرسلَهُ، عالجَ قفل البوّابة بقضيب معدنيّ، وهذا لعب أطفال بالنسبة لهذا الـ هوديني[8]، القادر على فتح صندوق حديدي بعينين مغمضتين، وفتحه في أقلّ من دقيقة. كان الأمان من اختصاص ريان ميلر، الذي كان يعمل لصالح وكالات عسكرية وحكومية، كانوا يتعاقدون معه كي يحمي المعلوماتِ. كانت مهمّته أن يدخلَ إلى عقل أحدٍ يرغب بسرقة تلك المادّة، يُفكرَ مثل العدّو، يتصوّرَ الاحتمالات المتعدّدة لفعل ذلك ثم يضع الطريقة لمنعه. عندما رأى ألاركون مع القضيب المعدني فكر أنّ أي شخصٍ يملك مهارة وعزيمة يستطيع أن يُحطم أكثر رموز جهاز الأمن تعقيدا، وهذا هو خطر الإرهاب: دهاء فردٍ واحدٍ مموّهٍ في الحشد ضدّ القوّة الجبّارة لأقوى أمّة في العالم.

---

[8]ساحر ولد في بوخارست سنة 1874 وتوفي الولايات المتحدة الأمريكية في تشرين الأول 1926.

كان بدرو ألاركون أوروغوانياً في التاسعة والخمسين من عمره، خرج منفيّاً من بلده عامَ 1976خلال دكتاتورية عسكرية دموية. التحق في الثامنة عشرة بالتوباماروس، رجال حرب عصابات اليسار الذين دخلوا معركةً مسلحة ضدّ حكومة الأوروغواي، مقتنعين بأنّه بالعنف وحده يُمكن تغيير نظام العنف والفساد والظلم السائد. من بين أشكال الصراع الأخرى التي مارسوها كانت صناعة القنابل، سرقة المصارف وخطف الناس إلى أن سحقهم العسكر. كثيرون منهم ماتوا وهم يقاتلون، وآخرونَ أعدموا أو انتهوا إلى السجن والتعذيب، أما البقيّة فهربوا من البلد. ألاركون الذي بدأ في سنّ البلوغ بصناعة القنابل المنزلية وانتهاك الأقفال مع التوباماروس، عنده ملصق قديم مؤطر من السبعينيات، اصفرّ مع مرور الزمن، وصورة له وثلاثة رفاق آخرين من التوباماروس، قدَّم العسكرُ جائزة مقابل إلقاء القبض عليهم. يظهر في الصورة فتى شاحباً بلحية وشعر طويل يعلوه تعبير المُباغتة، مختلف جدّاً عن الرجل رماديّ الشعر والصغير والنحيل، المكوّن من ألياف وعظام خالصة، العالِم الرصين، الذي يمتّع بمهارة لاعبِ الخفة، الذي يعرفه ميلِرْ.

كان الأوروغواني مدرِّساً للذكاء الاصطناعيّ في جامعة (ستانفورد وينافس في السباق الثلاثي مع ريان ميلِرْ، الذي كان أفتى منه بعشرين سنة. بالإضافة إلى اهتمامه بالتكنولوجيا والرياضات، كلاهما كان قليل الكلام، ولذلك كانا مُنْسَجِمَين. كانا عازبين يعيشان باعتدال، وإذا ما سألهما أحد، يقولان إنّهما أكثر خبرة من أن يؤمِنا بظرافة الحبّ والارتباطِ بامرأة واحدة، طالما أنّ هناك كلّ أولاء النساء حسنات النوايا في العالم، إلا أنّهما كانا في أعماقهما كان يُراودهما احتمال أنّ سبب وحدتهما هو سوء حظهما. بالنسبة إلى إنديانا جاكسون كانت الشيخوخة دون شريك هي الموت كمداً، وكانا متفقين معها على ذلك، لكنّهما ما كانا ليعترفا أبداً.

خلال دقائق قليلة فتح بدرو ألاركونِ قفل البابِ الرئيسي واكتشفَ طريقة فصل جِهاز الإنذار ودخـلا معاً إلى البيـتِ. أشعلِ ميلِـرْ ضـوءَ الجوّالِ وأمسكَ بسيرِ أتيلا، الذي راح يشدّه لاهثاً، كاشفاً عن أنيابه، وناخراً نخيراً جافاً عَالقاً في حنجرته، مستعداً للمعركة.

في ومضة من الومضات الكثيرة التي تبهره عادة في أحرج اللحظات وجدَ ريان ميلِر نفسه في أفغانستان. كان باستطاعة جزء من دماغهِ أن يُعالج ما كان يحدث: متلازمة ما بعدِ الصدمة، مع سلسلة صورها الماضية، رعبٍ ليلي، اكتئاب، نوبات بكاء أو غضب. كان قد تمكن من تخطي إغواء الانتحار والكحولية والمخدرات التي كادت تُدمِّره قبل سنوات، لكنّه كان يعرف أنّ الأعراض قد تعود في أيّ لحظة، فلا يجب أن يسهو أبداً، فهي عدوّه الآن.

سمع صوتَ أبيه: ما من رجل جدير بأن يرتدي اللباس الموحد يبكي لأنّه نفذ أوامرَ أو يُحَمِّل الجَيشَ مسؤولية كوابيسه. الحرب للأقوياء والشجعان، إذا كان الدم يُخيفك، ابحث عن عمل آخر. راجع جزءٌ من دماغه الأرقامَ التي كان يعرفها عن ظهر قلب: مليونان وثلاثمئة ألف مقاتل أمريكي في العراقِ وأفغانستان في العقد الأخير، ستة آلاف ومئة وتسعة وسبعون قتيلا وسبعة وأربعون ألف جريح، غالبيتهم بإصابات مأساوية مئتان وعشرة آلاف محارب يعالجون من المتلازمة ذاتها التي يعاني منها هو، على الرغم من أنّ هذا الرقم لم يكن يعكس الوباء الذي كان يعصف بالقوات المسلّحة؛ فإنّ عدد الجنود الذين يُعانون من مشاكل عقلية أو أذيات دماغية يُقدّر بسبعمئة ألف. لكن في مكان آخر من دماغ ريان ميلر، الجزء الذي لا يستطيع التحكم به، كان مُحاصَراً في تلك الليلة على وجه الخصوص في أفغانستان.

تتقدّم مجموعة جنود النخبة في أرض مقفرة، مقتربة من ضيعةٍ في أسفلِ جبال عالية. كانت الأوامر تقضي بأن تُمسح البيوت بيتاً بيتاً،

وتُفكّك المجموعة الإرهابيّة، التي تعمل في المنطقة افتراضاً، وأخذ أسرى من أجل استنطاقهم. الهدف النهائي هو شبح أسامة بن لادن الفرور. هي مهمّة ليليّة لمباغتة العدوّ وتقليص الأضرار غير المقصودة: في الليل لا يوجد نساءٍ في السوقِ ولا أطفال يلعبون في الغبار، هي أيضاً مهمّة سريّة تتطلّب سرعةً وحذراً، اختصاص مجموعته المدرّبة كي تعمل في قيظ الصحراء الذي لا يحتمل وبرد الجليد القطبّي والتيارات تحت المائية والقمم الأكثر وعورةونتن الأدغال. هناك قمر والليل صافٍ. يستطيع ميلر أن يلمحَ جانبَ الضيعة من بعيد وأن يُميّزَ حين يقترب بضعة عشر بيتاً ترابيا وبئراً وحظائر حيوانات، يُفزعه ثغاءُ معزاة في صمت الليل الشبحيّ، يشعر بالتنميل في يديه ورقبته وجريان الأدرنالين في عروقه والانشداد في كلّ عضلة وحضور الرجالِ الآخرين الذين يتقدّمونِ معه وهم جزء منه، ستّة عشر رفيقاً وقلباً واحدا. هكذا رسَّخه المُدرِّبُ عنده في أوّل تدريب، خلال الأسبوع الجهنّمي أسبوع جهنّم المشهور حين كان عليهم أن يتخطّوا حدّ الجهد الإنساني، الامتحان النهائي، الذي تحمّله خمسة عشر بالمئة من الرجال وهؤلاء هم الذين لا يُهزمون.

— هيه، يا ريان، ما بك، يا رجل؟

كان الصوتُ قادماً من بعيدٍ وكرَّر اسمَه مرّتين قبل أن يستطيع هو العودة من تلك الضيعة الأفغانية إلى البيت الفارغ في بلدة تيبورون في كاليفورنيا. كان هذا بدرو ألاركون يهزّه، وخرج ريانٍ ميلِر من شروده ابتلع دفقةَ من الهواء محاولاً أن يُبعدَ الذكرياتِ ويُركز على الحاضر. سمع بدرو يصيح لأماندا مرّتين دون أن يرفع صوته، كيلا يُخيفها وعندها انتبه إلى أنّه أفلت أتيلا. بحث عنه بشعاع النور ورآه يجري من جانبٍ إلى آخر وأنفه ملتصق بالأرض مشوَّشاً من اختلاط الروائح. كانٍ مُدرَّباً على اكتشاف المتفجرات والأجسادِ البشريّة، سواء كانت ميتةً أم حيّة، وببعض النقرات على رقبته دلّه على أنّ المسألة تتعلّق

بالبحثِ عن شخص، لم يُنادِه ميلر، لأنّ الكلبّ كـان أطـرشٍ، لكنّـهِ ركض كي يمسك بسيره وتوقّف أتيلا عنـدما شدّه، مسـتنفراً وسـائلاً بعينيه الذكيتين. أشار له الرجل بأن يهدأ وانتظر حتى هـدأ قبـل أن يسمح له بأن يُتـابعٍ بحثـه. تبعـه عـن قـربٍ متشـبّثاً بـه بقـوّة، لأنّ الحيوان بقي محافظاً على موقف العدوانية المترقبة، إلى المطبخ، غرفة الغسيل ثم وأخيراً إلى الصالون، بينما كـان ألاركـون ينتظـر في البـاب الرئيسيّ. قاده أتيلا بسـرعة باتجـاهِ صـناديقِ النقـل وهـو يشـمّ بـين الألواح كاشفاً عن أسنانه.

أضاء ميلِر داخلَ صندوق كان يخدشه أتيلا ورأى في داخله هيئـة منكمشة، دفعته من جديد إلى الماضي ولثانية صارت طفلين يرتعشـان متقوقعين في جحر، طفلة في الرابعة أو الخامسـة مـن عمرهـا ومنـديل مشدود على رأسها تعلو عينيها الواسعتين الخضـراوين علامـة الـذعر وهي تحتضن رضيعاً. أعادته زمجرة أتيلا وشدُّه للسير إلى واقـع تلـك اللحظة في ذلك المكان. 92

سـرِق النـومُ أمانـدا المنهكـةَ مـن البكـاء داخـل الصـندوق، كانـت منقبِضة مثل قط كي تمنح نفسها بعضَ الدفء. عرف أتيلا على الفور رائحةَ الفتاةِ المعروفـة لـه، جلـس علـى سـاقيه الخلفيـتين، بانتظـار التعليمات، بينما راحَ ميلِر يوقظها. انتصبت بتثاقل، متشنجة منبهرة من النور على وجهها، دون أن تدري أين هي وتـأخرت بضـعَ ثـوان حتى تذكرت ظروفها. "هذا أنا، ريان، كلّ شيء على ما يرام" همسَ لها ميلِرْ وهو يُساعدها على بسطِ جسمها والخروج. حين عرفته مدت ذراعيها إلى عنقه وتفلطحت علـى صـدر الرجـل الواسـع، الـذي راح يربت على ظهرها مواسياً، وراحت تتمتم بسلسلة من الكلمات الودية التي لم يسبق أن قالها لأحدٍ، متأثراً حتى روحه كما لو أنّها لم تكن تلك الطفلة المُدللة هي من تبلله بدموعها، بل الأخرى، ذات العينين الخضراوين وأخوها الرضيع، الطفلان الذي كـان عليـه إنقاذهمـا مـن

الجحر بدقّة وينقلهما بين ذراعيه، كيلا يريا شيئاً مما حدث. لفّ أماندا بسترته الجلدية وأسندها وعبر بها الحديقة، أخذا حقيبةَ الظهر التي كانت خبّأتها في الشجيرات ووصلا إلى الشاحنة الصغيرة، حيث انتظرا أن يُغلق بدرو ألاركون البيت.

كانت أماندا مزكومة من البكاء والرشح الذي بدأ عندها قبل يومين وانفجر في تلك الليلة. اعتبر ميلِرْ وألاركون أنّها ليست في وضع يسمحُ لها بالذهاب إلى المدرسة، لكن وبما أنها أصرّت مرّا بصيدلية ليشتريا لها دواءً وكحولاً كي يُزيلا الطلاءَ الفوسفوريّ عن ذراعيها، ذهبوا بعدها ليتناولوا إفطارهم في المقهى الوحيد الذي وجدوه مفتوحاً: أرضيته من المشمع وطاولاته وكراسيه من البلاستيك، حيث كان يوجد تدفئة حسنة ورائحة شحم خنزير مقليّ لذيذة في الجوّ. الزبائن الوحيدون كانوا أربعة رجال يرتدون بدلات عمل البنائين ويعتمرون قبعاتهم. سجّلت طلباتهم فتاة شعرها واقف بالجيل مثل شعر دُلدُل وأظافر زرقاء ومظهر وسنانة، لأنّها قضت هناك الليلَ بطوله.

وبينما كانوا ينتظرون وصول الطعام جعلت أماندا مُنقذَيْها يعدانها بألا يقولا لأحدٍ كلمة واحدةً عمّا حدث. هي مُعلّمة لعبة نازع الأحشاء الخبيرة في هزم الأشرار والتخطيط لمغامرات خطيرة، قضت الليلَ داخلَ صندوق نقل مخنوقةً بالدمع والمخاط. بحبّتي أسبرين وفنجان شوكولا ساخن مسبوقاً بفطيرتين محلاتين بالعسل، صارت القصّة التي قصّتها عليهما مثيرة للشفقة، ومع ذلك لم يسخر ميلر وألاركون منها ولم يقدّما لها النصائح. هجم الأوّلُ بمنهجية على البيض بالنقانق وغاص الآخر بأنفه في فنجان القهوة، بديلة المتّة البائسة كي يُخفي ابتسامته.

- من أين أنت؟ -سألت أماندا ألاركون.
- من هنا.
- عندك لكنة مكان آخر.

- من أوروغواي —تدخّل ميلِرْ.
- بلد صغير في أمريكا الجنوبية —أضاف ألاركون.
- في هذا الفصل الدراسي عليّ أن أُحضّر تعريفاً ببلدٍ من اختياري لدرس العدالة الاجتماعية. هل يهمّك أن أختار بلدك؟
- سيكونَ شرفاً لي، لكن الأفضل أن تختاري بلداً أفريقيّاً أو آسيوياً، لأنّه لاشيء يحدث في باراغوايٍ أبداً.
- لكن هذا يفيدني، سيكون سهلاً. جزء من التعريف هو مقابلة مع أحدٍ من هذا البلد، وقد تكون بالفيديو. هل تستطيع عمل ذلك؟

تبادلا الهواتفَ والعناوين الإلكترونية واتفقا على أن يلتقيا في نهايةِ شباط أو بدايةِ آذار كي يُصوّرا المقابلة. في السابعة والنصف من ذلك الفجر الحزين، وضع الرجلان الفتاة أمام باب مدرستها. وعندما وداعها لهما طبعت قبلة على خدّ كلّ منهما، سوّت وضعية الحقيبة على ظهرها وانطلقت مطأطأة الرأسِ تُجرجرُ قدميها.

الاثنين، 9

السر الذي أخفاه ألان كِلِرْ بحرص شديد باعتباره مهيناً هو قصوره الجنسي الذي عانى منه منذ شبابه وجعله يتفادى العلاقة الحميمة مع نساء كنّ يجذبْنه، خوفاً من الفشل ومع عاهراتٍ أيضاً، لأنّ التجربة كانت تصيبه بالاكتئاب أو الغضب. حللَ مع طبيبه النفسي عقدّة أوديب بالتفصيل لسنواتٍ حتى سئما من الكلام عن الشيء ذاته وانتقلا إلى موضوعات أخرى. ولكيّ يعوّض ذلك حاول أن يتعرّف بعمق على شهوانية المرأة وأن يتعلم ما كان عليهم أن يكونوا قد علموه إياه في المدرسة، لو كان النظام التعليمي يصبّ، كما كان يقول، اهتماماً أقلّ على تكاثر الذباب وأكثرَ على تكاثر الإنسان. تعلم طرقاً لممارسة الحبّ دون أن يثق بالانتصاب عنده، مُعوّضاً بالبراعة ما كان

ينقصه من طاقة. بعدها عندما اشتُهر بالإغواء، انتشرت الفياغرا ولم تعد هذه المشكلة تُعذّبه. كان سيُتِمُّ اَلحادية والخمسين من عمره عندما ظهرت إندِيانا في حياته مثل ريحٍ ربيعيةٍ عاصفة، مستعدة لأن تمحو كلَّ أثرٍ كريهٍ لانعدام الثقة. بقي يَخرجِ معها أسابيعَ دون أن يتقدّم أبعدَ من قبَل بطيئة، يُمهِّدُ بها الأرضية بصبر يستحق الإطراء، إلى أن تعبت هي منَ مقدّماته، وأخذته من يدهِ دون سابقِ إنذار وساقتْهُ بحزمٍ إلى سريرها، وهو مِضجَع بأربع قوائم تحت ظلّة حريرية غريبة تتدلىً منها أجراس صغيرة.

كانت إنديانا تعيش في شقة صغيرة فوق مرآبِ بيتِ أبيها في منطقةٍ من بوتررو هيل، التي لم يطلها التوسّع، بالقرب من الصيدلية التي كسبَ بلاَك جاكسون منها رزقهُ عشرين سنة. كان باستطاعتها أن تصل إلى عملها على الدراجة في أرض شبه مستوية، فقط كان هناك تلّ بينهما- وهذه ميّزةٍ في سان فرانسيسكو، مدينة التلال. كان المشوارُ يستغرقُ معها مشياً بخطواتٍ سريعة ساعة واحدة وعلى الدراجة عشرين دقيقة فقط. كان لشقتها مدخلان: درجٌ حلزونيّ يصلها ببيتِ بلاك وبابٌ يطلّ على الشارع، يتم الوصول إليه عبر درجٍ خارجيّ شديد الانحدار مصنوع من ألواحٍ خشبية متآكلة وزلقة شتاءً، ينوي والدُها في كلّ سنة تبديلها. كانت الشقّةُ تتألّفُ من غرفتين جيّدتي الحجم وشرفةٍ ونصفِ حمّام ومطبخ أمريكي، وكانت ورشة أكثر منها بيتاً، تسميها العائلة كهف الساحرة حيث يُستَخدَم فضاؤه، باستثناء السرير والحمام والمطبخ، للفنّ ومواد العلاج بالعطور. في اليوم الذي حملت فيه كِلِرْ إلى سريرها، كانا وحدهما لأنّ أماندا كانت في المدرسة الداخلية وبلاك جاكسون يلعب بكرة الجِدار، كما في ليل كلّ أربعاء. لم يكن هناك خوف من أن يعود باكراً، لأنّه كان يذهب بعد اللعب مع أصدقائه في جولة ليأكلوا الخنزير مع الملفوف ويشربوا البيرة في جحر ألمانيّ إلى أن يطردوهم عند الفجر.

داخ كِلِرْ، الذي لم يكن يحمل معه الحبوب الزرقاء السحرية، بعد خمس دقائق من وجوده في ذلك السرير، من اختلاط روائح الزيوت العطرية ولم يستطع بعدها أن يُفكر. أسلم نفسه ليَدَي تلك المرأة الشابة والسعيدة، التي قامت بمعجزة إثارته بضحكتها وجسارتها، لم يسعفه الوقت كي يرتاب أو يخاف، تبعها مبهوراً، إلى حيث أرادت أن تحمله، ثمّ وبعد المشوار عاد إلى الواقع ممتنّاً لها، هي أيضاً التي خبرت عدداً من العشّاق وتستطيع أن تُقارن كانت ممتنّة له، لأنّ هذا كان أوّل أكثر المهتمين بإشباعها من إشباع رغبته. منذ ذلك الوقت وإنديانا هي التي كانت تبحث عن كِلِرْ، تهتف له كي تحثّه برغبتها ومرحها، تتواعد معه في فيمونت، تحتفل به وترضيه. 96

لم يلحظ كِلِرْ قط أي زيفٍ أو تلاعب عندها. كان لإنديانا موقفٌ صريح، تبدو مهزومة بالحب، مشتعلة وسعيدة. كان يسهل عليه حبّها، ومع ذلك كان يتفادى الارتباط بها، إذ يعتبر نفسه عابراً في هذا العالم، مسافراً عابراً لا يتوقف ليتعمّق في شيءٍ آخر غير الفنّ الذي كان يمنحه البقاء، كانت له إغواءات، لكن لم يقع له أيّ حبٍ جدّي حتى وقعَ على إنديانا، المرأة الوحيدة التي استوقفته. كان واثقاً من أنّ ذلك الحبّ مستمرّ لأنّهما أبقيا عليه معزولاً عمّا عداه في حياتيهما. كانت إنديانا ترضى بالقليل وكان يُناسبه هذا الكرم وإن بدا له مريباً. كان يعتقد أنّ العلاقات البشرية مقايضات يفوزُ فيها الأذكى. كان قد مضى عليهما أربع سنوات معاً دون أن يذكرا المستقبلَ ومع أنّه لم يكن في نيتهما الزواج، فقد كان يُغيظُهُ أنها لا تطرحه، لأنّه يعتبر نفسه محط طمع بالنسبة لأيّ امرأة وخاصة لامرأة مثل إنديانا ليس لديها موارد. كان هناك مشكلة فارق السنّ بينهما؛ لكنّه كان يعرف عدداً من الخمسينيين يسيرون مع نساء أصغر منهم بعشرين سنة؟ الشيء الوحيد الذي طالبته به إنديانا منذ البداية، في تلك الليلة الأولى التي لا تُنسى تحت الظلّة الهندية، كان الوفاء.

- أنت تسعدينني جدّاً، يا إندي —قال لها في اندفاعةِ صراحةٍ نادرة عندهِ وقد ألهبه ما عاشه توّاً دون أن يلجأ إلى الحبوب— آمل أن نستمرّ معاً.

- كزوجين؟ —سألته هي.
- كعاشقين.
- يعني علاقة حصريّة.
- هل تقصدين أحادية الزوجة؟ —ضحك .

كان حيواناً أنيساً، يستمتع برفقة الناس الجذّابين والمهذّبين، وبخاصة النساء، اللواتي كنّ بالطبع ينجذبن إليه، لأنّه كان يعرف كيف يقدّرهنّ. كان المدعوّ الذي لا غنى عنه في الحفلات التي تظهر في الصفحات الاجتماعية، يعرف كلّ الناس ومطلعاً على النمائم والفضائح والمشاهير، يلعبُ دور كازانوفا كي يلفت انتباهَ النساء ويُثير حسدَ الرجال، لكنّ المغامرات الجنسية كانت تعقّد حياته وتمنحه متعة أقلّ من حديثٍ ظريفٍ أو عرض جيّد. لقد برهنت له إنديانا جاكسون توّاً أنّ هناك استثناءات.

- لنتّفِق، يا ألان. يجب أن يكون متبادلاً، هكذا ما من أحد منّا سيشعر بأنه مخدوع —اقترحت عليه بجدّية غير متوقّعَة— عانيت كثيراً من غراميات وكذب زوجيَ السابق ولا أريد أن أمرّ بمثل تلك التجربة.

اختار هو أحادية العلاقة دون تردّد، لأنّه لن يرتكب حماقة أن يقول لها إنّها في ذيل أولوياته. وكانت موافقة، لكنّها حذّرته من أنّه إذا خانها سينتهي كلّ شيء بينهما.

- وتستطيع أن تكون مطمئنّاً من ناحيتي، لأنّني ما دمتُ عاشقة سهل عليّ الوفاءُ —أضافت.
- إذن سيكون عليّ أن أُبقي عليكِ عاشقة —ردَّ. 98

في عتمة الغرفة التي لا تكاد تُضيئها بعض الشموع، كانت إنديانا العارية، الجامعة لساقيها، المنكوشة الشعر. عملاً فنّياً يتأمّله كِلَرْ

بعَيْنَي خبير. فَكَّرَ بلوحةِ اختطافِ بناتِ لوكيبوس لروبنـز، الموجـودة في متحف الرسم في ميونخ، الثديان دائريان فاتحا الحلمتين، الوركان ثقيلان وغمازات طفل في المرفقين والركبتين — مع فارق أنّ هذه المـرأة تملك شفتين منتفختينٍ من القبلِ ويعلوها تعبير الرغبة المشبعة الذي لا يُخطـئ. شـهوانية، فكـرَ مفاجَـأً بـردّ فعـل جسـده ذاتـه الـذي كـان يتجاوب معه بسرعة وثبات لم يتذكر أنّه حصل معه من قبل. **98**

بعد شهر راح يتجسّسُ عليها، لأنّه لم يستطع أن يُصدِّق أنّ تكون هذه الشابة الحسناء في متاهة جوّ سان فرانسيسكو، وفيّـةً لـه لمجـرّدٍ أنّها أعطت كلمتها. أقلقته غيرته إلى حدّ أنّه تعاقـد مـع رجـل تحـر خاصّ، يُدعى صموئيل هاميلتون جر، كـي يُراقـب إنـديانا ويحصـي عدد الرجال الذين يحومون حولها، بمن فيهم مرضى عيادتهـا. كـان هاميلتون رجلاً صغيراً، له مظهر بائع كهربائيات منزلية مسالم، لكن له أنف كلبٍ متخصِّص بملاحقةِ المجرمين الذي أطلق شـهرة والـده، كاتب التحقيقـات الصـحفية الـذي حـلّ عـددا مـن الجـرائم في سـان فرانسيسكو في السبعينيات وخُلِّدَ في روايات الكاتب وليام غ. غـوردون البوليسية. كان الابن نسخة تكاد تكون طبقَ الأصلِ عن والـده، ربـعَ القامة، أحمرَ الشعر، نصفَ أصلع، مُراقِباً، عنيداً وصبوراً في صـراعه ضدّ الإجرام، لكن وبما أنّـه كـان يعـيش في ظـلّ أسـطورةِ العجـوز لم يستطع أن يُطـوّر طاقتَـهُ وكـان يكسـب رزقـه كيفمـا اسـتطاع. تـابع هاميلتون إنديانا شهراً دون أن يحصل علـى شـيء مهـمّ فارتـاح كِلِّـرْ لبعض الوقت، لكنّ الراحة دامـت قلـيلا فلجـأ مـن جديـد إلى رجـل التحرّي نفسه، وهكذا راحت دورة الغيرة تتكرّر والمحصـلة مخجلـة. من حسن حظهِ أنّ إنديانا لم ينتبها شك بوجود تلك الدسيسة، علـى الرغم من أنّها كـثيراً مـا كانـت تُصـادفُ صموئيل هـاميلتون في أقـل الأماكن توقّعاً وكانا يتبادلان التحية عبوراً.

الثلاثاء 10

وصل رئيس المفتّشين بوب مارتين إلى إقامة آل أشتون في باسيفيك هايتز في التاسعة صباحا. كان في السابعة والثلاثين من عمره، فتيّاً جدّاً بالنسبة لمنصب رئيس قسم جرائم القتل، لكن ما من أحدٍ شك بأهليّته. أنهى المرحلة الثانوية بشقّ النفس، متميّزا فقط في الرياضة. وكان قد مضى عليه أسبوع وهو يحتفل بتخرّجه مع أصدقائه، دون أن يتذكر أنّه متزوّج حديثا وأن زوجتَهُ ولدت طفلةً، عندما أجبرته أمّه وجدّته على أن يغسلَ الأطباقَ في أحدِ مطاعم العائلة، كتفاً إلى كتف مع أفقر المهاجرين المكسيكيين، نصفهم مهاجرون غير شرعيين، كي يعرف ما هو كسب العيش من دون شهادة أو مهنة. أربعة أشهر تحت طغيان حكم الأُمِّيْن كانت كافية كي تنفض عنه الخمول. درس سنتين دراساتٍ عليا ودخل أكاديمية الشرطة. وُلِدَ كي يرتدي اللباس الموحّد، يحملَ السلاح ويتمتعَ بالسلطة، تعلّم أن يكون مُنضبطا، كان عصيّاً على الفساد، مقداما، صلبا وله جسمٌ قادرٌ على أن يخيف أيّ مجرم وإخلاصٌ مثبتٌ للقسم ولرفاقه.

تكلّم من سيارته بالمحمول مع مساعدته التي لا تكلّ بترا هورٍ، التي أعطته المعلومة الأساسية عن الجريمة. كان ريتشارد أشتون طبيبا نفسيا معروفا من كتابين نشرا في التسعينيات: الفوضى الجنسية عند من هم على عتبة البلوغ ومعالجة لا اجتماعية المراهقين ومعروف حديثا من محاضرة عرض فيها ميزات التنويم المغناطيسي في معالجة الأطفال التوحّديين انتشرت المحاضرة مثل فيروس في الشبكة العنكبوتية، لأنّ توقيتها جاء مع انتشار خبر أنّ التوحّدَ ازداد بطريقة مقلقة في السنوات الأخيرة ولأنّ أشتون قدَّمَ في محاضرته برهانا يليقُ بسفيغنالي[9]: لكي يسكت تمتمات الشك عند الجمهور ويبرهنَ كم

---

[9] بطل فيلم يحمل الاسم ذاته كان مدرس موسيقى ويملك مهارة التنويم المغنطيسي. يتمكن من السيطرة على إرادة تريلبي، الموديل العاري التي لاقت اهتمام بيلي، الفنان الشاب. تتحوّل

نحن قابلون للتنويم المغناطيسي، طلب من الحاضرين أن يضعوا أيديهم خلف رؤوسهم، بعد لحظات لم يستطع ثلثا الحضور أن يفلتوا أيديهم على الرغم من كلّ ما شدّوا وتلوّوا حتى أخرجهم أشتون من غيبوبة التنويم المغناطيسي. لم يكن بوب مارتين يتذكر أنّه سمع باسم هذا الرجل وخاصّة بعنوانِي كتابيه، قالت له بترا هورّ إن المعجبين بأشتون يعتبرونه نابغة في علم نفس الأطفال والمراهقين، لكنّ نقاده يتهمونه بأنّه نازيٌّ جديد وبأنّه يُحَرِّف الأحداث كي يثبت نظرياته وباستخدام طرقٍ غير شرعية مع المرضى المعاقين والأحداثٍ. وأضافت أنّ الرجلَ كثيراً ما يظهر في الصحافة والتلفزيون ودائماً للحديث عن موضوعاتٍ إشكاليةٍ وأرسلت إليه فيديو شاهده المفتّش في جوّاله.

– الق عليه نظرة، يا معلّم، إنْ أنت رغبتَ بأن ترى الزوجة، أشتون تزوّجَ للمرّة الثالثة من أياني —قالت بترا.

– من تكون؟

– أي، يا معلم! لا تقُل لي أنّك لا تعرف من هي أياني. إنّها إحدى أشهر عارضات الأزياء في العالم. وُلِدت في أثيوبيا، هي التي أبلغت عن ممارسة ختان المرأة.

عرف بوب مارتين على شاشة هاتفه تلكَ المرأةَ الرائعة ذات الوجنتين العاليتين والعينين الذابلتين والعنق الطويل، التي رآها على أغلفة بعضِ المجلات، وأفلتت منه صفرة إعجاب.

– من المؤسف أنّني لم أعرفها من قبل! —صاح.

– الآن وقد صارتٍ أرملةً، تستطيع أن تُحاولٍ. إذا ما أمعنّا فيك جيّداً فأنت لست قبيحاً أبداً، يمكن اعتبارك وسيماً.

– هل أنت تُغازلينني، يا آنسة هورّ؟

– لا تخف، يا معلم، فأنت لست نموذجي.

الموديل إلى مغنّية ناجحة بإرادة من سفينغالي لكنّ بيلي لم يفقد اهتمامه بها ويُحاول أن يقطع الرباط الذي يربط بين الاثنين.

أوقف المفتّشُ سيارته أمام إقامة أشتون وقطعَ المكالمةَ مع مساعدته. كان البيت مخفيّاً خلف جدار عال مطليّ بالأبيض تظهر فوقهُ ذؤابات الأشجار دائمة الخضرة. لم يكنّ للبيت من الخارج أي مظهر فخفخة، لكنّ وجوده في باسيفيك هايتز يدلّ بوضوح على المستوى الاجتماعي العالي لأصحابه. كانت بوّابة السيارات المزدوجة مغلقة، لكنّ بابَ المشاة مفتوح. رأى بوب مارتين في الشارع سيّارة إسعاف فلعن بين أسنانه فعالية هذه الخدمات العامّة، التي كثيرا ما تكون أوّل من يصل وتدخل مندفعة اندفاع القطيع الهائج لتقدّم خدماتها الإسعافية دون أن تنتظر الشرطة. قاده أحدُ الضباط عبر حديقة وارفة ومهملة إلى البيت، الفظيع، المكوّن من مكعبات إسمنتية وزجاج رُكّبَ بعضها فوق بعض بطريقة عشوائيّة وكأنّها تحرّكت بفعل زلزال.

كان في الحديقة عدد من رجال الشرطة ينتظرون التعليمات، لكن عينيّ المفتّش صادرتهما الهيئة الشبحية لجنيّةٍ سمراء راحت تتقدم باتجاهه طافيةً في الهواء بين الأوشحة الزرقاء، المرأة التي رآها توّاً في الهاتف. كانت أياني فارعةَ الطول مثله تقريبا، كلّ شيء فيها شاقولي. لها بشرة بلون خشب الكرز، واستقامة عود الخيزران وتماوج حركات الزرافة. ثلاث صور مجازية خطرت على الفور لمارتين، الرجل الذي قليلاً ما يستهويه المجازات الشعرية، بينما هو ينظر إليها مشدوهاً، مركزاً على أنّها كانت حافيةً ترتدي دثارا حريريا بألوان الماء والسماء، مدّت له يداً رقيقة أظافرها غير مطلية.

- السيّدة أشتون، أعتقد، أنا رئيس المفتشين، من قسم جرائم القتل.

- تستطيع أن تناديني أياني، أيّها المفتّش. أنا من هتف للشرطة —قالت عارضة الأزياء الواضحة في رزانتها، الناتجة عن ظروفها.

- احكِ لي ما جرى، يا أياني.

- لم ينم ريتشارد في البيت ليلة أمس. ذهبت اليوم إلى الاستوديو لآخذ له القهوة و...

- في أيّ ساعة؟

- يجب أن يكون بين الساعة الثامنة والربع والثامنة وخمس وعشرين دقيقة.

- لماذا لم ينم زوجك في البيت؟

- كثيرا ما كان ريتشارد يبقى في الاستوديو ليعمل أو يقرأ. كان رجلَ ليل. لم أكن أقلق إذا لم يعد وأحياناً لم أكن أنتبه. لأنّ غرفتَيْنا منفصلتان. اليومِ ذكرى مرور عامٍ على زواجنا، وأردت أن أفاجئه، لذلك حملتُ القهوة إليه بدل أنْ يحملها غالانغ، كما هي العادة.

- من هو غالانغ؟

- الخادم، الذي يعيش هنا، فيليبيني. أيضاً عندنا طاهية وعاملة تعمل بالساعات.

- أحتاج لأن أتكلّم مع الثلاثة. تابعي من فضلك.

- كان الوقت مظلماً والستائر مسدلة. أشعلت النور وعندها رأيته... —تلعثمت المرأة الحسناء ووهنت للحظة، لكنّها سرعان ما استعادت نفسها وأشارت إلى مارتين كي يتبعها.

أمر المفتّشِ رجالَ الدورية أن يطلبوا تعزيزات ويحيطوا المنزلِ بالشريط منعاً لمرورٍ الفضوليين ورجال الصحافة، الذين لا شك سيهبطون هناك سريعاً، نظراً لشهرة الضحية. تبعَ عارضة الأزياء التي قادته عبر درب جانبيّ إلى بناءٍ مجاور للبيت الرئيسي من طراز ما بعد الحداثة ذاته. وضّحت أياني له أنّ زوجها كان يستقبلُ هناك مرضى عيادَتِهِ الخاصّة. كان للأستوديو مدخل منفصل ولم يكن له رابط داخليّ مع البيت.

- سوف تبردين، يا أياني، اذهبي وتدثري قليلاً وانتعلي حذاءً —قال لها بوب مارتين.

- ترعرعت حافيةً، أنا معتادة على ذلك.

- إذن انتظري في الخارج من فضلك، عليك ألّا تعودي لتري هذا.
- شكراً، أيّها المُفتّشُ.

رآها مارتين تبتعد طافية في الحديقة وسوّى بنطلونه خجلاً من ردّ فعله غير المناسب وغير المهني، الذي وللأسف يتكرّر عنده. نفض من رأسه الصور التي أثارتها عنده الربّة الأفريقية ودخل إلى الاستوديو المكوّن من غرفتين واسعتين. كانت الجدران في الأولى مغطاة برفوفٍ الكتب والنوافذ محمية بستائر كتّان سميكة. كان هناك كرسيّ كبير وأريكة جلدية بلون الشوكولاتة وطاولة قديمة من الخشب المحفور، فوق الموكيت الممدود من الجدار إلى الجدار رأى سجادتين إيرانيتين مستهلكتين، كانت نوعيّتهما جليّة حتى بالنسبة لمن هو مثله قليل خبرة في الديكور. قام بجرد ذهنيّ للحاف الريش والوسادة على الأريكة وهو يفكر أن الطبيبَ النفسيّ كان ينام هناك، وحكّ رأسه دون أن يفهم لماذا كان أشتون يفضّل الاستوديو على سرير أياني. "لو كنتُ أنا..." فكّر لبرهة، لكنّه سرعان ما عاد باهتمامه إلى واجبه البوليسي.

رأى على الطاولة صينية فيها غلاية قهوة وفنجان نظيف واستنتج أنّ أياني عندما وضعتها هناك لم تكن قد رأت زوجها بعد. انتقل إلى الغرفة الأخرى التي كان يهيمن فيها مكتب كبير من خشب الكوابا. تأكد مرتاحاً أنّ رجالَ الإسعاف امتنعوا عن غزو الاستوديو. كفتهم نظرة كي يقدّروا الوضعَ وينسحبوا، محترمين جوهر الجريمة. كان أمامه بضع دقائق قبل أن يأتي فريق طبّه الشرعي في حشد. لبس قفازين مطاطيين وبدأ تفتيشه الأوّل.

كانت جسم ريتشارد أشتون ببطنه على الأرض بجانب مكتبه، موثوقِ اليدين ومكمومِ الفم بشريط تغليفٍ لاصق، يرتدي بنطلوناً رماديّاً وقميصاً سماوياً وكنزة من الكشمير الأزرق مفكوكة الأزرار وكان حافياً. كانت عيناه الجاحظان تعبّران عن الخوف المطلق، لكن لا يوجد علامات تدلّ على أنّه صارع من أجل حياته، كلّ شيء كان

مُرَتباً، باستثناء كأس ماء سفح فوقِ المكتب، وبلّل بعض الأوراق وكتاب، مدّد حبرَ بعض الوثائق قليلا، حرّكها بوب مارتين قليلا كي يبعدها عن الماء. تأمّل الجَسد دون أن يلمسه، يجب أن يُصوَّر وأن تفحصه إنغريد دون، قبل أن يستطيع هو أن يمدّ يده إليه. لم يجد جروحاً ظاهرة ولا دماً. ألقى نظرة حوله بحثاً عن سلاح، لكن وبما أنّه كان ما يزال يجهل سبب الموت اكتفى بتفتيش أوّلي.

ظهرت قدرة إنديانا الفريدة على المداواة بالحضور وتحويل الأمراض النفسية الغريبة إلى جسدية في طفولتها وكان عليها أن تتحمّلها مثل صليب إلى أن استطاعت أن تعطيها استخداماً عملياً. تعلّمت أسسَ التشريح وحصلت على إجازة في المعالجةِ الفيزيائية وفتحت بعدها بأربع سنوات عيادتها في عيادات الطب البديل بمساعدة من أبيها وزوجها السابق، اللذين غطيا إيجار المراحل الأولى إلى أن استطاعت أن تكوّن زبائنها. كان لها، بحسب أبيها، مرنانُ خفاش تعرف وهي مغمضة العينين موقعَ وكثافة الألم عند زبائنها، وكانت تُشخّص المرضَ بهذا المِرنان وتُقرر العلاج وتتحقق من النتائج، لكن في الشفاء كان يخدمها أكثر قلبها الطيّب وشعورها العام.

كانت طريقتها في تحويل الألم النفسي إلى ألم جسديّ اعتباطية، كان يظهرُ بطرق مختلفة، يظهر أحياناً وأخرى لا يظهر، لكن في حال عدم ظهوره كانت تلجأ للحدس الذي لم يكن يخونها إذا كان الأمر يتعلق بصحة الغير، وتكفيها جَلسة أو جلستان كي تُحَدِّد ما إذا كان المريض يتحسّن أم لا وفي حال عدم التحسّن ترسله إلى أحد زملاءِ العيادات الشاملة متخصّص بالعلاج بالوخز بالإبر أو بالعلاج المثلي[10]، بالأعشاب، بالتصوير البصري للمتخيَّل، أو بالعلاج الانعكاسي من خلال القدمين، التنويم المغناطيسي، أو العلاج

---

[10] Homeopatía طريقة في المعالجة اخترعها صموئيل هاهنمان في عام 1807، قائمة على أنّ "الشبيهَ يشفي شبيهه".

بالموسيقى وبالرقص، التغذية الطبيعية، اليوغا أو بأي نظام آخـر مـن الأنظمة الكثيرة الموجـودة في كاليفورنيـا. المـرّات الـتي أرسـلت فيهـا مريضاً إلى طبيب معـدودة جـدّاً، لأنّ الـذين كـانوا يـذهبون إلى هنـاك جرّبوا كلّ إمكانيات الطب التقليدي تقريبا.

كانت إنديانا تبدأ بالاستماع إلى قصّة الزبون الجديد وبذلك تمنحه الفرصة كي يُفرّج عن نفسه وكان هذا يكفـي أحيانـاً: الأذن الصـاغية تفعل العجائب. وعلى الفور كانت تضع يديها عليهم لأنّها تعتقد بأنّ الناس يحتـاجون لأن يُلْمَسـوا؛ فهـي شـفت مرضـى التوحّـد، الغُمّـة والندم بالتدليك البسيط. كانت تقول إذا لم يكن المرضُ قـاتلاً، يشـفى الجسد دائماً تلقائياً. كان دورها أن تمنح الجسدَ وقتاً وتُيسِّرَ تفاعلـه؛ لم يكن علاجُها للناس المُلُل. كانـت تسـتخدم تركيبـة مـن التمـارين تسميها الإشفاء المتكامـل ويسـميها أبوهـا بـلاك جاكسـون الشـعوذة، المصطلح الذي يمكن أن يُرعـبَ الزبـائن، حتـى في مدينـة متسـامحة مثل سان فرانسيسكو. كانت إنديانا تُخففُ مـن الأعـراض، تتفـاوض مع الألم، وتحاولُ أن تزيلَ الطاقةَ السلبية وتقوّي المريض.

هذا ما كانت تفعله في تلك اللحظة مع غـاري برونسـفيك، الـذي كان يستلقي على بطنه فوق الطاولة، مغطى بملاءة وستة مغنطيسـات على ظهرهِ وعينيهِ المغمضتين، كان منوّماً بطيبِ نجيل الهنـد، الـذي يدعو للراحة وبصوتِ ماءٍ ونسيم وعصافير في مُسجّلة يكَـاد لا يُسـمع. كان يشعر بضغط كفي إنديانا على جمجمته ويُقدّر بحزن أنّهما يصلان إلى نهاية الجلسة. كان في ذلك اليوم كما لم يكن قط بحاجة إلى تأثير تلك المرأة. كانت الليلة السابقة خانقة، استيقظ على خُمار كأنه خُمار سكرة، مع أنه لا يشرب الكحول، ووصل إلى عيادة إنديانا وهو يعاني مـن شـقيقة لا تُحتمـل، اسـتطاعت هـي أن تُخفـف منهـا بطرقهـا السحرية. جسّدت بصرياً شلالاً من الغبار الكونيّ يهبط من نقطـة مـا بعيدة من الكون يَمرّ عبر يديها ليُغطّي المرَيض.

كانت إنديانا قد استعملت منذ تشرين الثاني من العام الفائت، حين وصل برونسفيك إلى عيادتها لأوّل مرّة، طرقاً مختلفة لكن النتائج كانت بائسة إلى حدّ أنّها بدأت تُصاب باليأس. هو كان يُصرّ على أنّ المعالجة تريحه، لكنّها كانت تستطيع أن تلتقط عذابَهُ بيقين صورة شعاعية. كانت تعتقد أنّ الصحّة تتعلّق بالتوازن المتناغم بين الجسد والعقل والروح، وبما أنّها لم تكتشف شيئاً غير طبيعيّ في جسم برونسفيك، عزت أعراضه إلى عقله المُعذّب وروحه السجينة. سبق للرجل أن أكّد لها أنّ طفولته كانت سعيدة وشبابه طبيعيّاً، بما يعني أنّه يمكن أن يكون شيئاً جاء يجرّجره معه من حيواتٍ سابقة. بقيت إنديانا تنتظرُ الفرصةَ المناسبةَ كي تطرح عليه بسلاسَةٍ حاجتَهُ لتنظيف الكارما. كان هناك تيبتي خبيرٌ جداً بهذا.

كان نموذجاً معقّداً جدّاً. عرفت إنديانا ذلك منذ البداية، قبل أن يفتح فمَهُ في الجلسة الأولى، لأنّها شعرت بتاج من حديد يضغط على جمجمته وبكيس من الحجارة على ظهره. كأنّ هذا البائسُ يحمل على كاهله عبءً هائلاً. شخّصت عنده شقيقة مزمنة، ووضّح لها، هو الذي فوجئ بما بدا له عندها نفاذ بصيرة، أنّ آلامَ رأسه ازدادت حدّتُها في السنةِ الأخيرةِ وصارت تمنعه من القيام بعمله كجيولوجي. هذه المهنة تتطلّب صحّةً جيّدة، قال، إذ عليه أن يزحف في الكهوف ويتسلّقَ الجبال ويُخيّمَ في العراء. كان في التاسعةِ والعشرين من عمره، لطيفَ المحيّا، متواضعَ الجسدِ وقصيرَ الشعر جدّاً، كي يُمَوّه صلعته المبكرة ورماديّ العينين خلف عدستي إطار أسود، لا تناسبانه. كان يذهب إلى المكتب رقمٍ 8 أيّام الثلاثاء بدّقةٍ شديدة دائماً، وكان إذا اضطرّته الحاجة كثيراً يطلب معالجةً ثانيةً خلال الأسبوع.

اعتاد أن يأتي ومعه لإنديانا هدايا مخفيّة، مثل الأزهار أو كتب الشعر، كان يُفكّر بأنّ النساء يُقدّرن الشعر المقفى ذا الموضوعات المتعلقة بالطبيعة –عصافير، غيوم، جداول– وكان هذا هو حال

إنديانا قبل أن تتعرّف على ألان كِلِرْ، الذي كان لا يعرفُ الرحمة في موضوع الفن والأدب. كان عشيقها قد شرع معها بتراث الهايكو الياباني والجنداي[11] الحديث، لكنّها أيضاً كانت تُقدّر في سرّها القصائد الناعمة.

كان برونسفيك يرتدي الجينز وينتعل حذاءً بنعل مطاطي سميك وسترة جلدية ببقع معدنية، الثياب التي كانت تتناقض مع هشاشته التي لأرنب. حاولت إنديانا أن تَعْرِفَهُ بعمق، كما تفعل مع كلّ زبائنها، كي تكتشفَ مصدرَ اضطرابهِ. لكنَّ الرّجل كان صفحةً بيضاء. لم تكن تعرف شيئاً عنه تقريباً، وكانت ما إن يذهب حتى تنسى القليل الذي اكتشفته عنه.

بعد انتهاء جلسة ذلك الثلاثاء أعطته إنديانا قارورةً صغيرة فيها خلاصة إبرة الراعي كي يتذكّر أحلامه.

- أنا لا أحلم، لكنّني أودُّ أن أحلمَ بكِ -قال برونسفيك بنبرته الحزينة المعتادة.
- كلّنا نحلم، لكن، قليلون هم من يعيرون أحلامهم أهميّة- ردّت دون أن تولي تلميحه اهتماماً- هناك ناس مثل سكان أستراليا الأصليين، يعتبرون أنّ حياة الحلم هي بواقعية حياة اليقظة. هل رأيت رسومَ السكان الأصليين؟ يرسمون أحلامهم. إنّها لوحات مذهلة، عندي دفتر ملَاحظات على خُوان سريري ما إن أستيقظ حتى أسجّل فيه أهمّ أحلامي.
- ولماذا؟
- كي أتذكّرها، لأنّها تبيّن لي الطريق، تُساعدني في عملي، وتوضح لي شكوكاً -وضّحت له.
- هل حلمت بي؟

[11] مصطلح ياباني يمكن ترجمته بـ فن القتال أو الدفاع عن النفس.

- أحلم بكلّ مرضاي. أنصحك بأن تكتبَ أحلامكَ، يا غاري، وأن تتأمّل -قالت هي متظاهرة من جديد بأنّها لم تسمعه.

في البداية خصّصت إنديانا جلستين كاملتين لإطلاع برونسفيك على أهمّية التأمّل، تفريغ الدماغ من الأفكار، الاستنشاق بعمق وحمل الهواء حتى آخر خليّة في الجسم والزفير وتفريغ التوتّر. نصحته بأن يبحث حين تصيبُهُ الشقيقة عن مكان هادئ ويتفرّغ للتأمّل خمس عشرة دقيقة كي يسترخي، مراقباً أعراضه بفضول بدل أن يواجهها بالمقاومة؟ "الألم -قالت له- مثله مثل كلّ الأحاسيس، باب للدخول إلى الروح. اسأل نفسك بماذا تشعر وما الذي ترفض أن تشعر به. امنح اهتماما لجسدك. إذا ركّزت على هذا سترى أنّ الألم يتغيّر وأنّ شيئاً ينفتح في داخلك، لكنّني أنبّهك إلى أنّ العقل لن يمنحك هدنة سيحاول أن يلهيك بأفكار وصور وذكرياتٍ لأنّ عقلك مرتاح في اضطرابه العصبيّ، يا غاري. من المهمّ أن تمنح نفسك وقتاً كي تعرفها، أن تبقى وحدك وصامتاً، بلا تلفزيون، ولا جوّال ولا حاسوب. عِدني بأنّك ستفعل، ولو فقط لخمس دقائق يوميّاً" لكن مهما تنفس برونسفيك بعمق ومهما ركز في التأمّل بقي كتلة من الأعصاب.

ودّعت إنديانا الرجلَ، سمعت وقع حذائه يبتعد في الممرّ باتجاه الدرج وارتمت على كرسيّها متنهّدة، منهكة من الطاقة السلبية التي كان ينقلها إليها ذلك الشقيّ ومن تلميحاته الرومانسية، التي بدأت تزعجها جدّياً. كانت الرحمة في عملها ضروريّة، لكن كان هناك مرضى ترغبُ بأن تلوي أعناقهم.

الأربعاء، 11

استقبل جوّالُ بلاك جاكسون ستّ مكالمات من حفيدته، بينما كان يجري مشدوها خلف كرة جدار. حين أنهى آخر شوط، استعاد

نفسَهَ، اغتسلَ وارتدى ملابسه. كانت قد دقت الساعة التاسعة ليلاً وصديقه جائع للطعام الألساسي[12] والبيرة.

أماندا؟ هذه أنت؟

- ومن ستكون؟ أنتَ دققتَ رقمي —ردّت الحفيدة.
- هل هتفت لي؟
- طبعاً، يا جدّي، لذلك أنت تردّ على مكالمتي.
- حسن، أمرك عجيب. أي شياطين تريدين، يا مزعجة! — انفجر بلاك.
- أريد أن أعرف موضوع الطبيب النفسي.
- الطبيب النفسي؟ آه، الذي قتلوه اليوم.
- ظهر اليوم أبوك في الأخبار، لكنّهم قتلوه أوّل أمس ليلاً أو البارحة صباحاً. تحقق من كلّ ما تستطيعه.
- ماذا؟
- تكلّم مع أبي.
- ولماذا لا تسألينه أنتِ؟
- سأفعل ما إنٍ أراه، لكن خلال ذلك تستطيع أن تتقدّم أنتَ في التحقيق. خبّرني غداً بالتفاصيل.
- عليّ أن أعمل ولا أستطيع أن أزعج أباك في كلّ لحظة.
- هل تريد أن تستمرّ بلعبة *نازع الأحشاء* أم لا؟
- طبعاً!

كان الرجل أبعد ما يكون عن الإيمان بالخرافات، لكنّه يشكّ بأنّ روح زوجته تدبّرت أمرها كي تُسَلّمُهُ لأماندا. كانت ماريان قد أكّدت له قبل موتها بأنّها ستسهر على راحته وستساعده على أن يجد عزاءً في وحدته. اعتقد أنّها تقصد زوجة ثانية محتملة، لكنّ الأمر

---

[12] نسبة الاسيا الفرنسية على الحدود بين ألمانيا وسويسرا

كان يتعلّقُ بأماندا. حقيقة لم يملك الوقت كي يُبكي المرأةَ التي طالما أحبّها، لأنّ أشهرَ الترَمّل الأولى مرّت عليه وهو مشغولٌ بمهمّة إطعام الحفيدة وتنويمها وتبديل قماطاتها وتغسيلها والهدهدة لها؛ حتى في الليل لم يكن يشتاق لدفء ماريان في السرير، لأنّ الطفلة كانت تعاني من المغصٍ وتزعق ملءَ رئتيها. كان صراخها المستميت يوقظ إنديانا مذعورةً لتَنتهي بالبكاء معها، بينما هو يمشي بالبيجاما والطفلة بين ذراعيه ويتلو معادلات كيميائية حفظها عن ظهر قلبٍ في كلية الصيدلة. كانت إنديانا في تلك المرحلة صغيرة، في السادسة عشرة من عمرها، جاهلة بوظيفتها الجديدة كأم ومكتئبة لأنّها بدينة مثل حوتٍ صغير ولم يكن لزوجها فائدة كبيرة. عندما تخلّصت أماندا أخيراً من المغص، جاءتها أزمة أسنانها الأولى ثم جدري الماء التي طبختها بالحرارة وغطّتها بالبثور حتى في أجفانها.

كان هذا الجدّ العاقل يُفاجَأ وهو يسأل شبحَ زوجتهِ بصوتٍ عالٍ ماذا يستطيع أن يفعل بتلك المخلوقة المستحيلة وجاءه الجواب مجسداً بإلسا دومينْغِثْ، المهاجرة الغواتيمالية، التي أرسلتها إليه حماة ابنته، دونيا إنكارناثيون. كانت إلسا غارقة في العمل، لكنّها شعرت بالحزن على جاكسون ببيته الذي صارٍ زريبة وابنته التي لا نفع منها وصهره الغائب وحفيدته الباكية دائماً وسيئة التربية، لذلك تركت زبائن آخرين وكرّست نفسها لتلك العائلة. كانت تأتي في سيارتها القديمة بحذاء وثياب رياضية، من الاثنين وحتى الجمعة خلال الساعات التي كان يذهب فيها بلاك جاكسون إلى الصيدلية وإنديانا إلى المدرسة الثانوية، فرضت الترتيب واستطاعت أن تحوّل الكائنَ المجنون الذي هو أماندا إلى طفلة طبيعية إلى هذا الحدّ أو ذاك. كانت تُكلّمها بالإسبانية وتجبرها على أنِ تأكل كامل ما في الصحن وعلّمتها أن تخطو خطواتها الأولى، ثم علّمتها الغِناء والرقص وكنسَ الأرض بالمكنسة الكهربائية وتحضير المائدة. عندما أتمت أماندا الثلاث سنوات من عمرها وانفصل والدها أخيراً حملت إليها قطةً مستنمِرة هدية كي ترافقها وتقوي مناعتها. في قريتها

كان الأطفال يترعرعون بين الحيوانات والمياه الوسخة، قالت، لذلك هم لا يمرضون مثل الأمريكيين، الذين ينهارون أمام أوّل بكتيريا تحلّ فيهم. تأكدت نظريتها، لأنّ جينا، القطة، شفت أماندا من الربو والمغص.

الجمعة، 13

انتهت إنديانا من آخر زبون في الأسبوع، وهو كلب صغير مصاب بالروماتيزم، كان يُقطّع قلبها وكانت تعالجه مجاناً، لأنّه يعودُ لأحدى معلمات مدرسة ابنتها، المدينةِ أبدياً بسبب زوجها المدمن على القمار وأغلقت المكتب رقم 8 في السادسة والنصف. سارت إلى مقهى روسيني، حيث كان ينتظرها أبوها وابنتها.

كان بلاك جاكسون قد ذهب، كما في كلّ جمعةٍ إلى المدرسة للبحث عن حفيدته. كان يقضي الأسبوع بكامله مُنتظراً تلك اللحظة التي تكون فيها أماندا معتقلة في سيارته، ويُحاول أن يُطيلها بالقيادة في أكثر المناطق ازدحاماً. كان الجدّ والحفيدة رفيقين، متواطئين وشريكين في الجريمة، كما كان يحلو لهما أن يقولا. كانا خلال الأيّام الخمسة التي كانت تقضيها الصغيرة في المدرسة الداخلية، يتواصلان يوميّاً تقريباً في اللحظات المتاحة كي يلعبا الشطرنج أو لعبة *نازع الأحشاء*؛ ويُعلقا عبر الهاتف على الأخبار التي يختارها لها، مع التأكيد على الغريب منها: صغير حمار الزرد الذي وُلد برأسين في حديقة حيوان بيجينغ، بدين أوكلاهوما الذي مات مخنوقاً في ضراطه، المعاقون عقليّاً الذين بقوا محبوسين في قبو بضع سنين، بينما كان خاطفوهم يقبضون التأمين الاجتماعي. في الأشهر الأخيرة لم يتناولا غير الجرائم المحليّة.

عندما دخلت إلى المقهى تأكّدت إنديانا منزعجةً أن بلاك وأماندا جالسَيْن مع غاري برونسفيك، الذي لم تتوقّع أن تراه مع عائلتها.

في نورث بيث، حيث مُنِعت السلاسل التجارية منعاً للموت البطيء للمتاجر الصغيرة، التي كانت تضفي شخصية متميزة على الحي الإيطالي، كان من الممكن للمرء أن يشرب قهوة ممتازة في أكثر من عشرة محلات قديمة. كان السكان يختارون مقهاهم ويبقون أوفياء له، وكان المقهى يُحدّد مَنْ يكون كلّ واحد. لم يكن برونسفيك يعيش في نورث بيث، لكنّه تردّد في الأشهر الأخيرة كثيراً على مقهى روسيني حتى صاروا يعتبرونه زبوناً مألوفاً. كان يقضي بعضَ أوقات فراغه على طاولة بجانبِ النافذة، محصوراً بحاسوبه، دون أن يتكلّم مع أحدٍ، غير داني دانجلو، الذي كان يغازله بلا حياء فقط كي يتمتع بعلامات الرعب على وجههِ، كما اعترف لإنديانا. كان يسرّه أن يراه ينكمش في كرسيّه خجلاً عندما يُقرّب شفتيه من أذنه ويسأله بهمسات بذيئة ماذا يريد أن يتناول.

كان داني قد لاحظ أنّه إذا تواجدَ الجيولوجيُّ في المقهى فإنّ إنديانا تشربُ الكابوتشينو وقوفاً عند طاولة العرض وتودّع مسرعة، فهي لم تكن تريد أن تهين مريضها بالجلوس إلى طاولة أخرى ولم تكن دائماً تملك وقتاً كي تجلسُ فيه معه وتتحدّث. في الحقيقة لم تكن أحاديث، كانت تبدو أقرب إلى الاستنطاق يسأل هو فيها أسئلة تافهة وتجيبه هي شاردة الذهن: ستكمل في تموز الرابعة والثلاثين، مُطلقة منذ كانت في التاسعة عشرة من عمرها، زوجها شرطي، ذهبت مرّة إلى اسطنبول ودائماً كانت تريد أن تذهب إلى الهند، ابنتها تعزفُ على الكمان وتريد أن تتبنى قطة، لأنّ قطتها ماتت. كان الرجل يصغي إليها باهتمام غريب وكانت هي تتثاءب خفيةً وهي تفكر بأنّ هذا الرجل الصغير موجود خلف حجاب، كان صورة مشوشة للوحة مائية بهتت ألوانُها. هناك كان في تلك اللحظة، في اجتماع حميم مع عائلتها، يلعب الشطرنج مع أماندا من دون رقعة ولا قطع.

كان دانجِلو قد قدّم أب وابنة إنديانا إليه على أنّه أحد مرضاها. قدّر غاري أنّ على الجدّ والحفيدة أن ينتظرا ساعة على الأقل حتى

تنهي إنديانا جلستها مع الكلب، وبما أنّه كان يعرف أنّ أماندا تُحب ألعاب الطاولة، لأنّ أمّها حكت له ذلك، فقد تحدّاها بشوط شطرنج. جلسا أمام الشاشة، بينما كان بلاك يقيسُ الوقت في ساعة الوجهين التي كان يحملها دائماً في جيبه حين يخرج مع أماندا. "هذه الصغيرة قادرة على أن تلعب مع عدد من المنافسين في وقت واحد" حذّر بلاك برونسفيك، فرد عليه: "وأنا أيضاً". تبيّن في الحقيقة أنّه لاعب أكثر دهاء وعدوانيّة مما يوحي به مظهره الخجول.

بحثت إنديانا مضطربة ومكتوفة اليدين عن طاولة أخرى تجلس إليها، لكنّها كانت جميعها مشغولة. رأت في زاوية رجلا ذا مظهر معروف وإن لم تستطع أن تُحدّد من يكون، منطوياً على كتاب جيب وسألته عمّا إذا كان بمقدورها أن تُشاطره طاولته فانتصب على قدميه بفجاجة مهزوزاً حتى سقط الكتاب على الأرض الذي أخذته هي، كانت رواية بوليسية لشخص يُدعى وليام ث. غوردون، كانت قد رأتها بين كتب كثيرة جيدة وسيّئة يُراكمها أبوها. أشار الرجل، الذي امتقع وصار بلون الباذنجان الذي لحمر الشعر الخجولين، إلى الكرسي الآخر.

- نحن التقينا من قبل، أليس كذلك؟ -قالت إنديانا.
- لم يحصل لي شرف أن قُدّمت إليك، لكنّنا تصادفنا مراتٍ عديدة. أنا صموئيل هاميلتون جرٍ. رهن أوامرك اللطيفة -ردّ هو رسميّاً.
- إنديانا جاكسون. عفواً لا أريد أن أقطع عليك قراءتك.
- أنتِ لا تقطعين عليّ شيئاً على الإطلاق، يا آنسة.
- هل أنت متأكد من أننا لا نعرف بعضنا؟ -ألحّت إنديانا.
- متأكد.
- هل تعمل في هذه المنطقة؟
- أحياناً.

وهكذا بقيا يدردشان عن لا شيء، بينما هي تشربُ قهوتها وتنتظرُ أن ينتهي أبوها وابنتها، اللذان لم يتأخرا أكثر من عشر دقائق، لأنّ

أماندا كانت تلعب مع برونسفيك بعكس عقارب الساعة. حين أنهت الشوط فوجئت إنديانا بأنّ تلك القملة قد هزم ابنتها. "أنت مدين لـي بالانتقام"، قالت أماندا لِـغاري برونسفيك وهي تودّعه، ملدوغة لأنّها معتادة على الفوز.

تعودُ شهرةُ مطعم *قلب إيطاليا* القديم الذي دُشّـن في العـام 1886، إلى أصالة مطبخِهِ ولأنّه كان مسرحاً لمجزرةِ رجال مافيا في عام 1926. كان رجال المافيا الإيطالية قد اجتمعوا في المطعـم الكـبير كـي يتلـذّذوا بأفضـل معجنات المدينة ويشربوا نبيذاً غير شرعيٍّ ويتقاسموا أرض كاليفورنيا، في جوّ حميم إلى أن أخرجت مجموعة رشاشاً وقضت على منافسيها. خـلال دقائق كان هناك أكثر من عشرين زعيماً من زعماء الجريمة ممـدّدين علـى الأرض والمحـل صـار مريعـاً. لم يبـق مـن ذلـك الحـدث الكريـه غـير الذكرى، لكنّه كان يكفي كي يشدّ السياح، الـذين كـانوا يـأتون بفضـول مريض ليتذوقوا المعجنات ويلتقطوا الصور لصـالة الجريمـة، إلى أن الـتهمً حريق المحل وأقيم المطعم في مكان آخر. الشائعة الدائمـة في نـورث بيـث هي أنّ زوجـة صـاحبه رشـته بـالبنزين وأضـرمت فيـه النـار كـي تغيظ زوجها الخائن، لكنّ شـركة التأمينـات لم تسـتطع أن تُثبـت ذلـك. كـان *قلب إيطاليا* الجديـد يتمتـع بأثـاث جديـد ويحـافظ علـى الجـوّ الأصـلي بلوحاته الضخمة، مناظر توسكانا الطبيعية المثالية، ومزهرياتـه الفخاريـة المطلية وأزهاره بلاستيكية.

عندما وصل بلاك وإنديانا وأماندا كان ريـان ميلِـرْ وبـدرو ألاركـون بانتظارهم. كان الأوّل قد دعاهم كـي يحتفـل بعقـد لشـركته، ذريعـة جيدة كي يلتقي بإنديانا، التي لم يكن قد رآهـا منـذ أيـام عديـدة. كان في واشنطن العاصمة في اجتماع عملٍ مع وزير الدفاع ورؤساء وكالة المخـابرات الأمريكيـة يناقشـون برنـامجً الأمـن الـذي كـانوا يُطوّرونـه بمساعدة بدرو ألاركون، الذي كان يتفادى أن يذكرَ لهم اسمـه، لأنّـه كان رجل حرب عصـابات قبـل خمـسٍ وثلاثـين سـنة، وكـان رجـل

العصابات بالنسبة إلى بعضهم ممن ما يزالون يحملون عقلية الحرب الباردة، مرادفاً للشيوعي، بينما كان رجل حرب عصابات بالنسبة لآخرين أكثرَ إطلاعا على التاريخ المعاصر، يعني إرهابيّاً.

عندما رأى ميلِرْ إنديانا بجزمتها المريعة وبنطلونها الجينز المهترئ عند الركبتين وسترتها العادية وبلوزها الذي لا يكاد يضمّ ثدييها حتى شعر بمزيج من الرغبة والرقة، التي كانت دائماً تُثيرها عنده. كانت المرأة قادمة من العمل، متعبة، دون ماكياج، جمعت شعرها في ذيل، لكنّ سعادتها بأنّها ما تزال حيّة وتسكنُ جسدها جعلت عددا من الرجال على طاولات أخرى يلتفتون غريزياً كي يتأملوها. إنّها طريقتها الآسرة في المشي، فقط في أفريقيا تتحرّك النساء بمثل تلك الجرأة، حكم ميلِرْ المتضايق من رؤيته لردّة الفعل الذكورية البدائية. تساءل من جديد، كما في مرّات كثيرة سابقة، كم من الرجال يهيمون في العالم مشدوهين بذكراها، يحبّونها في سرّهم، وكم هناك من يمضون متعطشين لحبّها أو توّاقين لأن يحرّرهم سحرها، سحرُ الساحرة الطيِّبة من خطاياهم وآلامهم التي.

اعترف ميلِّرْ أخيراً، حين لم يعد قادراً على أن يتحمل وحده الحيرة والإحباط واندفاعات الأمل الفجائية للحب الصامت، لبدرو ألاركون أنّه عاشق. تلقى صديقه الخبر بمرح وسأله ماذا كان ينتظر كي يبلغه للوحيدة التي يمكن أن تهمّها مثل هذه الحماقة. لم تكن حماقة، فالمسألة هذه المرّة جدّية، لم يشعر قط بشيء بمثل ذلك التركيز تجاه أحد، أكّد له ميلِرْ. ألم يتفقا على أنّ الحبّ خطر لا ضرورة له؟ أصرّ ألاركون. نعم، ولذلك مضى عليه ثلاث سنوات وهو يصارع كي يبقي الجاذبية التي يشعر بها تجاه إنديانا تحت السيطرة، لكنّ سهم الحبّ أحياناً يحدث جرحاً لا شفاء له. رعشة طويلة هزّت بدرو ألاركون أمام مثل ذلك التصريح المنطوق بنبرة وقورة. رفع النظارة نظفَ عدستيها ببطء بطرف قميصه.

- هل نمت معها؟ -سأله.
- لا!
- هذه هي المشكلة.
- أنت لا تفهم شيئاً، يا بدرو. نحن لا نتكلّم عن الجنس، هذا يمكن الحصول عليه في أيّ مكان، بل عن حب حقيقيّ. إنديانا عندها عشيق، شخص يدعى كِلِرْ، وهما منذ سنوات معاً.
- و؟
- إذا ما حاولت أن أغويها، سأخسرها كصديقة. أعرف أنّ الإخلاص بالنسبة إليها مهم جدّاً، تكلّمنا عن هذا. ليست من النوع الذي يمشي مع رجل وتغازل آخر، هذه إحدى فضائلها.
- دعك من الحماقات، يا ميلِرْ. ما دامت عازبة مسوح لك الصيد. هكذا هي الحياة. أنت مثلاً ليس لك الحق بملكية جنيفر يانغ. عند أوّل غفلة منك قد يأتي شخص أكثر فطنة منك ويأخذها منك. الشيء ذاته تستطيع أن تفعله مع كِلِرْ.

لم يبدُ للآخر مناسباً أن يحكي له أنّ علاقته بجنيفر يانغ قد انتهت، على الأقل هكذا كان يأمل، وإن كانت هي ما تزال قادرة على أن تمنحه بعض المفاجآت المزعجة. كانت امرأة انتقامية، العيب الوحيد الذي تؤاخذ عليه، وفيما عدا ذلك كانت تتفوّق كأفضل صيدٍ لجنديّ النخبة: حلوة، ذكية، عصريّة، دون أيّ رغبة بالزواج أو الإنجاب، راتب جيد وهوس شبقي بأن تكون عبدة. كانت هذه الشابة الموظّفة التنفيذية في بنك ويلز فارغو تُثار بشكل غامض بالطاعة والتحقير والعقاب. كانت جنيفر حلمَ أيّ رجل عاقل؛ لكن مِيلِرْ الذي كانت له متعه البسيطة كلّفه كثيراً التكيّف مع قواعد اللعبة التي مرّرت له كي يتعلّم كتاباً نشر حديثاً. كان الأمر يتعلّق برواية بعنوان حول اللون الطحيني أو الرمادي، لم يكن متأكداً، الشعبيّ جدّاً عند النساء، بالحبكة التقليدية للروايات الرومانسية إضافة إلى جرعة الإباحية الناعمة، حول العلاقة السادية المازوخية بين عذراء بريئة

مكتنزة الشفتين، ومليارديرٍ وسيم ومتسلّط.عَلّمَت جنيفر في الرواية العقدَ الذي يحدّد مختلف أشكال المعاملة السيّئة التي على العذراء — بعد أن لا تعود كذلك- التي عليها أن تتحمّلها: السوط، الطوق الخانق، العصيّ، الاغتصاب وأيّ شكل من أشكال التوبة تخطر ببال سيّدها، ما دامت لا تترك ندباً أو تفرض بتلطيخ الجدران بالدم. لم يتّضح لميلرْ مقابل ماذا كانت بطلة الرواية تخضع لذلك التطرف في العنف المنزلي، لكنّ جنيفر أرته الواضح منها، كانت العذراء السابقة تصل بالعذاب إلى احتدام المتعة دون شعور بالذنب.118

لم تنجح الأمور بين ميلّرْ ويانغ كما في الكتاب. فهو لم يأخذ قط دوره بجدّية وهي كانت تفوتها الرعشة إذا ما ضربها بصحيفة ملفوفة وتأخذها نوبة ضحك. كانت خيبتها مفهومة، لكن أن تتشبّث برايان ميلّرْ بقنوط الغريق لم يكن مفهوماً. قبل أسبوع، عندما طلب منها أن ينقطعا عن اللقاء لزمنٍ وهذا تلطيف مستخدم عالمياً لصرف العشيق. أثارت جنيفر مشهدا بلغ من المأساوية ما جعل ميلرْ يندم لأنّه قال لها ذلك في صالون شاي أنيق، حيث علم الجميع بذلك بمن فيهم الحلواني الذي أطلّ ليعرف ما الذي كان يجري.. لمرّةٍ واحدة لم يفده تدربّه كجندي من النخبة. دفع الحساب مستعجلا وأخرج جنيفر من الصالون دون أي مهارة دفعا وقرصاً بينما هي تقاوم بإجهاش متقطع. "ساديّ" صاحت به امرأة من طاولة أخرى وجنيفر على الرغم من خطورة وضعها العاطفي حافظت على بعض صحوها، أجابتها من فوق كتفها: "حبّذا لو كان كذلك، يا سيّدة" .

استطاع ريان ميلّرْ أن يحشر جنيفر في سيارة أجرة واستطاع قبل أن يخرج راكضا في الاتجاه المعاكس أن يسمعها تصرخ من النافذة بسلسلة من اللعنات والتهديدات التي بدا له أنّه ميّز بينها اسم إنديانا جاكسون. يمكن للمرء أن يتساءل كيف علمت جنيفر بوجود إنديانا. يجب أن يكون من خلال الأبراج الصينية، لأنّه لم يذكرها لها قط.

كان أتيلا ينتظرُ المدعوّين بجانب ميلّرْ وألاركون، في باب مطعم قلب إيطاليا بدثار الخدمة الذي يسمح له بالدخول إلى أي مكان. حصل ميلّرْ عليه كجريح حرب، على الرغم من أنّه لم يكن يحتاج لخدمة الكلاب، بل لرفقتها فقط. بدا لإنديانا مستغرباً أن تُسَلم ابنتُها، التي كانت متمنّعة عن أي احتكاك جسدي بأيّ شخصٍ غريب عن عائلتها المباشرة، على جنديّ النخبة والأوروغواني تقبيلا على الخدود وتجلس بين الاثنين على الطاولة. استنشق أتيلا باستمتاع رائحةَ أزهار إنديانا، لكنّه وقف بين كرسيّ ميلّرْ وكرسيّ أماندا، التي كانت تَحك بشرودٍ الندبَ بينما هي تدرس وجبةَ اليوم. كانت واحدة من الأشخاص القليلين الذين كانت أنياب التيتانيوم ومظهر الذئب المضروب عند أتيلا لا تفاجئها.

طلبت إنديانا، التي لم تَستعد هيئةَ العازبة قطّ، ولم تكن مهووسة بعدد من الكيلوغرامات أكثر أو أقل، سلطة ثِسر والغنوتشي مع الأوسوبوكو، وأجاصاً بالكرميلا، اقتصر بلاك على اللينغويني[13] مع البحريات، وكان ريان ميلّرْ حريصاً على حميته فاختار سمكة الربيبة على الصاج واختار بدرو ألاركون أكبرَ شريحة لحم في وجبة اليوم، التي لن تكون أبداً بجودةِ شرائح لحم بلده، بينما طلبت أماندا، التي كانت تعتبر اللحم مهما كانَ نوعه لحمَ حيوان ميتٍ وتسأم من الخضراوات، ثلاثة أطباق عقبة وكوكاكولا ومزيداً من المناديل الورقية كي تمخط، لأنّها كانت مصابة بزكام فاضح.

- هل حققّتَ بما طلبته منك، يا كابلْ؟ -سألت جدّها.
- تقريباً، يا أماندا، لكن لماذا لا نأكلُ قبل أن نتكلّم عن الجثث؟
- لن نتكلّم والطعام يملأ فمنا، لكنّك تستطيع أن تحكي لي بين صحن وآخر.
- ما المسألة؟ -قاطعتهما إنديانا.

---

[13] أنواع من الأطباق الإيطالية

- جريمة قتل الزوجين كونستانتِ، يا أمّي —قالت أماندا مُمرّرة قطعةً من الخبز للكلب تحت الطاولة.
- من؟
- حكيتها لكِ ألفَ مرّة لكنّك لا تسمعينني.
- لا تُطعمي الحيوان، يا أماندا. لا يأكل إلاّ ما أعطيه له أنا، لتفادي أن يسمّوه —حذّرها ميلرْ.
- من سيُسمّمه؟ لا تكن مهووساً، يا رجل.
- افعلي ما أقوله لك. الحكومة صرفت ستّة وعشرين ألف دولار على تدريب أتيلا، لا تُخرّبيه لي. ما علاقتكِ بجرائم القتل هذه؟
- هذا ما أسأله أنا أيضاً . لا أرى سبباً لتعلّقها بموتى لا نعرفهم —تنهّدت إنديانا.
- كابل وأنا نُحقّقُ بشكل مستقلّ بقضية إدْ ستيتون، شخص أدخلوا في مؤخّرته مضرب بيسبوّل.
- أماندا! —قاطعتها أمّها.
- ماذا جرى؟ ظهر على الشبكة العنكبوتية. ليس هذا سرّاً. حدث هذا في تشرين الأوّل. عندنا أيضاً الزوجان كونستانتِ، قتلا بعد شهر من ستيتون.
- ويوم الثلاثاء قتلوا طبيباً نفسيّاً—أضاف بلاك.
- بالله عليك، يا أبي! لماذا تُسايِر الصغيرة؟ هذا الهوس خطير! —صاحت إنديانا.
- ليس فيه أيّ خطرٍ، هي تجربة. ابنتُك تُريد وحدها أن تضع فعاليةَ التنجيم على المحك —وضّح أبوها.
- لستُ وحدي، أنتَ أيضاً، واسمِرالدا وسير إدموند بادينغتون، وأباتا وشارلوك —صحّحت له الحفيدة.
- من يكون هؤلاء؟ —سأل ألاركون، الذي بقي حتى تلك اللحظة يلوك لحمَ عجله بتركيز عميق، بعيداً عن ثرثرة الطاولة.

- لاعبو لعبة *نازع الأحشاء*، لعبة تمثُّل الأدوار. أنا كابل، خادم معلمة اللعبة —أخبره بلاك.
- لست خادمي، أنت مأموري. تُنفِّذ أوامري.
- هذا خادم، يا أماندا —وضّح الجدُّ.
- إذا أخذنا بالحسبان مقتل إدْ ستيتون في تشرين ومقتل الزوجين كونستانتتِ في تشرين الثاني والطبيب النفسي يومَ الثلاثاء يكون عِندنا أربعة موتى مهمّين فقط منذ أن نشرت إشبيينتي الخبر. إحصائياً هذا ليس حمام دم. نحتاج لعدد من الجرائم الأخرى —أضافت أماندا.
- كم، مثلاً؟—سأل ألاركون.
- أقول أربعاً أو خمساً على الأقل.
- لا يمكن أن يؤخَذ التنجيم بحرفيَّته، يا أماندا، يجب تفسير الرسائل —قالت إنديانا.
- أعتقد أن التنجيم بالنسبة إلى ثِلِستِ روكو أداة للحدس كما يمكن للبندول أن يكون أداة للمنَوِّم المغناطيسي —أشار ألاركون.
- بالنسبة إلى إشبيينتي ليس أيّ بندول، هو علم دقيق. لكن إذا كان كذلك، فالأشخاص المولودون في ذات الوقت وذات المكان، لنقل في مستشفى عام في نيويورك أو كالكوتا، حيث يمكن أن يولد عدد من الأطفال متزامنين سيكون لهم أقدار مماثلة.
- في العالم ألغاز، يا بُنيّتي. كيف سننكر كلّ ما لا نستطيع تفسيره أو السيطرة عليه؟ - دحضتها إنديانا، غامسة خبزها بزيت الزيتون.
- أنت بسيطة جداً، يا ماما. تؤمنين بالتداوي بالعطور، بمغنطيساتك بل وبالطب المثلي لهذا المُقامق[14]، صديقك.
- ليس مقامقاً بل بيطريّ —صحّحت لها أمّها.
- حسن، كائناً ما كان. المعالجة المثلية تعادل إذابة حبّةِ أسبرين في المحيط الهادي، ووصف خمس عشرة قطرة منه للمريض. يا كابل هاتَ الأحداث. ماذا نعرف عن الطبيب النفسي؟

---

[14] المُتكلّم بأقصى حلقه

- قليلاً جدّاً حتى الآن. أنا مُتَفرِّغ الآن للزوجين كونستانت.

بينما كانت إنديانا وريان ميلرْ يهمهمان فيما بينهما، استجوبت أماندا جدّها على مسمع من بدرو ألاركون المشدود إليها، والذي بدا مذهولاً من اللعبة التي راحت تصفها أماندا. أخرج بلاك جاكسون دفتر الملاحظات من حقيبته ووضعها على الطاولة، معتذرا لأنّه لم يحرز التقدّم المطلوبَ في قضيّة الطبيب النفسي. كان المأمور مشغولاً جدّاً في الصيدلية، فقد كانت فترة زكام، لكنّه جمعَ كلَّ الذي ظهر حتى تلك اللحظة في وسائل الاتصال عن الزوجين كونستانتِ وحصل على تفويض من بوب مارتين، الذي كان ما يزال يُناديه حميَّ ولا يستطيع أن يرفض له طلبا، كي يُراجع أرشيفات قسم الشرطة، بما في ذلك الوثائق التي لم تكن في متناول الجمهور. مرّر صفحتين لأماندا مع ملخص تقرير الطبيب الشرعي وأخرى بما حصل عليه من رجلي التحرّي المعيَّنين للقضيّة، واللذين كان يعرفهما منذ سنوات، لأنّهما كانا زميلين لصهره السابق.

- لا ستيتون ولا الزوجان كونستانت دافعوا عن أنفسهم — قال لحفيدته.

- والطبيب النفسي؟

- يبدو أنّه أيضاً لم يفعل.

- كان الزوجان كونستانت مُخَدّرين بالشناش عندما حقنوهما بالهروين. إنّه دواء يستعمل ضدّ القلق ويُحدثُ بحسب الجرعة أحلاما وسباتاً وفقدانَ ذاكرة.

- هل هذا يعني أنّهما كانا نائمين؟ —سألته أماندا.

- هذا ما يعتقده أبوك —ردّ الجدّ.

- إذا كان القاتل قادراً على الحصول على الشناش فهذا يعني أنّهُ طبيب، ممرّض بل وصيدلاني، مثلك —قالت الصغيرة.

- ليس بالضرورة. باستطاعة أيّ شخص أن يحصل على وصفة أو أن يشتريه من السوق السوداء. كلّ المرّات التي سطوا فيها على

صيدليّتي كان من أجل هذا النوع من الدواء. ثمّ إنّه يتمّ الحصول عليه عبر الشبكة العنكبوتية. إذا كان من الممكن الحصول على بندقية شبه آليّة أو مواد لصناعة قنبلة واستلامها بالبريد فلا شكّ أنّ من الممكن شراء الشناش.

- هل هناك من هو مشكوك به؟ -سأل الأوروغواني.

- كان ميشيل كونستانت سيّئ المزاج جدّاً. قبل أسبوع وقع شجارٌ بينه وبين بريان تورنر، وهو كهربائي ينتمي إلى مجموعته: كحوليّون مُغْفلون، انتهت بالضرب. عين الشرطة على ترونر بسبب ماضيه القذر: عدد من الجرائم الصغيرة وعلِي كاهله أعمال غدر، وثلاث سنوات سجن. عمره اثنان وثلاثون عاماً وهو بلا عمل -أعلمه بلاك.

- عنيف؟

- يبدو لا، ومع ذلك اعتدى على ميشيل كونستانت بزجاجة مياه غازية. تمكن أشخاص آخرون من إيقافه.

- هل عُرف سبب الشجار؟

- اتهم ميشيل تورنر بالتحرش بزوجته، دوريس. لكن من الصعب تصديق ذلك. لأنّ دوريس تكبره بأربع عشرة سنة وقبيحة بشكل استثنائي.

- كلّ شيء وله مُعْجَبوه... -أصرّ الاركون.

- علموهما بالنار بعد موتهما -قالت أماندا للأوروغوائي.

- كيف حدّدوا أنّ هذا حدث بعد موتهما؟

- من لون الجلد، فالجلد الحي يقوم بردّ فعل. يعتقدون أنّ العلامات كانت بنار فردا للحام، الذي وجدوه في الحمّام -وضّح له بلاك جاكسون.

- وبماذا تفيد فرود اللحام هذه؟ -سألت أماندا، وهي تأكل بالملعقة طبقَ عقبتها الثالث.

- للطبخ، مثلاً استخدموا واحداً منها من أجل الكريم بروييه[15] الذي تأكلينه الآن. تُفيد في حرق سكرِ سطح الحلوى. تباع

---

[15] حلوى فرنسية مكوناتها الحليب والزبدة والسكر الأسمر والقرفة والسكر المحروق

في حوانيت أدواتِ المطبخ وتُكلِّف ما بين الخمسة والعشرين والأربعين دولاراً. أنا لم أستخدمها قط، طبعاً قليل ما أعرفه عن الطبخ —علق الجدُّ- يبدو لي غريباً أن يملكَ الزوجان كونستانت شيئاً من هذا، لأنّه لم يكن يوجدُ في مطبخهما غير طعام القاذورات، ولا أتصوّر هؤلاء الناس يصنعون كريم بروّييه. كان فرد اللحام جديداً تقريباً.

- كيف عرفت؟ —سألته الحفيدة.
- كانت كبسولة الغاز، عمليّاً فارغة، لكن معدن الفرد كان جديداً عملياً. أعتقد أنّه لا يعود للزوجين كونستانت.
- كان باستطاعة القاتل أن يأخذه، كما أخذ الحقنتين. هل قلت أنه كانت توجد زجاجة مشروب كحولي في البرّاد؟ —سألت أماندا.
- بلى، يبدو أنهم أهدوها للزوجين كونستانت، لكن يبدو لي من غير المعقول أن يهدوا هذا لكحوليّ أعيد تأهيله —قال بلاك.
- ما نوع المشروب الكحولي؟
- نوع من الفودكا أو الأغواردييننت الصربيّ. لا يُباع هنا.

اهتمّ ريان ميلرْ بالحديث عندما سمعهم يذكرون الصرب وقال إنّه كان في البلقان مع مجموعته من جنود النخبة ويستطيع أن يؤكد لهم أنّ هذا المشروب يجب أن يكون أكثر سُمّية من التربنتين.

- ما ماركته؟ —سأل
- لا يردُ هذا في التقرير. ما همّ الماركة؟
- كلّ شَيء يهم، يا كابلْ! تحقق منها —أمرته أماندا.
- أعتقد إذن أنّكِ أيضاً بحاجة لعلامةِ الحقنتين وفرد اللحام. وبما أنّنا بهذا الصدد فأنتِ تحتاجين أيضاً إلى علامة ورق المرحاض —قال بلاك.
- تماماً يا مأمور. لا تشرد.

الأحد 15

كان ألان كِلِرْ ينتمي إلى عائلةٍ مؤثِّرة في سان فرانسيسكو منذ أكثر من قرن، نظراً لثروتها، ثمّ لِقِدَمِها وارتباطاتها. تبرّع آل كِلِرْ تقليدياً بمبالغَ مهمّةٍ للحزب الديمقراطي في كلّ انتخاب، بدافع الأفكار السياسيّة كما بدافع ميزة الحصول على روابط من الصعب أن يكون المرءُ مهمّاً في المدينة من دونها. كان ألان أصغر الأولاد الثلاثة لفيليب وفلورا كِلِرْ، الزوجين التسعينيين، اللذين يظهران بانتظام في الصفحات الاجتماعية، مومياءان معتوهان ومصمّمان على أن يعيشا أبدياً. كان سليلاهما، مارك ولوثيل، يديران أملاك العائلة، من دون الأصغر، الذي كانا يعتبرانه الفنان المحظوظ لأنّه كان الوحيد القادر على تقدير الرسم التجريدي والموسيقى غير المنغمّة.

لم يعمل ألان يوماً واحداً في حياته، لكنّه درسَ تاريخَ الفنّ ونشر مقالات رصينة في مجلات متخصّصة ويُساعد من حين لآخر أمناء متاحف وجامعي لوحات. مرَّ بغراميات قصيرة، لم يتزوّج قطّ، لم تكن تشغله فكرة الإنجاب والمساهمة في الزيادة السكانية على الكوكب، لأنّ عدد الحيوانات المنوية عنده كان من الانخفاض بحيث يمكنه أن يعتبر تافهاً. لم يكن بحاجة لحبل منويّ. كان يُفضِّلُ أن يربي خيولاً بدل الأبناء، لكنّه لم يفعل ذلك لأنّه كان يعتبره تسلية باهظة الثمن، كما أخبر إنديانا بعد قليل من تعرّفه عليها، وأضاف أنّ الأوركسترا السيمفونية تستفيد من ميراثه، هذا إذا بقي منه شيء بعد موته، ذلك أنّه كان يُفكّر أن يتمتّع بالحياة دون أن ينظر إلى المصروفات. كان هذا دقيقاً: كان مُجبراً على أن يتحكم بمصروفاته، التي كانت دائماً أعلى من دخوله، كما كان يُكرّر عليه أخوته في كلّ لحظة. 126

كان انعدام موهبته فيما يخص التجارة موضعَ مزاح الأصدقاء وتوبيخ الأسرة. كان يُخاطر في مغامرات تجارية خيالية، مثل كرم

نابًا، حصلٍ عليه في نزوة بعد أن جاب بالمنطاد كروم بورغونيا. كان ذوّاقة جيدا وكانت زراعة الكرمة قد درجت، لكنّه كان يجهل أساسياتها، بحيث أنّ إنتاجه الضئيل لم يكد يتميّز في عالم المنافسة الصغير لهذه الصناعة ويعتمد على وكلاء مراوغين.

كان فخوراً بملكيته، المسيّجة بالورد، التي تحتوي على بيت مبنيّ على طريقة البيت الريفي المكسيكي، حيث كانت تلمع مجموعةٌ من الأعمال الفنية الأمريكية اللاتينية، بدءاً من المنحوتات الفخارية والحجرية الإنكية المهملة في البيرو وصولاً إلى لوحتين متوسطتي الحجم لبوترو. كانت البقيّة في بيته في وودسايد. كان جامعاً للأعمال الفنّية دؤوباً، قادراً على أن يَعبر العالم كي يحصلٍ على قطعة وحيدة من الخزف الفرنسيّ أو اليشب الصيني، لكن نادرا ما كان يحتاج لفعل ذلك، فلأجل ذلك كان عنده مُورّدون.

كان يعيش في بيت ريفيّ كبير بناه جدّه عندما كانت وودسايد ما تزال منطقة ريفيّة، قبل عدّة عقود من تحوّلها إلى مأوى مليارديريي وادي السيليكون في التسعينيات. كان المنزل يُدهش من الخارج، لكنّه من الداخل كان متهاوياً، ما من أحد اهتمّ بأن يمرّ عليه بطبقة طلاءٍ أو أن يُبدّل الأنابيب منذ أربعة عقود. كان ألان كِلرْ يودُّ بيعه، لأنّ قيمة الأرض صارت كبيرة، لكنّ والديه، المالكين الشرعيين، كانا يتشبّثان بتلك الملكية لأسباب لا تفسير لها، ذلك أنّهما لا يذهبان إليها أبداً. كان ألان يتمنى لهما حياةً طويلة جدّاً، لكنّه لم يكن يستطيع إلا أن يحسب كم سيتحسّن وضعُهُ إذا ما اختار فيليب وفلورا كِلرْ أن يرتاحا بسلام. كان يُفكّر إنّه عندما يُباع البيت ويأخذ حصّته أو عندما يرث يستطيع أن يشتري ملحقاً حديثاً في سان فرانسيسكو، أكثر ملاءمة لعازب في مجتمع مثله من ذلك البيت الريفي الكبير العتيق، حيث لا يستطيع حتى أن يُقدّم فيه حفلة كوكتيل خوفاً من أن تزحف فأرة بين أقدام المدعوّين.

لم تكن إنديانا تعرف تلك الإقامة ولا كرم نابًا، لأنّه لم يُرهما لها وكانت تخجل أن تطلب منه ذلك. كانت أماندا تقول عندما يتطرقون للموضوع إنّ كِلِرْ يخجل من أمّه وفكرة أن يكون هذا الرجل زوجاً لأمّها لا تروق لها. لم تكن إنديانا تهتمّ بها، فابنتها صغيرة جدًا وغيورة بحيث لا تستطيع أن تُقدّر فضائل ألان كِلِرْ: مزاجه الرائق، ثقافته، تهذيبه. ثمّ إنّه لم يكن عليها أن تقول لها إنّه عشيق أريب؛ كانت أماندا ما تزال تعتقد أنّ أبويها مثل البكتيريا، كانا لاجنسيين. كانت الصغيرة تعترف أنّ كِلِرْ، على الرغم من عمره المتقدّم، جذّاب، يشبه ممثلا إنكليزيا، حسنَ الشعر والمظهر فوجئ في لوس أنجلوس وهو يتمرّغ مع عاهرة في سيارة، تنسى اسمه دائما، لأنّه لا يظهر في أفلام مصّاصي الدماء.

بفضل عشيقها ذهبت إنديانا إلى اسطنبول وبدأت تتعلّم تقدير الأطباق الطيّبة، الفنّ، الموسيقى وأفلام الأبيض والأسود القديمة أو الأجنبية التي كان عليه أن يشرحها لها، لأنّها لم تكن تتمكن من قراءة الترجمة. كان كِلِرْ رفيقاً مسلياً، لا ينزعج عندما يخلطون بينه وبين أبيها ويمنحها الحرّية والوقت والمكان لتكرّسه لعائلتها وعملها، يفتح لها آفاقا، كان صديقاً رائعاً في تفاصيله، جاهزاً لملاطفتها وإمتاعها. لو كانت امرأة أخرى لتساءلت لماذا يستبعدها عن دوائره الاجتماعية ولا يُقدّمها لأيّ من أفراد عائلته، لكنّ إنديانا الخالية من أي خبث كانت تعزوه لفارق الاثنين وعشرين عاماً بينهما. كانت تعتقد أنّ ألان، ألان المهذّب جداً، يرغب بأن يُجنّبها إزعاج اختلاطها بناس متقدمين في السن ولأنّه يشعر في الوقت ذاته أنّه في غير مكانه في جوّ الشباب عندها، "عندما تُصبحين في الستين سيكون هو في الثانية والثمانين قد ركب شبكة قلبية ويعاني من الزهايمر" لفتت أماندا انتباهَها، لكنّها، كانت تثق بالمستقبل: "يمكن أن يكون هو مثل غصن جديد وتكون هي من يُعاني من مرض القلب ومن خرف

الشيخوخة. الحياة مليئةٍ بالمهازل، ومن الأفضل لها أن تستمتع بما عندها الآن، دون أن تُفكر بغدٍ افتراضيّ، هكذا كانت تُفكر.

مرَّ حبّ ألان كِلِّرْ وإنديانا دون تقلّبات كبيرة، معزولاً عن المنغصات اليومية ومحميّا من فضول الآخرين، لكن أموره المالية تعقّدت في الشهور الأخيرة وراحت صحّتُهُ تتدهور، وكان هذا يؤثّر على روتين حياته ومتعة علاقته بإنديانا. عدم أهليته لاستخدام المال كان يسبب له الفخار، لأنّه يُميّزه عن بقيّة العائلة، لكنّه لم يكن يستطيع أن يستمرّ في تجاهل استثماراته السيّئة والخسائر التي يأتيه بها الكرْمُ، وهبوط أسهمه وموضوع أنّ رأسماله من الأعمال الفنية كان أدنى من المُتَصوّر. اكتشف لتوّه أنّ مجموعته من اليشب الصيني لم تكن بالقدم والقيمة اللذين جعلوه يصدقهما. ، كما أنّهم اكتشفوا عنده أثناء الكشف الطبيّ السنوي احتمال وجود سرطان في البروستاتة، أدخله في حالة رعب لخمسة أيّام إلى أن أنقذه طبيِّب البولية من احتضاره بفحوصات دم جديدة. اضطرّ المخِبرُ لأن يعترف بأنّ النتائج السابقة كانت لمريض آخر. عندما أتمّ كِلِّرْ الخمسين عاماً راحت شكوكه المتعلقة بصحتَّه، والتي نامت منذ تعرّف على إنديانا وصار يشعر بنفسه شابّاً، تُزعجه. كان مكتئباً. كان ينقصه في حياته شيءٌ يمكن أن يظهر على شاهدة قبره. لقد قطع ثلثي طريق حياته، وصار يحسب السنوات المتَبقية له كي يصير صورة طبق الأصل عن أبيه. كان يخاف التدهور الجسديّ والعقليّ.

كانت قد تراكمت عليه ديون ومن غير المجدي أن يَلجأ إلى أخويه، اللذين يُديران أموال العائلة كما لو أنّهما المالكان الوحيدان ويُضيِّقان عليه الوصول إلى حصّته بذريعة أنّه فقط يُنفق ولا يُنتِج. رجاهما أن يبيعا عقار وودسايد، الديناصور الذي من المحال الحفاظ عليه، وجاءه الجواب بألا يكون ناكراً للجميل، فالبيت تحت تصرّفه مجاناً. عرض عليه أخوه الأكبر أن يشتري منه كرْمَ نابّا كي يُساعده

على الخروج من أزمته، كما كان يقول، لكنّ ألان كان يعرف أنّ دوافعه أبعد ما تكون عن الغيرية، ويريد أن يسطوٍ على العقار بسعر بخس. لم يُوَفّق مع البنوك، فحسابه كان جافاً وما عاد يكفي أنً يلعبً الغولف مع مدير ٍكي يحلّ له المشكلة بطريقة ودّية، كما كان يفعل قبل الأزمة الاقتصادية. فجأة تعقّدت حياتُهُ التي كان يُحسَد عليها وصار يشعر بأنّه عالقٌ مثل ذبابة في شبكة عوائق عنكبوتية.

شَخّصَ طبيبُهُ النفسي عنده أزمةَ وٍجود عابرة، معتادة عند من هم في سنّه وصف له تستوستِرون وحبوبا أُخرى للقلق. في معمعة هذه الانشغالات أهمل إنديانا وصارت الغيرةُ تُحاصره، دون أن تمنحه فرصة أن يلتقط أنفاسه، وهذا بدوره عاديّ، بحسب الطبيب النفسي، الذي اعترف له أنّه عاد ليتعاقد مع صموئيل هاميلتون جر.، رجل التحري الخاصّ.

لم يكن يريد أن يخسرَ إنديانا. كانت فكرةُ أن يبقى وحيداً، أو أن يبدأ من جديدٍ مع امرأة أخرى، تخنقه. لم يكن عنده من العمر ما يسمح له بمواعيد رومانسية واستراتيجيات صيدٍ ومناوشات وتنازلات في موضوعٍ الجنس، سأم. كانت علاقته بها مريحة، بل وكان محظوظاً بأنّه مكروه من قبل أماندا، تلك التافهة سيّئة التربية. وهذا يعفيه من المسؤولية تجاهها. سرعانٍ ما ستذهب أماندا إلى الجامعة وستستطيع أمّها أن تخصّص له وقتاً أكثر، لكنّ إنديانا كانت شاردة الذهن وبعيدة، ما عادت تبادر لمواعيد الحب ولا عادت جاهزة حين يخطر له، كما لم تعد تظهر إعجابهاٍ الماضي. صارت تعاكسه وتستغلّ أيّ لحظة كي تجادله. لم يكن كِلرْ يرغب بامرأة مذعنة، فهذا سيصيبه بالسأم حتى الموت، كما أنّه لم يكن يستطيع أن يسير كمن يدوس بيضاً كي يتجنّب مواجهة مع عشيقته، فعنده في مستخدميه وأقربائه ما يكفي للشجار.

المسؤول عن تَغَيُّر موقفِ إنديانا هو ريان ميلرْ، لم يكن هناك تفسير آخر، على الرغم من أنّ رجل تحرّيهِ السرّي أكّد له أنه لا توجد

أسبابٌ مُحدّدة لمثل هذا الاتهام. كانت تكفي رؤية ميلِّرْ، بأنفه المكسور وهيئة الوحشية للتكهّن بأنّه خطير. كان يتصوّر هذا المُجالدَ في السرير مع إنديانا فيُصابُ بالغثيان، هل ستحدّ من ذلك جَدَعَةُ الرجل من ذلك؟ من يدري، بالأحرى يمكن أن تكون رأسمال لصالحهَ: النساء فضوليات، ويُثَرْنَ بأغرب الأشياء. لا يستطيع أن يطرح شكوكهِ على إنديانا، فالغيرة مهينة، لا تليق برجل مثله، وهو شيء، نادراً ما يستطيع أن يناقشه مع طبيبه النفسيّ. كان الجنديّ، بحسب إنديانا، أفضل صديق لها، وهذا بحدّ ذاته لا يُطاق، لأنّ هذا الدور ينطبق عليه، لكنّه كان واثقاً من أنّ صداقة أفلاطونية بين رجلٍ مثل ميلِّرْ وامرأة مثلها مستحيلة. كان بودّه أن يعرف ما يحدث حين يكونان لوحدهما في المكتب رقم 8 وفي مشاويرهما المتكرّرة في الحديقة العامّة أو في شقّة ميلِّرْ، التي عليها ألا تذهب إليها.

كانت تقارير صموئيل هاميلتون مُبهمة أكثر من اللازم. فقد ثقته بذلك الرجل، ربّما كان يحمي إنديانا. كان هاميلتون من الوقاحة بحيث أنّه قدّم له نصائحَ، قال له أنّه بدل أن يتجسَّس على إنديانا عليه أن يكسب ودَّها، كما لو أنّ هذا لم يخطر بباله، لكن كيف سيفعل ذلك وبينهما ريان ميلِّرْ؟ عليه أن يجد الطريقة لإبعاده أو تصفيته. لمح في لحظة ضعفٍ بذلك لرجل التحرّي، بالتأكيد لديه ارتباطاته ويستطيع بالسعر المناسبٍ أن يعثر على قاتل مأجور، واحد من أولئك المجرمين الكوريين، مثلاً، لكنّ هاميلتون كان حازماً. "لا تعتمد عليَّ، إذا كنت تريد قافي أذنهورا فاحصل عليه بنفسك" حلُّ المسألة بالرصاص لم يكن أكثر من دعابة، أبعد ما تكون عن شخصيته، ثمّ إنّه إذا كان الأمر يتعلّق بالرصاص، فميلِّرْ خطير. ماذا سيفعل لو أنّه ملك براهين دامغة على خيانة إنديانا؟ كان السؤال مثل ذبابة زرقاء تطنُّ في أذنه ولا تتركه في سلام.

عليه أن يفوز بإنديانا، كما قال رجل التحرّي. كان مصطلح "يفوز بها" يُثير قشعريرته، كما في المسلسلات التلفزيونية، لكن كان عليه

في النهاية أن يفعل شيئاً، لا يستطيع أن يبقى مكتوف اليدين. أكّد لطبيبه النفسيّ أنّ باستطاعتهِ أن يغريها،كما فعل في بداية علاقتهما، يستطيع أن يُقدّم لها أكثر بكثير من هذا الأبتر، فهو يعرفها كما لا يعرفها أحد، ويعرف كيف يُسعدها، ليس عبثاً أنّهُ قضى أربع سنوات في تهذيب أحاسيسها ومنحها متعة ما من رجل آخر يعرف كيف يمنحها لها، خاصّة جندي جلف مثل ميلرْ. كان الطبيب النفسيّ يصغي إليه دون أن يُبدي رأياً، وكِلرْ نفسه، صار يشعر بحججه، التي راح يُكرّرها في كلّ جلسةٍ، جوفاء.

الأحد في السادسة مساءً قرّر كِلّرْ أن يُفاجئ إنديانا بشيء جديد، فبدل أن ينتظرها في جناحه في فندق فيرمونت كي يتناولا عشاءهما على انفراد، ويشاهدا فيلماً ويمارسا الحبّ. أخذها من بيت أبيها ومضى ليريها "معلّمي البندقيّة" في متحف دِ يونغ، خمسين لوحة مستعارة من متحف في فيينا، لم يبغ أن يرى المعرض وسط حشدٍ ونجح بفضل صداقته مع مديرِ المتحفَ أن يحصل على زيارة مع دليل، بينما كان المتحفِ مُغلقا. بدا البناء الحديثُ وسط الصمت ومن دون زوّار معبداً مستقبلياً من الزجاج والفولاذ والرخام بفضاءاته الرحبة والهندسية المليئة بالنور.

كان الدليل الذي عيّنوه له شاباً، سيّئ البشرة يحفظ نصّاً عن ظهر قلبٍ أسكته كِلرْ على الفورِ بمرجعيّته كمؤرّخ للفنّ. كانت إنديانا ترتدي فستاناً أزرق ضيقاً وقصيرا، يكشف أكثر مما يستر وسترتها الكبيرة الدائمة رملية اللون التي خلعتها داخلِ المتحف وتنتعلُ جزمتها المتآكلة التي تحاكي جلدَ الأفعى، التي عبثاً حاول كِلرْ أن يستبدلها بشيء أكثر قبولاً، لكنّها كانت تصرُّ على انتعالها، لأنّها كانت مريحة. بقي الدليل فاغر الفم حين سلّم عليها ولم يخرج من دهشته على امتداد الزيارة. كان يتلعثم بأجوبة غير مناسبة ردّاً على أسئلتها، ضائعاً في زرقة عيني تلك المرأة التي بدت له مبهرة، دائخاً برائحة مسكها

وأزهارها المثيرة للخطيئة، ومثاراً بتجعّد شعرها الأصفر، الأشعث كما لو أنّها خرجت توّاً من السرير وتراقص جسدها المتحدّي.

لولا أنّ كِلِّرْ كان يمرّ في هبوط عاطفيّ لكان سرَّهُ ردُّ فعل كردّ فعل الدليل، الذي صادف وجوده في مرّات قليلة في الماضي، عادةً ما كان يحبّ أن يذهب برفقة امرأة يرغب بها آخرون، لكن لم يكن عنده في تلك المناسبة مزاج للهْو، لأنّه كان ينوي أن يستعيدَ إنديانا. تدخّل منزعجاً بينها وبين الدليل وأخذها من ذراعها شادّاً إيّاها أكثر من اللازم، قادها من لوحة إلى أخرى، شارحاً لها فن القرن الخامس عشر وأهمّية البندقيّة، الجمهورية المستقلة التي كان قد مضى على وجودها ألف سنة، كمركز تجاريّ وثقافيّ عندما رسم أولئك المعلمون أعمالهم وأبان لها من خلال تفاصيل اللوحات كيف طوّر اختراع الألوان الزيتيّة تقنية الرسم. كانت هي تلميذة مطواعة، مستعدة لأنّ تمتصّ ما كان يريد أن يُعلمها إيّاه، بدءاً من كاما سوترا وحتى طريقة أكل الخرشوف وبخاصّة موضوعات الفنّ.

بعد ساعة وجدا نفسيهما في آخر قاعة مع لوحة هائلة، كان كِلِّرْ يرغب بأن يُريها لإنديانا بطريقةٍ خاصّ: سوزان والشيوخ لِتينتورّيتو. كانت اللوحة معروضة وحدها على جدار، وكان هناك مقعد استطاعا أن يجلسا عليه ويتأملاها بهدوء، بينما هو يحكي أنّ موضوع سوزان عولجَ من قبل عددٍ من رسّامي عصر النهضة والباروّك، كانت تمثّل بورنوغرافية العصر وتسمح برؤية العري الأنثوي والشبق الذكري. كان الرجال الأثرياء يُكلفون برسم اللوحات لتعليقها في غرفهم وكان الرسام يرسم لسوزان وجهَ عشيقةِ راعي الأدب والفنون مقابل إكرامية.

- كانت سوزان بحسب الأسطورة، امرأة فاضلة، متزوّجة باغتها عجوزان شَبقان وهي تستحمّ بجانب شجرة في حديقتها. وبما أنّها رفضت تلميحاتهما، اتهمها العجوزان بعلاقة غرامية مع شاب. كان الموتُ عقوبة زنى المرأة —قال كِلِّرْ.

- فقطٍ زنى المرأة؟ —سألته إنديانا
- طبعاً. هذه قصّة من الكتاب المقدّس وبالتالي فحولية، واردة في سفر دانيال من ترجمة يونانية للكتاب المقدّس.
- وماذا جرى وقتها؟
- استنطق القاضي العجوزين بشكل منفصل كي لا يستطيعا أن يتفقا على نوع الشجرة التي كانت الجميلة تحتها، قال الأوّل إنّها ملز وقال الآخر إنّها شجرة بلوط أو شيئاً من هذا القبيل. توضّح أنّهما كانا يكذبان وبذلك استردّت النبيلة سوزان سمعتها.
- آمل أن يكون المفتريان قد عوقبا — أشارت إنديانا.
- بحسب إحدى روايات القصّة أعدما لكن في روايات أخرى فقط وُبِّخا. أيهما تُفَضلين، يا إنديانا.
- لا هذا ولا ذاك، يا ألان. أنا لا أوافق على عقوبة الموت، لكن يجب إقامة العدالة. ما رأيك بالسجن، الغرامة وأن يطلبا العفو منها ومن زوجها أمام الناس؟
- أنت متسامحة جداً. لو لم تثبت براءة سوزان لأعدموها. العدل هو أن يكون قد تلقى هذان المفتريان عقوبة مماثلة — أكّد ألان كي يُعاكسها، ذلك أنّه أيضاً لم يكن من أنصار عقوبة الموت باستثناء بعض الحالات الخاصّة جداً.
- العين بالعين والسنّ بالسن... بهذا المعيار سنكون جميعنا عوراً وبأسنان صناعية —ردّت هي بمزاج رائق.
- في النهاية ليس مصير الكذابين هو المهمّ، أليس صحيحاً؟ — قال كِلِّرْ مُتَوجّها لأوّل مرّة إلى الدليل، الذي وافق بصمت— لا يكاد يكون للعجوزين الكاذبين أهمية، فهما في الجانب المظلم من اللوحة. مركز الاهتمام هو سوزان، وحدها. لاحظي بشرتها، حارة، ناعمة، يضيئها نور المساء. تمعّني في هذا الجسدِ العليل ووضعيّته الواهنة. المسألة لا تتعلّق بصبيّة، نعرف أنّها مُتزوِّجة وأنّها تعرف ألغاز الجنس. حقّق تينتورّتو التوازن الضروري بين الصبية البريئة والمرأة

الشهوانيّة، وكلاهما موجود في سوزان في تلك اللحظة الهاربة، قبل أن يطبع مرور الزمن علامته عليها. هذه اللحظة سحرية. انظرْ إليها، يا رجل، ألا ترى أن شبقيةَ العجوزين مبرَّرة؟

– بلى، يا سيّد.

– سوزان واثقة من جاذبيتها، تُحبُّ جسدها، إنّها تامّة مثل دراقة قطفت توّاً من غصنها؛ كلها طيبٌ ولونٌ وطعم. الجميلة لا تتصوّر أنّها بدأت سيرورة النضج والشيخوخة والموت. تمعّنْ في تدرجات لون الشعر، ذهب ونحاس، في رشاقة يديها وعنقها وفي تعبير وجهها المهجور. حركاتها بطيئة، ترغب بإطالة متعةِ الحمام، الماءِ الرطب، نسمةِ الحديقة الدافئة، فتُدغدغ نفسها، تشعر برعشة فخذيها الخفيفة، بالشقّ الرطب والنابض بين ساقيها. هل تُلاحظ ما أقوله؟

– بلى، يا سيّد.

– لنرَ يا إنديانا، قولي لي: بمن تُذكّرك سوزان اللوحة؟

– ليس عندي أدنى فكرة –ردّت مستغربةً تصرّف عشيقها.

– وأنت، أيّها الشابّ؟ –سأل كِلرْ الدليلَ بتعبير بريء يتناقض مع التهكم في نبرته.

اشتعلت ندبُ حبِّ الشباب عند الدليل مثل فوهات براكين في وجهه، وجه المراهِق المُفاجأ بعيبٍ فراح يغرز عينيه في الأرض، لكنّ كِلرْ لم يفكر بأن يتركَه يفلت منه.

– هيّا، يا رجل، لا تكنْ خجولاً. تفحّص اللوحة وقُلْ لي من تُشبه سوزان الجميلة؟

– في الحقيقة يا سيّد، لا أعرف ما أقول لك، تلعثم المسكينُ، كان جاهزاً كي يخرج جارياً.

– لا تعرف أم أنّك لا تجرؤ على قوله؟ سوزان تشبه كثيراً صديقتي إنديانا، الحاضرة هنا. انظر إليها. عليك أن تراها عارية في الحمّام مثل سوزان... –قال كِلرْ واضعاً ذراعاً تملّكياً على كتفي حبيبته.

– ألان! –صاحت به وأبعدته بدفعة واحدة وخرجت بخطوات سريعة من القاعة، يتبعها الدليلُ المرتعد عن قرب.

تمكّن كِلِّرْ من الإمساك بإنديانا في باب البناية وحملها إلى سيارته، بين توسّلات واعتذارات، مرتبكاً مثلها مما فعل. كان اندفاعاً غير معقول وندمَ ما إن قاله. لم يدرِ ماذا أصابه، نوبة جنون، لأنّه في عقله السليم ما كان ليرتكب مثل هذا العمل الغوغائي، البعيد جدّاً عن طبيعته، قال لها.

كان الذنبُ ذنبَ اللوحة، فكّر. أثار التناقضُ بين شبابِ وجمال سوزان والمظهر الكريه لمن يتجسسون عليها قشعريرة فيه. رأى في نفسه واحداً من العجوزين الشبقين، مجنونَ رغبةً بامرأة صعبة المنال ولا يستحقّها، وشعر بطعم الحنظل في حنجرته. لم تفاجئه اللوحةُ، فقد رآها في فيينا ومنسوخة في كتبهِ عن الفنّ، لكن في نور وصمت المتحف الموحش ضربته كما لو أنّه كان يواجه جمجمته ذاتها في المرآة كشفٍ له تينتورِّتو عن مسافة تقارب الخمسمئة سنة أكثرَ أهواله غموضاً: الانحدار والموت

بقيا يتناقشان في المرآب، المُقفر في تلك الساعة، إلى أن نجح كِلِّرْ في إقناع إنديانا بأن يذهبا ليتناولا عشاءهما بهدوء. وانتهيا إلى طاولة خفيّة في زاوية من أحدِ مطاعمه المُفضّلة، وهو محلّ صغير، مخفيّ في زقاق في شارع ساكرامِنتو، مع وجبة إيطالية أصيلة ولائحة نبيذ رائعة. بعد الكأس الأوّل من الدوتشيتو بيامونتي وهدوءِ مزاجها، بيّنت له كم شعرتْ بنفسها مهانة في المتحف، معروضة مثل عاهرة أمام عيني الدليل.

– لم أكن أعتقد أنّكَ بمثل هذه الوحشية، يا ألان. لم تُظهر لي خلال السنوات التي قضيناها معاً هذا الجانب عندك. شعرتُ بنفسي مُعاقبة وكذلك ذاك الشاب المسكين.

- لا تأخذيه على هذا المحمل، يا إندي. كيف سأريد أن أعاقبك؟ بالعكس، لا أدري كيف أكافئك على كلّ ما تمنحينه لي. فكّرتُ أنّ مقارنتي لك بالجميلة سوزان ستسرّك.

- بتلك البدينة؟

راح كِلِّرْ يضحك، أصابها بالعدوى وفقدَ مشهدُ المتحف الكريه فجأة خطورته. كان كِلِّرْ قد خبّأ المفاجأة التي حضّرها لها للعَقَبَة[16]: رحلة لمدّة أسبوعين إلى الهند بالشروط التي تختارها هي، التضحية التي كان على استعداد للقيام بها من أجل الحبّ، على الرغم من صعوباته الاقتصادية المستجدّة ومن أن فاقة ملايين الهنود تخيفه. تستطيعُ -عَرَضَ عليها- أن تنزلَ في أحدِ قصور المهراجا، التي تحوّلت إلى فنادق فاخرة، بأسرّةٍ من ريش وحرير، وخادماتٍ خاصّات، أن تنامَ على الأرض على خلوةٍ بين العقارب، كما ترغب هي. ذهبت فرحة إنديانا العفوية بخوفها من أن يُدمّر انزعاجُها في المتحف المفاجأة: قَبّلَتْهُ المرأةُ بمبالغة أمام نظرةِ النادل الذي جاء بالأطباقِ. "هل أنت تُحاوِل أن أغفر لك شيئاً؟ -سألته إنديانا، مشعّةً، دون أن ينتابها شك بمدى ما كان في ذلك التعليق من نبوءة.

الاثنين، 16

قضى لاعبو لعبةِ *نازع الأحشاء* عدداً من الأيّام دون أن يلعبوا. كانت أباثا في مشفى، مربوطة إلى سرير، تتلقى طعامها من خلال أنبوب موصول بمعدتها. كان مرضها يتطوّرُ وكلّ غرام تخسرُهُ من وزنها يُشكل خطوة نَحو عالم الأرواح، حيث ترغب أن تسكن. الشيء الوحيد الذي كان يلهيها عن عزمها الثابت على الاختفاء هو لعبة *نازع الأحشاء*

[16] هو الطبق الثالث الذي يُقدّم على المائدة وعادة ما يكون حلوى أو فاكهة.

والطموحِ إلى حلّ مسألة جرائم سان فرانسيسكو. ما كادت تخرج من العناية المشدّدة وتستقرّ في غرفة خاصّة، مراقبة ليلاً ونهاراً، حتى طلبت حاسوبها المحمول واستدعت رفاقَها الوحيدين، أربعة مراهقين وجدّاً، لم تتعرّف عليهم شخصيّاً. في تلك الليلة كان هناك ستّ شاشات في نقاط مختلفة من العالم اتصلت ببعضها من أجل اللعبة الجديدة، التي سمّتها المُعلّمة: "جريمة الصعق بالكهرباء".

بدأت أماندا بإعطائهم نتائج التشريح، التي عثرت عليه في مغلّفٍ في شقّة والدها وصوّرتها بجوّالها.

-ألقت إنغريد دونْ أوّلَ نظرة على جثة ريتشارد أشتون في التاسعة وعشر دقائق صباحاً وقدّرت أنّ الموتَ حدث قبل ثماني أو عشر ساعات، وهذا يعني أنّه حدث نحو منتصف ليل الاثنين، على الرغم من أن دقائق أكثر أو أقل ليست ذات أهمية عند هذا المستوى من التحقيق. حتى الآن لا توجد معلومات عن الفاعل أو الدافع للجريمة. عَيّنَ والدي عدداً من رجال التحرّي لهذه القضيّة.

لنراجع الموجود منها –طلب الكولونيل بادينغتون.

- معك إذن للكلام، يا كابل. احكِ ما نعرفه –أمرت أماندا جدَّها.
- مات ريتشارد أشتون مصعوقاً بالصاعق الكهربائي. عثروا في التشريح على علامات ثقب كان الجلد حولها متهيجاً ومحمرّاً.
- ما هو الصاعق؟ –سألت إسمرالدا.
- سلاح تستخدمُهُ الشرطةُ لردع أشخاص عدوانيين أو لتفريق تظاهرات أو للسيطرة عليهم. له حجم مسدّس كبير ويُطلق شحنات كهربائية بواسطة أقطاب موصولة بأسلاك شهرية ناقلة –شرح الكولونيل بادينغتون، خبير الأسلحة.
- وهل يمكن القتل بها؟
- هذا يعود لكيفية استخدامها. هناك عدد من الحالات مات فيها الشخص، لكن هذا ليس متكرّراً. يهاجم الصاعق جهازَ

الأعصابِ المركزي بشحنة كهربائية جبارة تشلّ العضلات وتهوي بالضحية، حتى عن مسافة بضعة أمتار. تصوّر ما يحدث عند تفريغ عددٍ من الشحنات.

- أيضاً هذا يعود للضحية. يمكن للصاعق أن يقتل من عنده قصور في القلب، لكن ليس في حالة أشتون —أضافت أماندا.

- لنقل أنّ الضربة الكهربائية الأولى جمّدت أشتون؛ وعندها وثق القاتلُ يديه وسدَّ فمه بالشريط اللاصق، ثمّ فرّغ فيه شحنات حتى قتله —ارتأى شارلوك هولميز.

- هل يستطيع الصاعقُ أن يُطلق أكثر من شحنة—سألت اسمِرالدا.

- يجب شحنه، وهذا يستغرق قرابة العشرين ثانية —وضّح بادينغتون.

- إذا استخدم اثنين —قالت أباثا.

- أحسنت، يا أباثا، كان القاتل يحملُ أكثر من صاعق وفرّغ في أشتون عدداً من الشحنات المتتالية، دون أن يمنحه الوقت كي يستعيد وعيه، حتى خانه قلبُهُ —قال شارلوك هولميز.

- مصعوق... هذا إعدام، مثله مثل الكرسيّ الكهربائيّ — أضافت أباثا.

- كيف يمكن الحصول على الصاعق؟ —سألت اسمِرالدا.

- إضافة إلى الذي تستخدمه الشرطة، هناك نموذج للاستخدام المنزلي للدفاع عن النفس، لكنّه ليس رخيصاً، يكلّف قرابة الخمسمئة دولار —وضّح بادينغتون.

- بحسب ملاحظات أبي، كان الطبيب النفسيّ حافياً، وجدوا حذاءه تحت المكتب، لكنهم لم يجدوا الجوْرَبَيْنِ —قالت أماندا.

- يمشي من دون جوربين في الشتاء؟ —دققت اسمِرالدا.

- أياني، زوجته كانت تسير دون جوارب. يقول أبي... يقولُ المفتّش مارتين إن لأياني قدَميّ أميرة. حسن، هذا لا يهمّنا. كانت

سجادة مكتب أشتون مُبلّلة في جزء منها ربّما بماء كأس اندلقَ، على الرغم من أنّ البقعة لم تكن قريبة من المكتب.

– أساسيّ، يا أصدقائي. الماء ناقل جيّد للكهرباء. خلع القاتل له حذاءه وبلّل جوربيهِ كي يصعقه بالكهرباء –استنتج شارلوك.

– أنا رأيت شيئاً من هذا في فيلم. لم يُبلّلوا السجينَ المحكوم بالموت قبل أن يعدموه بالكرسيّ الكهربائيّ ومع ذلك انطبخَ عمليّاً – قالت أماندا.

– عليك ألا تشاهدي هذا النوع من الأفلام! – صاحَ كابل.

– هو للفتية، لم يكن فيه جنس.

– لا أعتقد أنّ بلَّ قدمي أشتون كان ضرورياً، ربّما لم يكن القاتل يعرف ذلك، وأخذ الجوربين كي يُضلل ويربك الشرطة ويكسب الوقت. إستراتيجية جيدة –قال الكولونيل بادينغتون.

– لم يكن عليه أن يزعج نفسه بهذا –وضّحت أماندا–. الشرطة ستُضيع الكثير من الوقت في فحص الآثار. فاستوديو أشتون كان مليئاً بالأثاث والسجاد والستائر والكتب، إلخ. وكان يُنظّف مرّة واحدةً في الأسبوع. المستخدَمة أُعطيتْ تعليمات بألا تلمس أيّاً من أوراقه. كان هناك تداخل في البِصمات والشعر وقشرة البشرة والنسالة مما سيجعل من المستحيل عمليا تحديد المهم منها.

– سنرى ماستقوله فحوص الحمض النووي –قالت أباثا.

– سألتُ أبي عن هذا –تدخَّلت أماندا–. يقول إن الحمضَ النوويَّ يُفحص في أقل من الواحد بالمئة من الحالات، لأنّه إجراء مُكلِف ومعقدّ وإمكانيات المديرية محدودة. تموّله أحياناً شركة تأمينات أو الورثة، إذا كان هناك أسباب تدعو لذلك.

– من يرث أشتون؟ –سألت اسمِرالدا.

– زوجته، أياني.

– ليس منِ الضروري النبش كثيراً للوصول إلى الدافع لجريمة قتل، فهو دائماً المال تقريباً –قال شارلوك هولميز

- أستأذن بالكلام – طلب كايل.
- إذنك معك.
- حتى وإن أُخذت عينات، بالتأكيد لن تفيد في شيء ما لم يكن هناك ما تُقارن به. أي أنّه يجب العثور على عينات تنطبق على الحمضِ النووي لمن ألقي القبض عليهِ وأن يكون حمضه النوويّ مُسجّلاً. على كلّ الأحوال، الشرطة تُحقق مع كلّ الناس الذين كانوا في الاستوديو منذ أن نُظف آخر مرّة قبل مقتل أشتون.
- ستكون مهمّتنا للأسبوع القادم أن نقترح نظريات حول هذه القضيّة، تعرفون، المعتاد: الدوافع، الفرصة، المشتَبَه بهم، الطريقة. ولا تنسوا كلّ ما بقي علينا أن نُحَقق به بالنسبة إلى إدْ ستيتون والزوجين كونستانتِ – وجّهتهم مُعلّمة اللعبة قبل توديعهم.
- مفهوم –ردّد اللاعبون الآخرون بصوت واحد. 142

دخل غالانغ بالقهوة إلى الصالون. كان يحمل في الصينية إبريقاً بذراعٍ طويل من النحاس المنقوش، وفنجانين صغيرين وقارورة زجاجية صغيرَة كأنها قارورة عطر. ترك الصينية على الطاولة وانسحب.

- ماء ورد؟ –سألته أياني وهي تصبُّ قهوةً مركّزة كالبترول في الفنجانين.

بوب مارتين، الذي لم يَسمع بماء الورد، واعتادَ على أباريق بسعة نصف ليتر من القهوة الخفيفة، لم يعرف بماذا يجيب. ، صبّت بضعَ قطراتٍ من القارورة في الفنجان ومرّرته له، موضّحة له أن غالانغ تعلم صناعة القهوة العربية، كما تُحبّها: يغلي القهوة ثلاث مرّات بالسكر وحبّ الهال في الإبريق النحاسي وينتظر إلى أن تترسّب الحثالة قبل أن يقدّمها. جرّب مارتين ذلك المشروب الحلو والكثيف وهو يُفكّر في جرعة الكافيين التي كان يعطيها لجسده في الخامسة مساء وكم سيكون نومه سيّئاً في ذلك الليل. كانت السيدة أشتون ترتدي قفطاناً أسود، مُطرّزاً بخيوطٍ ذهبية، يغطيها حتى قدميها، لا يسمح برؤية

شيءٍ غير يديها الأنيقتين وعنقها الذي لغزالة وذلك الوجه الشهير الذي هزّ خياله منذ اللحظة التي رآها فيها. كانت تجمع شعرها خلف عنقها بعودَيْن وفي أذنيها قرطان ذهبيان كبيران وسوار من عظم في معصمها.

– اعذريني لأنّني أعود لإزعاجك، يا أياني.

– بالعكس، أيّها المُفتّش، يسرّني أن أتحدّث معك —قالت وهي تجلس على أحد الكراسي الكبيرة وفنجانها في يدها.

عاد بوب مارتين ليتأمل قدميها النحيلتين وخواتم الفضّة في عدد من أصابعهما، كانتا تامّتين على الرغم من عادتها في المشي حافية التي لاحظها في أوّل مرّة رآها فيها في الحديقة، في ثلاثاء مقتل أشتون الذي لا يُنسى، حين دخلت هي في حياته. لم يكن الفعلُ دَخَلَ هو الفعل المناسب، لأنّ ذلك لم يكن قد حدث بعد؛ كانَت أياني سراباً.

– أشكرك لأنّك تأتي إلى بيتي. أعترف لك أنّني في القسم شعرتُ بأنّني مُحاصرة، لكنّني أعتقد أنّ الشيء ذاته يحدث مع جميع الناس. أستغرب أنّك تعمل اليوم، أليس يوم عطلة؟

– إنّه يوم مارتين لوثر كينغ، لكن بالنسبة إليّ لا يوجد عطلة. إذا كان لا يهمّكِ سوف نراجع بعض النقاط في تصريحك —اقترح عليها بوب مارتين.

– أنت تُفكر أنّني قتلتُ ريتشارد.

– لم أقل هذا. تواً بدأنا التحقيق، من المبكّر إطلاق التخمينات.

– كنْ صريحاً لا ضرورة للف والدوران، أيّها المُفتِّش، الشكوك دائماً تقع على الزوج وبحقّ أكبر في هذه الحالة. أعتقد أنّك تعرفُ أنّني الوريثة الوحيدة لريتشارد.

بوب مارتين كان يعرفُ ذلك. كانت بترا هورّ، مساعدته، التي لم يكن هناك أسرار تُخفى عليها، قد أعطته معلومات كافية عن الزوجين أشتون.

كانت أياني ستُكمل الأربعين بالرغم من أنّها تبدو في الخامسة والعشرين ومسيرتها كعارضة أزياء، التي بدأتها في ريعان شبابها، انتهت. يتعب الخياطون والمصوّرون من الوجه ذاته، لكنّها دامت أكثر من أخريات، لأنّ الجمهورَ عرفها: زنجية في مهنةِ بيضاوات، غريبة ومختلفة. كان بوب يُفكر أنّ هذه المرأة حتى في الستين من عمرها ستبقى أجمل امرأة في العالم. خلالٍ بعض الوقت كانت أياني واحدة من أفضل عارضات الأزياء أجراً، المفضّلة في عالم الأزياء، لكنّها لم تعد كذلك منذ خمس أو ستّ سنوات خلت. جفت منابعُ دخلها ولم يكن لديها مدخرات، لأنّها كانت تصرف بلا حدود وساعدت عائلتها الكبيرة في قرية أثيوبية. كانت قبل زواجها من أشتون تقوم بألعابٍ بهلوانية ببطاقات حساباتها المصرفية وقروض الأصدقاء والبنوك كي تُحافظ على المظاهر ويراها الناس. كان عليها أن تلبس كما في السابق، عندما كان مُصمِّمو الأزياء يهدونها الملابس وتظهر في المراقِص وحفلاتِ الجيت سيت، تتنقل باللّيموزين حيث كان يمكن أن تُصوَّر، لكنّها تعيش بتواضع في شقةٍ بفضاء واحد في القسم الأقل قبولاً من غرينويتش فيلاج. تعرّفت على ريتشارد أشتون في سهرة سمر مُخصّصة لجمع أموال لحملة مناهضة ختن النساء، حيث هي من ألقت خطاب الافتتاح؛ كان هذا هو موضوعها، وكانت تستغلّ أيّ فرصة كي تعرض أهوالَ هذه العملية، التي كانت ضحيتها في طفولتها. تأثّر أشتون مثل بقيّةِ الحضور بجمال أياني وصراحتها في رواية تجربتها ذاتها.

كان بوب مارتين يتحرّق ليعرف ما الذي رأته أياني في ريتشارد أشتون، الرجل الفظ، المتعجرف، القصير الساقين والجاحظ العينين كضفدع. كان للطبيب النفسيّ بعض الشهرة في عالم مهنته الصغير، لكنّ لا يمكن أن يكون هذا ما أدهش تلك المرأة التي كانت تتكئ على شخصيات شهيرة حقيقية. كانت بترا هورّ ترى أنّه لا يجب أن

نبحث عن خمس سيقانٍ للقط، السبب واضح: ريتشارد أشتون كان ثريّاً بقدر ما كان َقبيحاً.

- أفهم أنّكما تعارفتما أنت وزوجك في نيويورك في كانون الأوّل 2010 وتزوّجتما بعد شهر. بالنسبة إليه كان ذلك هو زواجه الثالث، لكنّه كان الأوّل بالنسبة إليك. ما الذي دفعك للقيام بهذه الخطوة مع رجل لا تكادين تعرفينه —سألها بوب مارتين.

- عقله. كان رجلاً لامعاً، أيّها المُفتّش، أيّ شخص يستطيع أن يقول لك ذلك. دعاني إلى الغداء في اليومِ التالي لتعارفنا، وقضينا أربع ساعات غارقين في الحديث. اقترحَ عليّ أن نكتب كتاباً معاً.

- ما نوع الكتاب؟

- عن ختان النساء، حصّتي أن أحكي له حالتي وأجري عدداً من المقابلات مع بعض الضحايا، خاصّة في أفريقيا؛ وحصّته أن يقوم بتحليل التبعاتِ الجسدية والنفسية لهذه العملية، التي تؤثّر على مئة وأربعين مليون امرأة في العالم، وتترك ندبها مدى الحياة.

- هل توصلتما لكتابته؟

- لا. كنّا في مرحلة وضع خطّة الكتاب وجمع المادّة... عندما توفّي ريتشارد —قالت أياني.

- أفهم. إلى جانب الكتاب لا بدّ من وجود جوانب أخرى عند الدكتور أشتون جعلتك تعشقينه. —ارتأى بوب مارتين.

- أعشقه؟ لنكن واقعيين، أيّها المُفتّش، لست امرأة من النوع الذي يسمح لنفسه بأن ينجرف بالعواطف. الرومانسية والوله يحدثان في السينما، لكن ليس في حياة امرأة مثلي. وُلِدتُ في قرية أكواخها من طين، وقضيت حياتي أنقل ماءً وأرعى ماعزاً. في الثامنة من عمري ختنتني عجوز قذرة وكنت على وشك أن أموت من النزيف والالتهابات. في العاشرة من عمري بدأ أبي يبحث لي عن زوج بين رجالٍ من عمره. تحرّرتُ من حياة العمل والبؤس، كحياة أخواتي، لأنّ مُصوِّراً أمريكيّاً اكتشفني ودفع لأبي كي يسمح لي بالمجيء إلى

الولايات المتحدة. أنا إنسانة عملية، لا أبني أوهاماً عن العالم، عن البشرية أو عن قدري ذاته، وأقل من ذلك بكثير عن الحبّ. تزوّجت من ريتشارد لماله.

وقع التصريح على بوب مارتين مثل رجم بالحجارة. لم يكن يُريد أن يعطي الحقّ لِبترا هورّ.

- أكرّر لك، أيّها المُفتِّش، تزوّجتُ من ريتشارد كي أعيشَ مرتاحة وفي أمان.

- متى كتب الدكتور أشتون وصيّتَهُ؟

- وضعتها قبل يومٍ من زواجنا، بنصيحة من محاميٍّ، كشرط. العقد يلحظ أنّني وريثته بعد وفاته، وآخذ فقط خمسين ألف دولار في حال الطلاق. وهذا الرقم بقشيش بالنسبة إلى ريتشارد.

كان المفتّش يحمل في جيبه لائحةً بممتلكات ريتشارد أشتون سلّمتها له بترا هورّ: دار الباسيفيك هايتس، شقّة في باريس، كوخ من خمس غرف في مركزٍ للتزلّج في كولورادو، ثلاث سيّارات، يخت طوله سبعة عشر مترا، استثمارات بعدّة ملايين من الدولارات وحقوق كتبِهِ، كانت تأتيه بدخول متواضعة، لكنّها متواصلة، لأنّها نصوص إلزاميّة في الطبّ النفسي. كما كان عنده تأمين على حياة أياني بمليون دولار، ويتلقى كلّ واحد من أبناء ريتشارد أشتون من زوجيته السابقتين رقماً اعتبارياً قدره ألف دولار وإذا ما تماحكوا حول ما جاء في الوصيّة لن يحصلوا على شيء. منطقيّاً كانت هذه المادّةُ تفقدُ مفعولها إذا استطاعوا أن يثبتوا أنّ أياني مسؤولة عن مقتل أبيهم.

- بكلمات قليلة، أيّها المُفتِّش، أَفضل ما كان يمكن أن يحصل لي هو أن أترمّل، لكنّني لم أقتل زوجي. كما تعلم لا أستطيع أن ألمس دولاراً واحداً من حقّي في الميراث قبل أن تعثر على القاتل - ختمت أياني.

الجمعة، 20

كان بلاك جاكسون قد رتَّب دوامه في الصيدليّة كي يكون حرّاً أيّام الجمعة مساءً ويذهبَ ليبحث عن حفيدته في المدرسة الداخلية في الساعة الثالثة. الساعة التي ينتهي فيها الأسبوع المدرسيّ ويأخذها إلى بيته أو بيت بوب مارتين، بحسب الأدوار المتفق عليها، وبما أنّ الدور كان من نصيبه في نهاية ذلك الأسبوع، فهو يملك تحت تصرّفه يومين كاملين من الراحة والرفقة، وفائضا من الوقت ليلعب لعبة نازع الأحشاء. رآها تخرج من المدرسة بين حشد من الطالبات، منكوشة الشعرِ تجرُّ حقيبتها وتبحث عنه بتعبير اللهفة الذي كان يؤثّر فيه دائماً. عندما كانت أماندا صغيرة كان يختبئ عادة كي يرى ابتسامة الراحة الهائلة عند حفيدته عندما تعثر عليه. لم يكن يُريد أن يُفكّر بما ستؤول إليه حياته عندما تُغادر هي العشّ. قبّلته أماندا ووضعت معه حقيبةَ الظهر وكيسَ الثياب المتسخة والكتبَ والكمانَ في صندوق السيارة.

- عندي فكرة لكتابك.
- ما هي؟
- رواية بوليسية. اختر أيّاً من الجرائمِ التي نُحقّق فيها، تُبالِغُ قليلاً، تجعلها أكثر دموية، تُدخل فيها شيئاً من الجنس، وكثيرا من التعذيب والملاحقات بالسيارة. أنا أُساعِدُك.
- نحتاج لبطل. من سيكون رجل التحرّي؟
- أنا —قال أماندا.

كانت إلسا رودريغِث قد سبقتهما إلى البيت، جاءت معها بفروج بالخضار، وإنديانا تغسل مناشف وملاحف عيادتها بغسالة أبيها القديمة، بدل أن تغسلها في غسّالة قبو العيادات الشاملة الآلية، كما يفعل المستأجرون في المكاتب الأخرى. كانت إلسا قد قرّرت قبلَ أربع

سنوات، عندما بدأت أماندا المرحلةَ الثانوية في المدرسة الداخلية، أن تُخفض ساعات عملها وتذهب مرّتين في الشهر فقط للقيام بأعمال التنظيف، لكنّها كانت تزور بلاك جاكسون كثيراً. كانت المرأة الطيّبة تترك له في البراد آنيةً بلاستيكية فيها أطباقها المُفضّلة وتتصل به بأدبٍ كي تُذكره بأن يحلق شعره ويخرجَ القمامة ويُبدّل الملاحف، التفاصيل التي لم تكن لتخطر ببال إنديانا وأماندا.

كان بلاك جاكسون إذا ما زارته تِلِستِ رِوكو يُغلِق على نفسه الحمام ويهتفُ لإلسا طالباً النجدة، مذعورا من احتمال أن يبقى وحده مع الساحرة، لأنّها قالت له بعد وقت قصير من ترمّله إنّ بيانيهما الفلكيّين متطابقتان، وبما أنّهما أعزبان وطليقان، فليست فكرة سيّئة أن يجتمعا. كانت إلسا في تلك المناسبات تأتي مسرعة تُقدّم الشاي وتجلِس في الصالون لترافق بلاك إلى أن تستسلم لهزيمتها وتنسحب صافقةً الباب.

كانت إلسا في السادسة والأربعين من عمرها وتبدو في الستين، تُعاني من آلام الظهر المزمن والتهاب المفاصل والدوالي، لكن لا ينقصها المزاج الحسن وتسير دائماً وهي تُتمتم بأناشيد دينية. ما من أحدٍ رآها من دون بلوزة أو قميص مغلق بأكمام طويلة، لأنّها كانت تخجل من ندوب طعنات المدية التي أصابتها عندما قتلوا زوجها واثنين من إخوتها. وصلت في الثالثة والعشرين من عمرها وحيدة إلى كاليفورنيا، تاركةً أربعة أطفال صغار عند أقرباء لها في قرية حدودية في غواتيمالا. عملت من مطلع الشمس حتى مغيبها؟ ثمّ جاءت بهم الواحد بعد الآخر إلى جانبها راكبةً ليلاً على ظهر القطارات، عابرة المكسيك في شاحنات، مُقامِرة بحياتها لاجتياز الحدود عبر دروب سرّية، مُقتنعة بأنّه إذا كانت حياتُها، كمهاجرة غير شرعية، قاسيةً، فإنّها ستكون أسوأ في بلدها. تطوّع ابنُها الأكبر في الجيش على أمل أن يملكَ مهنة ويحصلَ على المواطَنة الأمريكية الشمالية،

ذهبَ للمرة الثالثة إلى العراق وأفغانستان وبقي عامين دون أن يرى أسرته، لكنّه كان يُظهر خلال مكالماته الهاتفية أنّه راض تماماً عن حياته. ابنتاها أليثيا ونويمي، كانت لهما ميول رجًال أعمال وتدبّرتا أمرهما للحصول على إذن بالعمل؛ كانت إلسا واثقة مَن أنهم سوف يحرزون تقدّماً وفي مستقبل قريب إذا حصل عفو عن المهاجرين غير الشرعيين سيكون لهم بيت. كانت الفتاتان تديران مجموعة من النساء الأمريكيات اللاتينيات اللواتي لا يملكن هويات، في لباس موحد ورديّ اللون، ينظفن بيوتاً. كانتا تنقلنهنّ إلى عملهنّ في شاحنات أيضا وردية تحت الاسم العجيب "السندريلات النوويات" المكتوب على هياكلها.

أنزلت أماندا حمولتها في ردهةِ المدخل، قبّلت أمّها وإلسا، التي نادتها بـ"ملاكي" ودللتها بكلّ ما لم تستطِع أن تُدلّل به أبناءها أنفسهم حين كانوا صغاراً. وبينما كانت إنديانا وإلسا تطويان الملابس التي أُخرجت توّاً من النشّافة، بدأت هي تلعب شوط شطرنج دون تبصرٍ وهي في المطبخ مع جدّها، الذي كان أمام الرقعة في الصالون.

– اختفى قميص نوم وحمّالة صدر وسروال داخليّ من خزانتي. —أعلنت إنديانا.

– لا تنظري إليّ، يا ماما. أنا أستخدم قياس 2 وأنت بالكاد تستعملين القياس 10. ثمّ إنّني لن أرتدي شيئاً مطرّزاً ولا ميتة، لأنّه يخز —ردّت أماندا.

– أنا لا أتّهمك. لكن هناك من أخرج بعض ملابسي الداخليّة.

– لا بدّ أنّك أضعتِها —ارتأت إلسا.

– أين، يا إلسا؟ فأنا لا أخرج سراويلي الداخلي إلا في بيتي — أجابتها إنديانا، حتى ولو كان هذا غير صحيح، فلو أنّها تركتها في غرفة في فيرمونت لكانت انتبهت إلى ذلك قبل أن تصل إلى المصعد—. اختفت حمالة وردية وأخرى سوداء وسروالان داخليان، أيضاً

ورديان، وقميص نوم ناعم، لم أرتدِهِ ولا مرّة واحدة، احتفظت به لمناسبة مهمّة.

- يا للغرابة، يا صغيرة، شقّتك دائماً مُغلقة.
- أحد دخل، أنا واثقة. هذا الشخص أيضاً مدّ يده إلى قوارير عطور المعالجة، لكنّني أعتقد أنّه لم يأخذ أيّاً منها.
- هل أخلّ بترتيبِها؟ -سألت أماندا، مهتمّة بالأمر فجأة.
- صفّها أبجديا، والآن لا أستطيع أن أجد شيئاً. عندي ترتيبي الخاصّ.
- أي أنه ملك وقتاً كي يبحث في أدراجك، يُخرج الثياب التي أعجبته ويرتّب القوارير. هل أخذ شيئاً آخر؟ هل نظرت جيّداً إلى قفل الباب، يا ماما؟
- لم يأخذ شيئاً آخر، كما يبدو لي. القفل لم يُمس.
- من معه مفتاح بابك.
- عدة أشخاص، إلسا وأبي وأنتِ -ردت إنديانا؟
- وألان كِلرْ، وإن كان لن يسرق منكِ الملابس الداخلية المضحكة التي يهديها إليك -تمتمت أماندا بين أسنانها.
- ألان؟ ليس معه مفتاح، ولا يأتي إلى هنا أبداً

حرّك بلاك جاكسون حصاناً في الصالون، وأعلم بذلك حفيدته صارخا فردّت بالطريقة ذاتها بأنّها ستقتله له بثلاث حركات.

- أبي أيضاً معه مفتاح شقّتك -ذكّرت البنتُ إنديانا.
- بوب؟ لماذا سيكون معه؟ أنا ليس معي مفتاح شقته.
- أنت أعطيته له كي يُركّب لك التلفاز عندما ذهبت إلى تركيا مع كِلّرْ.
- أماندا، كيف يخطر لك أن تشكّي بأبيك يا صغيرة! يا إلهي. أبوك ليس لصاً، أبوك شرطيّ -تدخّلت إلسا دومينغِثْ، مرتبكة.

في البداية كانت إنديانا متفقة معها، وإن داخلها بعض الشكوك، لأنّ بوب مارتين كان هوائياً. عادة ما كان يُسبب لها إزعاجات،

خاصّة وأنّه كان يخرق الاتفاقات التي يتعهدان بها تجاه أماندا، لكنّه يُعامِلها بشكل عامّ باحترامٍ وودٍّ أخٍ كبير. أيضاً كان يُقدم لها مفاجآت مؤثّرة، كمًا في آخر عيد ميلاد لها، حين أرسل إليها قالب الحلوى إلى العيادة. وجاء زملاؤها وعلى رأسهم ماتيوس بِّريْرا في عيادات الطب البديل مزوّدين بالشمبانيا والكؤوس الورقية ليَشربوا نخبها ويشاركوها قالب الحلوى. عندما قطعت إنديانا قالب الحلوى بقطّاعة الورق اكتشفت في داخلها كيساً بلاستيكياً فيه خمسة أوراق نقدية من فئة المئة دولار، وهو مبلغٌ لا يُستهان به بالنسبة لزوجٍ سابق، دخله الوحيد هو راتب الشرطيّ ورائعٌ بالنسبة إليها. ومع ذلك كان هذا الرجل نفسه الذي أرسل قالب الحلوى وفي داخله الكنز قادراً على أن يدخل إلى شقّتها دون إذن منها.

خلال السنوات الثلاث التي عاشاها متزوجين وتحت سقف بلاك جاكسون، كان بوب يُراقبها كمهووس ومرّ وقت لا بأس به بعد الطلاق قبل أن يُذعن للبقاء على مسافة منها ويحترم خصوصيَّتها. لقد نضج لكنّه كان ما يزال يحتفظ بالمزاج التسلطي والعدواني لقائدِ الفريق الذي كانه، والذي ساعده كثيرا في مسيرته في مديرية الشرطة. كان في شبابه يُعاني من هبّات غضب فيحطم ما كان يقع بين يديه؛ كانت إنديانا خلال تلك الأزمات تضمّ ابنتها إليها وتركض لتلجأ إلى بيت أحدِ الجيران إلى أن يأتي والدها، الذي هتفت له وهو في الصيدلية. كان بوب يهدأ على الفور في حضرة حميه، وهذا برهان على أنّه لم يكن يفقد عقله تماما. وصلت العلاقة بين الاثنين إلى حد أنّها أصبحت قويّة جدّاً واستمرّت على حالها عندما تطلّقا. بقي بلاك يُعامله بسلطة الأبِ الطيّب وبقي بوب بدوره خدوماً كابن صالح. كانا يذهبان إلى مباريات كرة القدم وليشاهدا أفلامَ عنف ويتناولا بعض الجرعات في الكامِلوت، بارهما المفضّل.

كان الزوج السابق الشخصَ الثاني بعد أبيها قبل أن تتعرّف على ريان ميلرْ الذي تلجأ إليه عند الحاجة، واثقة من أنّه سيحل المشكلة، وإن

كان يغمرها بالمناسبة بالنصائح والمعاتبة. كانت معجبة بصفاته وتُحبّه كثيراً، لكنّ بوب كان قادراً على أن يمزح معها تلك المزحة ويأخذ لها ملابسها الداخلية كي يُبرهن له كم من السهل عليه أن يسرقها. منذ زمن طويل وهو يصرّ على الحاجة لقفل جديد وجهاز إنذار.

– هل تذكرين أنّك وعدتني بقطّة؟ –سألت أماندا أمّها قاطعة عليها تفكيرها.

– في نهاية آب ستذهبين إلى الجامعة، يا بُنَيّتي. من سيأخذ القطّة على عاتقه حين تذهبين؟

– جدّي. تكلمنا بالموضوع وهو موافق.

– سيكون من المناسب أن يكون عند المستر جاكسون حيوان صغير، فهو سيبقى وحيداً جداً من دون حفيدته –تنهّدت إلسا.

الأحد، 22

كانت شقّة بوب مارتين في الطابق الخامس من أحدِ الأبنية التي نبتت في السنوات الأخيرة مثل الفطر إلى الجنوب من ماركِت ستريت. كانت قبل سنوات قليلة منطقة ملوثة، تابعة للمرفأ فيها مخازن وحانات؛ تمتدّ الآن على طول الرصيف البحري وتعتبر أحد أكثر الأحياء تقديراً في المدينة، فيها مطاعم وأروقة فنّ ونوادٍ ليليّة، وفنادق فاخرة وعقارات سكنية، على بعد عدة كتل من الحيّ الماليّ وأونيون سكوار. اشترى المُفتِّش شقّته عندما كان المشّروع في مرحلة التخطيط، قبل أن تبلغ الأسعار السحاب، بقرض سيبقي عليه مديناً حتى نهاية أيّامه. كان البناء برجاً مُدهشاً، وبحسب تِلِستِ روكو استثماراً سيّئاً، لأنّه سينهار في الزلزال القادم. ومع ذلك لم تقل لها الكواكب متى سيحدث هذا. من نافذة الصالون يمكن تأمّل الخليج المزروع بالزوارق الشراعية وجسر الخليج.

كانت أماندا، بالريش المشكوك في شعرها وجوربيها المخططين بالأصفر وسترة جدّها المليئة بالثقوب عند المرفقين، تأكل مع أبيها على كرسيين عاليين أمام منضدة غرانيت المطبخ. كانت إحدي خطيبات أبيها السابقات، وهي مهندسة حدائق قد زخرفت له الشقة بأثاثٍ مما بعد الحداثة غير مريح وبدغل منٍ النباتات ماتت حزناً ما إن ذهبت. كان الجوّ من دون النباتات كئيباً كمصحّ، باستثناء غرفة أماندا، المليئة بالترهات وجدرانها بملصقات الفرق الموسيقيّة وأبطالها، تشايكوفسكي وستيفن هوكينغ وبريان غرين.

- هل ستأتي الآن البولونية —سألت الصغيرةُ أباها.

كانت معتادة على مزاج أبيها الغرامي، الذي لم يكن يدوم إلا قليلاً ولا يترك أثراً آخر غير كارثة النباتات الميتة.

- لها اسم، اسمها كارلا، تعرفين هذا تماماً. لن تأتي اليومَ، لقد خلعوا لها أضراس العقل.
- هذا أفضل، لا أقصد الأضراس. ماذا تريد هذه المرأة منك يا أبي. تأشيرة أمريكية؟

أنزل بوب مارتين ضربة بقبضته على غرانيت المنضدة وانطلق بخطبة عن احترام الأبناء بينما راح يفرك يده المهروسة. تابعت أماندا تناول طعامها ببرودة.

- دائماً تُعلنين الحرب على صديقاتي!
- لا تُبالغ، يا أبي...فأنا أتحمّلهن بعامّة جيّداً، لكنّ هذه لها ضحكة ضبع وقلب من فولاذ. في النهاية لن نتشاجر من أجل هذا. منذ متى أنت معها؟ منذ شهر ونصف كما أظنّ. خلال أسبوعين ستكون البولونية قد تبخّرت وسأكون أنا أكثر راحة. لا أريد لهذه المرأة أن تستغلك —صرّحت أماندا.

لم يستطع بوب مارتين أن يكبحَ ابتسامته، فهو يُحب تلك الابنة أكثر من أيّ شيء في العالم، أكثر من حياته، خرّب لها ريشَ الهندي

بضربة يد واستعد لأن يقدّم لها العَقَبة. كان عليه أن يُفكّر بحكم أماندا على موضوع الخطيبات العابرات، الذي ثبت له أنّه موثوق أكثر من رأيه ذاته. لم يكن يُفكّر بأن يقول لها ذلك، لكنّ مُغامرته مع كارلا كانت قد استنفدت. أخرج بوظة جوز الهند من الثلاجة وقدّمها في كأسين من البلور الأسود، اختارتهما مهندسةُ الحدائق، بينما الصغيرة تغسلُ صحني البيتزا.

- إنّني أنتظر، يا بابا.
- ماذا؟
- لا تتغابى. أحتاج لتفاصيل عن جريمة الطبيب النفسي — طالبته أماندا مغطسة بوظتها في شراب الشوكولاتة.
- ريتشارد أشتون . حدث ذلك يوم الثلاثاء 10
- متأكد؟
- طبعاً متأكد. السوابق على مكتبي، يا أماندا.
- لكن لا يمكن تحديد ساعة الموت بدقّة، هناك هامش من عدّة ساعات، بحسب ما قرأتُ في كتاب عن الجثث. عليك أن تقرأه، يسمى *المُتَيَبّس* أو شيء من هذا القبيل.
- يا للأشياء التي تقرئينها، يا بنيتي!
- أشياء أسوأ مما تتصوّر، يا أبي. يجب أن يكون الطبيب النفسيّ مهمّاً، لأنّك تحتفظ لنفسك بأفضل القضايا ولا تضيع وقتك بقتلى قضايا تافهة.
- إذا كنت في السابعة عشرة من عمرك بهذه الاستهتار فإنّني أفضل ألا أفكر كيف ستكونين في الثلاثين —علق المفتّش بتنهيدة مأساوية.
- باردة وحاسبة مثل البولونية. تابع روايتك...

أخذها بوب مارتين مذعناً إلى حاسوبه، أراها صور مشهد الجثة وأعطاها ملاحظاته كي تقرأها مع تفاصيل ملابس الضحية والتقرير الطبي، الذي سبق وصوّرته بجوّالها في الزيارة السابقة.

- بعد أن قابلته أياني في الصباح، خاطب قائلاً: كان يجب أن تريها، يا أماندا، شيء غير معقول، أجمل امرأة رأيتها في حياتي.

- أياني، عارضة الأزياء. ظهرت في الأخبار أكثر مما ظهرت الضحيّة. صورتها في كلّ مكان، تمضي مسربلة تماماً بالحداد، مثل أولاء الأرامل القديمات، تصوّر المسخرة —علقت أماندا. 155

- ليست أيّ مسخرة. ربّما كانت العادة في بلدها.

- لو كنتُ مكانها لسررتُ بترملي من هذا الزوج المريع وبكوني أصبحت ثريّةً. كيف بدت لك أياني؟ أقصد شخصيّتها.

- بعيداً عن كونها مُدهشة، فإنّها تتحكّم كثيراً بعواطفها. كانت هادئةً جدّاً يوم الجريمة.

- هادئة أم مرتاحة؟ أين كانت حين قتلوا زوجها؟ –سألته أماندا، مستندة إلى المعلومات التي كان يُطالبها بها لاعبو لعبة نازع الأحشاء.

- تُقدّر إنغريد دونْ أنّه كان قد مضى على مقتل أشتون ما بين الثماني والعشر ساعات، تقريباً. حتى الآن لا نملك النتائج النهائية للتشريح. كانت زوجته نائمة في البيت.

- كم هو مناسب...

- قال لي خادم المنزل، غالانغ إنّها تتناول مُنوّمات ومسكنات، يبدو لي أنّها لهذا السبب بدت في اليوم التالي غير متأثّرة. وبسبب الصدمة، طبعاً.

- لا تستطيع أن تكون متأكّداً من أنّ أياني تناولت المُنوّم في تلك الليلة.

- أخذه لها غالانغ مع فنجان الشوكولاتة، كما يفعل دائماً، لكنّه لم يرها تبلعه، إذا كان هذا ما تُلمّحين إليه.

- هي المتهمة الرئيسية.

- هذا يكون في فيلم بوليسي. في الحياة الواقعية أستدلّ بتجربتي. عندي حاسة شمّ لهذِه الأمور، لذلك أنا شرطيّ جيّد. ما من إثبات ضدّ أياني وحاسّة شمي تقول لي...

– لا تسمح لجسد المشبوهة الرئيسية أن يتدخّل في حاسّة شمّك، يا أبي. لكن معك حقٍ يجب أن تكون منفتحاً على احتمالات أخرى. لوٍ كانت أياني تُخطط لقتل زوجها لحضّرت ذريعة أخرى أكثر إقناعاً من تلك الأقراص المُنوِّمة.

الأربعاء 25

عندما وصلت إلى بيت أبيها، راِجعت إنديانا البريدَ فوجدت بين الحسابات والدعاية السياسيّة مجلة فاخرةٍ مُخصّصة لأبرز حملة بعض بطاقات الإئتمان، كانت قد رأتها أحياناً في عيادة طبيب أسنانها. كان البيت صامتاً. كانت ليلة كرةِ جدار أبيها وكوخه الألماني. حملت المجلة مع كلّ البريد إلِى المطبخ. وضعت ماءً على النار للشاي وجلست لتتصفحها شاردة الذهن. لاحظت أنّ هناك صفحة معلّمة بشكالة ووجدت نفسها مع المقالة التي سوف تبدّل رتابة حياتها.

يظهر في المجلة ألان كِلِّرْ مستقبِلاً ضيوفه في كرمهِ مع امرأة شقراء تأخذ بذراعه وتحت الصورة في أسفلها تُعرَّف بأنّها جِنِفييف فانْ هوتْ، بارونة بلجيكية ممثلة لعدد من مُصمّمي الأزياء الأوروبيين. قرأت إنديانا ببعض الفضول حتى الفقرة الثالثة حيث علمت أنّها كانت تعيشُ في باريس، لكنّها سرعان مِا أصبحت مقيمة في سان فرانسيسكو، وقد صارت زوجة لألان كِلرْ. تناولَ المقالُ بالتفصيل الحفلةَ المقامة على شرف قائد فرقة السيمفونية ورأيَ عدد من المدعوّين بالارتباط الحتميّ بين الاثنين،اللذين لم يُكذباه، ونسبَ فانْ هوتْ، التي كانت عائلتُها تُفاخرُ ببارونيتها منذ القرن السابع عشر. في الصفحة التالية رأت أربعَ صور أخرى لألان كِلِرْ مع المرأة ذاتها في أماكنَ مختلفة، في نادٍ في لوس أنجلوس،في عابرةِ محيطات في ألاسكا، في حفلة سمر، وفي أحدِ شوارع في روما متأبطا الواحد منهما ذراع الآخر.

انتبهت إنديانا، وخفقٍ صدغاها وارتجفت يداها، فقد صعقها شعرُ جنِفييف الذي كان قصيرا في صورتين وطويلا في الصورتين الأخريينِ وأنّ ألان كِلِرْ يرتدي السترة الكشميرية الطحينيةَ المعجبة بها كثيرا والتي خلعها ليهديها إليها. بما أنّ هذا حدثَ بعد أسابيع قليلة من تعارفِهما، فإنّ النتيجة الحتمية هي أنّ بين عشيقها والبارونة تاريخا طويلا. عادت وقرأت المقال، وفتّشت الصور باحثة عن مفتاح ما يُكذّب الوقائع، لكنّها لم تستطع أن تعثر عليه. وضعت المجلّةَ على الطاولةِ فوق مغلف بطاقات السفر إلى الهند، وبقيت جالسةً وعيناها ثابتتان على غسالة الصحون، بينما إبريق الماء يغلي صافرا على موقد الغاز.

منذ خمس عشرة سنة لم تشعر بخيانةٍ تُمزِّقُ قلبها مثل تلك. تحمّلت في زواجها من بوب مارتين سلوكه كمراهق متهوِّر، علبَ بيرته المنتشرة على الأرض، أصدقاءه المُمدّدين أمام التلفاز وثورات غضبهم العنيفة، لكنّها لم تُقرّر الطلاق إلا عندما أصبح من المحال عليها تحمّل خياناته الزوجية. بعد ثلاث سنوات من الطلاق راح بوب يُطالبها بفرصةٍ أخرى، لكنّها فقدت الثقة به. في الأعوام التالية مرّت بعددٍ من الغراميات انتهت دون حنق، لأنّه ما من رجل خدعَها أو هجرها. إذا بردتِ العلاقةُ معه وجدت طريقة لطيفة للابتعاد عنه. ربّما لم يكن ألانٍ كِلِرْ الرفيقَ المثاليَّ، كما كانت تُردّدُ ابنتها وزوجها السابق وريان ميلرْ، لكنّها لم تشكّ حتى تلك اللحظة بوفائه، الذي هو بالنسبة إليها أسُّ العلاقة بينهما. تلكما الصفحتان الملونتان بورقهما الصقيل تبرهنان على أنّها أخطأت.

كي تستطيع إنديانا أن تشفي أجساداً أخرى تعلّمت أن تعرفَ جسدها. كانت تتعامل مع نفسها بالطريقة ذاتها التي كانت تَنْفذُ بها بالحدس إلى مرضاها. كان ألان كِلِرْ يقول إنّها تتواصل مع العالم عبر الحواس والعواطف، تعيش في عصرٍ ما قبل الهاتف، في عالم سحريّ، واثقة من طيبِ الناس، وكان متفقاً مع ثِلستِ روكو، التي كانت تؤكد

أنّ إنديانا كانت في تقمُّصِها السابق دلفيناً وأنّها ستعودُ في التقمّص القادم إلى البحر، لأنّها لم تُخْلَق لليابسة، كان ينقصها جين الحذر. يُضاف إلى ذلك بضع سنوات قضتها في طريق روحي ساهمت في جعلِها مُنفصلةً عمّا هو مادّي وحرّةً عقلاً وقلباً. لكن لا شيء من هذا خفّف من صدمتها من رؤية ألان كِلِرْ وجِنِفييف فانْ هوتْ في المجلّة.

ذهبت إلى شقّتها، أشعلت التدفئة وجلست في سريرها لتراقب مشاعرها في الظلمة وتتنفس بوعي وتستحضرَ طاقة الكي، الطاقة الكونية، التي كانت تحاول أن تنقلها لمرضاها، البرانا، القوّة التي تُحافظ على الحياة، أحد جوانب الشاكتي، الإلهة الحافظة. كانت تشعر بمخلبٍ في صدرها. بكت برهةً طويلة، وغلبها في النهاية التعبُ بعد منتصف الليل فنامت مضطربةً ساعاتٍ قليلة.

الخميس، 26

استيقظت إنديانا باكراً بعد ليلة من الأحلام العاصفة، التي لم تتمكن من تذكرها. فركت بضع قطرات من النِيرولي، زهرة البرتقال، على المعصمين كي تتوازن ونزلت إلى مطبخ أبيها لتُحَضّر مغلي الزهورات مع العسل وتضع ثلجا على عينيها المنتفختين. كانت تشعر بجسدها مُضعضعاً، لكنّ عقلها انجلى بعد تناولها لمغلي الزهورات وبعد عشرين دقيقة من التأمّلٍ، واستطاعت أن تفحصَ وضعها عنٍ مسافة محدّدة؛ قرَّرتْ، واثقةً من أنّ حالة الصفاء تلك ستدوم قليلاٍ، أن تتصرّف قبل أن تعود العواطفُ وتسيطر عليها، هتفتْ لألان كِلِرْ كي تتواعد معه في الواحدة مساءً على مقعد حديقة برسيديو المفضّل، حيث اعتادا أن يلتقيا. مرّ الصباح دون محنة، مستَغرقة في عملها. أغلقت عند الظهر عيادتها، وذهبت لتتناول كابوتشينو عند داني دانجلو وذهبت إلى الحديقة على الدرّاجة. وصلت مستبقة الموعد بعشر

دقائق وجلست تنتظر والمجلّةٍ في حضنها. كان قد تلاشى تأثير مهدّئ الزهورات والنيرولي تماماً.

ظهر ألان كِلِّرْ دقيقاً في موعده، مبتسماً لأنّها هي من هتفت له، كما في أزمنة غرامياتهما السعيدة، حين كانت أولويّة الرغبة تكنس كلّ تحفظٍ، مقتنعاً بأنّ تكتيكه بمفاجأتها برحلةِ الهَند قد نجح، جلس بجانبها وحاول أن يعانِقها، مازحاً، لكنّها ابتعدت وناولته المجلّة. لم يحتج كِلِّرْ لأن يفتحها، كان يعرف مضمونها، الذي لم يشغله حتى تلك اللحظة، لأنّ احتمال وقوعها في يد إنديانا كان ضعيفاً جداً. "أعتقد أنّكِ لا تصدّقين هذه الأقاويل، فكرتُ أنّك امرأة ذكية؛ لا تخيِّبيني". قال بنبرة شبقية. كان ذلك التكتيك الأقلَ صواباً.

مرّ نصف الساعة التالي وهو يُحاول أن يقنعها بأن جِنِفييف فانْ هوتْ مجرّد صديقة وأنّهما تعارفا حين حضّرَ دكتوراه تاريخ الفن في بروكسل وأنّهما بقيا يتواصلان لمصالح متبادلة. هو كان يُدخلها في دائرة المجتمعِ الراقي المغلقة وهي تسانده وتساعده في استثماراته، لكنّهما لم يُفكرا قط باحتمال أن يتزوجّا، يا لها من فكرة غير معقولة؛ كم هي مضحكة تلك الشائعات. انتقل بعدها ليفصّل أجدّ كوارثه المالية بينما إنديانا تستمع إليه غارقةً في صمت حجريّ، لأنّ واقعها كان يُقاس دولاراً بدولار وواقعه بمئات الآلاف.

في العام السابق عندما كانا يتنزهان آخذين كلّ بيد الآخر برز موضوع المال وكيفية إنفاقه. لم تشعر بنفسها مشدودة إلى الأواني البيزنطية في البازار.بعدها شمت في سوق البهار كلّ الذي وقع تحت نظرها، لكنّها لم تشترِ إلا بضعة غراماتٍ من القرقم. بينما قضى كِلِّرْ الأسبوع يُساوم على سَجادٍ قديم وأباريقَ عثمانية ليتأسفِ بعدها على السعر. سألته إنديانا في تلك المناسبة متى كان كافياً بالنسبة إليه ومتى سيقول كفى؛ ولماذا يُكدّس المزيد من الأشياء وكيف يحصل على المال دون عمل. "لا أحد يصبح غنيّاً بالعمل" أجابها، مرحاً وأعطاها

درساً حول توزيع الثروة وكيف أنّ القوانين الدينية تأخذُ على عاتقها حماية أملاك وامتيازات من يملكون أكثرَ على حساب الفقراء، ليخلص إلى أنّ النظام ظلمه هائل، لكن من حسن الحظّ أنّه ينتمي إلى مجموعة المحظوظين.

تذكّرت إنديانا على مقعد الحديقة ذلك الحديث بينما هو يشرح لها كم عليه من الضرائب وبطاقات الاعتماد وأشياء أخرى وكيف أنّ استثماراته الأخيرة فشلت وأنّه لا يستطيع أن يلجم دائنيه بالوعود وبوجاهة كنيتِهِ لزمنٍ أطول.

– لا تعرفين كم هو بائس أن يكون المرء غنيّاً من دون مال—تنهّد كِلِّرْ منهياً الحديث.

– لا بدّ أنّه أسوأ بكثير من أن يكون فقيراً مدقعاً. لكنّنا لسنا هنا لأجلِ هذا، بل لأجلنا. أرى أنّك لم تُحبّني قط كما أحببتُك، يا ألان.

استعادت المجلّة، سلّمْتُه مغلفَ بطاقةِ السفر إلى الهند، اعتمرت الخوذةَ وذهبتِ على الدراجة. تاركة خلفها عشيقها، الذي بقي مفاجَأً وغاضباً، معترفاً في داخله أنّه قال لإنديانا نصف الحقيقة: كان صحيحاً أنّه لم يكن يُفكر بالزواج من جِنِفييف، لكنّه لم يقل لها إنّه يُقيم معها صداقة غرامية منذ ستّ عشرة سنة.

كان كِلِّرْ والبلجيكية يلتقيان قليلاً فهي دائمة السفر بين أوروبا وعددٍ من المدن الأمريكية الشمالية، لكنّهما كانا يجتمعان حين يتصادفان في مكانٍ واحد. كانت جِنِفييف رقيقة ومرحة، يستطيعان أن يمضيا بعضاً منَ الليل يتحدّى أحدهما الآخر في ألعاب فكريّة، وحدهما يعرفان مفاتيحها، تتخللها السخرية والخبث، وإذا ما طلبتْ منه كان يعرف كيف يُرضيها في الفراش دونٍ تعبٍ بمساعدة بعض الأدوات الجنسيّة، التي كانت تحملها دائماً في حقيبة سفرها. كان بينهما تشابهٌ وينتميان إلى الطبقة الاجتماعية العابرة للحدود التي يعرف أعضاؤها بعضهم بعضاً في أيّ بقعة من الكوكب، سافرا في

العالم ويعيشان البذخ، الذي يبدو لهما طبيعياً، بطوله وعرضه. كلاهما كان مولعاً بالموسيقى بشغف، نصف الموسيقى التي عنده أهدتها إليه جِنِفييف وكانا يلتقيان من حين لآخر في ميلان أو نيويورك أو لندن في الموسم الغنائي. كان التناقض بين هذه الصديقة، التي عادة ما كان يدعوها بلاثيدو دومينغو ورينيه فِلمينغ شخصياً إلى حفلاتهما، وبين إنديانا التي لم تذهب قط إلى الأوبرا حتى أخذها هو لتسمع توسكا. في تلك المناسبة لم تُدهشها الموسيقى، لكنّها انتهت بالإجهاش على كتفه من الميلودراما.

أصرَّ كِلِرْ مغتاظاً على أنّه لم يخرق أيَّ اتفاق له مع إنديانا، وعلاقته مع جِنِفييف لم تكن علاقة حبّ، كان قد سئم من حالات سوء الفهم والشعور بالذنب من الترهات، مباركة الساعة التي انتهت فيها تلك العلاقة التي طالت أكثر من اللازم. ومع ذلك خطر له وهو يراها تبتعد على درّاجتها، أن يتساءل ما ردّة فعله لو أنّ الوضع كان معكوساً وأنّ الصداقة الحميمة كانت بين إنديانا وميلرْ. "إلى الشيطان، أيّتها الحمقاء!" تمتم شاعراً بنفسه أنه مضحك. لم يكن يُفكر بأنه لن يراها أبداً، يا له من مشهد سوقيّ، ما كان ليحدث هذا أبدا مع جِنِفييف. عليه أن ينزع إنديانا من رأسه، أن ينساها، وبدأ، عمليّاً، ينساها. نشّف عينيه بقفا يده وراح يمشي بقفزات نزقةٍ باتجاه سيارته.

أمضى تلك الليلة تائهاً في بيته الكبير في وودسايد مرتدياً معطفاً فوق البيجاما وقفازين، لأنَّ حرارة التدفئة الضعيفة كانت تبتلعها تيارات الهواء التي تتسرّب بصفير مُقلِق من شقوق الخشب. أتى على أفضل زجاجةِ نبيذٍ عنده، بينما هو يجتّرّ عدداً من الأسباب لانفصاله عن إنديانا نهائياً: ما حدث يبرهن مرّة أخرى على ضيق معيار تلك المرأة وسوقيّتها. ما الذي كانت تريده؟ أن يتخلى عن صداقاته ودوائره الاجتماعية؟ المناوشات القصيرة بينه وبين جِنِفييف كانت غير مهمّة، وحده مَنْ عالمُهُ ضيّقٌ مثل إنديانا يمكن أن يُثيرَ مشكلة

من أجل مثل تلك التفاهة. هو لا يتذكّر أنّه وعدها بأن يكون وفيّاً لها. متى حدث ذلك؟ لا بدّ أنّه حدث في لحظة شرودٍ، وإن هو فعل فلأنّه كان أقرب إلى الشكلانية من الوعد. كانا على طرفي نقيض، عرف ذلك منذ البداية وكان خطأه أنّه غذّى آمال إنديانا الزائفة.

كان تأثير النبيذ فيه سيّئاً جدّاً. أفاقَ على حموضة في معدته وألم في رأسه. شعر بعد حبّتي مسكن وملعقة من مستحلبِ المغنيسيوم بتحسّنٍ واستطاع أن يتناولَ قهوة مع خبز محمّص ومربى إنكليزي. أسعفته حالته النفسية كي يُلقي نظرة على الصحيفة. كانت له خططه لذلك اليوم ولم يكن يُفكّر أن يغيرها. عمل حماماً طويلاً كي يمحو تأثيرات تلك الليلة السيّئة واعتقد أنّه استعاد توازنه المعتاد، لكنّه عندما ذهب ليحلق ذقنه تبين له أن عشر سنوات هبطتْ عليه فجأةً وأنّ من المرآةِ ينظر إليه أحدُ عجوزَي لوحةِ تينتورتّو. جلس على حافّة المغطس عارياً ليفحص عروق قدميه الزرقاء وهو ينادي إنديانا ويلعنها.

السبت، 28

أصبح خليج سان فرانسيسكو مغطّى بالضبابِ الحليبيّ الذي يلفّه عادة، ماحياً معالمَ العالم. كان الضباب يهبط متدحرجاً من قممِ التلال مثل كرةٍ من القطن بطيئة، ويغطي بهاءَ ألمنيوم الماء. كان واحداً من تلك الأيّام النموذجية مع اختلاف من عدّة درجات بين طرفي جسر غولدِن غات. في سان فرانسيسكو شتاء وعلى بعد أربعة كيلومترات إلى الشمال شمسْ خريف. كانت أعظم ميّزة لذلك المكان بالنسبة لريان ميلّرْ هي طقسه المبارك، الذي يسمح له بالتدرّب طوال السنة في الهواء الطلق. سبق أن شارك في أربعة سباقات اختبار: 3.86 كم. سباحة، 180.25كم. على الدراجة و 42.2 كم. جريا، بمتوسط متواضع من أربع عشرة ساعة. لكنّ الصحافة كانت في كلّ مناسبة تسميه "نموذج

التفوّق" وهو ما كان يُثير غضبه، لأنّ جَدْعة الرجل كانت معتادة جدّاً بين قدماء المحاربين وهي لذلك لا تستحق الذكر. على الأقل كانت أرجله الاصطناعية رائعةً، وهو بهذا كان يتفوّق على مبتورين آخرين، لا يملكون إمكانيات ذاتيةً وعليهم أن يقبلوا بالأعضاء الاصطناعية العاديّة. كان عرجه خفيفاً وباستطاعته أن يرقص تانغو لو كان يملك إحساساً أكبر بالإيقاع وخوفاً أقلّ من أن يصير مضحكةً. لم يكن قط راقصاً جيّداً.كان مثال التفوّق، بحسب فهمهِ هو ديك هويت، الأب الذي كان يشترك في السباق الثلاثي، حاملاً ابنه المعاق، البالغ، الذي يزن مثله. كان الرجل يسبح جارّاً زورقاً مطاطياً والفتى فيه ويجري دافعاً كرسيَّ عجلاته. في كلّ مرّة صادف ميلرْ هذا الرجلَ ورآه يُنافس، كان حبّ هذا الأب الصامت،الذي كان يتناقض مع صرامةِ أبيه، يُفَجّر الدمعَ في عينيه.

كان يوم عمله قد بدأ كما هي العادة دائماً في الخامسة صباحاً ببرهةٍ مكرّسة للكيغونغ. كان هذا يُريحه بقيةَ اليوم ويكاد يجعله دائماً ينجح في مصالحته مع ضميره. كان قد قرأ في كتابٍ عن الساموراي جملةً تبناها كشعار له: إنَّ محارباً من دون ممارسةٍ روحية مجرَّدُ قاتل. حضّرَ على الفوّر طعام إفطاره، وهو مخفوق أخضر كثيف، فيه ما يكفي من البروتين والألياف وهيدرات الكربون، كأن يبقى حيّاً في أنتارتيكا وأخذ أتيلا كي يجري، فلا يسمن ولا يصيبه الخمول. لم يكن الكلب فتيّاً، فعمره ثماني سنوات، لكنّه كان يطفح بالطاقة ويضجر، بعد أن خدم في الحرب، خلال حياته الوادعة في سان فرانسيسكو. كانوا قد درّبوه على الدفاع والهجوم، على البحثِ عن الألغام والإرهابيين، على التنكيل بالأعداء والقفز بالمظلة، على السباحة في المياه المثلجة والقيام أعمال أخرى لا وجودَ لها في الحياة المدنية. كان أطرش وعنده عين لا يرى بها، لكنّه كان يُعوِّض ما ينقصه بحاسةِ شمّ رائعة حتى بالنسبة لكلب. كان يتفاهم مع ميلرْ بالإشارات، يتنبأ بنواياه ويُطيعه إذا كان الأمر يتعلقُ بأمرٍ عظيم وإلا لاذ بطرشه كيلا يكترث به.

عاد الرجل والكلب بعد جري دامَ ساعةً، لاهثين، استلقى أتيلا في زاوية، بينما ميلرْ يخضع نفسه لآلات التمارين الموزّعة مثل منحوتات مريعة في شقته. فضاء واسع عار، فيه سرير عريض وتلفاز، ومجموعة جهازٍ صوتي للموسيقى وطاولةً بدائية، يستخدمه مكاناً للطعام ومكتباً ومشغلاً. فوق طاولة جدارية ضخمة كان يضع الحواسيب التي كانت تصله مباشرة بوكالات الحكومة التي يبيعها خدماتِه. لم تكن تُرى عنده صور ولا شهادات ولا زينات... لا شيء شخصيٌّ، كما لو أنّه وصل توّاً أو على وشك أن يرحل، لكنّه نشر على الجدار مجموعة من الأسلحة كان يتسلّى بفكها وتنظيفها.

كان مسكنه يشغل كلّ الطابق الثاني من مطبعة قديمة في الحيّ الصناعي من سان فرانسيسكو، فيه ما يكفي من الفضاء لروحه القلقة، ومجهّز بمرآبٍ ومصعد صناعي: قفص حديدي يمكن أن تصعد فيه دبابة، إذا ما تطلب الأمر. كان قد اختار هذا الطابق لحجمه ولأنّه يُحبّ الوحدة. كان الساكن الوحيد في البناء وما من أحد يجول في شوارع ذلك الحيّ بعد السادسة مساء وفي نهايات الأسبوع.

كان ميلرْ في أيام العمل يسبح في مسبح أولبي وفي الأيام الأخرى في الخليج. في ذلك السبت وصل إلى الحديقة المائية، حيث يستطيع أن يصف سيارته في الشارع أربع ساعات مجاناً.توجّه مع أتيلا إلى نادي الدلفين. كان الطقس بارداً ولا يوجد في تلك الساعة الباكرة إلا بضعة أشخاص يخبّون، يطلعون فجأة من بين الضباب الكثيف كأنّهم أشباح. كان يمسك الكلب بسَيْر ويضع له كمامة تحسباً، فهو ما زال باستطاعته أن يجري خمسين كيلومتراً في الساعة، ويستطيع أن يُمزّق بفكيه صدرية مُضادة للرصاص فهو ما إن يُطبق فكيه على طريدةٍ حتى لا يعود هناك من يستطيع إفلاتها منه. كلف ميلرْ تكييفهُ مع المدينة سنة، لكنّه بقي يخاف أن يُهاجِم إذا ما أُثير أو فوجئ، وإذا ما حدث هذا عليه أن يلجأ إلى القتل الرحيم. التزم بهذا عندما سلّموه أتيلا، لكنّ فكرة التضحية برفيقه في السلاح وبأفضل صديق له كانت

لا تُحتمل. كان مديناً له بحياته عندما جرحوه في العراق في عام 2007، محطمين رجله، استطاع أن يشدّها بعصبة قبل أن يغيب عن الوعي ولولا تدخّل أتيلا لكان مات، جرّه أكثر من مئة متر تحت رماية كثيفة ثم ارتمى فوقه كي يحميه بجسده إلى أن وصلت المساعدة. في مروحية إنقاذ ميلرْ راح ينادي كلبه وبقي يُناديه في الطائرة التي أقلته إلى مشفى أمريكيّ في ألمانيا.

بعد أشهر، خلال معاناة التأهيل الطويلة تحقّق ميلرْ من أنّهم عيّنوا لأتيلا مُدرّبا جديداً وصار يخدم في مجموعة أخرى من جنود النخبة في منطقة تُسيطر عليها القاعدة. أرسل إليه أحدُهم صورة للكلب لم يُعرَف فيها، لأنّهم حلقوا له شعره كلياً باستثناء خط في ظهره على الطريقة الموهيكيّة كي يُضفوا عليه مظهراً أكثر تخويفاً. تابع أخباره معتمداً على أخوته في السيل تيم 6 تن به الذين اعتادوا أن يُرسلوا إليه أخباراً وهكذا علم أن الكلب قد جُرح في تشرين الثاني 2008.

كان أتيلا قد شارك حتى ذلك الوقت في عدد من الهجمات وأعمال الإنقاذ، أنقذ حياة الكثيرين وراح يتحوّل إلى أسطورة بين جنود نخبة النخبة. لكنّه بينما كان ذاهباً في قافلة مع مدربه انفجر لغم في الطريق. دمّر الانفجارُ عربتين وخلّفَ قتيلين وخمسة جرحى إضافة إلى أتيلا. كانت حالته من السوء إلى حدٍّ أنّهم ظنوه ميتا، لكنّهم حملوه مع البقيّة، لأنَّ رفيقَ المعركة لا يُترَك، هذا مبدأ مقدَّس. تلقى أتيلا العنايةِ الطبيّة وتغلب على جراحه، وإن لم يعد يصلحُ للحرب ومُنِحَ وساما؛ كان ميلرْ يملك صورة للاحتفال القصير ولميداليته أتيلا بين أشيائه في صندوق.

عندما علم أنّهم أخرجوه من الخدمة بدأ ميلرْ إجراءاتِ إدخالهِ الشاقة إلى الولايات المتحدة وتبنيهِ منتصرا على عددٍ من العوائق البيروقراطية. في اليوم الذي استطاع أن يذهب فيه أخيرا ليبحث عنه

---

[17] قوّة خاصّة الخاصّة في قوات النخبة الأمريكية، قادرة على القتال في كلّ ظرف وكلّ مكان مهما كان. سأسميها جنود النخبة. المترجمة

في القاعدة العسكرية عرفهُ أتيلا على الفور وارتمى فوقه فتدحرجا معاً على الأرض لاعبَيْن كما كانا يفعلان في السابق.

كان نادي الدلفين للسباحة موجوداً منذ 1877ومنذ لك الوقت وهو يحافظ على منافسة ودّية مع النادي المتاخم، ساوث إند، في ذات البناء الخشبي القديم، يفصل بينهما جدار وباب من دون مفتاح. أشار ريان إشارة خرساء لأتيلا فانزلق هذا بحذر ليختبئ في المشالح، بجانب إعلان أصفر كبير يمنعُ إدخال الكلاب، وبينما راح هو يصعد الدرج نحو المطلّ وهو قاعة دائريّة صغيرة فيها كرسيان كبيران مزعزعان وكرسيٌ هزّاز، حيث كان فرانك رينالديٍ، المدير، يحمل على كاهله أربعاً وثمانين سنة، الذي كان دائماً الأوّل في الوصول، يجلس في كرسيّه الهزّاز كي ينعم بأجمل مشهد للمدينة: جسر غولدن غات يضيئُهُ نور الفجر.

– أحتاج لمتطوِّعين لتنظيف الحمامات. سجّل اسمك في اللائحة، يا فتى –كان هذا هو ترحيبه.

– سأفعل. هل ستسبح اليوم يا فرانك؟

– ماذا تظنّ؟ هل تظنّ أنّني سأبقى جالساً بجانب المدفأة بقيّة النهار؟ زمجر العجوز.

لم يكن الثمانيّ الوحيد الذي كان يتحدّى مياهَ الخليج المثلجة. مات حديثاً أحدُ أعضاء النادي، كان ينزل إلى الماء في السادسة والتسعين من عمره، وهو نفسه الذي سَبَحَ من كاترات عندما أكمل الستين جارّاً زورقاً ربط بحلقاتٍ إلى قدميه. كان رينالدي ينتمي مثل ريان ميلرْ وبدرو ألاركون، إلى الناديً القطبي الذي كان أعضاؤه يُكملون أربعة وستين كيلومترا سباحةً خلال موسم الشتاء. كان كلّ واحدٍ منهم يُسجّل مساهمته اليومية على ورقة مربعات مثبتة على الجدار بأربعة دبابيس. وكان هناك لحسابِ المسافة المقطوعة خريطة للحديقة المائية وخيطٌ فيه عقد، الطريقة البدائية التي لا أحد كان

يعتبر تغييرها ضروريّاً. كان حساب الكيلومترات يترك، مثله مثل كلّ ما في النادي، لنزاهة الأعضاء وكان هذا النظام يعمل بنجاحٍ تامّ منذ مئة وخمس وثلاثين سنة.

لبس ريان ميلزْ سروالَ السباحة ثم وقبل أن ينزل إلى البحر مرَّر يده بحنوّ على ظهر أتيلا، الذي استعدَّ لينتظره، قابعا في ركنهِ وأنفه بين ساقيه الأماميّتين، محاولاً أن يمرّ غير ملاحظ. التقى على الشاطئ ببيدرو ألاركون، الذي كان قد سبقه، لكنّه لم يكن يريد أن يتبلل، لأنّه كان مزكوما. كان قد جهّز زورقاً كي يخرج للتجذيف، وتدثّر بسترةٍ ثقيلة وقبّعة ولفافةٍ، يحمل كأسَ المتّة في يده وبرّاد مائها الساخن تحت ذراعه، تبادلا التحية بإيماءة لم تكدَ تُلحظ.

دفع ألاركون الزورقَ وصعد إليه بقفزةٍ واختفى في الضباب، بينما راح ميلزْ يعتمر القبّعة البرتقاليّة ويضع النظارة، وينزع الساق الصناعيّة، التي تركها مرميّة على الرمل، واثقاً من أنّ أحدا لن يلمسها وانطلق إلى البحر. شعر بضربةِ الماء البارد مثل صفعة مباغتة، لكن سرعان ما رفعته نشوة السباحة إلى السماء. كان في لحظات مثل تلك، يعود ما كانه، خفيفاً يتحدّى التيارات الغادرةِ ويتحمّل حرارة الدرجات الثماني التي تجعل العظام تصرّ، مدفوعا بعضلاته الجبّارة وظهره. بعد قليلٍ ما عاد يشعر بالبرد وركز على تنفسِهِ، سرعتِهِ واتجاهِهِ، مُستدلاً بالكرات الطافية التي لا يكاد يميّزها من خلال النظارة الواقية والضباب.

تدرّب الاثنانِ ساعةً وعادا في وقتٍ واحد إلى الشاطئ. جرّ ألاركون زورقَهُ وناول ميلزْ ساقَهُ الاصطناعية.

– لست في وضع جيّد –قال هذا متّجها إلى النادي، مستنداً إلى كتف الآخر وهو يعرج لأنّ الجدعة الخَدِرَة كانت تزعجه.

– الساقان لا تساهمان إلا بعشرة بالمئة من الدفع في الماء، يا رجل، لك فخذا حصان. لا تستنفدهما في السباحة. عليك أن تحتفظ بهما للدراجة والجريّ في السباق الثلاثيّ.

قاطعهما صفير فرانك رينالدي في أعلى الدرج ليُعلن لهما أنّ لديهما زيارة. كانت إلى جانبه إنديانا جاكسون وكأسان ورقيان في يدها، محمرّةَ الأنف ودامعة العينين بعد المسافة التي قطعتها على الدراجة، وسيلة نقلِها المعتادة.

- جئتكما بأسوأ ما وجدتُ: شوكولاتة ساخنة بالملح البحري والكراميل من جيراردلي —قالت.
- هل حدث شيء؟ —سألها ريان، فزعاً من وجودها إلى النادي، الذي لم تكن قد وطأته قبلها أبداً.
- لا شيء عاجلٍ...
- إذن اتركي ميلرْ يدخل إلى الساونا برهة، فبعض المتهوِّرين ماتوا من انخفاض حرارة هذه المياه —قال لها رينالدي.
- وآخرون التهمتهم أسماك القرش —سخر ميلرْ.
- هل هذا صحيح؟ —سألت هي.

وضّح لها رينالدي أنّه منذ زمن طويل لم تُشاهد أسماك قرش، لكن قبل سنواتٍ دخل إلى الحديقة المائية أسد بحري، وعضَّ أرجلَ أربعة عشر شخصاً ولاحق عشرة آخرين، نجوا بشقّ النفس، رأيٍ بعض الخبراء أنّه كان يحمي حريمه، لكنّ رينالدي كان واثقا من أنّ الحيوان كان مصابا بأذيّةٍ دماغيّة سببها أشنيات سامّة.

- كم مرّة قلتُ لكَ إنّك لا تستطيع أن تأتي بكلبك إلى النادي، يا ميلِّرْ؟
- كثيرة، يا فرانك وفي كلّ مرّة أوضِّحُ لك أنّ أتيلا حيوان خدمة، مثل كلاب العميان.
- بودّي لو أعرف ما الخدمة التي يُقدّمها هذا الحيوان!
- يُريحُ أعصابي.
- أعضاء النادي يتذمّرون، يا ميلِّرْ. كلبك يمكن أن يعضّ أحداً.
- كيف سيعضّ إذا كان مكموما، يا فرانك! ثمّ إنّه لا يهاجمُ إلا إذا أُمِر.

أخذ ريانِ حماماً ساخناً قصيراً وارتدى ملابسه بسرعة، مندهشاً من أنّ تتذكر إنديانا أنّه في مثلٍ تلك الساعة من أيام السبت يكون في النادي. كان يعتقد أنّها دائماً مستعجلة. كانت صديقته ممسوسة قليلاً، تفوتها التفاصيل اليومية وتتوه في الشوارع، غير قادرة على أن تحسب نفقاتها، تضيّع جوالها ومحفظتها، لكنّها تنجح بشكل عجيب في أن تكون دقيقة ومنظمة في عملها. عندما كانت تربط شعرها بمطاطة وترتدي دثارها الأبيض الذي تستخدمه في عيادتها تتحوّل إلى الأخت المتزنة للمرأة الأخرى، صاحبة الشعر الوحشيّ والثياب الضيّقة. كان ريان ميلرْ يُحبّ الاثنتين: الصديقة الغافلة والطائشة التي كانت تسعد حياته ويرغب بحمايتها، ذاتها التي كانت ترقص سكرانة بالإيقاع وعصير الأنانس بالكحول في نادٍ لاتيني، إلى حيث كان يأخذهما الرسام البرازيليّ، بينما هو يراقبها من كرسيّه والمرأة الأخرى، المعالجة المتزنة والجدّية التي تخفف من آلامه العضلية، ساحرةِ الخلاصات الخادعة ومغنطيساتِ تقويم قوى الكون، والكرات الزجاجية والرقاصات والشموع. ما من واحدة من الاثنتين كانت تتوقع ذلك الحبّ الذي كان يشعر به، مثل نبتة متسلّقة راحت تلفه.

أشار إلى أتيلا كي يبقى في ركنهِ واجتمع في المطلّ بإنديانا التي كانت تنتظره وحيدة، لأنّ ألاركون وريناليدي ذهبا. جلسا على الكرسيين المخلّعتين أمام النوافذ، يرافقهم صخبُ النوارس، يتأملان المنظر الحليبيّ ورؤوسَ أبراجِ الجسر العالية المُطلةِ من بين الضباب، الذي بدأ ينقشع.

– إلامَ أنا مدين بسعادتي بزيارتك؟ –سأل ريان، مجبراً نفسه على شرب الشوكولاتة، التي جاءته بها؛ شبه باردة مع القشطة المتكومة مثل معجون النشا.

– أعتقد أنّك تعرفُ أنّ كلّ شيءٍ انتهى بيني وبين ألان.

– غير معقول! كيف حدث هذا؟ –سألها ميلرْ دون أن يُخفي رضاه.

- وما زلت تسألني؟ كنتَ أنتَ السبب. أرسلتَ إليّ تلك المجلّة. كنتُ على ثقة كبيرة بحبّ ألان... كيف استطعتُ أن أنخدع بهِ إلى هذا الحدّ؟ عندما رأيتُ الصورَ شعرت كما لو أنّهم ضربوني، يا ريان. لماذا فعلتِ هذا؟

- أنا لم أرسل لكِ شيئاً يا إندي، لكن إذا أفادَ هذا في انفصالك عن هذا العجوز، فساعة مباركة.

- ليس عجوزاً، عمره خمس وخمسون سنة، ويبدو رائعاً. وهذا لا يعني أنّهُ يهمّني، فهو ما عاد في حياتي —أعلنت وهي تمخط بمنديل ورقي.

- احكي لي ما الذي حدث؟

- أقسم أولاً أنّكَ لستَ من أرسل لي القصاصة.

- يبدو كأنّك لا تعرفينني! —صاح ميلرْ غاضباً— أنا لا أخاتِل، أعملُ مواجهة. لم يبدر مني ما يدعوك للشك بنزاهتي، يا إنديانا.

- صحيح، يا ريان. اعذرني فأنا مضطربة جداً. وجدتُ هذا في صندوق بريدي —قالت وهي تناوله ورقتين مطويتين من منتصفهما، قرأهما بسرعة وأعادهما إليها.

- فانْ هوتْ تُشبهك —كان هذا التعليق البائس الذي خطر له.

- نحن صورتان طبق الأصل! فقط هي أكبرُ منّي بعشرين سنة وتزن عشر كيلوغرامات أقلّ منّي وملابسها من شانيل—ردّت هي.

- أنت أحلى منها بكثير.

- لا أستطيع تحمّل الخيانة، يا ريان. إنّها أقوى منّي.

- قبل ثانية اتهمتني بخيانتك.

- على العكس. اعتقدتُ أنّك أرسلتَ لي المقال وفاءً، ولتعمل معي معروفا كي أفتحٍ عينيّ.

- سأكون جباناً لو لم أقله لك في وجهك، يا إنديانا.

- نعم، طبعاً. أحتاج لأنّ أعرف من فعل ذلك، يا ريان. لم يصلني المُغلّف بالبريد، فهو لا يحمل خاتماً. هناك أحدٌ أزعج نفسه ووضعه في صندوق بريدي.

- يمكن أن يكون أيّاً من المعجبين بك، يا إندي، وقام به بأحسن نيّة: كي تعرفي أيّ نوع الرجال هو ألان كِلِرْ.

- هذا الشخص تركه في بيتي وليس في عيادتي، يعرفُ أين أعيش وعنده معلومات عن حياتي الخاصّة. هل قلتُ لك إنّ بعض قطع ملابسي الداخلية فُقِدَت. أنا واثقة من أنّ أحداً دخل شقّتي، وربّما دخلَ أكثر من مرّة، لا أدري كيف سأعرف. من السهل جدّاً أن تصعدَ إلى شقّتي دون أن يراك أحد من الشارع، لأنّ الدرجَ موجود في جانبٍ من البيت وتُخفيه صنوبرة وارفة. حكت أماندا ذلك لبوب وتعرف أنت شعوره بالملكية. وصل دون سابق إعلام يرافقه عامل أقفال وبدّل أقفال أبواب بيت أبي وشقتي. منذ ذلك الوقت لم يختفِ أي شيء آخر، لكن ينتابني إحساس أحياناً بأنّ أحداً كان في الداخل، لا أستطيع أن أشرح لك، حضوره يبقى طافياً في الهواء، مثل شبح، أعتقد أنّ أحداً يتجسَّس عليّ، يا ريان...

الاثنين، 30

على امتداد السنواتِ الثلاث التي تردّدت فيها دِنيس ويست على عيادات الطب البديل تحوّلت إلى أحبّ المرضى إلى المعالجين. كانت تكرّس مساءات أيّام الاثنين حتى ولو كان هناك عاصفة، للصحّة والفن، كان عندها موعد مع إنديانا جاكسون من أجل جلسة الريْكي والنزح اللمفي والمعالجة بالعطور، وموعد مع يوميكو ساتو للمعالجة بالإبر، ومع دافيدٍ مْكي الذي يُقدّم لها أقراص المعالجة المثلية، ولكي تنهي مساءً سعيداً تأخذُ دروساً بالرسم عند ماتيوس بِرِيْرا. لم تتخلّف قط حتى ولو كان عليها أن تسافر لساعة ونصف في الشاحنة الصاخبة التي تحملٍ فيها منتجاتِ مزرعتها الصغيرة إلى أسواقِ الشوارع. كانت تخرج باكراً، لأنّ صفَّ الشاحنة في نورث بيث يُشكل تحدّياً ودائماً

كانت تحمل شيئاً من أطايبِ بستانها إلى أطباء الروح، كما كانت تسميهم: ليمون، خس، بصل، باقات نرجس وبيض طازج.

كانت دنيس في الستين من عمرها وتؤكّد أنّها حيّة بفضل عيادات الطب البديل، حيث أعادوا إليها الصحّةَ والتفاؤلَ بعد حادث انتهى بكسر ستّة عظام ورضّ دماغي. كانت تُفرّغ خيباتها السياسية والاجتماعية –كانت فوضوية– في العيادات وتتلقى ما يكفي من الطاقة الإيجابية كي تحافظ على نفسها قوية بقيّةَ الأسبوع. كان أطباء روحها يكنون لها محبة كبيرة، بمن فيهم ماتيوس برِيْرا على الرغم من أنَّ أسلوبها في الرسم يُثير أعصابَهُ.كانت لوحات بِّريْرا كبيرة مكوّنة من كائنات مُعذّبةٍ وضرباتٍ ريشة كبيرة من ألوانٍ بدائيّة. بينما كانت هي ترسم صيصاناً وخرافاً صغيرة، مواضيع لا يُبرِّرها غير أنّها تعيش من الزراعة وتربية الحيوانات ذلك أنّه لم يكن لها علاقة بطبيعته الأمازونية. على الرغم من الاختلافات في الأسلوب إلاّ أنّ الدرسّ كان يجريِ بطيب نفس من كليهما.كانت دِنيس تدفعُ له بصرامةٍ خمسين دولاراً عنِ الدرس،ً يأخذها بِّريْرا وهو يشعر بالذنب، لأنّ الشيءَ الوحيد الذي تعلمته خلال ثلاث سنوات كان تحضير القماش وتنظيف الريش. كانت المرأةُ توزِّع في أعياد الميلاد أعمالَها الفنّيةَ على أصدقائها، بمن فيهم أطباء روحها؛ كانت إنديانا تحتفظ بمجموعة من صيصانها وخرافها في مرآب أبيها وكان يوميكو يتلقى الهديّة بكلتا يديه وبانحناءات عميقة حسب العادة في بلده، على الرغم من أنّه كان يُخفيها بأدب. وحده دافيدٍ مْكي كان يُقدِّر تلك اللوحات الزيتية ويُعلقها في مكتبه، لأنّه كان بيطريّاً فيِ الأصل، على الرغم من أنّ نجاحاته في الطبّ المثلي كانت ظاهرة جدّاً إذ أنّ جميع زبائنه كانوا بشراً، باستثناء الكلب المصاب بالرثية، والذي كان أيضاً من مرضى إنديانا.

كان ريان ميلِّرْ وبدرو ألاركون من حملا دِنيس وست لأوّل مرّة إلى عيادة الطب البديل وسلماها لإنديانا على أمل أن تَستطيع مساعدتها.

كانت دِنيس وألاركون صديقين كبيرين. بقيا عشيقين لفترة قصيرة، لكن لا أحد منهما كان يذكر ذلك ويتظاهران بأنّهما نسياه. التحمت عظام دِنيس بعد عددٍ من العمليات المعقدة، إلا أنّها بقيت ضعيفة الركبتين والوركين وينتابها إحساس مزعج بوجود رمح مغروز في عمودها الفقريّ، العوائق التي لم تحدّ من نشاطاتها الاجتماعية وكانت تتحمّلها بحفناتٍ من الأسبرين وجرعات من الجين. كانت تمضي متعبة من نقص في النوم و من غضبها من العالم، إلى أن حقّق جهدُ الأطباء الروحيين المركبُ والتسليةُ بالرسم الزيتي معجزة إعادتها إلى الفرح الذي أغوى قبل سنواتٍ بدرو ألاركون.

في نهاية جلسة ذلك الاثنين نزلت دِنيس عنِ السرير مُتنهّدة من السعادة، ارتدت بنطلون الجينز وقميص الحطاب وانتعلت جزمة الرجل التي كانت تستعملها دائماً وانتظرت ريان ميلرْ، الذي كان عنده موعد مع إنديانا. صارت تستطيعُ بفضل المعالجة الفيزيائية أن تصعدَ إلى الطابق الثاني متشبّثة بحاجز درج من طراز الأرت دِكو، لكنّها لم تستطع قط أن تصعد درج السفينة الذي يقود إلى السقيفة، لذلك كان درس الرسم يتمّ في المكتب رقم 3، الفارغ منذ عدد من السنوات. لم ينجح المستثمر الصيني، مالك العقار بتأجيره، لأنّ مستأجرين انتحرا فيه. شنق الأوّل نفسه بحذر والثاني نسف رأسه بطلقة مسدس، تلته فضيحة الدم والنخاع. أكثر من ممارس للطب البديل أُعجبَ بذلك المحلّ، لحسن موقعه وامتياز وجوده في العيادات البديلة، لكنّه كان ينفر حين يعرف قصّتَهُ. نورث بيث كانت تجري إشاعات بأنّ المنتحرين يتعذّبان في المكتب رقم 3، لكنّ بِرْيرا الذي كان يعيش في البناء، لم يرَ قطّ شيئاً خارقاً للطبيعة.

كثيراً ما كان ريان ميلرْ يذهبُ بعد أن يقابل إنديانا وتنتهي جلسته ليبحث عنٍ دِنيس في درسِ الرسم ويُرافقها حتى الشاحنة الصغيرة، هو أيضاً كان محظوظاً باستلام لوحات زيتية لحيوانات

داجنة في أعياد الميلاد، تنتهي بالذهاب إلى المزاد السنوي لملجأ نساءٍ هُنَّ ضحايا العنف، حيث كانت تلاقي التقدير المستحق.

خرج ميلِّرْ من عيادة إنديانا بسلام مع العالم ومع نفسه، حاملاً صورتها والإحساس الحيَّ لِيديها على جسده. تقاطع في الممر بكارول أندرووتر التي صادفها عددا من المرات في العيادة.

– كيف حالكِ، يا سيّدة؟ سألها مجاملةً، مستبقاً الجواب، الذي كان له دائماً ذات المظهر.

– مصابة بالسرطان، لكنّني ما زلتُ حيّة، كما ترى.

بعد الجلسة مع ميلِّرْ تبخّرت الرزانة التي كانت تغزوها في عملها عندما تكون غارقة في نيّة إشفاء وعادت لتغرق في حزن رومانسيتها الخائبة والخوف المبهم من الشعور بأنّها مُراقبة، الذي لم تنجح في التحرّر منه. بعد ساعات قليلة من انفصالها عن عشيقها في الحديقة العامّة زال غضبها وبدأ حزنها على فقدانه، لم تبكِ قط حبّاً كما بكته. كانت تتساءل كيف لم تلتقط بحدسها أنّ شيئاً غير سليم يجري. كان ألان غائب الروح، قلقاً ومكتئباً ومبتعِداً. بدل أن تُحقّق، اختارت أن تمنحه الوقت والمكان، دون أن تشكّ بأنّ السببَ كان امرأة أخرى. جمعت الملاحفَ والمناشف، رتّبت عيادتَها الصغيرة، وسجّلت، كما تفعل مع كلّ مريض عدداً من الملاحظاتِ حول وضع دِنيس وِست وريان ميلر الصحيّ.

في ذلك اليوم كان على كارول أندرووتر أن تُواسي إنديانا، وهذا جديد في تلك الصداقة التي كانت قد تبنّت فيها دورَ الضحية. كانت قد علمت يوم الأحد ما جرى مع كِلِّرْ عندما هتفت لإنديانا كي تدعوها إلى السينما. لاحظت أنّها متضايقة وأجبرتها على أن تُفرّج عن ضيقها. رأتها إنديانا تدخل حاملة سلة تحت ذراعها فندمت متأثّرة بطيبة تلك المرأة التي يمكن أن تموت خلال وقت قصير كان لديها أسباب أكثر جدّية من أسبابها كي تقنط، على المرات الكثيرة التي خانها فيها

الصبر. رأتها جالسة على كرسيّ في صالة الاستقبال بتنورتها الثقيلة وسترتها الطويلة الترابية ومنديل على رأسها والسلة على ركبتيها. قرّرت أنّه عندما تنتهي المعالجة الشعاعية وتشعر بنفسها أفضل، ستأخذها إلى محلات الملابس المستعملة المفضّلة لديها وستشتري لها شيئاً أكثر شبابية وأنثوية. كانت تعتبر نفسها خبيرة في موضوعٍ الملابس المستعملة، فقد تهذّبت عينها وصارت تكتشف كنوزاً لا تُقدّر بثمن مطمورة بين الخرق البالية، مثل جزمة جلد الأفعى، قمّة الأناقة، التي تستطيع أن تنتعلها دون خجل، لأنّها ليست من جلدِ أيّ زاحفة سُلخت، كانت بلاستيكية مصنوعة في تايوان.

– أنا أحزن عليك، يا إنديِ. أعرفُ أنّك تُعانين، لكن سرعانٍ ما سترين أنّها نعمة عليك. تستحقين رجلاً أفضل بكثير من ألان كِلِرْ —قالت كارول.

كان صوتُها متردّداً ومتهدّجاً، كانت تتكلّم بهمس رَبَوي، كما لو أنّه ينقصها هواء، أو أنّ أفكارها تختلِط، كان كصًوت الشقراوات البِلهاوات السينما القديمة على فمِ فلاحة من البلقان، كما وصفها ألان كِلِرْ بعد أن عرفها، في الفرصة الوحيدة التي التقى فيها الثلاثة في مقهى روسّيني. إنديانا، التي كانت تجهد نفسها كي تسمعها، لا تكاد تستطيع أن تخفي الاستياء الذي كانت تحدثه عندها تلك الطريقة بالكلام، التي تعزوها للمرض، ربّما تأذت حبالُ كارول الصوتية.

– اسمعي منّي، يا إنديِانا، لم يكن كِلِّرْ يناسبك.

– في الحبِ لا أحد يُفكر بالمناسب، يا كارول. بقينا أنا وألان أربع سنواتٍ معاً وكنّا سعيدين، على الأقل هذا ما كنتُ أظنّه.

– زمن طوِيل. متى كنتما تُفكران أن تتزوّجا؟

– لم نتكلم عن هذا قط.

– يا للغرابة، كلاكما كان حرّاً.

– لم نكن مستعجِلَيْن. كنتُ أنتظرُ أن تذهب أماندا إلى الجامعة.

- لماذا؟ ألم تكن ابنتُك على وئام معه؟
- أماندا لا تتواءم مع أحد يكون معي أو مع أبيها، إنَّها غيورة.
- لا تبكي، يا إنديانا، سرعان ما سيقف في بابك صفّ من طالِبي ودّك وآمل أن تكوني هذه المرّة أكثر انتقائيّة. كِلْ شيءٌ من الماضي، كما لو أنّه ميت، لا تتذكريه أكثر. انظري، جئتُ بهديّة لأماندا، قولي لي رأيك فيها.

وضعت السلّة على المكتب ورفعت الخرقة التي كانت تُغطّيها. كان في داخلها عشّ مرتجل من لفافة صوفية فيه حيوان صغير نائم.

- قطّة صغيرة —قالت.
- كارول! —صاحت إنديانا.
- قلتِ لي إنّ ابنتك تُريدُ قطّة...
- يا لها من هديّةٍ رائعة! ستكون أماندا سعيدة.
- لم تُكلّفني شيئاً، أعطوها لي في جمعيةِ حمايةِ الحيوانات. عمرها ستّة أسابيع وأعطوها اللقاحات اللازمة. لا تُزعج في شيء. هل أستطيع أن أسلمها لابنتك شخصيّاً. بودّي أن أتعرّف عليها.

الثلاثاء، 31

كان رئيس المُفتّشين في مكتبه، جالساً في كرسيّهِ المُريح، هدية مرؤوسيه عندما أتمّ الخمس عشرة سنة في مديرية الشرطة، قدَماهُ على المكتب ويداه خلف عنقه. دخلت بترا هوت دون أن تقرع الباب، ومعها كيس من الأوراق وقهوة كما تفعل دائماً. كان بوب مارتين قبل أن يعرفها يُفكّر أنّ ذلك الاسم الرنّان جدّاً لا يليق بتلك المرأة الصغيرة ذات المظهر الطفولي، لكنّه غيّر رأيَهُ فيما بعد. كانت بترا في الثلاثين من عمرها، قصيرة جدّاً ونحيلة، لوجهها شكل قلب، عريضة الجبين حادّة الذقن، منمّشة البشرة، قصيرة الشعر المجعد بالجلّ والمصبوغ

في جذوره بالأسود وبالبرتقالي في الوسط وبالأصفر في رأسه، مثل قبّعة من جلد ثعلب. عن بعدٍ كانت تبدو طفلة، لكن ما إن تفتح فمها حتى يختفي وهم الضعف. أودعت الكيسَ على المكتب وناولت مارين كأس القهوة.

- منذ كم من الوقت لم تُدخِلْ شيئاً في حوصلتك، يا مُعلِّم؟ سوف تُصاب بنقص في سكّر الدم. هذه شطيرة خبز كامل مع فروج عضوي! صحّية جدّاً. كُلْ.
- إنّني أُفكر.
- يا له من أمر جديد! بمن؟
- بقضيّة الطبيبً النفسي.
- يعني بأياني -تنهّدت بترا بشكل مسرحي-. بما أنّك تذكرها، يا مُعلّم، أعلمك بأنّ لديك زيارة.
- هي؟ -سأل المُفتّش منزلاً قدميه عن المكتب ومسوّياً قميصه.
- لا. شاب من أظرف الناس. خادم آل أشتون.
- غالانغ، دعيه يدخل.
- لا. كل هذا أوّلاً، فالغلام يستطيع أن ينتظر.
- غلام؟ -كرّر المفتّش وهو يقضم قضمة من الشطيرة.
- آهِ يا رئيسي، كم أنت بريء.

بعد عشر دقائق كان غالانغ يجلس مقابلَ المُفتّش، بينهما المكتب. كان بوب مارتين قد استجوبه مرّتين في بيت الزوجين أشتون، حيث كان الفتى الفيليبيني يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض بكمّين طويلين، وهو لباس موحد حصيف كان يُساهم إلى جانب تعبير وجهه المُصمت وموقفه، موقف القط الحذر، بجعله غير مرئيّ، ومع ذلك كان عنده ما هو مرئي: كان أهيف، رياضياً، أسودَ الشعر أسود المجموع في ذيل فوق نقرته، مثل مصارع ثيران، له يدان معتنى بهما وابتسامة سهلة تتكشف عن أسنان ناصعة البياض. خلع معطفه

المطريّ الأزرق البحري، وحين رأى بوب ماريه البطانة الداخلية الطحينية والتصميم الاسكتلندي الكلاسيكي عرف بوب مارتين علامة بوربرّي، التي لن يستطيع هو نفسه أبداً أن يغطيها براتبه. تساءل كم يكسب هذا الرجل، أم أنّ أحداً كان يشتري له الثياب. كان باستطاعة غالانغ أن يقف بمظهره الأنيق ووجهه الغريب لالتقاط صورة لإعلان عطر رجاليّ، فقد انتشرت رائحةً حسّية غامضة، فكّر، لكنّ بترا ستُصحح له، من أجل هذا سيقف عارياً ومن دون حلاقة.

راجع مارتين ذهنيّاً المعلومات المتوفّرة لديه: غالانغ تولوسا، أربع وثلاثون سنة، مولود في الفيليبين، هاجر إلى الولايات المتحدة عام 1995، سنة دراسات عليا، عمل في ناد متوسطيّ، في مراكز للرياضة وفي معهد للبرمجة الجسدية الواعية، سأل بترا أي هراء كان هذا فوضّحت له أنّه من حيث المبدأ يتعلّق نظريّاً بالتدليك بعنايةٍ وقصدٍ إيجابيّ، يُحدث افتراضاً تغيراتٍ في نسيج الجسد. شعوذة مثل شعوذة إنديانا، استنتجَ بوب، الذي كانت فكرته عن مكان التدليك أنّه مجرّد صالون فيه فتيات آسيويات ببنطلونات قصيرة وأثداء مكشوفة وقفازات مطاطية.

– اعذرني لأني آخذ من وقتك، سيدي رئيس المفتشين. كنتُ مارّاً وفكّرتُ أن آتي وأتحدّث معك —قال الفيليبينيّ مبتسماً.

– عمّ؟

– سأكون صريحاً جدّاً معك، أيّها المُفتِّشُ. لديّ تأشيرة إقامة وأتطلّع للحصول على المواطنة الأمريكية. لا أستطيع أن أرى نفسي متورِّطاً في قضيّة مع الشرطة. يُقلقني أنّ قضيّة الدكتور أشتون تأتيني بمشاكل —قال غالانغ.

– هل تقصد قضية مقتل الدكتور أشتون، حسناً تفعل بقلقك، أيّها الشابّ. أنت كنتَ في البيت وتدخلُ إلى الاستوديو وتعرفُ عادات الضحيّة. ليس عندك حجّة داحضة، وإذا ما بحثنا قليلاً، سنجدُ

بالتأكيد دافعاً. هل ترغب بأن تُضيف شيئاً إلى تصريحاتك السابقة؟ - كانت نبرة الشرطيّ اللطيفة تتناقض مع التهديد المبطن في كلماته.

- بلى... حسن، هذا الذي ذكرته تواً: الدافع. كان الدكتور أشتون رجلا صعباً، وقامت بيني وبينه بعض المواجهات - تلعثم غالانغ. اختفت الابتسامة.

- وضّح.

- كانت معاملةُ الدكتور للناس سيّئة، خاصّة حين كان يشرب. اتهمته زوجتُهُ الأولى وكذلك الثانية بسوء المعاملة في محاكمة الطلاق، تستطيع أن تتأكّد من ذلك، سيّدي المفتّش.

- هل تصرّف معك ذات مرّة بعنف؟

- بلى، ثلاث مرّات، لكن كان هذا لأنّني حاولت أن أحمي السيّدة.

سيطر الشرطيّ على فضوله وانتظر الآخر كي يُتابع في اللحظة المناسبة، مراقباً تعبيرَ وجهه، حركاتِهِ وارتعاصاته التي لا تكاد تُلْمَح. كان معتاداً على الكذب وأنصاف الحقائق، وسلّمَ بأن كلّ الناس تقريباً يكذبون، بعضهم بعنجهية، كي يُقدّموا أنفسهم بما يتوافق مع مصالحم، وآخرون بخوفٍ والغالبية ببساطة اعتياداً. في أي استجواب للشرطة يَضطرب الناس، حتى ولو كانوا بريئين وكان عليهِ هو أن يفهم، يكتشفَ التزييف، يتكهّنَ بالمحذوفات. كان يعرف أنّ الأشخاص الحريصين على الإرضاء، مثل غالانغ، لا يتحملون وقفة مزعجة وإذا ما أطلق لهم العنان تكلموا أكثر من اللازم.

لم ينتظر كثيراً: بعد ثلاثين ثانية أطلق الفيليبيني العنانَ لخطبةٍ، ربّما كان قد حضّرها، لكنّها تشابكت مع حاجته لأن يبدو مُقنعاً. كان قد تعرّف على أياني في نيويورك قبل عشر سنوات، كانا صديقين حين كانت في أوج ألقها، وكانا أخوين أكثر من صديقين، يتساعدان، ويتقابلان يومياً تقريباً. ومع الأزمة الاقتصادية بدأ ينقصهما العمل، وعندما تعرّفت هي على أشتون في نهاية عام

2010، كان وضعهما يائسِاً عملياً . وما إن تزوّج أشتون وأياني حتى جاءت به إلى سان فرانسيسكو. كرئيس للخدم، وهو عمل لا يتناسب أبداً مع مؤهلاته. لكنّه أراد أن يبتعد عن نيويورك حيث كانت له مشاكلٍ مالية وغير مالية. كان راتبه منخفضاً لكنّ أياني كانت تعوِّضه قليلاً من وراء ظهر زوجها. كان قاسياً عليه جدّاً أن يرى صديقته تتعذّب. كان أشتون يُعاملها كملكة أمام الناس وكقمامة في السرّ. في البداية راح يُعذِّبها نفسيّاً وكان في هذا لا يُحتَمل، وضربها بعد ذلك. رأيتُ مرّاتٍ كثيرة الكدمات تعلو أياني،كانت تُحاول أن تخفيها بالماكياج. كان يعمل غالانغ على مساعدتها ، لكنّها كانت على الرغم من الثقة بينهما ترفض أن تذكر هذا الجانب من حياتها الزوجية، كانت تخجل، كما لو أنّها مسؤولة عن عنف زوجها. -- كانا يتشاجران كثيراً، أيّها المفتِّش —ختم.

- لماذا كانا يتشاجران؟
- لأمور لا أهمِّية لها، طبعاً لم يكن يعجبه أن تهتف لعائلتها في أثيوبيا، لأنّ ألدكتور أشتون يغتاظ لأنّ الناس يعرفونها أينما تذهب ولا يعرفونه ثمّ إنّه كان يريد أن يبقي عليها حبيسة. يعني لهذه الأسباب.
- و بسببك أيضاً، يا سيّد تولوسا؟

فاجأ السؤال غالانغ ، فتح فمه كي يُنكِر، فكّر جيّداً وأومأ مؤكّداً ذلك بصمت وضيق وهو يفرك جبينه بيده. لم يكن ريتشارد أشتون يتحمّل صداقته مع أياني، قال، وكان يشكّ بأنّها تشتري له أشياء وتمرّر له مالاً ، كان يعرف أنّه يحتفظ بأسرارها بدءا من النفقات والخروج وحتى الصداقات التي يحرّمها عليها أشتون. وكان الطبيب النفسي يختبرهما بإهانته أمام أياني أو بإساءة معاملتها حتى لا يعود باستطاعته التحمل فيواجهه.

- انظر، أيّها المُفتِّشُ أعترف لك أنّ دمي كان يفور أحياناً فلا أكاد أن أتحكم بنفسي كيلا أطيح به بضربةٍ. لا أدري كم مرّة اضطُرِرْت لأن أتدخّل لأحول بينه وبين زوجته. كان عليّ أن أدفعه

وأمسكه مثل طفل سيّئ التربية. اضطررتُ في إحدى المرات لأنّ أحبسه في الحمّام كي يهدأ، لأنّه لاحق السيّدة بسكّين المطبخ.

- متى حدث هذا؟

- الشهر الماضي. كانت العلاقة قد تحسّنت حديثاً وكانا يمرّان في لحظة وئام وسلام، وعادا ليتحدّثا عن الكتاب الذي كانا يُفكران بكتابته. كانت أياني... السيّدة أشتون سعيدة؟

- هل من شيء آخر؟

- هذا كلّ شيء، أيها المفتّش. أردت أن أوضّح لك الوضع قبل أن تحكيه لك الخادمات على طريقتهنّ. أعتقد أنّ هذا يجعلني موضع شك، لكن يجب أن تُصدّقني. ليس لي أيّ علاقة بمقتل الدكتور أشتون.

- هل معك سلاح؟

- لا يا سيّد، لا أعرف استخدامه.

- وهل تعرف استخدام المشرط؟

- مشرط؟ لا، طبعاً لا.

عندما خرج غالانغ تولوسا من مكتبه نادى المُفتّش مساعدته.

- ما رأيك بما سمعته من وراء الباب، يا بترا؟

- عند السيّدة أشتون فائض من الأسباب كي تتخلّص من زوجها والشاب كي يُساعدها.

- هل تعتقدين أنّ أياني من نوع المرأة القادرة على أن تصعق زوجها بمسدس صعق كهربائيّ؟

- لا. هي كانت وضعت له أفعى إثيوبية في السرير. لكنّني أعتقد أنّ غالانغ نسي أن يُضيف تفصيلا.

- ما هو؟

- أنه وأياني عشيقين. لحظة أيّها الرئيس، لا تُقاطعني! العلاقة بين هذين فيها كثير من الدقائق، هما شريكان، خدينان، هي تحميه وهو يجب أن يكون الرجل الوحيد الذي يعرفها حتى آخر عرق فيها.

- يا يسوع! ما هذه الانحرافات التي تخطر ببالك، يا امرأة!

- قليلة هي الأمور التي تخطر ببالي، لكن لا بدّ أن غالانك يملك لائحة طويلة. إذا أردتَ أحكي لك عن نوع الختان الذي أُجري لأياني في الثامنة من عمرها، استئصال الشفرين والبظر. ليس سرّاً، هي نفسها قالت هذا. أستطيع أن أحصلَ لك على فيديو، كي ترى ما يفعلونه للطفلات، بسكين مثلوم أو بشفرةٍ حلاقة صدئة ومن دون تخدير.
- لا، يا بترا ليس ضروريا —تنهّد بوب مارين.

شباط، 2

أضيف إلى واجبات بلاك جاكسون المتعدّدة أمرُ سالب إل أتون، القطة التي أهدتها كارول أندرووتر لحفيدته، والتي تتطلب الكثير من العملِ، لكنّه لا بدّ له أن يعترفَ بأنها كانت بالنتيجة رفيقةً جيدة، تماماً كما توقّعت إلسا دومينغِث. اختارت أماندا اسمَ سالبِ الأتون تكريماً لصديق طفولتها اللامرئيّ ولم يرَ أحدُ في العائلة تناقضاً في أنّ القطة لا تتغذّى إلا على التونا. كان بلاكٍ يهتفُ كلَّ ليلة إلى أماندا في المدرسة الداخلية ليقدّم لها تقريراً كاملاً عنها.

كيف هي "أنقذْ التونا" يا جدّي؟ أشتقتُ إليها كثيراً —قالت أماندا.

- إنّها تُخرّب نسيج الأثاث بمخالبها.
- ليس مهمّاً، على كلّ الأحوال الأثاث صار قديماً جدّاً. كيف تسير الأمور مع كتابك؟
- لا شيء حتى الآن. أُقَلّب في رأسي فكرتك عن رواية بوليسية.
- اليوم كنتُ أُفكّر بهذا —ردّت الحفيدة– إنّنا ندرس المسرح الديني. هل تعرف ما هذا؟
- ليس عندي أدنى فكرة.

- مسرحيات أخلاقية من العصر الوسيط كتمثيليات مجازية تعليميّة يُمَثَّلُ فيها الصراعُ بين الخير والشرّ. دائماً كان الخير ينتصر، لكن الأهمّ كان الشرّ، لأنّ المسرحَ الدينيَ من دون فسادٍ ولا خطيئة وشرّ ما كان للمسرح الديني أن يشدَّ أحداً.

- وما علاقة هذا بكتابي؟

- صيغة الرواية البوليسية مشابهة. الشرّ مُجسَّد في مُجرم يتحدّى العدالة، ويخرج خاسراً؛ يلقى جزاءه وينتصر الخيرُ وهكذا يبقى الجميع راضين. هل فهمت؟

- تقريباً.

- اسمع منّي، أيّها العجوز. إذا ما التزمت بالصيغة فلن يكون باستطاعتك أن تضيع. بعدها أُقدّم لك مزيداً من النصائح، الآن علينا أن نبدأ بلعبة نازع الأحشاء. هل أنت جاهز؟

- جاهز. إلى اللقاء قريباً —قال الجدّ وأغلق الهاتف.

بعد دقائق كان جميع اللاعبين أمام شاشاتهم وبدأت مُعلّمةُ اللعبِ الجلسة.

- سوف نؤجّل موضوع ستيتون والزوجين كونستانت آنيّاً ونُرَكِّز على ريتشارد أشتون. كابل لديه بعض الأخبار. الكلمة لك، يا مأمور.

- في ليلة موت ريتشارد أشتون حفروا الصليبَ على صدره، الصليب المعقوف، الرمز الذي عثر عليه في كثير من الثقافات عبر الزمن، بدءاً من الأزتيكيَين وحتى السلتيّين والبوذيّين، لكن يُعرف به النازيون على وجه الخصوص.

- نعرفُ هذا، يا كابل —قاطعته حفيدته.

- قرأته في تقرير إنغريد دون. منحني أبو أماندا، أي المُفتِّش مارتين إذناً بمراجعة أرشيفات جرائم القتل المتعلقة بقضيتي الزوجَيْن كونستانت وإد ستيتون، في المديريّة وطلبت في الطلب ذاته أرشيف ريتشارد أشتون فأعاروه لي. بحسب إنغريد دونْ حفروا الصليبَ

المعقوفَ بمبضع قياس 11، ذي شفرة مثلثة ورأس مشحوذ، المتوفّر جدّاً ومن السهل الحصول عليه، يُستخدم في القطعً الدقيق والزوايا المستقيمة. دقة رسمٍ الصليب المعقوف يفسح المجال لاحتمال أنّ الفاعلَ استخدم قالباً.

- أنا لم أرَ شيئاً من هذا في الصحافة —قال السير إدموند بادينغتون.

- أوقف المفتّش بثَّ المعلومات لإنّها آسُ كم الساحر، يمكن أن تُحدّد القاتل وليس من المناسب نشرها بعد. عندما رفعوا الجثة لم يروا الصليبَ المعقوف، لأنّ أشتون كان يرتدي قميصاً داخليا وقميصا وكنزة مزررة. اكتشفوه في مستودع الجثث حين خلعوا عنه ملابسه.

- ألم يكن هناك دم على ثيابه؟ —سألت إسمِرالدا.

- كان الجرح سطحيا نسبيّاً وحفروه بعد برهة من موته. الجثثُ لا تنزف.

- أين حفروا الصليب المعقوف بالضبط؟

- يظهر في الصورة في الأعلى، فوق عظم القصّ —قالت أماندا.

- لا بدّ أن القاتل قد خلع عن أشتون الكنزة والقميص وإلا لما كان باستطاعته أن يُخرج ذراعَيه من القميص كي يرفعه حتى عنقه ويحفر الرمز في القسم العلوي من الصدر. كان عليه بعدها أن يُلبسه — قال شارلوك هولميز.

- الصليب المعقوف رسالة —قالت أباثا.

- من الذين كانوا يعرفون عادات أشتون ويعرفون أنّه كان ينام في الاستوديو؟ —سألت إسمِرالدا.

- وحدهما زوجته ورئيس الخدم —وضّحت أماندا.

- أياني لن تحفر في زوجها صليباً معقوفاً، مهما كان ميتاً — ارتأت أباثا.

- ولماذا لا؟ يمكن أن تفعل ذلك لصرفِ الأنظار. هذا ما كنتُ سأفعلُهُ أنا لو كنتُ مكانها—ردّت عليها إسمِرالدا.

- أنت غجريةٍ وقادرةٍ على أن تفعلي أيَّ شيء. لكنّ سيّدة نبيلةً لن ترتكبِ أبداً فعلاً مقزّزا كهذا، كما أنّها لا تملك القوّة لرفعِ الجسم بتلك الطريقة. لا بدَّ أنّه رئيسُ الخدم —أكّد باندينغتون وفيّاً للطبيعة الذكورية للشخصيّة التي يلعب دورها.

راح الجميع يضحكون من الحلّ الكلاسيكي: رئيس الخدم، وطرحوا على الفور احتمال أن تكون جريمة إيديولوجية وأنّ أشتون كان مشهورا بأنه نازيّ. بيَّنَ لهم شارلوك هولميز الشبَهَ بين هذا وبين جاك نازع الأحشاء، الذي كان يقطع أعضاءَ ضحاياه بمبضع.

- إحدى النظريات حول قاتل لندن الشهير هي أنّه كان يملكُ معارفَ طبِّيَّة —ذكّرتهم أباثا .

- أنا لا أجازفٍ بهذا. لا يحتاج كي يحفر رمزاً بسيطاً أن يكون طبيباً. إنّه بسيط جدّاً، حتى أنّ امرأة معها قالب تستطيع فعل ذلك —قال السير إدموند بادينغتون.

- ... لا أعرف... تَردُ إلى ذهني صورة، كأنّها رؤيا، أو حدس... أعتقد أن القضايا الثَلاث، التي نُحقق فيها مترابطة بطريقة ما —قالت أباثا، التي من كثرة ما صامت صارت تعاني من الهلوسة.

انتهى الوقت فأغلقت أماندا الجلسة معطيةً تعليماتٍ للبحثٍ عن روابط محتملة بين القضايا، كما اقترحت أباثا. ربّما لم يكن مُجرّد حمّام دم، كما تكهَّنت ثِلستِ روكو، بل شيئاً أكثر أهمية: قتل متسلسل.

السبت، 4

لم يكن عند بوب مارتين ساعات عمل محدّدة وكان يعمل أحياناً يومين دون أن ينام. بالنسبة إليه لم يكن هناك عطل ولا إجازات، لكنّه كان يتدبَّر أمره كي يكون مع ابنته في نهايات الأسابيع، عندما

يكون الدور له، ليقضي معها أطول وقت ممكن . في نهايات الأسابيع التي يكون الدور له فيها يتركها حموه السابق في شقته أو في مكتبه مساء ليالي الجمعة، بعد أن تكون قد تناولت عشاءها مع أمّها، يأخذها يوم الأحد ليعيدها إلى المدرسة الداخليةٍ، في حال أنّه لا يستطيع هو ذلك. منذ طلاقهِ قبل خمسة عشر عاماً، حمل معه ابنته مراتٍ كثيرة إلى مكان بعض الجرائم، لأنّه لم يكن هناك من يتركها عنده، فصارت كلّ شرطة سان فرانسيسكو تعرفها، وكانت بترا هورّ أقرب ما تكون إلى الصديقة، التي تمدّها بمعلومات الشرطة التي يُحاول أن يخفيها عنها. كان هو، بحسب قول إنديانا، المسؤول عن الاهتمام المَرَضيّ بالجريمة الذي كانت تُظهره الطفلة، لكنَّ بوب كان يعتقد أنّ الأمرٍ يتعلّق بميل أصلي، وأنّ أماندا ستنتهي بأن تصبح محاميةً، محققة، أو شرطيَة، أو في أسوأ الحالات مجرمة. ستنتصر على طرفي القانون. في ذلك السبت، سمح لها أن تنامَ حتى وقتٍ متأخِّر، بينما ذهب هو إلى الصالة الرياضية وقام بجولةٍ على مكتبه، أخذها بعدها عند الظهيرة ليتناولا الغداء في مطعمهِ المُفضَّل، مقهى روسيني، حيث كانت تُتخَمُ بهيدرات الكربون والسكّر. كانت تلك نقطة خلافه مع إنديانا.

كانت أماندا تنتظره بثوبٍ ملفوف حول جسمها بطريقةٍ غير تقليديٍ كثيراً وبصندل. وبما أنّه جعلها ترى أنّها كانت تُمطِر وضعت لفاعاً وقبعة بوليفية صوفية غطّت اذنيها مع ثلاث جدائل متعدّدة الألوان. وضعت الصغيرة سالبِ إل أتون في كيس من غواتيمالا، أهدته إليها إلسا دومينغِثْ، الذي عادة ما كانت تنقل فيه القطة. كان الحيوان ذا حصافة مدهشة، يتحمّل قابعاً في الكيس ساعاتٍ دون أن ينبس في أماكن محرّمة عليه. في مقهى روسيني كان الجميع يعرف ما يحتويه الكيس باستثناء المالك، لكنّ داني دانجِلو حذّرهما من أنّ عليهما أن يتدبّرا أمرهما معه إذا ما أبلغ أحد عن "سالبِ إل أتون". كان النادل يستقبلهم بمبالغته المُعتادة ولم يحتج أن يسألهما ماذا

سيكلان، فقد كانا يأكلان الشيء ذاته دائماً. عجّة فرنسية مع الجبن وقهوة للمفتّش، ومجموعة مختارة من الحلوى وفنجان شوكولاتة كبير وساخن مع تلّ من القشدة للابنة. أحضر إليهما المطلوبٍ واعتذر لأنّه لا يستطيع أن يتحدثّ معهما برهة، فالمحلّ كان مليئا وهناك ناس في الشارع ينتظرون طاولة، كما كان يحدث في نهايات الأسابيع.

- بابا، رأى جدّي تقرير تشريح ريتشاردٍ أشتون. أنت لم تقل لي شيئاً عن الصليب المعقوف. هل تعرف شيئاً آخر، لم تذكره لي عن القضيّة؟

- كي تطمئني، يا بُنيّتي، لم يُؤثّر جمالُ أياني على حاسّة شمّي كشرطيّ، كما كنت تتخوّفين. أياني على رأس المشكوك بهم. استجوبناها بعمق وكذلك فعلنا مع مستخدمي البيت. الجديد هو أن الجورَبَيْن ظهرا.

- صحيح!

- بلىٍ، بطريقة غريبة جدّاً. تصوّري أنّ السيّدة أشتون تلقت بالبريد طردا فيه كتاب وجوربا زوجها. مرّ الطرد بأيدٍ كثيرة في البريد، لكنّ المحتوى ليس عليّه أي أثر، فقد استخْدموا القفازات في التعامل معه، أو أنّهم نظفوه بدقة كبيرة.

- ما نوع الكتاب؟ -سألت الصغيرة.

- رواية، ذئب البوادي لمؤلفه السويسري الألماني هِرمان هيسه، وهي رواية كلاسيكية نشرت عامٍ 1928، سابقة على النازية، يدرسها الآن عالمٍ نفس في المديرية بحثاً عن مفتاح] ما، يجب أن يكون موجوداً؛ وإلا لماذا سيرسلونه إلي أيانيٍ؟

- هل تعتقد أنّ شخصا واحدا يمكن أن يكون من ارتكب الجرائم الثلاث؟

- ما التي تقصدينها؟

- الثلاث المهمة التي بين أيدينا، يا أبي: ستيتون والزوجان كونستانت وأشتون.

- ماذا تقولين، يا صغيرة؟ ليس بينها أي شيء مشترك.
- الجرائم الثلاث وقعت في سان فرانسيسكو.
- هذا لا يعني شيئاً. المجرمون الذين يقتلون على التسلسل يختارون دائماً نوع الضحية ذاته، وعادة ما يكون عندهم دافع جنسي ويُكَرِّرن طريقتهم. في هذه الجرائم الضحايا مختلفون جداً ومنهج العمل يختلف كما أنّ السلاحَ المستخدم ليس ذاته. المديرية بكاملها تُحقق فيها.
- بشكل منعزل؟ يجب أن يكون هناك من يراها مجتمعة.
- هذا الـ من يراها هو أنا، لكنّ هذه الحالات ليست مترابطة، يا أماندا.
- اسمع منّي ولا تدع احتمال أن يكون القاتل قاتلاً على التسلسل يغيبُ عنك، يا أبي. هذا النوع من الجريمة غريب جداً.
- من هذه الناحية أنتِ على حق. غالبية جرائم القتل التي علينا حلها، تقع نتيجة ملاسنات بين عصاباتٍ ومشاحنات ومشادّات. آخر قاتل على التسلسل هنا هو جوزيف ناسّو، المتهم بقتل نساء ما بين 1977 و1994. عمره ثمان وسبعون سنة سوف يُحاكمونه في مقاطعة مارين.
- بلى،كل هذا موجود في أرشيفي. ناسّو رفض أن يُوكِّل محامياً، سيدافع عن نفسه بنفسه. لا يندم على ما فعله، وهو فخور بذلك –قالت أماندا–. إذا كانت هذه الجرائم مرتكبة من ذات الشخص، أعتقد أنّه بدوره فخور بذلك وترك إشارات وعلامات كي يُحَدِّد رقعته.
- هل هذا ما يقوله كتاب التعليم؟ –سخر المُفتِّش.
- انتظر، هو معي هنا –قالت وهي تقرأ المعلومة، التي وجدتها في جوّالها–. اسمع : القتلة على التسلسل في الولايات المتحدة هم بعامّة بيض، ما بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين من أعمارهم وإن كان هناك من هم من أعراقٍ أخرى أيضاً، من الطبقتين

الوسطى والدنيا، يعملون منفردين، يبحثون عن التشفّي النفسي، عانوا من الإهمال أو الاستغلال الجنسي والعاطفي في طفولتهم، ومروا بمشاكل مع القانون مثل السرقة أو التخريب. هم مهووسون بالحرائق وساديون، يعذّبون الحيوانات. تقديرهم لأنفسهم متدنٍ، ليس عندهم تعاطف مع ضحاياهم، أي أنّهم مضطربون عقلياً. هم مجانين أحياناً ويُعانون من هلوسات، يعتقدون بأنّ الله أو الشيطان أرسلهم كي يصفوا لوطيّين، عاهرات أو ناساً من عرق أو دين آخر. الدافع الذي أشرت إليه يتضمن التعذيب وقطع أعضاء الضحايا، هذا يمنحهم متعة. مثلاً جِفري داهمن كان يريد أن يُحوّل جثث الرجال والفتيان الذين كان يقتلهم إلى زومبيين، كانوا يثقبون جماجمهم ويصبون فيها أسيداً بل وكانوا يأكلون لحوم ضحاياهم كي...

- كفى، يا أماندا! —صاح بوب مارتين شاحباً.
- شيء واحد فقط، يا أبي...
- لا! أعرف كلّ هذا، درسناه في الأكاديمية، لكنه لا يخصّك.
- أرجوك، اسمعني. هناك شيء لا يستوعبه رأسي. غالبية القتلة على التسلسل لديهم عامل ذكاء منخفض وتربية قليلة. أنا أعتقد أن الرجل في هذه الحالة لامع.
- أيضاً يمكن أن تكون امرأة، وإن كان غير مألوف —قال بوب مارتين.
- صحيح جدّاً، يمكن أن تكون إشبينتي.
- ثِلِسْتِ؟ —سألها أبوها، مندهشاً.
- كي تكمل نبوءتها وتبرهنَ على أن النجوم لا تُخطئ —قالت الصغيرة غامزة. 194

كان رئيس المفتشين ينتظر أن يمرّ هوس ابنته سريعاً، كما مرّ هوسها بالتنينات والزنزانات ومصّاصي الدماء. هذا ما كانت تؤكده الطبيبة النفسية فلورنس ليفي، التي أشرفت على أماندا في طفولتها، واستشارها لتوّه بالهاتف. فقد كانت بحسب قولها ظاهرة أخرى من

ظواهر فضول الطفلة التي لا ترتوي، لعبة أخرى من ألعابها الفكرية كانت تسلية أماندا الجديدة هذه تشغُلُهُ كأبٍ، لكنّه كشرطيَ تحر يتفهم أكثر من أيّ شخص آخرَ الافتتان بالجريمة والعدالة.

كانت إنديانا تؤكّد أنّه لا يوجد "طيّب" و"شرير"؛ الشرّ تشويه للطيبة الطبيعيّة، يُعبر عن الروح المريضة. كان النظام العدلي بالنسبة إليها شكلاً من أشكال الانتقام الجماعي يُعاقبُ به المجتمعُ مُنتهكي القانون، يسجنهم، ويرمي بالمفتاح بعيداً، دون أن يُحررهم، على الرغم من أنّها كانت تعترف بأنّ هناك بعض المجرمين الذين لا شفاء لهم، ويجب سجنهم تفادياً لإيقاعهم الأذى بأشخاص آخرين. كانت سذاجة زوجته السابقة تُعبّر عن ذلك. نظريّاً كان عليه ألا ينشغل بالترهات التي كانت تُفكر بها، لكنّها كانت تزرع أفكارها غير المعقولة تطرحها في رأس أماندا ولا تحميها كما يجب، بل ولم تكن تتخذ الاحتياطات الدنيا لأيّ أمّ عادية. كانت إنديانا ما تزال الطفلة الرومانسية ذاتها التي عشقها في الخامسة عشرة من عمرها. كلاهما كان صغيراً عندما وُلدت أماندا، لكنّه نضج منذ ذلك الوقت وكسب تجربة، صلبَ عودُهُ وصار رجلاً رائعاً في بعض الجوانب، كما كانت تقول بترا هورّ، عندما كانت تشربُ أكثر من زجاجتي بيرة؛ بالمقابل بقيت إنديانا راكِدَةً في مراهقتها الأبديّة. 195

في مهنتي مكتوب عليّ أن أرى أهوالاً أكثر من اللازم، كان يُفكّرُ، ما الوهم الذي يمكن أن أحمله بالنسبة للكائنات البشرية، فهم قادرون على ارتكاب أبشعَ الفظائع. قليلون هم النزهاء في هذا العالم العاهر، لذلك نجد السجون متخمة جدّاً، وإن كان صحيحاً أنَّ لحمَ السجن هم الفقراء، مدمنو المخدرات والكحوليون والمرتكبون لأمور ليست ذات أهمية كبيرة، بينما المافيويون والمضاربون والسلطات الفاسدة وأخيراً نخبةُ نخبةِ الجريمةِ بأعلى درجاتها، هؤلاء نادراً ما يلقى عليهم القبضُ، فلماذا سأخدع نفسي، ومع ذلك عليّ أن أقوم

بعملي، بعض الجرائم تخرجني عن صوابي فتنتابني رغبة بأنّ أحقّق العدالة بنفسي: لوطيو الأطفال، دعارة الأطفال، الاتجار بالبشر، وماذا سأتكلّم عن العنف المنزلي. كم من النساء رأيت قتلهنّ عشاقهنّ أو أزواجهن، كم من الأطفال مضروبين، مُغتَصَبين ومهجورين، وفي كلّ مرّة هناك أمن أقل في شوارع سان فرانسيسكو. السجون هي التجارة الخاصّة الأكثر ربحاً في كاليفورنيا ومع ذلك هي في ازدياد. كان هذا بالنسبة إلى إنديانا برهاناً قطعياً على أنّ النظامَ لا يصلح، لكن ما البديل؟. فمن دون قانون ونظام سيسود الرعبُ المجتمع. الخوفُ. جذرُ العنف الخوف. أفترض أنّ بعض الأشخاص أدركوا حالة من الضمير فائقة، مثل دالاي لاما، لا يخافون شيئاً، لكنّني لا أعرف أحداً منهم وأعتقد أن العيش من دون خوف تافه، ذروة التهوّر، لا أقول إنّ دالاي لاما تافه، طبعاً لا بدّ أنّ لهذا الراهب القديس أسبابه، كي يمضي دائماً مبتسماً، لكنّني كأب وشرطي، واعٍ تماماً للعنف والانحراف والفجور وعليّ أن أُعدّ ابنتي لهذا. كيف سأفعل ذلك من دون أن أدمّر براءتها؟

لكن لنرَ، لنكُن واقعيين، استنتجَ. عن أيّ براءة أتكلّم؟ أماندا، وهي في السابعة عشرة من عمرها تدرس بالتفصيل جرائم قتلٍ مريعة، وكأنّها تُخطط لارتكابها.

الأحد، 5

ذهب ريان ميلرْ ليبحث عن إنديانا في بيتها في بوتررو هيل في التاسعة صباحاً، كما اتفقا، دون أن يبالي بالتنبؤ المثبَط بالطقس للتلفزيون، بهدف أن يأخذ الدراجتين وقضاء النهار في التنزّه في غابات وتلال غرب مارين. كانت مياه الخليج متموّجة والسماء رصاصية ونسمة تهبّ قارسة، قادرة على أن تُثبط همّة أي شخص

أقل عناداً وعشقاً من ميلِّرْ. كان يستعد ليفوز بإنديانا بالعزيمة الوحشية التي كانت تصلح معه في الحرب، لكن كان عليه أن يتقدّم ببطء، لم يكن الموضوع أن ينطلق للهجوم، لأنّه يمكن أن يُخيفها بل وأن يخسر الصداقة الرائعة التي كوَّنها معها. كان عليه أن يمنحها الوقت كي تتعافى من كِلرْ، وإن كان لا يفكر أن يمنحها كثيرا، لأنّه راعاها كثيرا، وقد يظهر، كما قال بدرو ألاركون، آخرُ أكثر فطنة وينتزعها منه. الأفضل ألاّ يُفكر بهذا الاحتمال، لأنّه سيكون عليه أن يقتله، كان يُفكر بشيء من الانبساط، متأسفاً لأنّ قواعد المعركة لا تُطبّق في تلك الظروف، في الوقت الذي سيكون من الأسهل عليه أن ينتبه إلى المنافس من دون طقوس! كان يشعر أنّ له دهرا حاضراً في حياة إنديانا، على الرغم من أنّها كانت ثلاث سنوات فقط وأنّه كان يعرفها أكثر مما تعرف نفسها. الآن تأتيه فرصة، لكنّها لم تكن جاهزة لحب جديد، تبدو مغمومة. كانت ما تزال تعمل كما تعمل دائما، حتى هو الذي يُعتَبَر أقلّ زبائنها إدراكاً غير قادر على أن يُقدّر تحايلات الريكي أو المغنطيسات كان ينتبه إلى أنّه كانت تنقصها الطاقة التي كانت له في السابق.

كانت إنديانا تنتظره بالقهوة المُحَضَّرة تواً، شرباها واقفَيْن في المطبخ، . لم تكن لديها رغبة كبيرة بالخروج تحت وعيد العاصفة، لكن ألمها أن تُخيِّب ميلرْ، الذي بقي طيلة الأسبوع يتكلّم عن تلك الرحلة وأتيلا الماكث بجانب الباب بوضعية المتحفز. شطفت الفنجانين، تركت ملاحظة لوالدها، مُعْلِمَةً إيّاه بأنّها ستعود مساءً وتريد أن ترى أماندا قبل أن يأخذها إلى المدرسة الداخلية. ارتدت سترتها الطويلة وساعدت ميلرْ في وضع دراجتها في الشاحنة الصغيرة. جلست بعدها في حجرة القيادة بينه وبين أتيلا، الذي لم يكن يتنازل أبداً عن مكانه بجانب النافذة.

كانت الريحُ تصفر بين كبلات الجسر، هازّةً السيارات القليلة التي كانت تسير في تلك الساعة، لم تكن تُرى زوارقُ الأحد الشرعية المعتادة ولا السياح القادمون من بعيد كي يعبروا جسرَ غولدِن غات

سيراً على الأقدام. سرعان ما تبخَّرَ الأمل بأن يكون الجوُّ، كما كان يحدث عادةً، صافياً على الطرف الآخر. لكنّ ميلرْ لم يول أذناً صاغية لاقتراح إنديانا بتأجيل المشوار، تابع على الطريق السريعَ 101 حتى جادّة صموئيل بي تايلور، حيث تعارفا.

خلال الأربعين دقيقة ونيّف أفلتت العاصفة من عقالها بغضب لا يرحم، انشحنت السحبُ السوداء بالكهرباء والأشجار التي حنتها الريح بدت تحت نور البرق الأبيض أشباحاً. اضطرّا لأن يتوقّفا مرّتين، لأنّ شلال الماء كان يمنع أن يُرى شيءٌ أبعد من ماسحتي الزجاج، لكن ما إن كانت تهدأ قليلا حتى يُتابع ميلرْ طريقه، متجنّباً المنعطفات الزلقة والأغصان المُقْتَلَعَة من أصولها ومُجازفاً بأن تتحطم السيارة أو أن يموتوا متفحّمين بصاعقة. أخيرا أطفأ المحرّك في جانب من الطريق مَهزوماً من الطبيعة. خبّأ وجهه بين ذراعيه المتقاطعتين فوق المقود ولعن حظّهُ بلغة جنديّ، بينما أتيلا يراقبُ الكارثة من فوق وسادته الوردية بتعبير عن الإهمال جعل إنديانا تضحك. سرعان ما أصيب ميلرْ بالعدوى وبدأا يضحكان من الحالة المضحكة ضحكاتٍ فالتة في كلّ مرّة أكثر من عقالها حتى سالت دموعهما على وجهيهما، أمام حيرة الكلب، الذي لم يستظرف وجوده محصورا في السيارة بدل أن يجري في الغابة.

بعدها حين مكث كلّ لوحدهِ مع ذكرى الحبِّ المعاش توّاً، لم يعرف إلى ماذا يعزوه، هل لزمجرةِ العاصفة وهي تهزُّ العالَمَ، أم إلى الرضى في الضحكة المشتركة في حجرة قيادة السيارة، أمّ لأنه كان حتميّا لأنّ الاثنين كانا جاهزين. جاءت الحركة تلقائية، تبادلا النظر، مكتشفين بعضهما، من دونِ تمثيلٍ كما لم يفعلا من قبل قطّ. هي رأت الحبَّ في عينيه، شعورا بسيطاً إلى حدّ أنّه أيقظ عندها الرغبة المكبوتة التي كانت تتسامى بها منذ سنوات.

كانت إنديانا تعرف ذلك الرجلَ أفضلَ من أيّ شخص آخر، تعرفُ عرضَهُ وطولَهُ، من رأسه وحتى قدمه الوحيدة، جلدَ الجدعةِ

الضارب للحمرة واللامع، الفخذَين الصلبين المُعَلمين بالندوب، الخصرَ قليلَ المرونة، خطّ عمودهِ الفقري، فقرةً فقرة، عضلاتِ ظهرهِ الهائلة، صدرَهُ وذراعَيْه، اليدين الأنيقتين، أصابِعَهُ، إصبعاً فأصبعاً، الرقبةَ القاسية كخشبة، النقرةَ المشدودةَ دائماً، الأذنين الحساستين اللتين لم تكن تلمسهما خلال التدليك كي تُجَنِّبهُ خجلَ الانتصاب، كانت تُميّز مُغمضةَ العينين رائحةَ صابونهِ وعرقهِ، نسيجَ شعره المحلوق على الصفر، اهتزازَ صوته، كانت تحبُّ حركاتِهِ الخاصّة، طريقتَهُ بقيادة السيارة بيد واحدة، بلعبهِ مع أتيلا مثلَ صبيّ، استخدامَهُ لأطقم الطعام على المائدة، بخلعهِ لقميصه الداخلي، بضبطهِ لرجله الاصطناعية؛ كانت تعرف أنّه كان يبكي في السينما في الأفلام العاطفية، وأنّ بوظته المُفضّلة هي بوظة الفستق الحلبي، وأنّه إذا كان معها لا ينظر إلى النساء الأخريات، ويشتاقُ لحياته العسكرية، كانت روحه موجوعة، ومع ذلك لا يشكو أبداً، أبداً . جابت مرّاتٍ لا تُحصى في جلسات المعالجة وشبراً فشبراً جسدَه، جسدَ الرجل الفتيّ ظاهريّاً أكثر من المعتاد بالنسبة لسنواته الأربعين، تتأمّل رَجولتَهُ الخشنة وقوّتهُ المكبوحة، التي كانت تقارنها ساهية برجولة ألان كِلِر. كان عشيقها، النحيلُ والوسيمُ بتهذيبه وحساسيته وهزلهِ الوجهَ المعاكس لريان ميلرْ. لكنّ كِلِرْ لم يوجد، لم يوجد قط في حجرة القيادة،، الشيء الوحيد الواقعيّ بالنسبة لإنديانا في تلك اللحظة هو اشتهاؤها الأهوج لهذا الرجل، الذي سرعان ما صار مجهولاً.

في تلك النظرة الطويلة قيل كلّ الذي بقي كي يُقال. شدَّها ميلِّرْ محيطاً بها بذراعه، فرفعت وجهها وقبلّ الواحد منهما الآخر دون تردّدٍ، كما لو أنّها لم تكن المرّة الأولى، بشغف كان يهزّه منذ ثلاث سنوات وهي لم تكن تُفكر أن تشعر به لأنّها كانت قد استراحت في حبّ ألان كِلِرْ الناضج. كانت في ألعابها الجنسيّة الطويلة مع عشيقها القديم، الذي كان يُعوِّضُ ما ينقصه منها بالمخدرات والأدواتِ المساعدة والمهارة كانت هي تدرك المتعةَ وتنبسط، لكنّها لم تكن تخبَر العجلةَ

الحارّةَ التي تتشبّث بها الآن بريان ميلزْ. مثبتة إياه بكلتا يديها ومُقَبِّلةً إيّاه حتى ضاع نَفَسُها، مُفَاجأة بنعومةِ شفتيه ومذاق لعابه، وحميم لسانه، مستعجلةً وهي تُحاول أن تنزعَ عنه السترة الطَويلة والصدريةَ والبلوزة، دون أن تتخلى عن القبلة وتعلوه في حجرة القيادة الضيّقة والمقوِد يحول بينهما. ربّما كانت ستنجح في ذلك لولا أنّ أتيلا نبح فزعاً. كانا قد نسياه تماماً. وهذا ما جاءهما بنفحةٍ من التعقل فاستطاعا أن ينفصلا لحظاتٍ كي يُقرّرا ما يفعلان بذلك الشاهد المُعارض، وبما أنّه لم يكن باستطاعتهما أن يطرداه إلى الخارج في تلك العاصفة اختارا الحلَّ الأكثرَ منطقيّة: البحث عن فندق.

بينما كان ميلزْ يقود بلا رؤية وبسرعة طائشة تحت المطر، راحت إنديانا تُداعِبه وتُقبّله أنّى تقعُ القبلة على مرأى من أتيلا المهان. كانت الأنوار الأولى التي لمحاها تعود للفندق الصغير النازع للأبهة ذاته الذي ذهبا إليه في آحادٍ أخرى ليفطرا أفضلَ خبزٍ فرنسيّ مُحَمّص مع قشدة المنطقة الطازجة. في الفندق لم يتوقّعوا مجيء زبائن في ذلك الطقس، لكنّهم وفّروا لهما أفضلَ غرفة، هستيريا من ورق جدران مزهر، وقطع أثاثٍ مخروطةِ الأرجل وستائرَ بشرّاباتٍ وسرير عريضً حسن الصناعة، قادر على أن يُقاوم ارتطامات الحب. انتظرَ أتيلا ساعاتٍ عديدة في الشاحِنة الصغيرة، إلى أن تذكّر ميلزْ وجوده.

الثلاثاء، 7

في الساعة الثامنة والربع ليلاً صفّت القاضية راشيل روسين سيارتها في مرآب البناية، التي كانت تعيشِ فيها، أخرجت من صندوق الأمتعةِ حقيبةَ وثائقها الثقيلة التي فكرت أن تدرسها في تلك الليلة وَكيسَ السوق الذي تحتوي على طعام العشاء وغداءِ اليوم التالي، قطعة سلمون، بروكولي حبّتي بندورة وحبة أفوكاتو. كانت

قد ترعرعت في جوّ متقشّف وأيّ مصروف غير ضروري يُعتبر بالنسبة إليها إهانة لذكرى والديها، الناجيين من معسكر اعتقال في بولونيا، اللذين وصلا إلى أمريكا بلا أيّ شيء وأدركا بكثير من الجهد وضعاً جيّداً. كانت تشتري الضروريّ ليومها ولا تُبدِّدُ شيئاً. وبقايا عشائها تفيدها لليوم التالي، كانت تحملها في وعاء بلاستيكي إلى محكمة الأحداث، حيث كانت تتناول غداءها وحيدة في مكتبها. لم تكن تعيش حياة سيئة، لكنّها لا تمنح نفسها من الرفاهية إلا قليلا، وتقتصِد مثل طائر العقعق، على أمل أن تتقاعد في الخامسة والستين وتعيشَ من إيراداتها. فهي قد ورثت عقارات أسرتها ومجوهرات أمّها المتواضعة، التي ليس لها قيمة أخرى غير العاطفية، كانت مالكة لعليتها وعندها أسهم في جونسون &جونسون، وأبّل وشيفرون وحساب توفير تُفكّرُ أن تصرفهُ حتى آخر سنتيم قبل موتها، لأنّها لم تكن ترغب أن يلقى ابنُها وكنّتُها نتاج عملها، فهما لا يستحقانه.

خرجت مستعجلة من مرآبها المنتن والمسكون بالظلال، المكان الأقل أماناً في البناء، فقد سمعت عن قصَص اعتداءَ في أماكن مثله، هجوم على نساء وحيدات، وطاعنات في السن، مثلها. كان هناك لحظات تشعر فيها بأنّها فريسةٌ سهلة ومُهدّدة، فهي لم تعد المرأة القويّة والصارمة التي طالما جعلت مفاصل أعتى اللصوص ترتعد، مُهابة من الشرطة ومن زملائها. الآن هؤلاء الناس أنفسهم يتناولونها من وراء ظهرها وأطلقوا عليها لقباً، يقولون لها الجزّارة، أو شيئاً من هذا القبيل، طبعاً ما من أحدٍ كان يجرأ على أن يقولَ لها ذلك في وجهها. كانت مُتعبة، أو بالأحرى تعيش متعبة، فهي ما عادت تستطيع حتى أن تخبّ، لا تكاد تستطيع أن تدور، سيراً على قدميها، دورة واحدة حول الحديقة العامّة. آن لها أن تتقاعد، لم يكن قد بقي لها سوى بضعة أشهر كي تستمتع براحة مُستَحَقّة.

صعدت في المصعد إلى شقّتها مباشرة، دون أن تمرّ بالبوّابة لتأخذ بريدها، لأنّ البوّاب كان يأوي في السابعة ليلاً ويترك كلّ شيء مقفولاً. تأخّرت دقيقتين في فتح قفلي بابها وعندما دخلت انتبهت إلى

أنّها نسيت أن تُفعّل الإنذار عند خروجها، الإهمال الذي لم يحدث لها من قبل. أرادت أن تعزوه للإفراط في العمل خلال الأسابيع الأخيرة، كانت ساهيةً وخرجت مسرعةً في الصباح لأنّها تأخّرت، لكن كان لديها شعور لحوحٍ ومزعج بأنّها بدأت تفقدُ ذاكرتَها. سرعان ما هاجمها القلقُ من أنَّ أحداً دخل البيت؛ أيضاً سمعت بأنّه ما من جهازِ إنذارٍ آمن، فهناك الآن أجهزة إلكترونية يمكن أن تُفكّكها.

قليلاً جدّاً كان تقدير راشيل روسين لبيتها، ففكرة شراء تلك الشقة ذات السقف العالي والقديمة غير الصالحة للسكن، هي فكرة زوجِها، لم ينجحا قط في تحديثها، كما حلما ذات مرّة، وبقيت تماماً كما كانت قبل ثلاثين سنة بهوائها، هواءِ الضريح البارد. كانت تُفكّر بأن تبيعها ما إن تتقاعد وتنتقل إلى مكان مشمس، حيث لا تحتاج إلى تدفئة، إلى فلوريدا مثلاً. أشعلت نورَ الصالونِ مُنهكة طوالَ النهار وهي تعارِكُ مُحامين ومجرمين، تركت الحقيبةَ على الطاولة، سارت متلمسةً طريقها في الممرِّ المُظلم نحو المطبخ، حيث تركت كيسَ السوق على طاولةِ الجدار وذهبت إلى غرفة نومها لتغيّر ملابس العمل وترتدي شيئاً مريحاً. عادت بعد خمس عشرة دقيقة إلى المطبخ كي تُحضّر عشاءها، بالمنامة ودثارِ الفانِلة وخفٍّ جلد الخروف المُبطن. لم تتمكن من إفراغ الكيس.

أولاً شعرتِ بِه خلفها، شبحاً حذراً مثل ذكرى سيّئة، فلم تتحرّك، متحفزة، بالإحساس بالبخار ذاته الذي كان ينتابها حين تنزلُ من السيارة في المرآب. بذلت جهداً كي تُسيطر على خيالها، فهي لم تكن تريد أن تنتهي مثل والدتها، التي أمضت سنواتها الأخيرة مغلقة شقتها على نفسها بالقفل والمفتاح، دون أن تخرج منها أبداً، مقتنعة بأنّ عملاء الجستابو ينتظرونها على الجانب الآخر من الباب. العجائز يتملكهم الخوف، لكنّني لست مثل أمّي، فكّرت. بدا لها أنّها شعرت بلمسِ شيءٍ كالورقِ أو البلاستيك وعادت باتجاه باب

المطبخ، طيف ينقطع في العتبة، هيئة إنسانية مبهمة، منتفخ، بلا وجه، بطيئة ومتثاقلة مثل رجل فضاء على سطح القمر. أطلقت صرخةً جشّاء ومرعبة، انطلقت مَن معدتها وصعدت عبر صدرها مثل لهب، رأت المخلوق المريع يتقدّم، الصرخة الثانية علقت في حنجرتها ونفد الهواء.

تراجعت راشيل روسين خطوة، تعثّرت بالطاولة وسقطت على جانبها، حامية رأسها بذراعيها. بقيت على الأرض وهي تتمتم بتوسلات بألا يؤذوها، عارضةً أن تُسَلم المالَ والأشياء الثمينة الموجودة عندها في البيت. وزحفت تحت الطاولة حيث قبعت مرتعدة، تُفاوض وتبكي خلال الدقائق الثلاث الأبدية التي بقيت فيها واعية. لم تشعر حتى بالوخزة في فخذها.

الجمعة، 10

كان من غير المعهود أن يبقى المُفتّش بوب مارتين في فراشه في السابعة والنصف من صباحات أيام الجمعة، فيومه العادي كان يبدأ في الفجر. كان مستلقياً وذراعاه خلف رأسه، الوضعية الأكثر إراحة، يتأمّل نور النهار الخفيف الذي كان يتسلّلُ من الستائر البيضاء إلى غرفته وهو يصارع دافعَ التدخين الذي لا يكادُ يُقاوَم، كانت أياني قد نصحتْهُ في أحد لقاءاتهما، التي ما عادت استجوابات بل أحاديث، أن يُجربّ التنويم المغناطيسي، أحد مصادر علم النفس الذي ساهم في شهرة زوجها، لكنّ الفكرة لم تعجبه. كان يعتقد أنّ التنويم المغناطيسيّ يسمح بالاستغلال، كما في ذلك الفيلم حيث يُنَوّمُ ساحرٌ ودي ألان ويُجبرُهُ على سرقة مجوهرات.

كان قد مارس الحبّ تواً مع كارلا للمرة الثالثة خلال خمس ساعات، وهو ما لم يكن رقماً قياسياً تماماً، لأنّه استغرق معه

بالإجمال ثلاثاً وعشرين دقيقة، والآن راح يُفكّر، بينما هي تُعدُّ القهوة في المطبخ، بالسيّدة أشتون، بعطر بشرتها الناعم، الذي كان يتكهّن به، لأنّه لم يحدث أن كان إلى هذا الحدّ قريباً منها كي يشمّه، يُفكّر بعنقها الطويل، بعينيها العسليّتين بأهدابهما الناعسة، بصوتِها الهادئ والعميق مثل تيار نهر أو محرّك مُجَفّفة ثياب. كان قد مرّ شهرٍ على وفاة أشتون وهو ما يزال يختلق ذرائعَ كي يرى الأرملة يوميّا تقريباً، وكان هذا يُثير تعليقاتٍ بِّترا هوتْ الساخرة. بدأت مساعِدَتُهُ تُقلّل من احترامها له. هذا لأنّه منحها ثقة، عليه أن يضعها في مكانها.

راح، بينما هو يتقلّب مع كارلا في الظلمة، يحلم بأنّه يتقلّب مع أياني، كلا المرأتين كانتا طويلتين ونحيلتين، طويلتي العظام وبارزتي الوجنات، لكنّ ما إن كانت تفتح كارلا فمها لتُطلق وابلَ كلمات المجون بنبرة بولونية حتى يتحول السحر إلى أشلاء، كانت في البداية تُثيره لكن سرعانٍ ما راحت تُزعجه. كانت أياني تُمارس الحبّ بصمتٍ، كان واثقاً من هذا، أو تُقرقِر مثل أنقذ التونا، لكن لا شيء من البذاءة باللغة الأثيوبية. لم يكن يريد أن يُفكّر بأياني مع غالانغ، كما اقترحت عليه بِّترا وأقل من ذلك بكثير بالختان الذي عانت منه في طفولتها. لم يرَ قط كائناً بروعة أياني. وصلت رائحة القهوة إلى أنفه حين رنّ الهاتف.

- بوب، أنا بلاك. هل تستطيع أن تأتي إلى بيتي؟ أمر عاجِل.
- هل جرى شيء لأماندا؟ لإنديانا؟ -صرخ المفتّش، قافزاً من السرير.
- لا، لكنّه خطير.
- ها أنا ذاهب.

لا بدّ أن لبلاك، الذي لم يكن مُهَوِّلاً، أسبابه القوية كي يهتف له. رشّ وجهه خلال دقيقتين بالماء، ارتدى أول شيء وقع في يده

وجرى باتجاه سيارته، دون أن يُودّع كارلا، التي بقيت عارية في المطبخ وفنجاني القهوة في يديها.

عندما وصل إلى بوتررو هيلْ وجد شاحنة السندريلات النووية واقفة في باب حميه السَابق ووجده في المطبخ مع إلسا دومينغِث وابنتيها، نويمي وأليثيا، كانتا شابتين، حسنتي الوجه، ربعتي القامة وقويتين، ولا شيء فيهما من سذاجة أمهما وعذوبتها. كانتا قد بدأتا تنظفان بيوتا وهما في المرحلة الثانوية، بعد انتهاء الدروس كي تساهما في اقتصاد العائلة وتحوّلتا خلال سنواتٍ قليلة إلى امرأتي أعمال. كسبتا زبائن، وضعتا شروط الخدمة، ثم راحتا تُرسلان نساء أُخريات للقيام بأعمال التنظيف وفي نهاية الشهر كانتا هما اللتان تقبضان وتدفعان الرواتب وتشتريان موادّ التنظيف. لم تكن المستخدمات عرضة لخطر استغلال أرباب عمل لا يعرفون الرحمة والزبائن يتحررون من السؤال عن الوضع القانوني لأولاء النساء ومن ترجمة التعليمات إلى الإسبانية، فقد كانوا يتفاهمون مباشرة مع نويمي وأليثيا، اللتين كانتا مسؤولتين عن نوعيّة الخدمة ونزاهة ناسهما. 206

كانت السندريلاتٍ النوويات قد تضاعف عددهنّ في السنوات الأخيرة ويُغَطين منطقةً واسعة من المدينة، وكانٍ هناك لائحة انتظار للحصول عليهنّ. عامّة ما كنّ يذهبن للبيوت مرّة واحدة في الأسبوع، وكنّ يصلن في مجموعات من اثنتين أو ثلاث ويشرعن بالعمل على الفور بحماس، فيتركن خلال ساعاتٍ قليلة كلّ شيء نظيفاً، هكذا فعلن لعددٍ من السنوات مع القاضية راشيل روسن. في شورش ستريت، حتى صباح يوم الجمعة، حين وجدوها متدلية من مروحة.

وضّحت أليثيا ونويمي للمفتِّش أنّ راشيل روسن كانت تضع عوائق كثيرة كيلا تدفع لهما في الوقت المناسب وأنّهما قرّرتا بعد أن تعبتا من الصراع معها في كلّ شهر أن يوقفا الخدمة عندها. ذهبت الاثنتان في ذلك الصباح لتتقاضيا منها شيكي كانون الأوّل وكانون الثاني وإعلامها بأنّ السندريلتين لن تعودا. وصلتا في السابعة، في الوقت

الذي لم يكن فيه بوّاب البناية موجوداً، لأنّه كان يبدأ يومَ عمله في الثامنة، لكنّهما كانتا تعرفانِ رمزَ الباب الرئيسي ومعهما مفتاح شقة زبونتهما. وجدتا الجوَّ مظلما وباردا، التدفئة مُطفأة واستغربا السكون، لأنّ روسين كانت تستيقظ باكرا وتتناول في مثل تلك الساعة شايها وهي تشاهد أخبار التلفزيون بأعلى صوت، بثياب وحذاء الرياضة كي تخرج إلى حديقة دولورس العامّة. كان مشوارها ثابتا: تقطع من شورش ستريت عبر جسر المشاة وتسير بخطوات واسعة نصف ساعة، تتوقف عند حانوت خبز تارتين عند زاوية غِررو والشارع **18**، تشتري قطعتي حلوى وتعود إلى منزلها كي تستحمّ وترتدي ملابسها كي تذهب إلى المحكمة. طافت المرأتان الصالون والمكتب وغرفة الطعام والمطبخ وهما تناديان السيّدة. طرقا على باب غرفتها وعندما لم يلقيا جوابا تجرّأتا ودخلتا.

- كانت معلّقة إلى السقف —قالت أليثيا همساً كما لو أنّها تخشى أن تُسمَع.

- هل انتحرت؟ —سأل المُفتّشُ.

- هذا ما فكرنا به في البداية ونظرنا لنرى ما إذا كانت ما تزال حيّة ونستطيع إنزالها، لكن بدا لنا أنّهم قتلوها، لأنّه ما من أحد يغلقُ فمه بشريط لاصق كي ينتحر، أليس كذلك؟ وعندها خفنا وقالت لي أليثيا أن نخرج بسرعة. تذكرنا بصماتنا ولذلك نظّفنا الأبواب وكلّ ما كنّا قد لمسناه —وضّحت نويمي متوتّرة جدّاً.

- لوّثتما المشهد! وضّح المُفتّشُ.

- لا، لم نلوّث شيئاً. نظفنا بمناشف صغيرة ورطبة. تعرف، من تلك التي تُستعمَل لمرّة واحدة، دائماً نحملها معنا، هي مطهّرة.

- هتفنا لأمّنا من الشاحنة الصغيرة —أضافت أختها، مشيرة إلى إلسا، التي كانت تبكي صامتة في كرسيّها متشبّثة بيد بلاك.

- قلت لهما أن يأتيا مباشرة إلى حيث كان مِستر جاكسون. ماذا كان باستطاعتهما أن تفعلا أكثر من ذلك؟

- أن تخبرا للرقم **911**، مثلاً —ارتأى بوب مارتين

- الفتاتان لا تريدان مشاكل مع الهجرة، يا بوب. معهما رخصة بالعمل، لكنّ غالبيةَ مستخدماتهنّ غير مُرخّصات -وضّح له بلاك.

- إذا كانتا مرخصتين فليس هناك ما تخافان منه.

- هذا ما تعتقده أنت، الذي لم تمر قط بحالة مهاجر بلكنةٍ لاتينية -ردّ حموهُ السابق- فراشيل روسين كانت لا تثق بأحدٍ أبداً. لا أحد كان يزورها، حتى ابنها لم يكن معه مفتاح شقتها، وحدهما أليثيا ونويمي معهما المفتاح، كانتا تذهبان وتتركان نساء التنظيف هناك كلّ أسبوع. وهما سيعامَلانِ معاملة المشكوك بهما.

- السيّدة لم تفقد قط شيئاً. لذلك تركت لنا في النهاية المفتاح. في البداية كانت تبقى كي تُراقِب، تُحصي أطقمَ الطعام وكلَّ قطعة ثيابٍ تذهبُ إلى الغسالّة، لكنّها استرخت في النهاية -وضّحت أليثيا.

- حتى الآن لا أفهم لماذا لم تُخبرا الشرطة -أصرّ بوب مارتين مادّاً يده إلى هاتفه الخليوي.

- انتظر، يا بوب! -أوقفه بلاك.

- منذ سنواتٍ طويلة ونحن نعمل في هذا البلد، ونحن أناس نزهاء! أنت تعرفنا، تصوّر أن يلقوا بنائبة موتِ هذه السيّدة علينا - أجهشت إلسا دومينغِث.

- سيتوضّح هذا بسرعة، يا إلسا، لا تخافي -أكّد لها بوب مارتين.

- إلسا قلقة على هوغو، ابنها الصغير -تدخّل بلاك- كما تعرف، الفتى حدثت معه مشاكل مع القانون، واضطررتَ أنت أن تساعده مرّتين، هل تتذكر؟ سُجِن بسبب مشاجرات وسرقة. وهوغو عنده إمكانية الوصول إلى مفتاح هذه الشقة.

- كيف؟ -سأل المفتّش.

- أخي يعيش معي -قالت نِويمي-. وكلّ مفاتيح البيوت التي نخدم فيها مُعلقة في غرفتي إلى حمالة المفاتيح مع اسم الزبون. هوغو رأسه فارغ ويدخل في مشاكل، لكنّه غير قادر على قتل ذبابة.

- يمكن لأخيك أن يكون قد ذهب إلى شقّة روسين ليسرق... فكّر المُفتِّش.

- هل يبدو لك أنّه سيذهب ليشنقٍ تلك المرأة، أرجوك يا بوب! ساعدنا. علينا أن نبقي على الفتي بعيداً عن هذا —توسّل إليه بلاك.

- مستحيل. سيكون علينا أن نستجوب كلّ الناس الذين كانوا على علاقة بالضحية وإسم هوغو سيظهر في التحقيق. سأحاول أن أمنحه يومين —قال المفتِّش– سأذهب إلى المكتب. اتصلا خلال عشر دقائق بالرقم 911 من هاتف عمومي كي تُخبروهم بما جرى. ليس ضرورياً أن تُعَرّفا بنفسيكما، فقط أعطيا عنوان روسين.

توقّف المُفَتِّش في محطة وقود كي يملأ الخزّان، وأدركه كما كان ينتظر، صوت بِّترا هورْ، في جواله، كي تُخبره عن جثّة شارع شورش ستريت. توجّه إلى هناك بينما كانت مساعدته تعطيه بكفاءة عسكرية، المعلومات الأولى عن الضحية، راشيل روسين مولودة عام 1948، مُتخرِّجة منٍ هاستينغس، عملت كمحامية في مكتب خاص، ثمّ كمفتشة عامّة وأخيراً كقاضية أحداث، المنصب الذي شغلته حتى وفاتها.

- كانت في الرابعة والستين من عمرها وستتقاعد في العام القادم —أضافت بِّترا–. متزوّجة من ديفيد روسين، انفصلا، لكنّهما لم يتطلّقا، أنجبا ولداً، إسماعيل، يعيش في سان فرانسيسكو ويبدِو لي أنّه يعملُ فِي شركة توزيع مشروباتٍ كحولية. لكن عليّ أن أتأكد من ذلك. يُؤكد هذا بعد. أعرف ما تُفكر به الآن، يا مُعلم: المتّهم الأوّل هو الزوج، لكن هذا لا يفيدنا، لأنّ ديفيد روسين يملك ذريعة دامغة

- ما هي؟

- مات بسكتة قلبية في عام 1998.

- ميتة سيّئة، يا بِّترا! هل من شيء آخر؟

- لم تكن روسين على علاقة جيدة مع كنَّتِها، وهذا ما أبعدها عن ابنها وأحفادها الثلاثة. بقية الأسرة تتألف من أخوين في بروكلين، لم

ترهما على ما يبدو منذ سنوات. لم تكن ودودة، امرأة مُعذّبة وسيّئة المزاج. مشهورة في المحكمة بأنّها صارمة، وأحكامها مخيفة.

- المال؟

- هذا ما لا أعرفه، لكنّني أُحقّق به. هل تريد أن أعطيك رأيي، يا معلّم؟ كانت عجوزاً شمطاء، تستحق أن تُطبخ في الجحيم.

عندما وصل بوب مارتين إلى شارع شورش ستريت أمام حديقة دولورس، كان قد طوّق نصف المنطقة وقطعت الشرطة السير. رافقه ضابطَ إلى البناء حيث البواب المناوب، وضّح له مانول بالِنثولا، وهو أمريكي لاتيني يقارب الخمسين من عمره ويرتدي طَقماً داكناً وربطة عنق، أنّه لم يهتف للرقم 911. عرف بما جرى عندما ظهر شرطيان وطالباه بأن يفتح شقّة راشيل روسن بالمفتاح السحري. قال إنّه رأى السيّدة لآخر مرّة يومَ الاثنين، عندما أخذتِ بريدها، وهو ما لم تفعله الثلاثاء ولا الأربعاء ولا الخميس، لذلك فكّر أنّها مسافرة، فقد كانت تغيب بضعة أيام، كان جزءاً من عملها. هذا الصباح هتف لها بعد الثامنة، ما إن بدأت مناوبته، كي يسألها ما إذا كانت ترغب بأن يصعد لها بالرسائل المتراكمة والطرد، الذي وصلها مساء أمس، لكنّ أحداً لم يردّ على الهاتف. افترض مانول بالِنثويلا، أنّه إذا كانت المرأة قد عادت من سفرها، يمكن أن تكوَن في الحديقة العامّة، لكنّ الشرطة وسيارة الإسعاف كانت قد وصلت قبل أن ينتابهُ القلق محدثة ضجيجاً استنفر الحيَّ كلّه.

أمر بوب مارتين البوّابَ بأن ينتظرَ في مكانه ويُعلم سكان البناية بالحدّ الأدنى من المعلومات تفادياً للذعر، صادر بعدها المراسلات والطردَ وسارَ باتجاه طابق راشيل روسين، حيث كان ينتظره الرقيبُ جوزيف ديسيف، أوّل من لبّى نداء الرقمِ 911. سُعِد المُفتِّش برؤيته: كان رجلاً يملك تجربة سنوات، حليماً، يعرفُ كيف يتعامل مع قضيّة مثل تلك. أعلمه الرقيب: "منعتُ الدخول إلى الطابق، وحدي

من دخل إلى مكان الجريمة. اضطررنا لأن نمنع بالقوّة دخولَ صحفيٍّ تدبّرَ أمرَهُ للصعود إلى هنا. لا أدري كيف تعلم الصحافة قبلنا".

كان لملحق الضحيّة نوافذ كبير مُقابلة للحديقة، لكنّ المنظر والنور كانا محاصرين بستائر شفافة وسميكة تُضفي على الجوّ مظهراً جنائزيّاً. كانت المالكة قد فرشته بأثاث مضت تقليعته وفي حالة سيّئة، وسجاد يُحاكي السجاد الإيراني، لوحات ذات أجواء بألوان الباستيل في إطارات ذهبية، ونباتات اصطناعية وصوان بأبواب زجاجية كانت تعرض فيه حديقة من الحيوانات من كريستال سواروفسكي، رآها المُفتّش بطرف عينه، قبل أن يتوجّه إلى الغرفة الرئيسيّة.

انتحى الضابطُ الذي كان يسدّ الباب جانباً عندما رآهما وبقي جوزيف ديسيف في العتبة بينما دخلِ المفتِّش بآلة تسجيله الصغيرة كي يُملي انطباعاتِهِ الأولى، التي كثيراً ما كانت الأكثر صوابية. كانت القاضية، تماماً كما قالت نويمي وأليثيا، في منامتِها، حافيةً معلّقةً إلى مروحة وسطَ الغرفة، مكمَّمة الفم بشريط لاصق، لفت انتباهه على الفور أنّه كان بمقدورها على أن تُلامس السرير بقدميها، وهذا يعني أنّها قد تكون قد تأخّرت ساعات في الموت، مصارعة غريزياً كي تستند إلى شيء، إلى أن هزمها الإرهاق أو أُغمي عليها فخنقها ثقل جسدها.

انحنى كي يفحص السجادة وتأكّد من أنّ السريرَ لم يُحرّك من محلّه، أصرّ على أن يتأمّل المروحة، لكنّه لم يصعد على كرسيّ أو طاولة الليل، لأنّ عليه أن يأخذ البصمات، استغرب أنّ لا تكون المروحةُ قد انخلعت من السقف مع حركات الضحية اليائسة.

كانت عملية التفسخ متقدمة، فالجسدُ منتفخ والوجهُ مشوّه، والعينان خارج محجريهما، الجلد مرمريّ مع بقع خضراء وسوداء، فافترض مارتين أنّ الموت حدث قبل ست وثلاثين ساعة على الأقل، لكنّه قرّر ألا يُخمّن وأن ينتظر إنغريد دونْ.

خرج من الغرفة، نزع الكمامة والقفازين، ثمّ أعطى أمراً بإغلاقها من جديد ووضع حراسةٍ على الباب. هتف بعدها إلى بِّترا كي تخبر الطبيبة الشرعيّة وبقية الطاقم الضروري لفحص مسرح العملية، ورسمِ مخططٍ بمحتويات الغرفة، والتصوير الضوئي والفيديو قبل رفع الجسم. رفع سحاب السترة شاعراً برعشة برد وانتبه إلى أنّه جائع، وأنّه بحاجة إلى القهوة التي يستيقظ عليها صباحاً. وبلمحة عين رأى كلارا وفنجانين بين يديها، عارية، متطاولة مثل مالكٍ حزين، بارزة عظام الوركين والترقوة ومفرطة حجم الثديين، اللذين كلّفاها مدخرات ثلاث سنوات، كائن خرافيّ من كوكب آخر ظهرَ بالخطأ في مطبخه.

بينما كان الرقيب ديسيف ينزل إلى الشارع لمراقبة الصحافة والفضوليين، وضع بوب مارتين لائحة أولية بالأشخاص الذين عليه أن يستجوبهم ثمّ راجع آخر بريد لِراشيل روسين، وعددا من الحسابات وكتالوجين، ثلاث صحف ومغلف من بنك أمريكا. كان الطرد يحتوي على خيوان بلوري آخر. هتف بوب إلى الاستقبال فوضّح له البوّاب أن السيّدة روسين كانت تتلقى واحدا في الشهر منذ سنوات.

سرعان ما وصل فريق الطب الشرعي في مجموعة وعلى رأسه إنغريد دون ورفقة بِّترا هور، التي لم يكن هناك ما تفعله؛ وبطريقة الذريعة جاءت للمفتش معها بكأس قهوة بالحليب ضخم، كما لو أنّها قرأت تفكيره. "عذرا، يا معلم، لم أستطيع مقاومة الفضول، كان عليّ أن أراها بأمّ عيني" تلك كانت ذريعتها. تذكر بوب مارتين القصّة التي حكتها له بِتّرا ذات ليلة احتفالية، بدأت بالموخيتو والبيرة في الكامِلوت، البار القديم في شارع بويل، حيث كان يرتاده رجال الشرطة والتحرّي عادة بعد ساعات العمل في المكاتب، وانتهى في غرفة بِّترا بالدموع والمسارّات، كان قد اجتمع عدد من الزملاء للاحتفال بإدانة أو جي سيمبسون في لاس فيغاس —هجوم بالسلاح وعملية اختطاف، وحكم بالسجن ثلاثين سنة— التي احتفلوا بها كبرهان جليّ على العدالة الإلهية. كان إعجابهم ببطولات لاعب كرة القدم قد تحوّل إلى خيبة قبل سبع سنوات، حين برّئ من عملية قتل

زوجته السابقة وصديقها، على الرغم من أنّ الأدلة ضدّه كانت دامغة. شعرت شرطةُ البلد كله بأنّه سخر منها.

ليلة الكامِلوت كانت في كانون الأول من عام 2008، وكان قد مضى بعض الوقت على بِتْرا في المديرية. حسب بوب مارتين السنوات التي عملا فيها معاً وفوجئ بأنّها لم تشِخ يوماً واحداً، فقد بقيت الجنّية ذاتها التي كانتها، نفسها التي تناولت ثلاثة كؤوس موخيتو وصارت عاطفية وحملته إلى غرفة الخدمة التي استأجرتها في أحد البيوت. كانت بِتْرا تعيش آنذاك كطالبة فقيرة، وما تزال تدفع الديون التي خلّفها وراءه زوجٌ عابر قبل أن يذهب إلى أستراليا. كلاهما كان حرّاً من الارتباطات وكانت هي بحاجة إلى الدفء الإنساني، لذلك بادرت وراحت تُداعبه، لكنّ بوب مارتين كان يُقاوم الكحولَ أكثر منها وبالقليل من الصفاء الموجود قرّر أن يرفض عرضها بأدب. كانا سيستيقظان نادمين، كان واثقاً من هذا. لم يكن يستحق أن يُجازف بعلاقة العمل الرائعة من أجل بعض قبلات السكر.

استلقيا بثيابهما على السرير، أسندت رأسها إلى كتفه وحكت له أحزان حياتها القصيرة، التي استمع إليها قليلاً، مصارعاً نعاسه. في السابعة عشرة من عمرها أُدينت بِتْرا بالسجن سنتين من ناحيةٍ بسبب حيازتها للماريجوانا ولعدم كفاءة المحامي المختص من ناحية أخرى، لكن وعلى وجه الخصوص بسبب الصرامة الأسطورية للقاضية راشيل روسين. ومدّت السنتان إلى أربع سنوات، لأنّ سجينة أخرى انتهت إلى العيادة إثر شجار لها مع بِترا، بحسب قولها انزلقت المرأة وسقطت واصطدم رأسها بعمود إسمنتيّ، لكنّ روسين اعتبرته اعتداء وشدّدت على ذلك.

بعد نصف ساعة عندما أنزلوا راشيل روسين من المروحة ومدّدوها على النقالة أعطت إنغريد دون انطباعاتها للمفتش.

- من النظرة الأولى أُقدّر أنّ الموت وقع منذ يومين على الأقلّ، وربّما ثلاثة أيام، يمكن للتفسخ أن يكون قد تمَّ ببطء، لأنّ هذه الشقة برّاد. أليس فيه تدفئة؟

- بحسب البوّاب، كلّ شاغل يضبط تدفئته ويدفع بطريقة مستقلة. وراشيل لم تكنٍ تنقصها الإمكانيات، لكنّها كانت تبرد. سبب الموت يبدو واضحاً.

- ماتت مخنوقةً، لكن ليس بالحبل الذي كان في رقبتها – قالت إنغريد.

- لا؟

- أشارت الطبيبة إلى خطّ أزرق، مختلف عن علامة الحبل ووضّحت له أنّه تمّ عندما كانت القاضية حيةً، لأنّه تسبّب بتمزق ونزيف في الأوعية الدموية، العلامة الأخرى كانت غائرة في اللحم من دون ازرقاق، على الرغم من أنّها تحمّلت ثقل الجسد، لأنّها حدثت بعد الموت.

- لا بدّ أنّهم خنقوا هذه المرأة وعلقوها بعد عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأقل عندما لم تعد الجثّة تنتج كدمة.

- هذا يُفسّر لماذا لم تنخلع المروحة من السقف –قال بوب مارتين.

- لا أفهم.

- لو أنّ المرأة عارِكت من أجل حياتها مستندة على رؤوس أصابع قدميها، كما فكرت في البداية ما كان للمروحة أن تُقاوم الشدّ.

- لماذا علقوها إذا كانت ميتة؟ –سألت الطبيبة الشرعية.

- هذا ما عليك أن تقوليه لي أنت. أفترض أنّهم سدّوا فمَها كيلا تصرخ، أي عندما كانت حيّة.

- سوف أنزع الشريط اللاصق عند التشريح وسنعرف بيقين، لكنّني لا أتصوّر لماذا سيغلقون فمها في الوقت الذي كانت فيه ميتة.

- للسبب ذاته الذي علقوا لأجله الجثّةَ إلى المروحة.

أمر المُفتّش فريق الطب الشرعي، بعد أن حملوا الجسد، بأن يتابع عمله ودعا إنغريد دون وبِترا هور لتناول الفطور. ستكون لحظة الاسترخاء الوحيدة قبل أن تبدأ دوّامة التحقيق الجديد.

- هل تؤمنان بالتنجيم؟ -سألت مرافقيها.
- بماذا؟ -سألت الطبيبة.
- بالتنجيم.
- طبعاً -قالت بِّترا- أنا لا أُفوِّت قراءة الأبراج لثِلِثتِ روكو .
- أنا لا أومن بهذا، وأنت يا بوب؟ -سألته إنغريد.
- حتى البارحة لم أكن أومن، لكنّني بدأت اليوم أشكّ -تنهَّد المُفتِّشُ.

السبت، 11

احتراماً لإلسا، التي ربّت ابنته وتعمل مع العائلة منذ سبع عشرة سنة، أعطى المُفتِّشُ هوغو دومينغِث موعداً في مسكن أخته نويمي في منطقة كنال، في بلدة سان رافائل بدل أن يستجوبه في مديرية الشرطة بحس الإجراءات المعتادة. أخذ معه بِّترا كي تُسجِّل التصريحات. أعلمته في السيارة أنّ سبعين بالمئة من سكان كنال لاتينيون منخفضي الدخل، كثيرون لا يحملون وثائق، ناس من المكسيك وأمريكا الوسطى وأنّهم كي يتحايلوا على الإيجار يتشارك عدد من الأسر بمسكن واحد. "هل سمعت بالأسرّة الدافئة، يا مُعلم؟ هي حين يستخدم اثنان أو ثلاثة السرير ذاته بالدور في ساعات مختلفة"، قالت بِّترا. مرّوا بـ"الموقف" حيث كان ما يزال هناك في الساعة الثالثة مساءً بضعة عشر شخصاً ينتظرون سيّارة ما كي تأخذهم لتقدم لهم عملاً لبضع ساعات. كان للحيّ طعم لاتيني لا ينكر، فيه مطاعم الأحشاء المقلية وأسواق لمنتجات جنوب الحدود وإعلانات بالإسبانية.

البناء الذي كانت تعيشُ فيه نويمي، واحد من عدد من الأبنية المتشابة، كان بالنتيجة مول إسمنتي مطليّ بلون المايونيز، له شبابيك صغيرة وأدراج خارجية وأبواب تؤدي إلى ممرات مسقوفة،

حيث كان يجتمع الكبار ليتحادثوا والأطفال ليلعبوا. كان يخرج من الأبواب المفتوحة صوت مذياعات وتلفازات موضوعة على برامج بالإسبانية. صعدا طابقين يراقبهما المستأجرون بعدوانية، كانوا لا يثقون بالغرباء ويشمون رائحة السلطات عن بعد حتى ولو لم يكونوا يرتدون اللباس الموحّد.

في الشقة ذات الغرفتين وحمام كان ينتظرهم سكانها: نويمي وأطفالها الثلاثة، قريب مراهق ببطن كأنّه جبسة رهوغو، ابن إلسا الأصغر في العشرين من عمره. أبو أولاد نويمي تبخّر ما إن وُلد الأخير، الذي أتمّ الخامسة من عمره وكان عندها رفيق آخر نيكاراغوي يعيشٍ معهم عندما كان يظهر في منطقة الخليج، لكنّه كان غائباً دائماً تقريباً، لأنّه سائق شاحنة نقل."انظرْ حظّي، حصلت على رجل طيّب ويعمل" عرَّفت به نويمي. كان يشغل الصالون برّاد وتلفزيون وديوان.

جاءت الفتاة الحبلى من المطبخ بصينية فيها شراب اللوز وتشيبس وصلصة الأفوكاتو. وبما أنّ رئيسها كان قد نبّهها إلى أنّها لا تستطيع أن ترفض ما يُقدمونه له، لأنّه سيشكل إهانة، جهدت بِّترا في أن تُجرب ذلك المشروب الكريهِ الضارب للبياض والمظهر المشكوك بهِ والذي جاءٍ في النهاية لذيذاً. "هذه وصفة من أمّي، نضع فيه لوزاً مطحوناً وماء رزّ"، وضّحت له أليثيا، التي ستتصل خلال لحظة. كانت تعيش مع زوجها وابنتيها على بعد شارعين جانبيين في شقة شبيهة بشقة أختها، لكنّها كانت أرحب لأنّها لا تتقاسمها مع أحد.

كان بوب مارتين قد ساعد شرطة سان رافائل على مراقبة بعض العصابات ولم يترك مظهر هوغو دومينغث يخدعه. افترض أنّ أختيه أجبرتاه على أن يرتدي قميصاً بكمين طويلين وبنطلوناً، بدل القميص المغلق بدون أكمام وبنطلون الجينز المنفوخ، المشدود بحذر تحت السرّة وما بين الساقين صار بين الركبتين، اللذين يستخدمانهما الفتية من أمثاله.

كان القميص يُغطي الوشوم وسلاسل الصدر، لكنّ قصّة الشعر القصير على الصدغين والطويل من الخلف والثقوب في الوجه والأذنين وبخاصّة موقف الكبرياء والاحتقار تدلّ بوضوح على أنّه عضو في عصابة.

كان المفتّش يعرف الفتى منذ بداية حياته وكان يحزن عليه. ربّته، مثله، جدّته، أمّه وأخواته بطبيعة فولاذية، رعرع تسوسه نساء العائلة القويات. كانوا قد صنّفوا هوغو بالرخو وشبه الأبله، لكنه كان يعتقد أنّ الصبيّ لم يكن سيّئاً بطبيعته ويمكن بقليل من المساعدة أن يتحرر من أن ينتهي إلى السجن. لم يكن يريد أن يرى ابن إلسا وراء القضبان. سيكون واحدا من المليونين والمئتي ألف سجين في البلد، أكثر من أي بلد في العالم، بما فيها أسوأ الدكتاتوريات، ربع نزلاء السجون في العالم، أمّة مسجونة في الأمّة. كان يصعب عليه أن يتصوّر هوغو يرتكب جريمة قتل عن سابق تصميم، لكنّه مرّ بمفاجآت كثيرة في مهنته وكان جاهزاً للأسوأ. كان هوغو قد ترك المدرسة في السنة الأولى من الثانوية ووقعت له مشاكل مع القانون وكان شابّا لا يثق بنفسه، بدون أوراق ولا عمل ولا مستقبل. كان، مثل الكثيرين ممن هم بمثل ظروفه، ينتمي إلى ثقافة عنف الشارع نظرا لغياب الثقافة البديلة. 218

كانت قد مضت عقود على الشرطة وهي تصارع العصابات اللاتينية في منطقة الخليج: الشماليون، الذين كانوا أكثر عدداً مُعرّفون باللون الأحمر وحرف N الموشوم على الصدر والذراعين، الجنوبيون باللون الأزرق وحرف M وهم الذين ينتمي إليهم هوغو دومينغِثْ، أخوة الحدود، القتلة المأجورون ويرتدون الأسود ورجال المافيا المكسيكية المرعبة MM. الذين يتحكمون بتجارة المخدرات والدعارة والأسلحة من السجن. كانت العصابات اللاتينية تتصارع فيما بينها وتتواجه مع العصابات الزنجية والآسيوية، متنازعة على الأرض، تسرق، تغتصب وتوزّع مخدرات، وتزرع الرعبّ بين سكان الأحياء

وتتحدّى السلطات في حرب لا نهاية لها. من أجل عددٍ مقلق من الشباب كانت العصابة تستبدل العائلة وتقدّم هوية وحماية وتعرض عليهم الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة في السجن، حيث كانوا مقسمين إلى مجموعات عرقية أو قومية. كان أعضاء العصابات يُرحَّلون، بعد أن يكملوا حكمهم وراء القضبان، إلى بلدانهم الأصلية، حيث ينضمون إلى عصابات أخرى على صلة بتلك الموجودة في الولايات المتحدة وبهذه الطريقة تحوّلت تجارة المخدرات والأسلحة إلى تجارة بلا حدود.

كان هوغو دومينغِث قد عانى من الانطِلاقة الضرورية للانضمام إلى الجنوبيين: صفعة وحشية كسرت عدداً من عظام صدره. كان في ظهره ندبةٍ طعنة سكين وجرحٍ سطحيٍّ من طلقة في ذراعه، وكان قد اعتقل عدداً من المرات، واستقرّ في الخامسة عشرة من عمره في سجن للأحداث وفي السابعة عشرة أنقذه بوب مارتين من سجن للبالغين، حيث كان سيملك فرصاً واسعة كي يهذب ممارساته الشريرة.

كان المُفتِّش يشكّ بأن يكون هوغو قادراً على ارتكاب جريمة، بمثل تلك الحنكة وفي منطقة بعيدة جدّاً عن منطقته مثل جريمة راشيل روسين، لكنّه لا يستطيع أن يستبعد هذا الاحتمال، ذلك أنّ القاضية كانت تصدر أحكاماً بالسجن طويلاً ضدّ أعضاء العصابات الأحداث، الذين كان عليها أن تُحاكمهم. أكثر من شابّ حكمت عليه بالسجن لعدد من السنوات أقسم أن ينتقم منها، ويمكن أن يكون قد كلّف هوغو بهذه المهمّة كجزء من تعليمه.

كان بوب مارتين يعرف القيمة الاستراتيجية لجعل مشتبِه ينتظر ولم يلق أيّ نظرة على هوغو، فقد تفرّغ لأكل التشيبز بصلصة الأفوكاتو والتحدّث مع المرأتين، كما لو أنّ الأمر يتعلق بلقاء اجتماعي. أراد أن يعرف متى سيولد طفل المراهقة الحبلى ومن كان الأبُ وعما إذا ذهبت إلى رعاية ما قبل الولادة، أطلق بعدها العنان

لسبحة ذكرياتِ الماضي مع نويمي وأليثيا. حكى طرفتين وشرب كأسَ شرابِ لوز ثانياً، بينما الأطفال الثلاثة في عتبة المطبخ يراقبونه بجدّيةِ كهول وبِترا تُحاول أن تستعجله بنظرات تململ. كان هوغو دومينغِث يتظاهر بأنّه مستغرق في إرسال رسائل من جوّاله، لكنّ قطرات عرق كانت تجري على وجهه. 220

أخيراً لامس المفتّش الموضوع الذي كان يهمّ الجميع. وضّحت نويمي أنّها كانت تعرف راشيل روسين منذ ثمانية أعوام وأنّها في البداية هي من كانت تقوم بتنظيف شقتها. ثمّ وبعد أن أسّست هي وأختها شركة السندريلات النووية، ألغت القاضية الخدمة لأنّها لم تبغِ أن تقبل ناساً مجهولين في بيتها. كانت نويمي قد نسيتها، لكن روسين هتفت لها ذات يومٍ.

- أنا مُنَظّمة جدّاً مع زبائني، مكتوب عندي التاريخ الدقيق لتجديد الخدمة –قالت– ساومت السيّدة روسين على السعر، لكنّنا في النهاية اتفقنا. مرّ أكثر من عام حتى سلمتنا المفتاح وتخرج حين تصل السندريلات للقيام بأعمال النظافة. وبما أنّها كانت عديمة الثقة كنّا دائماً نرسل النساء ذاتهن، اللواتي كنّ يعرفن مزاجَ السيّدة.

- لكن لم يكنّ هنّ من ذهبن يوم الجمعة بل أنتِ وأختك.

- لأنّها كانت متأخرة بالدفع لنا شهرين والدفع كل أسبوعين والأخير الذي سدّدته كان في بداية كانون الأول –أجابته إليثيا. كنّا سنبلغها بأنّنا لا نستطيع أن نستمرّ بالخدمة، لأنّها بالإضافة إلى التأخّر في الدفع كانت تسيء معاملة العاملات.

- كيفٍ؟

- مثلاً كانت تمنعهم من فتح برّادها أو استخدام مرحاضها، كانت تعتقد أنّ من الممكن أن يصبنها بعدوى مرض. كانت قبل أن تُعطينا الشيك تشكو: يوجد غبار تحت طاولتي السرير، صداً في غسالة الصحون، بقعة على السجادة، دائما كانت تجد شيئا سيّئا.

كُسرِ ذات مرّة فنجان صغير فقبضت منا مئة دولار، قالت إنّه كان أثريّاً. كانت تجمع حيوانات بلورية لم تكن تتركنا نلمسها.

- وصلها واحد يوم الأربعاء —قال المفتّش.

- لا بدّ أنّه حيوان خاص. كانت تشتريها أحيانا عبر الإنترنِتٍ أو من محلات الأثريات. الحيوانات التي اكتتبت عليها تصل دائماً في نهاية كلّ الشهر في صندوقٍ عليه اسم الحانوت.

- سواروفسكي؟ —سأل المفتِّشُ.

- هذا هو.

وبينما كانت بِّترا تُسجّل وتكتب ملاحظاتها، أرت نويمي وأليثيا بوب مارتين سجلّ الزبائن، والحسابات وحاملة المفاتيح حيث كانتا تعلقان مفاتيح البيوت التي ينظفنها، والتي لم تكونا تسلمانها إلا إلى المستخدمات الأقدم والموثوقات بشكل مُطلق. نحن معنا مفتاح السيّدة روسين الوحيد —قالت أليثيا.

لكن يستطيع أيّ كان أن يطال هذه المفاتيح —علَّق المُفَتِّش.

- أنا لم ألمس قط هذه المفاتيح —انفجر هوغو دومينغِث، دون أن يستطيع أن يتمالك نفسه زمناً أطول.

- أرى أنّك تنتمي إلى عصابة الجنوبيين —قال المُفتِّشُ وهو يتفحَّصه من أعلى إلى أسفل آخذاً ملاحظة عن اللفاعة الزرقاء حول عنقه، والتي يبدو أنّ أختيه لم تنجحا في جعله يخلعها- أخيراً ها هم يحترِمونك، ما عاد هناك من يتجرّأ على التعرَّض لك. أليس صحيحاً؟ أنت تخطئ أنا أتجرّأ.

- ما الذي تريده منّي، أيّها الشرطيّ السافل؟

- أن تشكر أمّك لأنّني لا أستجوبك في القسم، فرجالي لا يحترمون على وجه الخصوص أمثالك. سوف تقول لي دقيقة بدقيقة ماذا فعلت منذ الخامسة من مساء الثلاثاء وحتى ظهيرة الأربعاء الماضي.

- من أجل تلك العجوز، التي قتلوها. لا أعرف حتى اسمها، لا علاقة لي على الإطلاق بهذا.

- أجب عن سؤالي!
- كنتُ في سانتا روسا.
- صحيح لم يأتِ لينام —قاطعت نويمي.
- هل هناك من رآك في سانتا روسا؟ ماذا كنتَ تفعل هناك؟
- لا أعرف من رآني. لا أعيش مفكراً بهذه الحماقات، ذهبت في مشوار.
- عليك أن تبحث عن حجة أفضل من هذه، يا هوغو، إذا كنتَ لا تريد أن تنتهي إلى أن تُتّهم بالقتل —حذّره المُفتِّش.

الاثنين، 13

كان شعر بِتْرا قصيراً كشعر صبيّ، لا تستعمل الماكياج تنتعل وترتدي دائماً الأشياء ذاتها: جزمة وبنطلوناً أسود وبلوزة قطنية بيضاء، وفي الشتاء ترتدي سترة سميكة عليها شعار فرقة روك على الظهر. وتنازلها الوحيد أمام الصرعة كان خصلات مصبوغة مثل ذيل ابن آوى وطلاء أظافر مُلفت للأنظار على أظافر قدميها ويديها، التي تبقي عليها مقصوصة جيّداً بسبب الفنون القتالية. كانت في مخدعها تطلي أظافرها بأصفر وامض عندما وصلت إلسا دومينغِث مرتدية ثياباً كما لو أنّها ذاهبة إلى قدّاس، بكعب عال وقبّعة جلدية مضت تقليعتها، سائلة عن المُفتِّش. وضّحت لها المساعدة بتنهيدةِ انزعاجٍ أنّ رئيسها يدير عملية تحقيق وبالتأكيد لن يعود فيما تبقى من المساء.

كان عملها في الأسابيع الأخيرة يقوم أكثر من أيّ شيء آخر على حماية ظهر بوب مارتين، الذي كان يختفي في ساعاتِ الخدمة بحجج لا تُصَدَّق. لكن أن يفعل ذلك يوم اثنين فتلك هي الطامّة الكبرى. كانت تُفكر بِتْرا، لم يكن لديها حسابٌ بعددِ النساءِ اللواتي ألهبْنَ بوب مارتين خلال الزمن الذي عرفته فيه، فهذا عمل كريه وعبثيّ، لكنّها

قدّرت أنّهن يجب أن يكنّ ما بين الاثنتي عشرة والخمس عشرة امرأة في السنة. امرأة كلّ ثمانية عشر يوماً تقريباً، إذا لم يخنها الحساب. لم يكن مارتين انتقائيا جدّاً في هذا الجانب، فأي واحدة تغمزه بعينها يمكن أن تسرقه محفظته، لكن لم يكن هناك في لائحة صديقاته من يُشك بأنّهن قاتلات وما من واحدة نجحت في جعله يهمل عمله حتى ظهرت أياني. لا شكّ أنّه كان أمام بوب مارتين حواجز جدّية كعشيق، كانت تُفكر بِترا، إلا أنّه كشرطيّ كان نزيها دائماً، ليس عبثاً أنه وصل إلى القمّة في مسيرته المهنية في عمر مبّكر.

كانت المساعدةُ معجبةً بأياني كما يمكن أن تُعجب بسحليةٍ — فريدة، جذّابة وخطيرة– وتُدرك أنّ بعضهم سيُذهلون بها مُستسلمين، لكنّ هذا كان شيئاً لا يُغتفر بالنسبة إلى رئيس قسم جرائم القتل، يملك معلومات كافية، ليس كيلا يثق بها وحسب، بل وللقبض عليها أيضاً. في تلك اللحظة ذاتها التي كانت تهصر فيها إلسا دومينغث منديلا ورقياً في مكتبها، كان المفتّش مرة أخرى مع أياني، وربّما في الفراش الذي كانت تتقاسمه مع زوجها المقتول. كانت بِترا تتباهى بأنّ بوب مارتين ليس لديه أسرار معها، في جزء منه نتيجة إغفال وفي آخر نتيجة التباهي، كان يسرّه أن تعلم بمغامراته، لكنّه إذا كان يُريد أن يجعلها تغارُ فإنّه يُضيع وقته، بَتّت، وهي تنفخ أظافرها.

– هل أستطيع أن أُساعدك في شيء، يا إلسا؟

– بالنسبة لموضوع ابني هوغو... أنتِ رأيته في ذلك اليوم.

– نعم، طبعا. ما به؟

– وقع هوغو في مشاكل، لماذا سأنكر عليك، يا آنسة، لكنّه ليس عنيفا أبدا. هذا المظهر الذي له بسلاسله ووشومه هو موضة لا أكثر. لماذا تشكون به؟ –سألت إلسا مُجففة دموعها.

– بين أسباب أخرى، لأنّ ابنك ينتمي إلى عصابة سيّئة السمعة، ومفتاح السيّدة روسين بين يديه وليس لديه ما يُبرر .

- ماذا؟
- يُبرّر. ابنك لم يستطع أن يُثبت أنّه كان في سانتا روسا ليلةَ الجريمة.
- المسألة أنّه لم يكن هناك، لذلك لم يستطع أن يُثبته.

خبّأت بِّترا هور طلاءَ الأظافر في درج مكتبها وأخذت قلماً ومفكرة.

- أين كان؟ إثبات جيد يمكن أن تُنقذه من الذهاب إلى السجن، يا إلسا.
- أن يُسجن خير من أن يقتلوه، يبدو لي.
- من سيقتله؟ قولي لي فيما يعمل ابنك. تجارة المُخدِّرات؟
- لا، لا، فقط في الماريجوانا وقليل من المحفز البلوري.
- الثلاثاء كان في شيء آخر. لا أستطيع أن أتكلّم عن هذا. تعرفين ماذا يفعلون بواش؟
- عندي فكرة.
- أنت لا تعرفين ما سيفعلون به!
- اهدئي، يا إلسا. سنعمل على مساعدة ابنك.
- هوغو لن يفتح فمه، لكن أنا سأفعلُ، ما دام لن يعرف بذلك أحدٌ بأنّني أنا من مرّر المعلومة، يا آنسة، لأنّهم وقتها لن يقتلوه وحده بل سيقتلون كلَّ عائلتي.

قادت المساعدةُ إلسا إلى مكتبِ بوب مارتين، حيث كانت توجد سِرّية، ذهبت إلى آلة القهوة في الممرّ وعادت بكأسين وجلست لتستمع إلى اعتراف المرأة. بعد عشرين دقيقة من ذهاب إلسا دومينغِث هتفت لبوب مارتين من جوالها.

- اعذرني لأنّني اقطع عليك الاستجوابَ الحاسم مع امرأة مشكوك بها، يا مُعلم، لكن من الأفضل أن تلبس وتأتي سريعا. لدي أخبار لك — أخبرته.

الثلاثاء، 14

بعدٍ أربع وعشرين ساعة من إنهائه لعلاقته مع إنديانا، مرض ألان كِلِرْ وبقي أكثرَ من أسبوعين مضطربَ الأمعاء يعاني من إسهال عانى منه قبل عدة سنوات في رحلة له إلى البيرو، حين خاف أنْ تكون قد نزلت به لعنة من لعنات الإنكيين، لسطوه على كنوز سابقةٍ على اكتشاف أمريكا في السوق السوداء وإخراجها من البلد تَهريبا. ألغى التزاماته الاجتماعية، لم يستطِع أن يكتب نقده حول معرض متحف فرقة الشرف ليجيون أوف هونور— تعظيم الجمال في العصر الفيكتوري— كما أنّه لم يُوَدّع جِنِفْييف فانْ هوت قبل أن تغادر إلى ميلانٍ لحضور عِروض أزياءٍ الموسم. نزل وزنه أربعة كيلوغرامات وما عاد يُرى ممشوقا بل هزيلاً. لم تكن معدته تتحمّل إلا مرق الدجاج والهلام. كان يسير مُترنّحاً وصارت لياليه عذاباً بسبب الأرق إن هو لم يتناول منوّمات، أو الكوابيس المريعة إذا تناولها.

تركته أقراص الأدوية في حالة احتضار يرى فيها نفسَهُ في شرك ثلاثية جنّة الملذات لهيرونيموس بوش، التي فتنته في متحف البرادو في شبابه وحفظها بالتفصيل، لأنّها كانت موضوع أحد أفضل مقالاته لمجلة أمريكان أرت. هناك كان بين مخلوقات الهولندي الخيالية، مجامعاً حيوانات أمام نظرةٍ إنديانا العدائية، يعذبه مصرفِيُّهُ بشوكات، يلتهمُه أخواه شيئا فشيئاً، تُهَزّئه جِنفييف غائِصاً في غائطه، يبصق عقارب. عندما كان يزول تأثير الأقراص ويتمكن من الاستيقاظ كانت صور الحلم تلاحقه في النهار. لم يجد صعوبة في تفسيرها، كانت واضحة، لكنّه لم يستطِع أن يتحرَّر منها.

تَفَاجأ مئة مرّة بالهاتف في يدهِ ليهتف لإنديانا. واثقاً من أنّها ستهرع لنجدته، ليس لأنها غفرت له أو لأنّها تحبّه، بل لحاجتها الفطرية لمساعدة من يحتاجها، لكنّه نجح في كبح اندفاعه. لم يكن واثقاً من شيء، ولا حتى من أنّه أحبّها. قَبِلَ المعاناةَ الجسدية

كتطهير وغسل، وكان مشمئزاً من نفسه، من جبنه تفادياً للمخاطر، من فقره بالمشاعر، من أنانيّته. فحصَ نفسَهُ عميقاً وعلى انفراد، دون أن يستطيع أن يلجأ إلى طبيبه النفسيّ، لأنّ هذا كان في حجٍّ أديرةٍ قديمة في اليابان، ووصل إلى خلاصةٍ أنّه بدّدَ خمسةً وخمسين عاماً في ترّهاتٍ عاطفيةٍ، دون أن يلتزمِ عميقاً بشيء أو أحدٍ. انقضى الشباب دون أن يُدرك أيَّ نضجٍ عاطفيّ، فهو ما يزال يفحص سرّته مثل صبيّ بينما جسده يتآكل بلاً رحمة. كم من الحياة بقي له؟ لقد استنفد أفضل سنواتٍ عمره والباقي حتى ولو كان ثلاثين سنة، سيكون انحدارا حتمياً.

أعطى خلطُ مضاداتِ الاكتئاب والمنوّمات والمسكنات والمضادات الحيوية ومرق الدجاج في النهاية مفعوله وبدأ يستعيد عافيته. كان ما يزال يمشي مرتعشاً وطعم بيض فاسد في فمه، عندما استدعته عائلته لاتخاذ قراراتٍ، كما أعلموه. كان خبراً مشؤوماً، إذ لم يسبق أن استشاروه قطّ بشيء. صادف ذلك عيد القديس فالنتين، عيد العشّاق، الذي كرّسه خلال أربع سنوات لإنديانا والآن ليس عنده من يشاركه فيه. خمن أنّ الدعوة جاءت نتيجةً ديونه الجديدة، التي وصلت بطريقة ما إلى مسمع العائلة. على الرغم من أنّه كان يعمل بحذر، إلاّ أنّ أخاه علم أنّه أرسلَ لوحات بوتِرو إلى وراق مارلبورغ في نيويورك كي يبيعها. كان بحاجة للمال، لذلك طلب تقدير أسعار قطع اليشب واكتشف أنّ قيمتها أقلّ مما دفعه ثمناً لها، أمّا قطع الخزف الإنكية المنهوبة فلا كلام، لأنّ محاولة بيعها ستكون مخاطرة كبيرة جدّاً.

انعقدَ مجلسُ العائلة في مكتب أخيه مارك، في آخر طابق من بناء وسط الحيّ المالي بإطلالته البانورامية على الخليج، معبد بأثاث قويّ، سجاد وبريّ ولوحات حفر لأعمدة يونانية، رموز للصلابة المرمرية لمكتب المحامين ذاكِ، الذي كان يتقاضى ألف دولار عن الساعة. رأى والده فيليب كِلِرْ، مرتعشاً منكمشاً وخريطة من البقع

على جلده، مرتدياً ثياب قبطان يخت، ظلّ البطريرك المتسلّط الذي كانه ذات مرّة، ورأى أمّه، فلورا بتعبير دهشتها الذي لا يتبدّل، الناتج عادة عن الجراحة التجميلية، ببنطلونها الجلدي الملمّع، ومنديلها، ماركة هِرمز كي تخفي تجاعيد العنق ورنين أساور ذهبية لا ينتهي، وأخته لوثيل، الأنيقة، الهزيلة، التي لها وجه الجوع، مثل كلب أفغاني، يرافقها زوجها، الأبله الوقور، الذي لا يفتح فمه إلا كي يوافق، وأخيراً مارك، الذي يرتاح على كاهلِهِ، الذي لفرس بحرٍ، عبءُ سلالة ِكيلر الثقيل.

كان ألان يُدرك تماماً أنَّ أخاه الأكبر يكرهه: هو كانٍ طويلاً ووسيماً وله شعر قويّ، مرشوش بالشيب، يجذب النساء، لطيفاً ومثقفاً، بينما عاثر الحظ مارك كان من نصيبه الجينات المريعة لسلف له بعيد. لذلك كلّه كان مارك يكرهه، لكنّه يكرهه على وجه الخصوص لأنّه قضى حياته في زيادة ممتلكات العائلة بينما الشيء الوحيد الذي فعله ألان هو استنزافها، كما كان يُدمدم حين تأتي المناسبة.

في الصالة التي اجتمعت فيها العائلة حول طاولة فخمة من خشب الماهوغوني، مصقولة كمرآة، وتطفو في جوّها رائحة صنوبر مُلطف جوّ وعطر السيّدة كِلرْ النافذ، الذي قلبَ معدة ألان. وتفاديا للشكّ بموقعه في العائلة جلس مارك على رأس الطاولة على كرسيّ كبير عالي الظهر وأمامه عدد من الأضابير، وأجلس البقية على كراس أقلّ مأساوية على جانبي الطاولة أمام قناني ماء معدني صغيرة. فكر ألان أنّ السنين والمال والسلطة أبرزت عند أخيه مظهرَ القرد، وأنّه ما من خيّاط، مهما كان ممتازا يمكن أن يخفيه. كان مارك الوريث الطبيعي لعدة أجيال من الرجال الذين يملكون نظرة مالية وقصر نظر عاطفيّ، الذين كانت القسوة والصلف تترك بصماتها على وجوههمّ تجاعيدَ سوءِ مزاج وتجهّم عجرفةٍ دائمة.

في طفولته عندما كان يرتعد أمام أبيه وكان ما يزال مُعجباً بأخيه الأكبر، أرادَ ألان أن يكون مثلهما، لكنّ هذه الفكرة اختفت في

المراهقة، ما إن أدرك أنّه مجبولٌ من مادة مختلفة وأنبل. قبل سنوات وفي حفلة السمر التي احتفل فيها آل كِلِرْ بسبعينية فلورا، استغلّ ألان أنّها شربت أكثر من اللازم وتجرّأ على أن يسألها عمّا إذا كان فيليبّ كِلِرْ أباه حقيقةً. "أستطيع أن أؤكد لك أنّك لستُ مُتبنّى، يا ألان، لكنّني لا أتذكر من يكون أبوك"، أجابته أمُّه، بين فواقاتٍ وضحكاتٍ صغيرة مكبوتة.

كان مارك ولوثيل، السئمان من تحمّل نزوات صغير العائلة، قد اتفقا، قبل الاجتماع، على أن يشدّا مَلاوي ألان بشكلٍ نهائي -لم يُدْعَ الوالدان إلا لزيادة حجم الحضور- لكنّ القرار ضعف أمام الحالة المحزنة التي حضر فيها هذا، شاحباً، أشعثَ الشعر ودراكوليّ الأذنين.

- ما بكَ، هل أنت مريض؟ -نبح عليه مارك.
- التهاب كبد -أجاب ألان، كي يقول شيئاً ولأنّه يشعر بسوء حاله.
- هذا ما كان ينقصنا! -صاح أخوه رافعاً ذراعيه إلى السماء.

لكن وبما أنّ الأخوين لم يكونا عديمي ضمير تماماً، فقد كفاهما تبادل نظرةٍ ورفعُ حاجبٍ أيمن وهو تشنج عضلي في العائلة كي يقرّرا تلطيف إستراتيجيتهما قليلاً. جاء الاجتماع مهيناً بالنسبة إلى ألان، لم يكن من الممكن إلا أن يكون كذلك. بدأ مارك بالتفريج عن نفسه، متهماً إيّاه بأنّه علقة، لعوب، عالة، يعيش مما يقترض، بلا أخلاق عمل ولا كرامة ويحذّره من أنّ صبرَ وموارد العائلة وصلت إلى حدِّها. "كفىً"، قال بنبرة حاسمة وضربة بليغة من كفه على الأضابير. اتهاماته، التي تخلّلتها تدخلات مناسبة من لوثيل، دامت قرابة العشرين دقيقة، فهم ألانْ خلالها أنّ الأضابير تحتوي على تفصيلِ كلِّ سنتيمٍ بدّده، كلِّ قرض استلمه، كلِّ تجارة خائبةٍ مرتّبة ترتيباً تاريخياً وموثّقةٍ بحسب الأصول. لعقودٍ بقي ألانْ يُوَقع سندات ائتمان، مقتنعاً بأنّها مجرّد شكليات وبأنّ مارك سينساها بالطريقة ذاتها التي كانت تنمحي بها من ذاكرته. استهان بأخيه.

عـرض مـارك كِلِّـرْ في القسـم الثـاني مـن الاجتمـاع الشـروطَ الـتي ارتجلها مع لوثيل في الاتفاق الصامت للحاجبين المرفوعين. بـدل أن يُصرّ على أن يبيع ألان كرم العنب كي يُهَـدِّئ مدينيـه، كمـا كانـت الخطّة الأصليّة، اعترف أنّ قيمة العقار انخفضت بشـكل كـبير منـذ الانهيار الاقتصادي في عام 2009 وكانـت تلـك اللحظـة غـير مواتيـة لبيعه. بالمقابل طالب بأن يكون شريكاً كـي يُخـرج ألانْ مـن ضـوائقه للمرّة الأخيرة. على ألانْ أن يُسدِّد قبلَ كلّ شـيء ديونـه الضـرائبية، التي يمكن أن تؤدي به إلى السجن، وهـو مَـا سـيكون فضـيحة غـير مقبولةٍ على الإطلاق بالنسبة لآل كِلِرْ. أعلن مارك على الفورِ عن النيّة بالتخلص من ملكية وودسايد وهو ما فاجأ فيليب وفلورا كِلِرْ، اللـذين لم يملكا الوقت للقيام بردّ فعل كي يحتجّـا. شـرح مـارك أنّ هنـاكٍ مؤسسة مالية ترغب بإشادة برجين سكنيين علـى تلـك الأرض ونظـرا للوضع المتدهورِ لسوق العقارات الثابتة، لا يستطيعون أن يرفضوا هـذا العرض السخيّ. أصغى ألان، الذي حاول لسنواتٍ طويلة أن يتخلصَ من ذلك البيت الكبير المتهالك ويضعَ في جيبه حصّته منه، واقفاً أمام النافذة الكبيرة وهو يتأمّل الخليج بلامبالاة كاذبة. 230

التقط خروف العائلة الأسود تماماً الاحتقار والحقد العميقين اللـذين كان يكنّهما له أخواه وكذلك أبعاد إدانته: كانا يُهمشـانه عـن العائلـة، وهـو مفهـوم جديـد وأكيـد. كانـا يسـلبانه موقعَـهُ، رغـدَهُ الاقتصـاديَ، تأثيراتِهِ، ارتباطاتِهِ وامتيازاتِهِ الاجتماعيـة، ويبعدانـه بدفعـةٍ واحـدة إلى العيدان السفلى من حظيرة الدجاج الاجتماعية. خسر في ذلـك الصبـاح، وفي أقلّ من ساعة ومن دون أن يتخللـها كارثـة، مثـل حـرب كونيـة أو اصطدام نيزك صغير، ذلك الشيءَ الذي كان يُقَدّرُ أنّه حقه بالولادة.

لاحظ ألانْ، مستغرباً، أنّه كـان يشـعر بـبعض الفضـول، بـدل أنٍ يكون غاضباً من أخويه، أو قلقاً على مستقبله. كيـف سيصـبح جـزءا من الكتلة البشرية الهائلة التي تُسميها جنِفييـف بالنـاسِ القبـيحين. تذكر اقتباساً استخدمه هو نفسه في أحد مقالاتـه، مشـيرا إلى شـخصٍ طامح لأن يصبح فناناً، واحد من أولئك الذين يملكـون طموحـا كـبيراً

وموهبةً قليلة: كل واحد تأتيه لحظة يدركُ فيها مستوى قصوره. خطر له أن عليه عندما يخرج من مكتب أخيه أن يعتمد على نفسه ويهبط غصباً عنه إلى مستوى قصوره ذاته.

بالخلاصة كان مُدمّراً. فبيع وودسايد قد يتأخر زمناً، وعلى كلّ الأحوال لن يصيبه منه شيئا، لأنّ عائلته ستخصم المالَ الذي منحته له على امتدادِ حياته، وهو ما كانٍ يسميه دِفعات مقدّمة من إرثه، لكنّ بقية عائلة كِلرْ تسميه قروضا. لم يتوقف قط عند حسابِ تلك الديون، لكنّها كانت مؤبّدة في تلك الأضابير التي كان مارك يسحقها في تلك اللحظة بيده، يدِ البنّاء الغليظة. افترضَ أنّ سيتدبّر حياته من بيع أعماله الفنّيةِ، وإن كان من الصعبِ أن يُقدر كم من الزمن ستكفيه، لأنّه أيضاً ليس عنده حساب لنفقاته. بشيءٍ من الحظ سيحصل على مليون ونصف دولاراً من أعمال بوترِو، آخذاً بالاعتبار عمولة رواق الفن، فقد كانٍ الرسامون الأمريكيون اللاتينيون دارجين، لكنّ ليس من المناسب أبدا البيع في ضائقة، كما كان حاله. كان مدينا بكثير من المال للبنوكٍ —كانٍ كرم العنب نزوة باهظة الثمن—، وإلى دائنين آخرين صغارا، بدءا من طبيب أسنانه إلى اثنين من بائعي الأثريات، دون أن يحسب بطاقة الاعتماد. كم يبلغ كلّ هذا؟ ليسٍ لديه أدنى فكرة. وضّح له كلارك أنّ عليه أن يخلي وودسايد فورا، وذلك البيت الذي كان حتى ساعة خلت يكرهه، صار الآن يحنّ إليه. فكر، مذعنا، أنّه على الأقل لن يمرّ بذل أن يطلب مأوى من أشخاص آخرين، يستطيع أن يقيم في كرم نابّا لبضعة أشهر، إلى أن يستولي عليه مارك.

قبّلَ خدودَ أمّهَ ولوثيل وودّعَ أخاه وأباه بربتات على الظهر. تبيّن آلانْ أنّ الشتاء في تلك الساعة الحاسمة قد تراجع وأن شمسَ طقوس أخرى تلمع فوق سان فرانسيسكو. ذهبَ إلى كلوك بار في فندق وستينٌ سان فرانسيس ليتناول كأس وسكي، الأوّل منذ أن وقعٍ في المرض، كان بأمسّ الحاجة إليه؛ أنعشه الكحول، قاشعاً شكوكاً ومخاوف. سرّح شعره بأصابعه، كان سعيداً أنه يملك شعرا بهذه الجودة وسوّى

كتفيه، نافضاً ثقلاً رهيباً عن كاهله، لأنّه ما عاد تابعاً لأخويه، لقد انتهت بهلوانية بطاقات الاعتماد، الهوس بالحفاظ على المظاهر وواجب السهر على احترام كنيته. انهارت قلعته الورقيّة وها هو يمضي ليشكلَ جزءاً من الكتلة، لكنّه صار حرّاً. شعر بنفسه منبسطاً، خفيفاً وأكثر شباباً. وحدها إنديانا كانت تنقصه، لكنّها أيضاً صارت تنتمي إلى الماضي، إلى ما حملته العاصفة.

الخميس، 16

تلقى بلاك جاكسون مكالمةَ حفيدته قبل الظهيرة. كان في الصيدلية واضطُرّ لأن يترك ما كان يفعله في تلك اللحظة –كان يعدّ كبسولات لوصفة– لأنّ نبرة أماندا كانت مُقلقة.

- ألستِ في الدرس في هذه الساعة؟ –سألها، قلقاً.
- أكلّمك من الحمّام. في منطقة برادلي –قالت هي وأحسّ بالجهد الذي كانت تبذله كيلا تبكي.
- ماذا جرى؟
- عنده خطيبة، يا جدّي! –ولم تستطع أن تتفادى الانتحاب.
- أي، يا رائعتي! كم أنا آسف... كيف عرفت؟
- أنزله في الفيسبوك، أي أنّه يخونني أوّلاً، ثم سرعان ما يسخر منّي جهاراً. أيضاً أنزل صورة، الوغدة مثله، بطلةٌ في السباحة، لها ظهرُ رَجُل ووجه شريرة. ماذا سأفعل، يا جدّي.؟
- لا أعرف يا أماندا!
- ألم يحدث معك شيءٌ من هذا أبداً؟
- لا أتذكّر. هذه الأشياء تُنسى.
- تُنسى! أنا لن أغفر أبداً لبرادلي. أرسلتُ له رسالة أُذكّره فيها بأنّنا كنّا سنتزوّج ولم يردّ عليّ. لا بدّ أنّه يُفكّر بالعذر الذي

سيقدّمه لي، الرجال جميعهم خائنون، مثل ألان كِلِّرْ وأبي. لا يمكن الوثوق بأحدٍ منهم —قالت الصغيرة باكية.

- أنا لست كذلك، يا أماندا.
- لكنّك عجوز. —صاحت الحفيدة.
- طبعاً يمكن الوثوق بالرجال، الغالبية منهم محتشمون. أبوك عازب، أعني مُطلق وليس مديناً بالوفاء لأحد.
- هل تعني أنّ برادلي عازب أيضاً وليس مديناً لي بالوفاء، على الرغم من أنّنا كنّا سنتزوّج؟
- بالنسبة لي يبدو أن موضوع الزواج هذا لم يكن مُقرَّراً، يا رائعتي! ربّما لم يكن برادلي يعرف أنّك كنتِ تُفكّرين بالزواج منه.
- لا تتكلم بصيغة الماضي، ما زلتُ أفكر بالزواج منه. انتظر حتى أذهب إلى معهد ماساشوست التكنولوجي لأمحو هذه التافهة عن الخريطة.
- هكذا يتكلم الإنسان، يا أماندا

بكت حفيدته لدقيقتين، بينما هو ينتظر على الهاتف دون أن يعرف كيف يواسيها، سمعها بعد ذلك تمخط بصوت عالٍ.

- عليّ أن أعود إلى الصفّ —تنهّدت أماندا.
- أعتقد أنّها ليست اللحظة المواتية تماماً للحديث عن التشريح. سأهتف لك هذه الليلة —قال بلاك.
- أيّ تشريح؟
- تشريح راشيل روسين. يعتقد الطبيب الشرعي أنّ القاتل حقنها مُخَدّراً لأنّ هناك ثقباً في الفخذ الأيسر من جسدها. كمّمها بعد ذلك ثمّ خنقها أو بالأحرى شدّ على عنقها بخيطِ صيدِ سمك ومِلوى ثم علّقها أخيراً إلى المروحة.
- الأمر مقعّد قليلاً، ألا ترى ذلك، يا كابل؟
- بلى. في فحص التسمم حدّدوا المُخَدِّر، يُسمى فِرسِد، له استخدامات كثيرة، فهو يفيدُ، بين أشياء أخرى، في تهدئة المرضى

قبل إجراءِ العملية، بحسب الجرعة التي يعطونها لهم. عملياً يبدو أن روسين فقدت وعيها تماماً خلال دقائق قليلة.

- مهمّ –علّقت الحفيدة، التي بدا أنّها تعافت من صدمة الغرام.
- عودي إلى صفك، يا رائعتي. هل تُحبّينني؟
- لا.
- وأنا أيضاً.

الجمعة، 17

كانت إنديانا قد حضَّرت نفسها لجلسة الأسبوع ما قابل الأخيرة، بقطرتَيْن من خلاصة الليمون على معصميها، تُساعدانها على تركز عقلها وكانت قد أشعلت عوداً من البخور صغيراً أمام الإلهة شاكتي طالبة منها أن تلهمها الصبر. كان واحداً من تلك الأسابيع التي تحتاج فيها غاري برونسفيك للعلاج وعليها هي أن تُغَيّر برنامجها مع مرضى آخرين كي تتدبره في جدول أعمالها. في الأيام العادية كانت تتعافى من جلسة صعبة بحبّتين أو ثلاث حبّاتِ شوكولاتة سوداء أو، لكنّ هذه فقدت، منذ أن أنهتْ علاقتَها بألان كِلرْ، فاعليتَها المُجدّدة للطاقة وصارت منغصات الحياة، مثل برونسفيك، بحاجة لشيء أقوى من الشوكولاتة.

لم يأتِ برونسفيك في أوّل مرّة إلى عيادتها بنوايا مُقنَّعة، مثل رجال آخرين كانوا يَظهرون بذريعة أمراض مُتخيَّلة ليجربوا حظهم معها. تعرّضَت إنديانا إلى محن مع بعض منهم راحوا يتبخترون عراة على أمل أن يدهشوها، إلى أن تعلمت كيف تتخلص منهم، دون أن تُعطيهم وقتاً ليتحوّلوا إلى تهديد، لكنّها اضطرّت في مرّات نادرة إلى أن تطلب مُساعدة ماتيوس بِّريْرا. كان الرسام قد وصل جرساً تحت طاولة التدليك كي تستدعيه حين لا تستطيع أن تسيطر على الوضع.

أكثر من واحدٍ من أُولئك المتجرّئين عاد نادماً ليطلب منها فرصةً ثانية، كانت هي ترفض منحها له، لأنّها كي تشفيه عليها أن تُركز، فكيف ستفعل ذلك وقضيبه يُسدّد عليها من تحت الملاءة. لم يكن غاري برونسفيك من هؤلاء، وصل مرسلاً من جوميكو ساتو، الذي كانت إبره عجيبة لشفاء جميع الأمراض تقريباً لم تستطع أن تشفيه من آلام الرأس العنيدة، وهكذا أرسله إلى جارته في المكتب رقم 8.

وبما أن برونسفيك لم يسبق أن رأى إنديانا فوجئ عندما فتحت له الباب ووجد نفسه أمام فالكيريا متنكرة في ممرضة، مختلفة جدّاً عن الشخصية المتصوّرة. هو لم يكن يتوقع أن تكون امرأة، فقد كان يظنّ أن إنديانا اسم رجل، مثل إنديانا جونز، بطل أفلام مراهقته. كان قبل أن ينهي الجلسة الأولى غارقاً في سيل من العواطف الجديدة التي يصعب التحكم بها. كان يفتخرُ بأنّه رجل بارد، يتحكّم بأفعاله، لكنّ قربَ إنديانا، الأنثى الدافئة والعطوفة، احتكاك يديها القويّتين والمزيج الحسّي للروائح الزكيّة في العيادة جرّدته من أسلحته وكان خلال الساعة التي دامتها الجلسة في السماء. لذلك كان يعود كمتضرّع، ليس لكي يُشفى من الشقيقة الرغبة في العودة ليعيش تجربة نشوة الجلسة الأولى، التي لم تتكرّر قط بالكثافة ذاتها. في كلّ مرّة كان يحتاج إلى المزيد، مثل مُدمِن.

كان خجله وارتباكه يمنعانه من أن يُعَبِّر لإنديانا عن مشاعره بصراحة، لكنّ تلميحاته راحت تزداد خطورة في تكرارها. لو كان رجلاً آخر لصرفته إنديانا دون تفكير، لكنّ هذا بدا لها من الهشاشة، على الرغم من حذائه، الذي لمقاتل وسترته الطويلة التي لفحل إلى حدٍّ أنّها كانت تخاف أن تجرحه بشكل قاتل. كانت قد حدّثت عنه بشكل عابر ألان كِلِرْ، الذي سبق أن رأى برونسفيك في مناسبتين. ولماذا لا تتخلصين من هذا السرعوب الكئيب؟" كان جوابه، لهذا السبب بالضبط لا تستطيع أن تفعل، لأنّه كان مُثيراً للشفقة.

مضت الجلسةُ بأفضل مما توقّعت، لاحظت إنديانا أنّه كان متوتّراً في البداية، لكنّه سرعان ما استرخى عندما بدأت تُدلّكُهُ، وبقي الدقائقَ العشرين التي كرّستْها للريكي نائماً. اضطرّت عندما انتهت لأنّ تهزّه قليلا كي يصحو. تركته لوحده كي يرتدي ملابسه وانتظرته في صالة الاستقبال الصغيرة حيث نفد البخور، لكن بقيت فيها رائحة معبد آسيوي. فتحت الباب على الممرّ كي تُهوّيها تماماً في اللحظة التي وصل فيها ماتيوس بِرِيْرا ليُسلم عليها، ملطخاً بالطلاء، حاملا نبتة في أصيص، جاء بها هَديّة لها. كانت أيّام الرسام تمرّ بين تهويمات الماريجوانا الطويلة ونوبات الإبداع في الرسم، لم تكن تؤثّر على قدرته على الانتباه: لا شيء كان يفوتُه مما يحدث في نورث بيث وخاصّة في عيادات الطب البديل، التي كان يعتبرها بيته. قام الاتفاقُ الأصلي مع مالك العقار على الإبقاء عليه مطلعا على ذهاب وإياب المستأجرين مقابل عِلاوَةٍ والعيش مجاناً في الملحق، لكن وبما أنّه نادراً ما كان يحدث شيء جدير بالملاحظة، راح التزامه مع الصيني يتلاشى. تحوّلت عادة تجوالِهِ في الطوابق ووضع المراسلات في صناديقها، وتلقي الشكاوى والاستماع إلى المسارات إلى صداقات مع شاغلي البناء، عائلتِهِ الوحيدة وخاصّة إنديانا ويوميكو اللذين كانا يُخففان من آلام عرق النساء عنده بالتدليك ووخز بالإبر على التوالي.

لاحظ بِرِيْرا أنّ حانوتٍ بيع الأزهار الياباني لم يُسَلم إكبانا أيام الاثنين، واستنتج أنّ شيئاً ما حدث بين إنديانا وعشيقها. مؤسف، فكر، فكِلِرْ كان شخصاً مُثقفاً يعرف بالفنّ، ويمكن أن يشتري منه في أيٍّ يوم عملا، ربّما واحداً من الأعمال الكبيرة، مثل مذبح الماشية، المستوحى من عمل سوتين الرائع الحيوانات منزوعة الأحشاء. طبعاً إذا كان كِلِرْ قد تبخّر، سيستطيع أن يدعو إنديانا إلى ملحقه ليُدَخِّنا قليلاً ويمارسا الحبَّ قليلا، وهذا لن يُعرِّض إبداعَهُ للخطر، طالما أنّه لا يتحوّل إلى عادة. الحبّ الأفلاطوني مملّ قليلا. قبلت إنديانا النبتة التزيينيّة بقبلةٍ خجولة وودّعته بسرعة، لأنّ زبونها، الذي ارتدى ملابسه ظهر.

اختفى ماتيوس بّريْرا في الممر، بينما كان برونسفيك يدفع نقداً عن جلستي ذلك الأسبوعِ، دون أن يقبَلَ، كما كان يفعل دائماً، وصلَ استلام.

- من الأفضل لهذه النبتة أن تكون بعيدة عن زبائنك، يا إنديانا. هي ماريجوانا. هل يعمل هذا الشخص هنا؟ رأيته عدّة مراتٍ.
- إنّه رسام ويعيشٍ في الملحق. لوحات صالة الاستقبال له.
- تبدو لي مريعة، لكنّني لا أعرف بالفن. غداً عندهم خنزير في مقهى روسيني... لا أعرف... نستطيع أن نذهب، طبعاً إن شئتِ — تلعثم برونسفيك ونظره بالأرض.

لم يكن هذا الطبق يظهر في قائمة أطباق المقهى، وكان يُقَدّم فقط للزبائن المعتادين، الذين كانوا على معرفة بالسرّ وبما أنّ برونسيفك نجح في فترة قصيرة في أن يكون واحداً منهم برهن عنٍ صميمه: قبل في نورث بيث. الآخرون كان سيتطلّب هذا منهم عقوداً. كان صاحب المحل يخرج بين الحينِ والآخر للصيد في محيط مونتري ويعود بجثّة خنزير جبلي، يُقَطّعُهُ بنفسه في المطبخ، وهي عملية فظيعة، ويُعِدُّ بين ملذات أخرى أفضلَ سجق في التاريخ، المكوّن الأساسي هو لحم الخنزير البرّي. كانت إنديانا قدَ ارتكبت قبل أسبوع خطأ قبول دعوةِ غداء من برونسفيك وقضت ساعتين أبديتين في الصراع كي تبقىَ مستيقظة بينما هو يعطيها محاضرة حول التشكلات الجيولوجية وفالِق سان أندرس. لم تكن تُفكّر بتكرار التجربة.

- لا، شكراً، يا غاري. سوف أمضي نهاية الأسبوع مع أسرتي. لدينا الكثير مما نحتفل به، فقد قبلوا أماندا في معهد ماساشوسيتس التكنولوجي، مع منحة بنصف قيمة التسجيل.
- ابنتك، لا بدّ عبقرية.
- نعم، ولكنَّكَ فزت عليها في برتية الشطرنج —علّقت إنديانا بلطف.
- في مرّات أخرى فازت عليّ.

- ماذا؟ هل عدت ورأيتها؟ -سألت هيٍ مستنفرة.
- لعبنا من حين لآخر عبر الإنترنيت. علمتني لعبة الغو، وهي أصعب من الشطرنج بكثير. هي لعبة صينية عمرها أكثر من ألفي عام...
- أعرف ما هي الغو، يا غاري -قاطعته إنديانا، دون أن تُخفي انزعاجها؛ فهذا الرجل راح يتحوّل إلى وباء.
- تبدين غاضبة. هل حدث شيء؟
- لا أسمح، يا غاري، لابنتي بأن تُقيم علاقة مع زبائني. أطلب منك، رجاءً، ألا تستمرّ بالتواصل معها.
- لماذا؟ أنا لست فاسقاً!
- لم أفكّر بهذا قط، يا غاري - قالت إنديانا، متراجعة إلى الوراء، وقد فاجأها أن يكون هذا الشخص الهيّاب جدّاً قادراً على أن يرفع صوته في وجهها.
- أتفهّم أنّ عليكِ كأمّ أن تحمي ابنتك، لكن ليس هناك ما تخافينه منّي.
- بالطبع. لكن على كلّ الأحوال...
- لا أستطيع أن أتخلّى عن التواصل مع أماندا من دون توضيح -قاطعها برونسفيك. على الأقل عليّ أن أكلمها. بل وأكثر، إن سمحتِ لي، أريد أن أقوم تجاهها بالتفاتة. ألم تقولي لي إنّ الطفلة تريدُ قطّة؟
- أنت لطيف جدّاً، يا غاري، لكنّ أماند صار عندها قطّة واسمها أنقذ التونا، أعطتها لها صديقة لي، كارول أندرووتر، ربّما رأيتها هنا.
- إذاً عليّ أن أُفكّر بهديّة أخرى لأماندا.
- لا، يا غاري، ولا بشكل من الأشكال، سوف نقصر علاقاتنا على الجدران الأربعة لهذه العيادة. لا تستأْ، ليس في هذا أيّ شيء شخصيّ.
- لا يمكن أن يكون أكثر شخصية، يا إنديانا. تراكِ لا تعرفين ما أحسّ به تجاهك؟ -ردّ برونسفيك دفقاً، محمرّاً خجلاً وبتعبير المسحوق.
- لكنّنا لا نكاد نعرف بعضنا، يا غاري!

- إذا كنتِ تريدين أن تعرفي عنّي أكثر، اسأليني، فأنا كتاب مفتوح، يا إندينا. أنا عازب، بلا أولاد، مُنظم، عامل، مواطن صالح، رجل محتشم. من المبكر أن أحكي لك عن وضعي الاقتصادي، لكنّني أستطيع أن أستبق وأقول لك بأنّه ممتاز. في هذه الأزمة كثير من الناس فقدوا ما كان معهم، لكن أنا بقيت عائماً بل وربحتُ، لأنّني أعرفُ سوق القيمة جيّدا لي سنوات وأنا أستثمر...

- لا علاقة لهذا بي، يا غاري.

- فقط أطلب منك أن تأخذي بالاعتبار ما قلته لك، سأنتظر أيّ شيء، يا إنديانا.

- خير لك أن تتخلى عن الموضوع. كما أنّ من الأفضل لك أن تبحث عن مُعالِجة أخرى، فأنا لا أستطيع الاستمرار بمُعالجتك، ليس فقط بسبب ما قلته لي توّاً، بل أيضاً لأنّ معالجتي كانت ضعيفة الأثر.

- لا تفعلي بي هذا، يا إنديانا، وحدك من يستطيع أن يشفيني، بفضلك صارت صحّتي أفضل بكثير. لن أزعجك ثانية بمشاعري، أعدك.

بدا من القنوط بحيث لم تسعفها الشجاعةُ للإصرار على قرارها وحين رآها برونسفيك متردّدة استغلّ ذلك وودعها حتى يوم الثلاثاء القادم، كما لو أنّه لم يُسجّل شيئاً مما قاله ومضى بسرعة.

أغلقت إنديانا الباب من الداخل بالمفتاح، شاعرة بأنّها مُسْتَغَلّة مثل مُستجِدّة. غسلت وجهها ويديها كي تزيل عنها الغضب، مُفكّرة بحنين بجاكوزي فندق ميرمونت. آه، على الماء المُعطر، المناشف القطنية الكبيرة، النبيذ البارد، الطعام اللذيذ، مداعبات ومزاج وحب ألان كِلّرْ الحكيمة. وذات مرّة بعد أن شاهدت كليوباترا في التلفزيون. ثلاث ساعات من المصريين الضامرين بعيونهم المطلية والرومان القساة بأرجلهم الحسنة، علّقت هي قائلة إنّ أفضل ما في الفيلم كان حمام الحليب. قفز ألان كِلّرْ من سريره، ارتدى ملابسه وخرج دون أن يقول

كلمة ثم عاد بعد نصف ساعة، حين كانت على وشك أن تنام بثلاث علب حليب مُجفف، حلّها في مياه الجاكوزي الساخن كي تبتلّ مثل فرعونة هوليوود. أضحكتها الذكرى وتساءلت وكماشة ألم تمسكها من صدرها، ماذا ستفعل كي تعيش من دون هذا الرجل، الذي طالما أمتعها وإذا ما توصّلت إلى أن تحب ريان ميلرْ كما أحبّت ألان.

كانت الجاذبية الجسدية التي تشعر بها تجاه الجنديّ السابق كانت من القوّة بحيث أنها فقط تستطيع أن تقارنها بتلك التي أحدثها عندها بوب مارتين في المدرسة الثانوية. كانت كالحمّى، حرارة متواصلة. راحت تتساءل كيف استطاعت أن تتجاهل أو تُقاوِمَ تلك الرغبة الجنسيّة المهيمنة، التي لا شكّ كانت موجودة منذ زمن، وكان الجوابُ الوحيدُ الممكن أنّ كفّة حبِّها لألان كِلرْ كانت راجحة. كانت تعرفُ طبعَها، تعرفُ أنّها لا تستطيع أن تُحبّ بجدية شخصاً وتنام ببساطة مع آخر، لكنّها بعد أن مرّت مع ريان بذلك الفندق الصغير، الذي ساطته العاصفة فهمت بشكل أفضل من يستسلمون لجنون الرغبة.

خلال الاثني عشر يوماً التي مضت منذ ذلك الوقت رافقت ريان كلّ ليلة باستثناء السبت والأحد اللذين قضتهما مع أماندا وراحت تنتظر في تلك اللحظة بالذات، حين لم تكن قد عالجت بعدُ آخر زبائنها، مُتَلَهِّفةً لعناقه في شقّته حيث أتيلا المستسلم ما عاد يُعَبِّرُ عن امتعاضه بالنباح. كانت تُفكّر مسرورة ببساطة المكان المتقشفة، بالمناشف الخشنة، بالبرد الذي كان يُجبرها على ممارسة الحبّ بالقميص والجوربين الصوفيين. كانت تحبّ حضور ريان الذكوريّ الهائل، القوّة المشعّة، موقفهُ، موقف المحارب البطل الذي يصير بين ذراعيها رقيقاً. أيضاً كانت تُحِبّ بطريقة ما سرعة الفتى الطائش عنده، الذي كانت تعزوه إلى أنّ ريان لم يملك حبّاً ذا معنى، وأنّ أحداً أخذ على عاتقه أن يُعَلِّمه إمتاعَ امرأة. سيتغيّر هذا –رجّحتْ–

ما إن تهدأ إثارةُ الحبّ الجديد، المُفتَتَح توّاً ويملك فرصةً أن يسبر نفسه بلا عجلة. كان هذا أمل مريح. كان ريان رجلاً مدهشاً، أكثر عذوبة وعاطفية مما تصوّرته، لكن كان ينقصهما التاريخ المشترك، كلّ العلاقات تحتاج إلى تاريخ، سيكون هناك وقت ليتعارفا بشكلٍ أفضل وينسيا ألان.

رتّبت غرفة التدليك، جمعت الملاحفَ والمناشفَ وحضّرَت نفسَها لآخر جلسة في الأسبوع، الكلب، زبونها المُفَضَّل، الأكثر تحناناً، حيوان بلون السكر المحروق، عجوز ومشعر، كان يستسلم لمعالجتها بامتنان جليّ. وبما أنّه كان لديها بضع دقائق بحثت في أرشيف برونسفيك، حيث لا تُذكرُ للأسف ساعةُ ميلاده، لأنّها كانت ستُفيدها في قراءة برجهِ ودقت رقم تِلِسْتِ روكو كي تأخذ منها رقمَ التيبيتي الذي كان يُنظف الكرما.

السبت، 18

قرع بدرو ألاركونٍ وريان ميلّر وأتيلا في أعقابهما جرسَ إنديانا في الثامنة والنصف تماماً من ليلة السبت، يتبعهما على بعد خطوات ماتيوس بّريْرا، يوميكو ساتو ورفيقة حياته، نانا ساساكي. إنديانا، التي جمعتَهم بناءً على طلب داني دانجِلو، استقبلتْهم بفستان حرير أسود وحذاءٍ بكعب عال، هدية ألان كِلر في المرحلة التي كان يُحاولَ أن يُحوّلها إلى سيّدة، أثّارت صفيرَ إعجابٍ من الرجال. لم يروها قط بمثل تلك الأناقة وذلك اللون، فهي كانت تعتقد أنّ الأسودَ يجذبُ الطاقةَ السلبية وتستخدمه بحذر. شمّ أتيلاً، مستمتعاً، مزيجَ خلاصات الزيوت التي كانت تُضمخُ الشقّة. كان الكلبُ يكرهُ الروائحَ الصناعية، لكنّه يستسلِم للروائحِ الطبيعية، وهذا ما يُفسّر نقطةَ ضعفه تجاه إنديانا، التي كان يُميّزها من بين الكائنات البشرية كلها. قنص

ميلّر إنديانا وقبّلَ فمَها بملءِ فمه، بينما تظاهر المدعّوون الآخرون بعدم الانتباه، فتحت المُضيفةُ بعدها زجاجةَ بريموس، مزيج ناعم من نبيذِ عنب كارمِنِر وكابرنِت[18]، هي أيضاً هدية من كِلّرْ، ذلك أنّه لم يكن باستطاعتها أن تسمح لنفسها بزجاجة نبيذ تُكلّفها أكثر من سعر معطفها الشتويّ وصبّت لميلّرْ مياهَهُ الغازية المُفضّلة. كان جنديّ النخبة يَتبجّحُ في السابق بأنّه خبير بالنبيذ، ثمّ وبعد أن ترك الشراب أصبح ذوّاقةَ كوكاكولا، التي يُفضّلها في زجاجات صغيرة – وليس أبداً في علبٍ – مستوردة من المكسيك، لأنّها تحتوي على سكر أكثر، ومن دون ثلج.

كان داني قد دعا إنديانا في اليوم السابق إلى استعراض يومَ السبت. كان الأمر يتعلّق بمناسبة خاصّة، لأنّه في يوم ميلاده وخصّتْهُ صاحبةُ المحلّ، كتكريمٍ لسنوات عمله على الخشبة، بالدور الرئيسي، الذي حضّره بدقّة "بماذا سيفيدني أن أكون نجم العرض، إذا كان لا يهمّ أحداً. تعالي وشاهديني، يا إندي وأحضري معك أصدقاءك كي يُصفقوا لي." وبما أنّ داني أخبرها متأخّراً، لم يسعفها الوقت كي تَسوق معها حشداً، كما كانت ترغب واضطُرّت لأن تكتفي بأولئك الأصدقاء الأوفياء الخمسة. جميعهم ارتدوا ملابسهم لتلك المناسبة، بمن فيهم ماتيوس، الذي كانٍ يرتدي بنطلون جينزه الأبديّ الملطخ بالطلاء، لكنّه ارتدى قميصاً مُقلّماً ومنشّى ووضع منديلاً على رقبته. في نورث باث كان هناك إجماع عامّ على أنّ الرسام البرازيليّ كان أوسمَ الجيران وكان هو يعرف ذلك. كان فارعَ الطولِ ونحيلاً، له وجهٌ حفرته التجاعيد العميقة، كما لو بإزميل، وعينا قطّ خضراوان– صفراوان، وشفتان شهوانيتان وشعر أجعد في ضفائر أفريقية دقيقة. كان يلفت الانتباه كثيراً حتى أنه كثيراً ما كان السياح يستوقفونه في الشارع كي يتصوّروا معه، كما لو أنه تحفة محليّة.

---

[18] نوعان من العنب الفرنسي.

كان ياميكو ونانا قد عرفا بعضهما في الطفولة في حيّ إيواتِ في اليابان، سافرا في وقت واحد إلى الولايات المتحدة. كان عاشا وعملا معاً واختارا أن يرتديا الثياب ذاتها. كانا يرتديان في تلك الليلة طقمي خروجهما: بنطلوناً وسترة سوداء وبلوزتين حريريّتين بيضاوين على الطريقة الماوية. تزوّجا في السادس عشر من حزيران عام 2008، في اليوم ذاته الذي أُقِرَ فيه الزواج المثلي في كاليفورنيا واحتفلا في تلك الليلة بعرسهما في رواق أوروغا بِلودا بالسوشي والساكي[19]، بحضور كلّ أطباء العيادات البديلة.

ساعد ماثيوس إنديانا على ترتيب العشاء، الذي كان مكوّناً من عدد من طيّباتِ مطعم تايلنديّ، في أطباق من الكرتون. جلس الأصدقاء ليأكلوا على الأرض، لأنّ الطاولة كانت تُسْتَخْدَم كمخبر للمعالجة بالعطور. انعطف الحديثُ مثل كلِّ الأحاديثِ في تلك الأيّام نحو احتمال خسارة أوباما للانتخابات الرئاسية وفوز فيلم منتصف الليل في باريس بالأوسكار، شربوا زجاجة النبيذ وكانَ هناك كطبق أخير بوظة بالشاي الأخضر جاءِ به الزوجان اليابانيان، وتوزّعوا بعدها على سيارة يوميكو وشاحنة ميلر وجلس أتيلا في المقعد الأوّل، الذي لم يجرؤ أحد على اغتصابه منه.

اتجهوا إلى شارع كاسترو وصفّوا السيارتين وتركوا الكلب هناك مستعداً لأن ينتظر بصبرٍ بوذيّ وساروا مسافة كتلتي أبنية حتى نادي نرسيس. كان الحي يضجّ بالشباب وبعض السياح الليليين والمثليين، الذين كانوا يملؤون الباراتِ والمسارحِ الموسيقية. كان المحل الذي يُمثّل فيه داني، من الخارج باباً واسماً بالأنوار الزرقاء، ما كان ليُلحظ لولا صف للدخول ومجموعات من المثليين يُدخّنون ويدردشون. غامر ألاركون وميلرْ بتعليقين ظريفين أو أكثر حول طبيعة النادي، لكنّهما

---

[19] السوشي طبق ياباني يقوم على الأرزّ المطبوخ بخل الأرزّ والسكر والملح ومكوّناتٍ أخرى كالخضراوات والسمك أو البحريات. الساكي مشروب أيضاً ياباني معروف بنبيذ الأرزّ.

تبعا بوداعةٍ إنديانا التي حيّت المُتَصَلِّف المكلّف بالباب وقدّمت مرافقَيْها كمدعوّين خاصّين من داني دانجلو. كان المحل من الداخل أرحبَ مما يمكن تصوّره، خانقاً ممتلئاً بالزبائن، وجميعهم من الرجال تقريباً. في الزوايا الأكثر ظلمة كانت تُميَّز هيئات تتعانق أو ترقص ببطء، غارقين في شأنهم، لكن بقية الجمهور كانت تتمازج وتتكلم بأصوات عالية كي تُسمِعَ، وتتكدس حول طاولة العرض، حيث يستهلكون الكحول والعرائس المكسيكية.

في حلبة الرقص، التي كانت تفيد أيضاً كخشبة حيث كانت تتمايل أربعُ فتياتٍ كورس بالبكيني، مُتَوَّجات بالريش الأبيض تحت الأضواء الوامِضة وعلى إيقاَع الموسيقى الصاخِبة. كنّ يَبدين توائم، لهنّ ذات الطول، بشعر مستعار وماكياج وحلي رخيصة متماثلة، وسيقان حسنة الاستدارة، وأوراك صلبة وأذرع مغطاةٍ بقفازات طويلة من الساتان ونهودٍ طافحةٍ خارج الحمالات المطرزة بالجواهر. فقط بفحصهنّ عن قرب وفي ضوء النهار كان من الممكن اكتشاف أنهنّ لم يكنّ نساء.

شقّ أصدقاءُ داني طريقَهم دفعاً بالمرافق في الزحام الصاخب وقادهم مستخدم إلى طاولة محجوزة لإنديانا بجانب الخشبة. ذهب ألاركون ويوميكو ونانا إلى طاولة عرض المشروبات بحثاً عن جرعات ومياه غازية لميلرْ، الذي لم يكن قد انتبه بعدُ إلى أنّه كان مع الرسام يلفتان الانتباه. كان يعتقد أنّ الحضور ينظرون إلى إنديانا.

أنهى الأربعة المُرَيَّشون بعد قليل رقصتهم، وأُطفئت الأضواء وغرق النادي في ظلمةٍ تامّة استُقْبِلت بالمزاح والصفير. هكذا مرّت دقيقة كاملة، لا نهاية لها وحين سكت المازحون ملأ صوت ويتني هوستون المحلّ بآهةِ حب طويلة، هازّاً روحَ كلِّ واحدٍ من الحاضرين. أضاء شعاعٌ عاكس أصفرُ وسطَ الخشبة، حيث كان طيفُ المغنّية، الميتة قبل سبعة أيّام، ينتظر واقفاً، منحني الرأس، يحمل الميكروفون بيدٍ ويضع الأخرى على قلبه، الشعر قصير والرموش مسدلة، وفستان طويل يُبرز

النهدين والظهرَ المكشوف. ترك ظهوره الجمهورَ منقطعَ النفس، مشلولاً. رفعت هوستون رأسها ببطءٍ ورفعت الميكروفون إلى وجهها وارتفعت من أعماق الأرض جملة "دائماً سأحبُّك"، وردَّ الجمهورُ بتصفيق تلقائيّ تبعه صمت جليل، بينما الصوتُ يُغنّي وداعه، سيل من المداعبات، الوعود والآهات. إنّها هي، بوجهها المميَّز ويديها المعبّرتين وحركاتها، كثافتها وملاحتها. بعد خمس دقائق بقيت علامات الأغنيةِ الأخيرة تهتزّ في الجوّ وسط تصفيق مدو. جاء الإيهامُ تامّاً، إلى حدّ أنّه لم يخطر لإنديانا ومرافقيها أنّ تلك المرأة الشهيرة، المنبعثة بالسحر يمكن أن تكون داني دانجِلو، نادل مقهى روسيني الأعجف حتى اشتعلت أضواء النادي وقامت ويتني هوستون بانحناءة احترام ونزعت الشعرَ المستعار.

كان ريان ميلرْ قد دخلَ في بلدان أخرى نوادٍ مثل نادي نرسيس، مع رفاقه في السلاح، الذين كانوا يخّفون الإثارة التي يُحدثها المثليون عندهم بالمزاح البذيء. كان يستملح المخنثين، الذين يعتبرهم مخلوقات غريبة غير مؤذية، كما لو أنّهم من نوع آخر. كان يعتبر نفسه رجلا واسعَ المنظور، رأى نصف العالم ولا شيء يصدمه، متسامحاً مع ميول الآخرين الجنسية ما لم تطل، كما كان يقول، الأطفال والحيوانات. لم يكن يستحسن وجود مثليين في القوّات المسلّحة، خشية أن يكونوا عناصر إلهاء ومصدر صراع مثل النساء. لم تكن المسألة أنّه كان يشك بشجاعتهم، كان يُوضِّح، لكن في المعركة تُختَبَر الرجولة والوفاء، والحرب تقوم بها الهرمونات الذكرية، وكلّ جنديٍّ مرتبط بزملائه، وهو لن يكون مرتاحاً إذا كانت حياته في يد مثلي أو امرأة. في تلك الليلة في نادي نرسيس ومن دون دعمِ جنود النخبة وُضِع تسامحه على المحك.

الجوّ المغلق، والجنس والإغواء في الهواء، احتكاك الرجال المضغوطين على عضهم ببعض، رائحة العرق والكحول وكولونيا

الحلاقة كلُّ ذلك شنّج أعصابه. تساءل كيف سيكون ردُّ فعل أبيه في هذه الظروف، ورآه، تماماً كما كان يحدثُ في كلّ مرّة يستحضَره فيها بتفكيرِهِ، واقفاً بجانبهِ، بلباسه الرسمي التام ونياشينه على صدره، متخشباً، مشدودَ الحنك مقطبَ الجبين، يستنكرُهُ ويستنكرُ كلَّ الذي كان يفعله. لماذا يتواجد ابن لي في هذا المكان المقرف بين هؤلاء اللواطيين قليلي الحياء؟ دمدم أبوه بتلك الطريقة التي كانت له في حياته، دون أن يُحرِّك شفتيْهِ، عاضّاً على الحروف الساكنة.

لم يستطِع أن يُقدّر تمثيل داني دانجِلو، لأنّه انتبه في تلك اللحظة إلى أنّ النظرات المشحونة بالنوايا لم تكن موجّهة إلى إنديانا بل إليه. كان يشعر بأنّه مُغتَصبٌ من تلك الطاقة الذكورية النابضة، الساحرة والخطيرة والمغوية، التي تثير اشمئزازه وتشدّهُ في آن معاً. مدَّ يده إلى كأس ويسكي بِدرو ألاركون وشرب ما فيه بثلاثٍ جرعات طويلة. الكحول الذي لم يكن قد ذاقهُ منذ سنوات عديدة ألهب حنجرتَهُ وانتشر في عروقه حتى آخر شُعيرة غائصة به في موجة من الحرارة والطاقة محت تفكيرَهُ وذكرياتِهِ وشكوكه. لا يوجد شيء مثل هذا السائل السحريّ، قرَّرَ، لا شيء مثل هذا الذهب الذائب، الملتهب واللذيذ، يُقوّيك، ينفخك، لا شيء مثل هذا الويسكي الذي لا أعرف لماذا ولا كيف تجنبته، كم كنتُ غبيّاً. تراجع والده خطوتين وابتلعه الحشد. التفت ميلرْ إلى إنديانا وانحنى باحثاً عن فمها، لكنّ الحركة ماتت في الهواء وبدل أن يُقبّلها انتزع منها كأس بيرتها، هي المسحورة بويتني هوستون، لم تلحظ ذلك.

لم يعرف ميلرْ في أيّة لحظةٍ نهض عن الطاولة، شقّ طريقَهُ بدفعات حانقة حتى طاولة عرض المشروبات، لم يعرفٍ كيف انتهى العرضُ ولا كم جرعة تناول قبل أن يفقد سيطرته تماماً. لم يعرف من أين انبثق الحنق الذي أعماه بسطوعه الحارقِ حين وضع رجلٌ شابّ ذراعهِ على كتفيه ونفخ بشيءٍ في أذنه، لامساً إيّاه بشفتيه، لم يدر تماماً في أيّة لحظةٍ انمحت صورُ الواقع وشعر بأنّه ينتفخ، لم يعدَ

جلدُهُ يتسع لجسمه، كان سينفجر، لم يدر كيف بدأ العراك، ولا عدد الذين سدّد إليهم لكماته المنتظمة ولا لماذا راحت إنديانا وألاركون يصرخان، ولا كيف وجد نفسه مغلولاً في سيّارة دورية والدم يعلو قميصه وبراجم أصابعه مسحوقة.

أخذ بدرو ألاركون سترة ميلِّرْ عن الأرض، أخرج مفاتيحَ الشاحنة الصغيرة ولحق بالسيارة التي حملوا فيها صديقه إلى ثكنة الشرطة. صفَّ السيارةٍ في مكانٍ قريبٍ وقدّم نفسه في الثكنة، حيث اضطرّ لأن ينتظر ساعةٍ ونصفاً كي يستقبله ضابط. شرحٍ له ما حدث، مُخففاً من مشاركة ميلِّرْ بينما الشرطي يستمع إليه شارداً ونظره على حاسوبه.

– الاثنين يستطيع الموقوف أن يُرافع عن نفسه أمام قاض، خلال ذلك له عندنا هنا زنزانة كي يتعافى من التسمم الكحوليّ ويرتاح –قال الشرطيّ بنبرة لطيفة.

أعلمه ألاركون بأنّ ريان ميلِّرْ، لم يكن سكراناً، بل في حالةٍ معالجة بسبب رضّ دماغي في حرب العراق، حيث فقد ساقاً أيضاً ويتصرّف من حالات متفرقة تصرفات خاطئة، لكنّه ليس خطيرا.

– ليس خطيراً؟ قل هذا للأشخاص الثلاثة الذين أرسلهم إلى الإسعاف..

– هذه هي المرّة الأولى التي يقع فيها معه حادث مثل حادث نادي نرسيس، سيد الضابط. لقد أثاروا صديقي.

– بأيّ طريقة؟

– حاول رجل أن يمد يده إليه.

– غير معقول. في هذا النادي؟ يا للأشياء التي على المرء أن يسمعها –سخر الشرطيّ.

عندها استخدم بدرو ألاركون الورقة التي كان يحتفظ بها للحظة الأخيرة وأعلن له أنّ ريان ميلِّرْ يعمل لصالح الحكومة وكان هناك بمهمّة سرّية، إذا كان الضابط يشك بكلامه يستطيع أن يُراجع محفظة أوراق الموقوف، حيث سيجد الثبوتيات الضرورية، وإذا لم

يكفِ هذا فهو سيسهل له رمزاً كي يتصل مباشرة بمكتب وكالة المخابرات المركزية في واشنطون وختم: " ستُدرك أنّ الفضيحة ليست لصالحنا ". الشرطيّ الذي كان قد أغلق الحاسوب وراح يصغي إليه بتعبير ارتياب. أعاده إلى كرسيّه مع تعليمات بالانتظار.

مرّت ساعة حتى تحقّقوا من واشنطون من معلومات ألاركون وساعة أخرى كي يُطلقوا سراح ميلرْ، بعد أن جعلوه يُوقّع تصريحا. كان قد انقشع عنه، خلال تلك البرهة الطويلة، قليلٌ من السكر، لكنّه كان ما يزال يترنّح. خرجا من الثكنة قرابةَ الخامسة فجراً، كان ألاركون مستميتاً لتحضير كأس متّتِهِ الأوّل، وميلرْ يشعر بألم شديد في رأسه وأتيلا عاثر الحظ، الذيَ أمضى الليل في الشاحنة الصغيرة، متلهفاً كي يرفع ساقه على أيّ شجرة متوفرة.

– أهنّئك، يا ميلرْ، دمّرت حفلة لويتني هوستون –علّق بدرو ألاركون في الشقة، بينما هو يُساعد صديقه على خلع ملابسه، بعد أن منح أتيلا فرصة كي يبول ويشربَ ماءً.

– سينفجر رأسي –همس ميلر.

– تستحق ذلك تماماً. سأحضّر القهوةَ.

عبثاً حاول ميلّر، وهو يجلس على طرف السرير ورأسه بين يديه، ومخطم أتيلا ملتصق بركبتيه، أن يعيد ترتيب أحداث الليلة، يخنقه خجلٌ لا حدود له، رأسه مليء بالرمل، فمه مشقوق، يداه وأجفانه متورّمة، أضلاعه محطمة إلى حد أنّه كان يتألّم من التنفس. كانت تلك انتكاسته الأولى، واستطاع أن يمضي ثلاث سنوات وشهراً في امتناع تام عن المخدرات. كان نظيفاً من الكحول والمخدرات، باستثناء سيجارة ماريجوانا من حين لآخر. فعل ذلك بعزيمة صلبة من دون مساعدة من طبيبٍ نفسي، كان له الحق به كمحارب قديم، فقط استعان بمضادات الاكتئاب، إذا كان في الحرب قادراً على تحمّل جهودٍ وألمٍ أكثر من أيّ كائن فانٍ، لأنّهم درّبوه على ذلك، فكيف

سيهزمه كأس من البيرة؟ لم يفهم ما جرى له ولا في أيّ لحظة شرب الجرعة الأولى وبدأ ينزلق نحو الهاوية.

- عليَّ أن أهتف لإنديانا. ناولني الهاتف —قال لألاركون.
- إنها الخامسة والربع من صباح الأحد. ليست ساعة مناسبة لتهتف لأحد.. خذه هذا وارتحْ، سأذهب لأُمشّي أتيلا —ردّ ألاركون.

جرع ريان ميلِّرْ القهوةَ الداكنة مع حبّتي أسبِرين بصعوبة وركض ليتقيّأ في المرحاض، بينما صديقه يُحاول عبثاً أن يُقنع أتيلا بأنٍ يتركه يضع له الكمامة والسير. لم يكن في نيّةِ الحيوان أن يترك ميلرْ في مثل تلك الحالة السيّئة، وراح يئن جالساً عند بابِ الحمّام، بأذنه الوحيدة منتصبةً وعينه الوحيدة مستنفرة، ينتظرُ تعليماتِ رفيقه في الحظ السيّئ. وضع ميلرْ رأسَهُ لدقائقَ تحت دفق ماء الحمّام البارد، خرج بعدها بسرواله القصير، مُبَلَّلاً، يقفزُ على رَجلهِ الوحيدة وأذنَ للكلب بالخروج مع ألاركون وارتمى في الحال على وجهه فوق السرير.250

في الشارع دوّى جوّال ألاركون بقصفِ آلاتِ نفخٍ، نغمة نشيد الأوروغواي الوطني. أخرج الجهاز من عمق أحد جيوبه وهو يعارك شدَّ الكلب له، وسمع صوتَ إنديانا تسأل عن ريان. آخر ما عَرَفَتْهُ عنه هو أنّ ضابِطي شرطة مفتولي العضلات أخذاه جرّاً إلى عربة الدوريّة بينما شرطيان آخران يساعدهما الغوريلا الذي كان يحرس البابَ على إعادة الهدوء إلى النادي، حيث استمرَّ بعضُ الحاضرين، المتحمّسين والمخمورين، بتبادل الضرب بين صراخ نجماتِ العرض، اللواتي كنّ ما يزلن يضعن الرَيش، بينما راح داني دانجِلو اللائذُ خلفَ طاولة العرض يُراقب الكارثة وجورب نايلون في رأسه وشعر ويتني هوستون في يده وكحل عينينه يسيل من البكاء. وضع ألاركون إنديانا في صورة الأمر بأسلوبه المقتضب "أنا ذاهبة إلى هناك، هل تستطيع أن تُسَدّد لي أجرة السيارة؟ طلبت منه.

بعد خمس وثلاثين دقيقة كانت إنديانا في الشقة بجزمةٍ جلد الأفعى وواقي مطر فوق الفستان الأسود الذي ارتدته ليلا وعينها محمرّة. قبّلت الأوروغواني والكلبَ واقتربت من سرير غرامِها، حيث كان ميلِّرْ يشخرُ، مُغطى بالبطانية التي ألقى بها عليه ألاركون. هزَّته إنديانا حتى أخرجَ رأسه من ملجئه تحت الوسادة واستوى نصف استواءٍ محاولاً أن يُركزَ نظرَهُ.

- ما بها عينك؟ -سألته إنديانا.
- حاولت أن أمسك بكِ فأصابتني صفعة.
- أنا ضربتُكَ؟ صاح ميلِّرْ مُستيقظاً تماماً.
- كان حادثاً، لا شيء خطير.
- كيف استطعت أن أنزل إلى مثل هذا المستوى، يا إندي!
- جميعنا نخطئ من حين لآخر ونسقط على وجوهنا، وننهض بعدها. البس ثيابك، يا ريان.
- لا أستطيع أن أتحرّك.
- يا سلام على جنديّ النخبة الشجاع هذا! انهض! سوف تأتي معي.
- إلى أين؟
- سترى؟

الأحد، 19

"مرحبا، اسمي رِيان وأنا كحولي وسكران منذ ستِّ ساعات". هكذا قدّمَ نفسه مُقلداً الآخرين الذين تكلموا قبله في تلك الصالة التي لا نوافذ لها فاستُقْبلتْ كلماتُهُ بتصفيق حارّ. كان بدرو ألاركون وإنديانا قد قاداه قبل لحظات إلى بناءٍ يُتوّجُه برجٌ في زاوية شارعَي تايلور وإليس في وسط تِندرلوين.

– أي نوعٍ من الأبنية هذا؟ –سأل ميلِرْ، عندما أجبرته إنديانا على التقدّم باتجاهِ الباب، ممسكةً بذراعه.

– كنيسة غليد مِموريال. كيف أمكن لكَ أن تعيشَ سنواتٍ في هذه المدينة دون أن تعرفها؟

– أنا لاأدريٌّ. لا أعرف لماذا نحن هنا، يا إنديانا.

– تمعّن في البرج، هل رأيت أنّه لا يحملُ صليباً؟ سيسيل وليامز راع أفريقي أمريكي كان روح غليد لسنوات طويلة، لكنّه تقاعد. في الستينيات أرسلوه إلى هذا المكان، كانت كنيسة ميثودية مُحتضرَة، حوّلها إلى مركز سان فرانسيسكو الروحي. جعلهم ينزعون الصليبَ لأنّه رمزٌ للموت وأخويته تحتفلُ بالحياة. لذلك نحن هنا، يا أدريان، كي نحتفل بحياتِك.

وضّحت له أنّ غليد تشكّل جاذبيةً سياحية بموسيقى كورسها التي لا تُقاوم وسياسة الذراعين المفتوحين: الجميع مُرَحَّب بهم، دون تمييز بالعقيدة أو العرق أو الميول الجنسية، مسيحيون من كلّ الملل، مسلمون ويهود، مُدمنون ومُتَسوّلون، وملارديون من وادي السيليكون ودراغ كوينز، مشاهير السينما ومجرمون سائبون، ما من أحدٍ مرفوض، وأضافت أنّ غليد يملك مئات البرامج لنجدة واستضافة وإكساء وتربية وحماية وإعادة تأهيل أكثر الناس فقرا وقنوطا. شقوا طريقهم عبر صف منتظم من ناسٍ ينتظرون دورهم للفطور المجاني. عرف ميلرْ أنّ إنديانا تُمضي عدة ساعاتٍ أسبوعياً تُساعد في خدمة الفطور من السابعة وحتى التاسعة، الموعد الوحيد الممكن بالنسبة إليها، وأنّ الكنيسة تُقدّم ثلاثَ وجباتٍ يوميّة لآلاف المحتاجين على امتداد السنة. وكان هذا يتطلب خمساً وستين ألفَ ساعةِ عمل طوعي. "أنا أُقدّم فقط قرابة المئة ساعة، لكن هناك من المتطوّعين ما يجعلنا نُسَجِّلهم في لائحة الانتظار"، قالت له.

في تلك الساعة المبكّرة لم يكن قد بدأ حشدُ خدمةِ يوم الأحد بالوصول. كانت إنديانا تعرف الطريقَ فحملَت ميلِّرْ مباشرة إلى قاعةٍ

داخلية صغيرة، حيث كانت تجتمع المجموعة الأولى ليوم الكحوليين المُغْفَلِين. كان هناك منذ تلك اللحظة قرابة الستة أشخاص مع برادات شاي وبسكويت جلسوا حول طاولة جانبية. راحت البقية تصل خلال الدقائق العشر التالية، خمسة عشر في مجموعهم. جلسوا على كراس بلاستيكية يُشكلون دائرة، ناس من مختلف الأعراق والأعمارً والألوان، معظمهم رجال، جميعهم معطوبون بطريقٍة أو بأخرى بالإدمان، واحد منهم عليه أثر صفعة حديثة، مثل ميلرْ. بدِا وكأنّ إنديانا بمظهرها السليم وموقفها السعيد هناك بالخطأ. كان ميلرٌ يتوقع درساً أو محاضرة، لكن وبدل ذلك استلَّ رجلٌ نحيل وصغير يضع نظارة بعدستي قصر نظر سميكتين الاجتماع قائلا: "مرحباً، أنا بنّي إفرون مُدمن. أرى بعض الوجوه الجديدة. أهلاً بكم، يا أصدقاء"، قدَّم نفسَهُ وأخذ البقيةُ الكلمة بالدور كي يُقَدِّموا أنفسهم.

حكى عدد منهم تجاربهم، بمساعدة تعليقات وأسئلة إفرون، كيف بدؤوا يشربون، كيف خسروا عملهم وأسرهم وأصدقاءهم وصحَّتهم وكيف كانوا يحاولون أن يعيدوا تأهيلَ أنفسهم من الكحول في *كحوليون مُغْفلون*. أبرزٍ رجل مزهوّ بنفسه بطاقة عليها الرقم 18 مجموع أشهر ضبط النفس فصفق الآخرون. واحدة من النساء الأربع رثة الثياب، كريهة الرائحة فظيعة الأسنان وفرورة النظرةِ اعترفت بأنّها فقدت الأملَ لأنّها انتكست مرات كثيرة فصفقوا لها أيضاً لجهدها في الحضور في ذلك اليوم. قال لها إفرون بأنّها تسير على الطريق الصحيح، لأنّ الخطوة الأولى هي أن يعترف المرء بأنّه لا يملك السيطرة على حياته، وأضاف بأنّ الأملَ يُستعاد عندما يضعِ المرءُ نفسه بين يدي قوّة أعظم. "أنا لا أؤمن باللّه" قالت هي متحدِّية. "وأنا أيضاً، لكنّني أومن بقوّة الحبّ الفائقة، الحب الذي أمنحه وأتلقاه، قال الهزيل ذو النظارةِ،. "أنا لا أحد يُحبُّني، ما أحبّني أحدٌ قط"، ردّت المرأةُ، ناهضةً بتعثّر كي تذهب، لكنّ إنديانا وقفت أمامها وعانقتها. جادلت المرأة لبضع ثوان وهي تُحاول أن تتخلص منها، لكنّها سرعان ما استسلمتْ وراحت

تبكي بين ذراعي تلك الشابةٍ، التي أمسكت بها بثباتِ أمّ. هكذا بقيتا في عناق حميم لوقت بدا لميلرْ أبديًا، لا يُحتمل، إلى أن هدأت المرأة وعادت الاثنتان إلى كرسيّيهما .

لم يفتح ريان ميلرْ فمَهُ إلا لكي يُقدِّم نفسه، استمع إلى الشهادات الغريبة ورأسه غائص بين كتفيه ومرفقاه مستندان إلى ركبتيه يُعارك الغثيانَ والألمَ في صدغيه. كان ما بينه وبين أولئك الناس أكثر مما ظنّ هو نفسه حتى ليلة أمس، حين تناوَلَ في لحظة سهو أو غضبٍ أوّلَ جرعةٍ وعاد ليصير للحظاتٍ فحلَ أوهام شبابه الجبّارً الذي لا يُهزم. هو أيضاً كان مثل أولئك الرجال والنساء الذين يُحيطون به يعيشِ أسير جلده، مذعورا من العدوّ الكامن في داخلهِ الذي ينتظرُ الفرصة كي يُدمِّره، العدو الذي كان من الصمتِ بحيث إنّه كاد ينساه. فكّر بلون الويسكيِ الذهبي، ببريقه المشمس، صوتِ مكعباتِ الثلج اللذيذ في الكأس، فكرَ بلون البيرةِ المِسكيّ، فورانها الحلو ورقّة رغوتها.

تساءل ما الذي فشل؟ كان يعيش حياة يتدرّب فيها من أجل التفوّق، يقوّي نظامه، ومن أجل السيطرة على نفسه، مبقياً على نقاط ضعفه على الحدّ، وعندها وفي الوقت الذي لم يكن يتوقعه خرج العدوُّ من جحره وانقضّ عليه. في السابق عندما لم تكن تنقصه ذرائع، كالوحدة والحبّ اليائس كي يُذعن للإغواءات كي يضيع لبرهة في الكحول، حافظ على اعتداله.لم يفهم لماذا أذعن وقتها، حين صارٍ عنده كلّ ما كان يتوق إليه. منذ أسبوعين وهو يشعر بنفسه سعيداً وكاملاً. في ذلك الأحد السعيد الذي استطاع أن يُعانقَ فيه أخيراً إنديانا، تبدّلت حياته، أسلم نفسَهُ لروعةِ حبّها، للرغبة التامّة، لمعجزة أنه صار محبوباً ومُرافقاً، لحلمِ الاعتقادِ بأنّه انعتق وشُفيَ للأبد من كلّ جراحه. "اسمي ريان ميلرْ وأنا كحوليّ"، ردّدَ في داخله وشعرَ بأن عينيه تحكانه من الدموع المكبوحة، وهزمه دافع أن يخرجَ هارباً من ذلك المكان، لكنّ يد إنديانا على كتفه أبقت عليه في مكانه.

عند الخروج بعد خمس وأربعين دقيقة رَبتَ بعضُهم على ظهره بودٍّ مُودِّعين إياه باسمه. لم يردّ عليهم.

ذهبت إنديانا وريان عند الظهيرة سيراناً إلى حديقةِ السيكويا ذاتها حيث قدّمت لهما فيها العاصفة قبل أسبوعين الذريعة كي يُمارسا الحبّ. كان الطقس مُتَقَلّباً، تتخلله لحظاتٌ من الرذاذ الناعم وأخرى تنتقل فيها الغيومُ وتظهر الشمسُ خجولةً. هو جاء بفروج نيّئ وعصير وفحم وعظم لأتيلا، وتولت هي إحضار الجبن والخبز والفاكهة. كانتْ إنديانا تملك سلة قديمة مُبَطنة بقماش بمربعات بيضاء وحمراء، أحدُ الأشياء المادّية القليلة التي ورثتها عن أمّها، وهي مثالية لحمل الطعام والأطباق والكؤوس في مثل ذلك السيران. ما من روح كانت في الغابة، التي تعجّ بالناس صيفاً واستطاعا أن يجلسا في مكانهما المفضّل، على بعد خطواتٍ من النهر. انتظرا، جالسَيْن على جذع سميك، مُتَلفعين بالدثارين المكسيكيّين، ريثما يشتعلُ الفحمُ كي يشويا الفروجَ، بينما راح أتيلا يجري مهووساً يُلاحق سنجاباً.

كان وجه ميلرْ يقطينةً مضروبة وجسده خريطةً من الكدمات المائلة للسواد، لكنّه كان ممتنّاً، لأنّ العقوبةَ، بحسبِ العدالة البدائية التي تلقنها من سير أبيه، تذهبُ بالذنب. كانت القواعد في طفولته واضحة، من يرتكب شرّاً أو حماقة عليه أن يدفع ثمنها، وهو قانون في الطبيعة لا مفرّ منه. كان إذا ارتكب ريان شيطنة ما دون أن يعلم بها أبوه فإن فرحته بالتخلص من العقاب لم تكن لتدوم إلا قليلا، إذ سرعان ما كان يعتريه إحساسٌ بالرعبِ ويقين أنّ العالم سينتقم. كان أفضل له بعد كلّ حساب أن يُكفر عن خطئه ببعض ضربات السير من أن يعيش منتظراً تجسّد التهديد العالق. شرّ أم تهوّر... كان يتساءل كم من أعمال مثل هذا ارتكب في عقود حياته الأربعة وكان يخلص إلى أنّها دون شك عديدة.

في سنوات خدمته كجنديّ، شابّ وقويّ، في فورةِ المغامرة ودويّ الحرب، بينما يحيط به رفاقه وتحميهِ قوّة السلاح، لم يفحص قط

سلوكه، كما لم يُناقش الحصانة التي كان يتمتع بها. اللعب القذر مسموح في الحرب. لم يكن عليه أن يُقدِّم كشفَ حِساب لأحدٍ. كان يؤدي التزامه بالدفاع عن بلده بشرفٍ، كان واحداً من جنودِ النخبة، واحداً من المختارين، المحاربين الأسطوريين. طرح ذلك على نفسه لاحقاً، خلالِ الأشهر التي قضاها في المستشفى وخلال إعادة تأهيله وهو يبول دماً ويتعلم المشي والحديد في جدعةٍ ساقه واقتنع بأنّه إذا كان قد أذنب في شيء فقد دفع الثمنٍ باهظاً بفقدانه لرجلهِ، لرفاقهِ ولمسيرته العسكرية. كان الثمن باهظاً —استبدال حياة البطولة بحياة التفاهة— إلى حدٍّ أنّه شعر بأنّه مخدوع واستسلم لعزاء المشروب والمخدرات القويّة الوهمي ليحارب وحشته واشمئزازه من نفسه، وراح يهزلُ في السكن المشترك في بيثيسدا.

عندما أصبح إغواء الانتحارِ لا يكاد يُقاوَم، أنقذ أتيلا حياتَهُ للمرّة الثانية. بعد أربعة عشر شهراً من يومِ خروجهِ من العراق مشدوداً إلى نقالة، مخبولاً بالمورفين، جُرِحَ الكلبُ جرحاً بليغاً في لغم على بعد خمسة عشر كيلومتراً من بغداد، وهذا ما أخرج ميلرْ من سباته الذي غرق فيه وأوقفه على قدميه: صار عنده مهمة جديدة.

هرعت ماجّي، جارته في بيثيسدا، أرملة في السبعين ونيّف من عمرها، التي أقام معها صداقة من خلال اللعب بالبوكر لمساعدته وكان مديناً لها بشعارٍ آخر في حياته: من يبحث عن مساعدة دائماً يلقاها. كانت عجوزاً قوية لها لغةٌ وأخلاقُ قرصان، أمضت عشرين سنة في سجن بتهمة بقتل زوجها، بعد أن كسر لها هذا عدداً من عظامها. تلك المرأة الفظة المهابة من الجيران كانت الشخص الوحيد الذي كان ميلرْ يتحمَّله في تلك الفترة المضطربة من حياته وردّت هي عليه بفجاجتها المعتادة وطيبتها المفاجئة. في البداية وقبل أن يستطيع أن يعتمدَ على نفسه، كانت تُعِدُّ له الطعامَ وتأخذه في سيارتها إلى مواعيده الطبّية، بعدها صارت تأخذه عن الأرض حين تجده مشبعاً بالكحول أو مخبولاً بالمخدرات وتُلهيه باللعب معها بالورق وبمشاهدة أفلام العنف. عندما عرفت ماجي بما جرى لأتيلا، قرّرت أن الخطوة

الأولى من أجل الحصول على الكلب، هذا إذا بقي على قيدٍ الحياة، هو أن يضع عقله في رأسهِ لأنّه ما من أحد سيأتمنُ خرقةً بشرية، مثله، على حيوان بطل.

كان ميلّرْ قد رفضَ اللجوء إلى برامج إعادة تأهيل المُدمنين في المستشفى العسكري، تماماً كما رفض خدماتِ طبيبٍ نفسيّ متخصِّص بمتلازمات ما بعد الصدمات وكانت هي موافقة تماماً على أنّ تلك كانت من سمات اللوطيين وأنّ هناك طرقاً أقصر وأكثر فعالية. فرّغت له الزجاجات في المغسلة، ورمت بالمُخدرات في المرحاض، ثمّ أجبرته على التعرّي وحملت معها كلّ ثيابه وحاسوبه وهاتفه وساقه الاصطناعية. ودّعته بإشارة متفائلة بإبهاميها إلى الأعلى وتركته مقفولاً عليه بالمفتاح، أعرجَ وعارياً. اضطرّ ميلّرْ لأن يتحمّل أيّامَ القطاعةِ الأولى في البرد، مرتعدا، مُهلوساً، مخبولاً بالغثيان والضيق والألم. عبثاً حاول أن يُطيح بالبابِ بقبضتيه ويعقد الملاحفَ كي ينزل من الشباك، لكنّه كان في طابق عاشر. ضربَ الجدارَ الذي كان يفصله عن شقّة ماجي حتى تكسّرت براجم أصابعه وانكسر سنّه من كثرة ما اصطكت أسنانه. في اليوم الثالث سقط عياءا.

جاءت ماجي ليلاً لزيارته فوجدته منكمشاً على الأرض يئنّ وديعاً وهادئاً إلى هذا الحدّ أو ذاك. أجبرته على الاستحمام. قدّمت له طبقَ حساء ساخن، أدخلته في الفراش وجلست تراقب نومه بطرف عينها بينما هي تتظاهر بمشاهدة التلفزيون.

هكذا بدأت حياة ريان الجديدة. وانكبَّ على روتين المحافظة على اعتداله والحملة لاستعادة أتيلا، الذي تعافى من جراحهِ واستلم ميداليتَهُ. كانت الإجراءات ستُخمد همّة أيّ شخص غير مدفوع بامتنان زائد. كتبَ بمساعدة ماجي مئات الطلبات إلى السلطات العسكرية، وقام بخمس رحلات إلى واشنطون للدفاع عن قضيّتِه وحصلَ على مقابلة خاصّة مع وزير الدفاع بفضل رسالة كتبها أخوته في وحدة سيل تيم 6. خرج من مكتبه بوعدِ أن يأتوا بأتيلا إلى

الولايات المتحدة وأنه بعد الحجر النظامي سيكون باستطاعته أن يتبناه. ذهب خلال تلك الأشهر من البيروقراطية المزعجة إلى تكساس مستعداً لأن ينفق مدخراته على أفضل أرجل اصطناعية في العالم وبدأ يتدرّب على المنافسة في السابق الثلاثي واكتشف الطريقة للاستخدام الجيّد لمعارفه العسكريّة المكتسبة. كان خبيراً بالاتصالات والأمن وله اتصالاته مع القيادة العليا وسجلّ خدمة نظيف وأربع ميداليات كبرهان على طبيعته. استدعى بعدها بدرو ألاركون إلى سان فرانسيسكو. **259**

بدأت صداقة ميلرْ مع ألاركون في العشرين من عمره. تقدم بعد أن أنهى الثانوية إلى جنود النخبة كي يُبرهن لوالده أنّه رجلٌ مثله ولأنّه كان يشعرُ بعدم قدرته على القيام بدراسات عليا. كان يعاني من مشاكل في القراءة والكتابة وعنده مشكلة في الانتباه. لم يُبدِ في المدرسة أيّ اهتمامٍ بالدراسة لكنّه برزَ كرياضيّ. كان كتلة مصمتة من العضلات ويعتقد أنّه يملك تحملاً زائداً للقيام بأيّ مهمة جسدية، ومع ذلك صُفّي من جنود النخبة خلال الأسبوع الجهنّمي، وهو أقسى أسبوع في التدريب، مئة وعشرون ساعة قاتلة تُقاس خلالها عريكة كلّ واحد للوصول إلى المبتغى، مهما كلّف الأمر. تعلّم أنّ أقوى العضلات هو القلب، وعندما تيقن من أنّه وصل إلى الحدّ في مقاومة الألم والتعب، وكان قد بدأ للتوّ، كان باستطاعته أن يُعطي أكثر وأكثر، لكن ليس ما يكفي. أضيف إلى الإهانة التي شعر بها من فشله موقفُ الازدراء العميق الذي تلقى به أبوه الخبر. أكّدَ رفضهم لابن هذا الرجل، ابنِ وحفيدِ العسكريين، الذي تقاعد من البحرية برتبة لواء، رأيَهُ السيّئَ الدائم به. لم يتكلم ميلرْ ولا أبوه قط بالموضوع، لاذ كلّ منهما بصمت ماكر، سيفصل بينهما قرابة العقد. **260**

درسَ ميلرْ في السنوات الأربع اللاحقة المعلوماتية بينما راح يتدرّبُ بشراسة كي يتقدّم من جديد إلى جنود النخبة، لم تعد المسألة مسألة منافسة مع أبيه، بل نزعة حقيقيّة، كان يعرف ما يعنيه هذا ويريد أن يُكرِّس حياته له. حالفَهُ الحظ في الجامعة لأنّ أحدَ أساتذته اهتمَّ به

شخصيّاً وساعده في التغلّب على مشاكل القراءة والكتابة وقصور انتباهه وتخطّي انسدا أفق الدراسة عنده؛ منحه الثقة بقدرته العقلية وأقنعه بأن يتخرّج قبل أن يدخل في البحريّة. هذا الرجل هو بدرو ألاركون.

عندما حقّق ميلرْ غايته في عام 1995 بأن أصبح أحد جنود النخبة وعلّق المقدّمُ شارتها على صدره في احتفال السباق الثلاثي كان أوّل شخص هتفَ كي يحكي له هو أستاذه القديم. كان قد تخطّى الأسبوع الجهنّمي والشهورَ الأبدية قاسيةَ التدريب في الماء والهواء والأرض. متحمّلا درجات حرارة قصوى، محروما من النوم والراحة، شكلّتْهُ الشدائدُ والمعاناة الجسدية، وعزّزته روابط رفاقية لا تنحلُّ وتبنّى الالتزامَ الرسميّ بأن يعيش ويموتَ بطلا. قليلة جدّاً المرات التي رأى فيها ألاركون خلال السنوات السبع عشرة التالية، حتى جُرِحَ وسُرِّح، لكنّه بقي على تواصل معه. وبينما كان هو يمضي في مهماتٍ سرّيةٍ في أخطر المناطق، تمّ التعاقد مع الأوروغواني كمدرّس للذكاء الاصطناعي في جامعة ستانفورد. وهكذا علم ميلرْ بأنّ صديقه القديم فعلاً عبقريّ.261

وافق بدرو ألاركون متحمّساً لفكرة صديقه بتزويد القوات المسلحة بأنظمة أمن معقّدة ورأى أنّ ذلك يتطلّب من ميلرْ أن يكون له موضع قدم في واشنطن وآخر في وادي السيلكون، المكانِ الوحيد الذي يمكن أن يُطوَّر فيه هذا من النوعُ التكنولوجيا. استأجر ميلر مكتبا على بعد عشر دقائق من البنتاغون، سيُفيده كقاعدة، حزم ممتلكاته القليلة وانتقل مع أتيلا إلى كاليفورنيا. كان الأوروغواني ينتظرهما في مطار سان فرانسيسكو مستعدا لمساعدته من الظلّ، ذلك أنّ ماضيه السياسي كان مُريبا.

كانت إنديانا تعرف قصّة ميلرْ بخطوطها العريضة، بما في ذلك مصالحته مع أبيه، قبل أن يموت، لكنّها لم تكن قد سمعت شيئا عن مهمّته في أفغانستان، التي كان يعيشها من جديد في كوابيسه. في حديقة السِكويا وبينما هما يراقبان الفرّوجَ الذي كان يُشوى ببطء

مذهل في هواء الحديقة الرطب، حكى لها أحداث تلك الليلة. قال لها إنّ القتل عن بعد كما في كلّ حرب تجريدٌ، لعبٌ بالفيديو، لا يوجد خطر ولا مشاعر، الضحايا بلا وجوه، لكن في المعركة، على الأرض، توضع شجاعة وإنسانية كلّ جنديّ على المحك. للاحتمال الحقيقيّ بأن يموت المرء أو يُصاب بجروح رهيبة تبعات نفسية وروحية، إنّها تجربة فريدة، من المحال نقلها بالكلمات، وحده من يعيش هذه النشوة يَفهمها، مزيج من الرعب والبهجة. "لماذا نقاتل؟" لأنّها غريزة بدائيّة قويّة قوّة البقاء على قيد الحياة"، قال لها ميلر وأضاف أنّه لا شيء بعد ذلك في الحياة المدنيّة، يمكن مقارنته بالحرب، فكلّ شيء يبدو باهتاً. العنفُ لا يؤثّر فقط على الضحايا بل أيضاً يؤثّر على من يُمارسُهُ. أَعَدّوه كي يموت ويعاني، يستطيع أن يقتل. فعل ذلك لسنواتٍ دون حسابٍ ودون ندمٍ، أيضاً يستطيع أن يُعذّبَ للحصول على معلومات، إذا كان ضرورياً، لكنّه كان يُفَضّل أن يترك هذه المهمّةَ لآخرين، كانت تصيبه بالغثيان. أن تقتل في ضراوة المعركة أو تنتقم لرفيق شيء، ففي هذا الحالات لا يُفكر المرء، يعمل دون ترو، مدفوعا بكراهية فظيعة، فلا يعود العدوّ كائناً بشرياً ولا يعود يوجد ما هو مشترك معه؛ وأن يقتل المدنيين وهو ينظر إلى عيونهم، نساءً وأطفالاً... شيءٌ آخر.

في بداية عام 2006 أشارت تقارير المخابرات إلى أنّ بن لادن يتخفى في سلسلة جبال الحدود مع باكستان، حيث أعادت القاعدة تجميع نفسها بعد الغزو الأمريكي. كانت المنطقة المُعلَّمة على الخريطة واسعة أكثر من اللازم لتعقّبه، مئات الكهوف والأنفاق الطبيعية، جبال موحشة تسكنها مجموعات قبلية، يوحدّها الإسلامُ والكراهية المشتركة للأمريكيين. كان رجال البحرية قد قاموا بغارات على تلك المنطقة شديدةِ الوعورة والجافة وتكبّدوا خسائر كبيرة، لأنّ المقاتلين المسلمين يستغلون معرفتهم بالأرض كي يكمنوا لهم.

كم من رعاة الماعز المتواضعين أولئك المشابهين لأسلافهم قبل قرون، كان في الحقيقة مقاتلا؟ في أيّ من تلك البيوت ترابية اللون

تُخبّأ مستودعات أسلحة؟ ما الذي كانت تنقله النساء تحت ثيابهن السوداء؟ ماذا كان يعرف الأطفال؟. أرسلوا جنود نخبة النخبة بالمهمة السرية لقتل بن لادن، واثقين من أنّه في متناول أيديهم، وإذا لم يعثروا عليه فهم على الأقل سيمنعون السكان من الاستمرار بمساعدته وسيحصلون على معلومات. كانت الغاية تُبرِّرُ الوسيلة، كما هو الحال دائماً في الحرب. لماذا هذه القرية بالذات؟ ليست مسؤولية ريان ميلرْ أن يتحقق من ذلك، بل أن يُنَفذَ الأمرَ دون تردّد. أسباب أو شرعية الهجوم ليست مسؤوليته.

كان يتذكّر ذلك بالتفصيل، يحلم به ويعود ليعيشه بلا رحمة. كان رجال النخبة والكلبُ يتقدّمون بحذر، كازّين على أسنانهم وعلى كاهلهم ثلاثة وأربعون كيلوغراماً من واقي الجسد والمعدّات، بما في ذلك الذخيرة وماءُ وطعامُ يومين ومدخرات وملاو ومورفين، دون أن يُحسب السلاح ولا الخوذة المزوّدة بالنور والكاميراً والسماعات. كانوا يرتدون قفازات ويضعون عدسات للرؤية الليلية. إنّهم المختارون، الموجّهون لأدقّ وأخطر المهمات. قذفوا بهم من حوّامة على بعد ثلاثة كيلومترات، مدعومين من القوّة الجويّة ومجموعة من البحرية، لكنّهم في هذه اللحظات وحدهم. كان أتيلا قد قفز معه في مظلته، معانقاً إياه بواسطة درع واق وكمامة، متخشباً ومشلولاً، هذه القفزة في الفراغ هي الشيء الوحيد الّذي يخافه، لكنّه ما إن لامس الأرض حتى أصبح جاهزاً للعمل.

يمكن للعدوّ أن يتواجد في أيّ مكان، متخفياً في أحد تلك البيوت، في كهوف الجبل، خلفها، يمكن للموت أن يصل بطرق كثيرة، لغم، قنّاص، انتحاريّ يحمل حزاماً ناسفاً. إنّها مهزلة هذه الحرب: من جهة القوّة الساحقة لأقوى إمبراطورية في التاريخ ومن أخرى بعض القبائل المتعصّبة المستعدّة لأن تُدافِع عن أرضها بأيّ طريقة، بالحجارة إن لم يكن هناك ذخيرة. جوليات وداوود. الأولى عندها التقنيات

والأسلحة التي لا يمكن التفوّق عليها، لكنّه من صفيقات الجلد، مُكبّل بثقل كلّ الذي يحمله، بينما العدوّ، خفيف، رشيق، ماكر ويعرف البلد. هذه حربُ احتلال، لا يمكن احتمالها، لأنّه لا يمكن إخضاع شعب مُتَمَرِّد إلى ما لا نهاية. إنّها حرب يُمكن أن تكسب بالنار على الأرض، لكنّ مصيرها الفشل في الجانب الإنساني، وكلا الطرفين يعرف ذلك، إنّها مجرّد مسألة وقتٍ. يتفادى الأمريكيون قدر المستطاع الأضرارَ الجانبية، لأنّها تكلفُ غالياً: مع كلِّ مدنيّ يُقتل أو بيتٍ يُهدم يزداد عددُ المقاتلين وشراسة السكان. العدوّ زلِقٌ، غير مرئيّ، يختفي في القرى، مختلطاً بالرعاة والفلاحين، يُظهر شجاعة مجنونة وجنود النخبة يحترمون الشجاعة عند هذا العدوّ أيضاً.

يتقدُّ ريان ميلرْ وأتيلا إلى جانبه. يحمل الكلبُ سترةً واقية ونظارةً خاصّة وسماعاتٍ كي يتلقى التعليمات وكاميرا في رأسه لنقل الصور. إنّه حيوان فتيّ ولعوب، لكن ما إن يضعوا له سترة الخدمة حتى يتحوّل إلى ضارٍ مُدَرَّعٍ وأسطوريّ. لا يُفاجأ بنيران الرشاشات ولا القنابل ولا الانفجّارات، يعرف كيف يُميّز صوتَ الأسلحةِ الأمريكية عن صوتِ أسلحة العدوّ، محرّكَ شاحنة صديقة ومحرّك مروحيّة الإنقاذ. مُدَرَّب على اكتشاف الألغام والكمائن. لا يُفارق ميلر، وفي حال الخطر الداهم يستند إليه كي يحذره وإذا ما رآه يسقط يحميه على حساب حياته ذاتها. إنّه واحد من ألفيْن وثمانمئة كلبِ حرب في الجيش الأمريكي في الشرق الأوسط. كان ميلرْ يُدركُ أنّ عليه ألا يتولّعَ به، فأتيلا سلاح، إنّه جزءٌ من عتادِ المعركة، لكنّه قبل كلِّ شيء رفيقٍ، يتنبّأ كلّ منهما بتفكير الآخر، يأكلان وينامان معاً. يُباركه ميلرْ بصمتٍ ويربت ربتتين خفيفتين على رقبته.

تنشدُّ عضلاتُ جسم أتيلا، يقفُ شعره، ينقبضُ خطمه وتظهر أسنانه الغريبة وأنيابه التيتانيومية. سيكون هو أوّل من يعبر العتبةٍ، إنّه في فم المدفع. يتقدّمُ حذراً، قويّ الشكيمة، والآن وحده صوتُ ميلرْ في السماعتين يوقفه. يتبعه ميلرْ مُنحنياً، صامتاً، ومتخفياً في الظلال

معانِقاً بندقيته إم 4، السلاح الأكثر ملاءمة في القتال عن قرب. ما عاد يُفكِّر، انتباهه مركز على الهدف، لكنّه يتفحّصُ المحيط بحواسّه، يعرف أنّ رفاقَه انتشروا على شكلِ مروحة حول القرية للقيام بهجوم متزامن. لن يتمكن العدوُّ المباغت بالهجوم من أن ينتبه إلى ما يحدث، إنّها عملية خاطفة.

أوّل دار إلى الجنوب من نصيب ميلر. لا يكاد يُميِّزها تحت ضوء الهلال الشاحب، فطساء، مربّعة من طين وحجر، متكاملة مع المكان، كأنها نتوء من طبيعة الأرض. يُفزعه ثغاء معزاةٍ، تقطع لِلمرّة الثانية سكونَ الليل. إنّه على بعد عشرة أمتار من الباب، يتوقفُ، يبدو له أنّه يَسْمَعُ بكاءَ طفل، لكن سرعان ما يعودُ الصمتُ. يتساءل كم من الإرهابيين يختبئون في دار الرعاة هذه، يأخذُ نفساً، يملأ به رئتيه، يومئ للكلب، الذي ينظر إليه من خلف نظارة العدستين الدائريتين بانتباهٍ وينطلق الاثنان راكضين نحو الدار. في اللحظة ذاتها يندفع رفاقه إلى القرية بين صيحاتٍ وانفجارات ولعنات. يُطلق جندُ النخبة رشقة على الباب ويفتحه على الفور برفسة واحدة. يدخلُ أتيلا أوّلاً ويتوقف جاهزا للهجومٍ، منتظرا التعليمات. خلفه يأتي ميلرْ بنظارة الرؤية الليلية، يُحللُ الوضعَ ويُقدِّر المكانَ، مسافة الجدران، السقفَ المنخفض، إلى حدٍّ أنّ عليه أن ينحني، يفحص آلياً الأرضيةَ الترابية المرصوصة، الموقدَ مع بقايا الفحم، أواني المطبخ المعلقة فوق الموقد المطفأ، الكراسي الخشبية الثلاثة أو الأربعة المنخفضة. في الدار غرفة واحدة وتبدو للوهلة الأولى خالية. يصرخُ بالإنكليزيّةِ بألا يتحرّكوا وأتيلا إلى جانبه، يزمجر. يحدث كلّ شيء بسرعةٍ لا تسمحُ بعدها للرجل بإعادة بناء ما حدث؛ ففي لحظاتٍ غير متوقعة ستنبثق في ذاكرته صورٌ مُخلعة من أثر اللكمات، سيعودُ في كوابيسه ليعيش أحداثَ تلك الليلة ألف مرَّةٍ ومرّة. لن يستطيع أبدا ترتيبها أو فهمها..

يعودُ الجنديُّ ليصرخَ بلغتهِ، يُحِسُّ بحركةٍ خلفه، يدور ويضغط على الزناد، رشقة، يسقط أحدٌ آنّاً أنيناً مخنوقاً. صمتٌ مفاجئ يلي

الـدويَّ الســابق. وقفـة رهيبـة يرفـع فيهـا الجنـديُّ نظارتـه ويشـعل مصباحه يمسح شعاعُ النور الغرفةِ ويتوقف علـى كِتلـةٍ علـى الأرض. يقفز أتيلا إلى الأمـام ويمسـكه بفكيْـه. يقـترب ميلـرْ، ينـادي الكلـبَ ويُضطرُّ لأن يُعيد الأمرَ كي يُطيعَهُ وتفلتَ الفريسةُ. يرفس الجسدَ كـي يتأكد من أنّه مات. كومةٌ من الخرقِ السوداء، الوجـه الجـافُّ لامـرأة مسنّة، جدّة. 266

يلعنُ ميلرْ، ضررٌ جـانبيّ، يُفكّـر، لكنّـه لـيس متأكّـداً، شـيء مـا أخفق. يستعدُّ للخروج، لكِنّـه يلحـظ بطـرف عينـه شـيئاً في الطـرف الآخرِ من الغرفة، متماهياً مع العتمة، يدور بسرعة فيكشف مصباحه أحداً قابعاً ووجهه إلى الجدار. يتواجهان على بعد أمتار قليلة. يـأمره هوَ صارخاً بألا يتحرّك، لكنّ الشخصَ ينتصب بصوت أجـشٍّ، كأنّـه النحيب، ويرى أنّه يحمل شيئاً في يدهِ، سـلاحاً. لا يـتردّد، يضـغط على الزناد فترفعُ صدمةُ الطلقات العدوَّ عن الأرض ويلطخ دمُهُ وجهَهُ. يبقى بلا حراك، ينتظر، بإحساس أنّه في مكان بعيـدٍ جـدّاً، يُراقـبُ المشهدَ غير مبال على شاشةٍ. فجأة يخنقه تعبٌ مُباغت ويشعر بالعرق والتنميل، الذي يلي تفريغ شحنة الأدرينالين في الجلد.

يُقرّر الجندي في النهاية أنه ما عـاد هنـاك خطـر، يقـتربُ. إنّهـا امرأة شابّة. لم تلمس الطلقـاتُ وجههـا، إنّهـا شـابة وجميلـة جـداً، شعرها المتماوج والداكن ينسـكبُ حـول رأسـها، عيناهـا مفتوحتـان، عينان واسعتان وصافيتان مؤطرتان بأجفان وحاجبين سـوداء. ترتـدي عباءة خفيفة، تبدو ثوبَ نوم، حافية وإلى جانبها على الأرض سكين مطبخٍ عاديّة. تحت العباءة يبرز بطن كبير فيُدرك أنّها حامـل. تنظـرُ المرأة إلى عينيه فيدرك ميلـرْ أن أمامهـا لحظـاتٍ مـن الحيـاة وأنّـه لا يسـتطيع أن يفعـل شـيئاً لأجلـها. تغـيم العينـان الصـافيتان. يشـعر الجنديُّ بفمِهِ يمتلئ لعاباً فينحني محاولاً التحكم بغثيانه.

مرُت دقيقتان أو ثلاث دقائق تقريباً على رفس ميلرْ للباب وانتهى كلّ شيء. عليه أن يتابع، أن يُمهّدَ بقية القرية، لكن عليه قبل ذلـك

أن يتأكّد من أنّه ما من أحد آخر في الدار. يسمع أتيلا يُزمجر، يبحثُ عنه بمصباحه فينتبه إلى أنّ الكلبَ خلف الموقد، حيث توجدُ حجرة صغيرة، مكان لا نوافذ فيه وعلى الأرضية قشٌّ، تفيد كغرفة مؤونة. يرى قطعاً من اللحم المُدَخَّن متدليةٍ من كلابات، كيس فيه نوع من الحبوب، ربّما كان أرزّاً أو قمحاً، زوجاً من أواني الزيت وبعض قلل مربى الدراق، لا شك حصلوا عليها من التهريب لأنّها شبيهة بتلك الموجودة في حانة القاعدة الأمريكية.

أتيلا مستعدّ للانقضاض وميلرْ يأمره بالتراجع، بينما هو يتفحّص بالنور الجدران الطينيةَ غير المستوية، يُزيح بعدها بقدَمِه القشّ ويتبيّن أنّ الأرضية ليست ترابية كما هو حال بقيّة البيتِ بل خشبية. يفترض أنّ من الممكن أن يوجدَ تحتها أيّ شيء، بدءاً من المتفجرات وحتى المدخل إلى كهف إرهابيين، ويعرف أنّ عليه أن يطلبَ تعزيزات قبلٍ أن يتابع بحثه، لكنّه متوتّر فيضع من دون أيّ قصد واضح، ركبةً على الأرضية مُحاولٍ أن ينزعٍ الألواحِ بيدٍ ويمسك الإم 4 باليد الأخرى. لا يحتاج لأن يُعالجها كثيراً ثلاثة ألواح انتُزِعت معاً. إنّها بوّابة.

ينهضُ بقفزةٍ واحدةٍ ويُسدّدُ على الحفرة، واثقاً من أنّ أحداً ما يختبئ هناك، صارخاً بالإنكليزية أن اخرجْ، لكن ما من جواب. يوجّه شِاعَ المصباح ويده على الزناد وعندها يراهما: أوّلاً الطفلةَ ومنديلاً معصوباً على رأسها، تنظر إليه بعينيٍّ أمّها ذاتهما، منكمشةً على نفسهاٍ في فجوةٍ لا تكاد تتسع لها، ثم الطفل الذي يحمل بين يديه رضيعاً ابن سنة أو سنتينٍ ومصاصة في فمه: "العمى، العمى، العمىَ" تمتم الجنديّ كأنّه يُصلي ويجلس على ركبتيه بجانب الفجوة وكماشة تشد على صدره لا تكاد تسمح له بالتنفس. تكهّن بأنّ الأمّ خبّأت الأطفالَ وأمرتهم بأن يلزموا الهدوء والصمت بينما هي تستعد للدفاع عنهم بسكينِ مطبخٍ مثلوم.

يبقى جنديّ النخبة على ركبتَيْهِ عالقاً بالنظرة المُخدَّرة لتلك الطفلة الرصينة التي تلفّ أخاها بذراع وتحميه بجسدها. سمع كلّ أنواعِ

القصص، العدوّ لا يرحم، يحوِّل النساءَ إلى إرهابياتٍ انتحارياتٍ ويستخدم الأطفالَ دروعاً. عليه أن يتأكد مما إذا كانت الطفلة والرضيع يسدان المدخلَ إلى نفق أو إلى مستودع للمتفجرات. عليه أن يجبرهم على الخروج من الحفرة، لكنّه لا يستطيع أن يفعل. ينهضُ أخيرا، يرفع إصبعاً مُقفزا إلى شفتيه كي يشير إلى الطفلة أن تلتزم الصمت، يُغلق الفتحة يُغطيها بالقشّ ويخرج مترنّحا.

باءت المهمّة في أفغانستان بالفشل، لكن أحداً لم يعلم بها غير الأمريكيين والأفغان. لو أنّ ذلك المكان النائي كان عشَّ إرهابيين، لوُجِد من يُخبرهم قبل وقتٍ ولكان باستطاعتهم أن يُفككوا منشآتهم ويختفوا دون أن يتركوا أثراً. لم يعثروا على أسلحة ولا متفجرات، لكن بما أنّه لم يكن هناك غير عجائز ونساء وأطفال فقد اعتبروا هذا دليلاً كافياً على أنَّ شكوك المخابرات المركزية الأمريكية مُبرَّرة. أسفر الهجومُ عن أربعة جرحى أفغانيين، واحد منهم في حالة خطرة والمرأتين القتيلتين في البيت الأوّل. رسميّا الهجومُ على القرية لم يحدث قط، لم يقمْ أيٌّ تحقيق وإذا كان هناك من سأل لكانت أخوّة جنود النخبة أعطت جواباً وحيدا. لكنّ أحداً لم يسأل. كان على ريان ميلرْ أن ينوء بثقل أعماله، ورفاقه لم يطلبوا منه توضيحاتٍ، انطلاقا من قاعدة أنّه قام بما أشير به إليه نظرا للظروف وأطلق النار دفاعاً عن الذات أو تحسّباً. "سيطرَ الآخرون على القرية بأدنى حدّ من الضرر، وحدي فقدتُ السيطرة على أعصابي"، اعترف ميلرْ لإنديانا. كان يعرف أنّ المعركة فوضوية والمخاطر هائلة. يمكن أن يُجرح، أن ينتهي بأذية دماغية أو إعاقة، يموت وهو يقاتل، أن يأسره العدوّ، يعذّبه ويعدمه، لم يكن عنده أوهام فيما يتعلق بالحرب، لم يدخل تلك المهنة لأنّه يُفكر باللباس الموحّد، الأسلحةِ والمجد، بل لأنّه يهواها. كان مُعدّاً لكي يُقتَلَ أو يَقتِلَ، فخورا بانتمائه إلى أبهى أمّة في التاريخ. لم يشعرَ قط بوفائه يَهنُ، كما لم يضع التعليمات المتلقاة موضع شك، لا ولا الطرق المستَخدمة لبلوغ النصر. كان يتحمَّل مسؤولية أن عليه أن يقتل مدنيين، فهذا ما لا

مناص منه، في كلّ حرب حديثة يموتُ عشرة مدنيين مقابل كلّ جنديّ. في العراق وأفغانستان نصف الأضرار الجانبية كان سببها هجمات الإرهابيين والنصف الثاني نيران الأمريكيين. ومع ذلك فنوع المهمّة التي كان أوكِلت إلى مجموعته لم تتضمّن قط مع مواجهة نساء وأطفال عزّل.

بعد تلك الليلة في القرية، لم يملك ميلْز وقتاً كي يُحلِّلَ ما حدث، لأنّ مجموعته أُرسلت على الفور إلى مهمّة أخرى، هذهِ المرّة فِي العراق، وكنسَ تلك الأحداث إلى أكثر وزايا دماغه غباراً ونسياناً وتابع حياته. ما كانت لتؤلمه طفلة العينين الخضراوين إلا بعد مضي عام حين استيقظ من التخدير في مستشفى في ألمانيا وكانت هي جالسة على كرسي معدنيّ صامتة وجدّيّة وأخوها في حضنها، على بعد خطواتٍ قليلةٍ من سريره.

أصغت إنديانا إليه وهي ترتعد تحت دثارها المكسيكي في رطوبة الغابة الباردة، دون أن تسأل، لأنّها هي أيضاً كانت خلال الحكاية في تلك القرية في تلك الليلة، دخلت إلى الدار خلفَ ميلزْ وأتيلا وما إنِ ذهبا هما حتى دخلت إلى الفجوة تحت ألواح الخشب وبقيت محتضنة الأطفالَ إلى أن انتهى الهجوم وجاءت نساء أخريات أخذن جثّتَيّ الجدّة والأم، ناديْنهم وبحثن عنهم حتى عثرن عليهم واستطعن إخراجهم من ملجئهم وبدأن المأتم الطويل حزناً على الميتتين. كلّ شيء يحدث بالتزامن، لا يوجد زمن، لا توجد حدود في الفضاء، نحن جزء من الوحدة الروحية التي تحتوي على الأرواح التي تجسّدت من قبل وعلى أرواح الساعة وأرواح الغد، جميعنا قطرات من المحيط ذاته، ردّدت بصمت، كما فعلت وشعرت مرّات كثيرة في التأمّل. التفتت إلى ميلزْ، الجالس إلى جانبها على الجذع منحنيَ الرأس ورأت أنّ خدّيه مُبللين بأوّل قطراتِ المطر وربّما الدموع. مدّت يدها كي تمسحها له بحركة هي من الحميمية والحزن جعلت الرجل يُزفرُ أنيناً.

– أنا مُدَمّر، يا إندي، مُدمّرٌ في الداخل وفي خارجي، لا أستحقُّ حبَّ أحدٍ وخاصّة حبَّك.

– إذا كنتَ تعتقد ذلك فأنت أكثر إنهاكاً مما تُفكّر، لأنّ الشيء الوحيد الذي سيشفيكَ هو الحبُّ، ما دمت تفسح له الطريق. أنت عدّو نفسك، يا ريان. ابدأ بالغفرانِ لنفسك، لأنّك إن لم تغفرٍ لنفسك ستعيش دائماً أسيرَ الماضي، تعاقبُكَ الذاكرة، التي هي دائماً ذاتية.

– ما فعلته حقيقيٌ، ليس ذاتياً.

– من المحال تغييرُ الأحداث، لكنّك تستطيع أن تغيّر طريقتك بالحكم عليها –قالت إنديانا.

– أحبّك إلى حدٍّ أن أنّ حبّك يؤملني. يؤلمني هنا في وسط جسدي، كما لو أنّ لوحاً حجرياً يسحق صدري.

– الحبُّ لا يؤلمُ، يا رجل. هذا الذي يسحقك هو جراح الحرب، الندم، الذنب، كلّ الذي رأيته والذي كان عليك أن تفعله. لا أحد يخرجُ سليماً من تجربة كهذه.

– ماذا سأفعل؟

– أولاً سنترك الغربانَ تأكلُ هذا الفروج، الذي ما زال نيئاً وسنذهبُ نحن إلى السرير لنمارس الحبّ. فهذا دائماً فكرة جيّدة. أنا متجمّدة والدنيا بدأت تُمطر بجدّ، وأنا بحاجة لأنّ أكون متدثّرة بذراعيك. ستتخلى عن الهروب سريعاً، يا رِيان، لأنّه من غير الممكن التهربّ من بعض الذكريات، دائماً تدركك. عليك أن تتصالح مع نفسك ومع طفلة العينين الخضراوين. نادِها كي تأتي وتُصغي إلى قصّتَك، اطلب عفوها.

– أناديها؟ كيف؟

– بتفكيرك، وفي طريقك تستطيع أن تنادي أمّها وجدّتها، اللتين لا بدّ أنّهما هنا تطفوان بين أشجار السِكويا. لا نعلم ما اسم تلك الطفلة، لو عرفناه لكان من الأسهل علينا أن نُكلّمها. لنقل إنّها تدعى شربات، كفتاة العينين الخضراوين التي ظهرت على غلاف ناشينوال جيوغرافيك الشهير.

– ماذا أستطيع أن أقول لها؟ هي فقط في رأسي، يا إندي. لا أستطيع أن أنساها.

- هي أيضاً لا تستطيع أن تنساك، لذلك تأتي لزيارتك. تصوّر ما كانت بالنسبة إليها تلك الليلة، قابعة في حفرة ترتعد رعباً أمام غاز من الفضاء الخارجي عملاق وحيوان ضار مريع مستعد لأنّ يمزّقها. ورأت بعدها أمّها وجدّتها نازفتين. لن تستطيع أن تخرج من هذه الصور الرهيبة من دون مساعدتها، يا ريان.

- كيف سأساعِدُها؟ حدث هذا قبل عشرين سنة على الطرف الآخر من العالم —قال هو.

- كلّ شيء متواصل في هذا الكون. انسَ المسافات والزمن، وخذ بالحسبان أنّ كلّ شيء يحدث في حاضر أبديّ، في هذه الغابة ذاتها، في قلبك، كلمْ شربات، اطلبْ غفرانها، وضّح لها، قلْ لها إنّك ستذهبُ لتبحثَ عنها وعن أخيها وستحاول مساعدتهما. قل لها إنّك إذا لم تعثر عليهما، ستُساعدُ أطفالاً آخرين مثلهما.

- ربّما لا أستطيع أن أفي بهذا الوعد، يا إندي.

- إذا كنت لا تستطيع، فسأذهب أنا بالنيابة عنك —ردّت هي وأخذته من وجهه بكلتا يديها وقبّلتْهُ على فمه.

الاثنين، 20

للتملّص من الشرطةِ كانت مصارعةُ الكِلاب تُقامُ في أماكن مختلفة. كانت إلسا دومينْغِث قد أخطرت رئيسَ المُفتّشين أنّه سيكون هناك مصارعة في يوم الاثنين، الثالث من الشهر، مستغلين عطلة يوم الرؤساء، لكنّها لم تتمكن من أن تقول له أين. نجح بوب مارتين في أن يجعل أحد مُخبريه يَتَحَقق من ذلك وأعلم زملاءه في مديرية شرطة سان رافائل ليحكي لهم ما كان سيجري ويعرضَ عليهم تعاونه. العناصر الذين كان عندهم ما يكفي من مشاكل مع جرائم أخرى لعصابات كنال، لم تهمّهم المسألة كثيراً، على الرغم من أنّهم كانوا يعرفون أنّ مصارعة الكلاب مفتوحة على مشاجراتٍ وسكرٍ وبغاءٍ

وتجارة مخدرات، إلى أن جعلهم بوب مارتِين يرون ميّزة أن يظهر خبرٌ مثل هذا في الصحافة. كان الجمهور يُظهر تعاطفاً مع الحيوانات أكثر مما مع الأطفال. كان هناك كاتبة تحقيقات ومُصوِّر من الصحيفة المحليّة مُستعِدَّيْن لمرافقتهم في جولتهم، المبادرة التي خطرت لِبترا هورّ، لأنّها كانت تعرف الصحفيَّيْن وفكرت أنّه قد يهمّهما أن يُشاهدا ما كان يجري على بعد عدة كتل من الأبنية من بيتهما.

لم يكن جميعُ أصحاب كلاب المصارعة أشراراً ماجنين، بعضهم كانوا فتياناً زنوجاً أو مهاجرين لاتينيين وآسيويين بلا عمل، يُحاولون أن يَكسبوا عيشَهم من أبطالهم. لتسجيل كلب غرّ في مصارعةٍ كان يجب استثمار ثلاثمئة دولار، لكن ما إن يُصَنَّف هذا الكلب بعد أن يفوز على عدد من خصومه حتى يبدأ صاحبه يقبض لأنّه يجعله يصارع، كما أنّه كان يربح من المراهنات. كانت "الرياضة"، كما كانوا يُسمّون هذه التسلية السرّية، من الدموية بحيث أنّ كاتبة التحقيق كادت تتقيّأ عندما أرتها بترا فيديو إحدى المصارَعات وصور الكلاب المحتَضَرة التي انْتُزعَت أحشاؤها نهشاً بالأسنان.

كان هوغو دومينْغث يملك مع فتية آخرين كلبَ ماستين واعداً يزن خمسة وأربعين كيلوغراماً، هجيناً من روتويتر، رُبِّيَ على اللحم النيّئ دون احتكاك بحيوانات أخرى ولا عطف إنسانيّ، كانوا يُدرّبونه ويحملونه على الركض لساعات إلى أن لا تعود سيقانه تقوى على حمله، وكانوا يحثونه على أن يُهاجم ويجنّنونه بالمخدرات والفلفل الحارّ في مؤخرته. كلما ازداد عذاب الحيوان ازدادت ضراوته أكثر. كان أصحابه يذهبون به إلى أفقر أحياءٍ أوكلاند وريشموند، حيث توجد كلاب شاردة، يربطون كلبةً في هياج جنسيّ إلى شجرة وينتظرون إلى أن تقترب كلاب شاردة كثيرة مشدودة إلى الرائحة وعندها يصطادونها بشبكة، يضعونها في صندوق سيارة خلفي ويحملونها كي يُدرّبوا عليها الروتويلر.

احتُفِلَ في ذلك الاثنين بذكرى جورج واشنطون المولود في شباط 1732 وشملوا معه بالمناسبة كلَّ رؤساء الولايات المتحدة، عملوا

تنزيلات في المحلات ورفعوا الأعلام وقدموا البرامج الوطنية في وسائلِ الإعلام والكرنفالاتِ للأطفال في الحدائق العامّة. كان النهارُ غائماً وحلّ الظلامُ باكراً. في السابعةِ والنصف مساءً حين انضمَّ بوب مارتين إلى شرطة سان رافائِلِ للبدء بالمُباغتة كان الليلُ قد أطبق. كانت بترا هورّ مع صديقتها المُحَققة الصحفية والمصوِّر يتبعان عن قرب قافلة من خمس سيارات، ثلاث منها تابعة لشرطة سان رافائل واثنتين لشرطة سان فرانسيسكو، وصلت بصمت ومن دون أضواء إلى المنطقة الصناعية للمدينة، المقفرة في تلك الساعة.

على مقربةٍ من مستودعٍ قديم لموادِّ بناءٍ مهجور منذ بضع سنوات رأوا سياراتٍ مصفوفةً علـى طولِ الشارع فأدرك بوب كارتين أنّ معلومةَ مُخبره صحيحة. كان مديناً بمعظم نجاحاته في مرحلة عمله إلى الوشاة، فَمن دونهم كان عمله سيكون صعباً جدّاً ولذلك كان يحميهم ويُحسنُ معاملتَهم. قام ضابطان بأمر منه بأخذ أرقام السيارات التي يمكن أن يعرفوا أصحابها فيما بعدً، وانتشر آخرون بحذر حول المستودع، مغلقين المخارج المحتملة. بينما ترأسَ هو مجموعَة الهجوم. كان يُخطط لأن يقتحم المكان بشكل مباغت، لكنّ كانت لمنظمي المصارعة مراقبتهم الخارجية.

سُمِعت صيحات استنفار بالإسبانية. وعلى الفور حدث اندفاعٍ رجالِ راحوا يتدافعون باتجاه المخارج متجاوزين الشرطة عدداً وقوّةً، تتبعهم بضعُ نساء شابات يصرخن ويدافعن عن أنفسهنّ خمشاً ورفساً. خلال ثوان اشتعلت أضواء سيارات الدورية وبدأت جلبة أوامرَ وسبابٍ وضربِ عصيّ بل وبعض الطلقاتِ في الهواء. على الرغم من أنّهم ألقوا القبض على بضعة عشر رجلاً وخمسِ نساء، إلا أنّ البقيةَ نجحت بالفرار.

في نوعٍ من العنبر، حيثٍ كان ما يزال يُشاهد بعض أكوام القرميد وقضبانِ الحديد الملوي في جو من دخانِ التبغِ الكثيف ورائحةِ العرقِ

الإنساني والدمِ والبرازِ كان هناك نوع من حلبة مُصارعة، تقاربُ أبعادُها الثلاثةَ بثلاثةِ أمتار مع ألواح خشبية بارتفاع متر وعشرين سنتيمتراً تفصلُ الجمهورَ عن الحيوانات الهائجة، ولكي يتفادوا أن تنزلقَ أرجلُ الكلاب فرشوا أرضيةَ المُربّع بموكيت عاديّ مصبوغ بالدم مثله مثل خشب الحظار. كان هناك بَضعة الكلاب لم تُشارك بعدُ في المصارعة تنتظرُ في أقفاص أو مربوطة بسلاسل، وكان هناك في طرفِ من المستودعِ كلبان يُحتضران مرميين مهزومين. أمر بوب مارتين جمعيّة رعايةِ الحيوان التي كانت تنتظر مع طبيبين بيطريَّيْن في عربة كي يأتوا تلبيةً لدعوته.

لم يُحاول هوغو أن يهربَ من الشرطة، كما لو أنّه كان يعرف أنّ مصيرَهُ محتوم. كان الشك قد بدأ ينتابه منذ أن رجته أمّه وأختاه، اللواتي تعلّمن ألا يتدخّلن في حياته، ألايخرجَ من البيت في تلك الليلة. "يعتريني حدس سيّئ" قال لأمّه، لكنّه عرف من النبرة المداورة والنظرة الفرورة أنّه كان أكثر من حدس، كان خيانةً. ما الذي كانت تعرفه نساء عائلته؟ ما يكفي لتدميره، كان واثقاً. كنَّ يعرفن بوجود الروتويلِر، وكنّ قد اكتشفن حقيبته والمحاقن وبقية المعدات، التي خلطوا بينها وبين أدوات للمخدرات وأحدثن فضيحة أجبرته على أن يُوَضّح لهن أنّها أدوات إسعاف أوّلية. أصحاب الكلاب لا يستطيعون أن يحملوا معهم الكلاب الجريحة إلى طبيب بيطري لأنّه سيكتشف العضات. كان عليهم أن يتعلّموا خياطتَها وتضميدها وحقنها في أوردتها بسوائل ومضادات حيوية. كانوا قد وظفوا وقتاً ومالاً في المباريات، عليهم أن يُحاولوا إنقاذها، إذا كان هناك أمل وإلا رموها في القنال أو تركوها على طريق سريعٍ كي تموت دهساً. لا أحد كان يُحققُ في موتِ كلبٍ، مهما كان ممزّقاً بالعض. ما لم تكن تعرفه أمّه وأختاه هو أنّهنّ بإخبار الشرطة حكمن عليه وعلى أنفسهنّ بالموت، لأنّه إذا علم الجنوبيون أو زعماء دائرة مصارعات الكلاب واثنان من الكوريين الذين لا يعرفون الرحمة، بالخيانة، سيدفعُ

الجميع الثمنَ دماً بما في ذلك أولاد الأختين، والزعماء دائماً يعلمون بكلّ شيء.

وجد المفتّشُ هوغو دومينغِثْ ينتظرُ قابعاً في زاويةٍ خلف أكياس رمل. فكّر أنّها الطريقة الوحيدة كي يُبعد الشكوك عنه وعن عائلته هيَ أن يعتقلوه. كان في السجن أكثر أماناً من الخارج، فهناك باختلاطه باللاتينيين يمكن ألا ينتبه إليه أحدٌ، فهو لن يكون أوّل جنوبيّ يقع في سان كينتين. في نهاية مدّة سجنه ينتظره الترحيل. ماذا كان سيفعل في غواتيمالا، البلد المجهول والمعادي؟ الانضمام إلى عصابة أخرى، ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك.

- أيُّها بطلك، يا هوغو؟ سأله بوب مارتين وقد أعماهُ بشعاع مصباحه.

أشار الفتى إلى أحد الكلاب المقيّدة، حيوان كبير وثقيل، مُعَلّم بالندوب شامِر جلد المخطم كأنّه محروق.

- ذلك الكلب الأسود؟
- نعم.
- قبل أسبوعين، الثلاثاء 7 شباط، فاز كلبك في مصارعة مهمّة. وضعت في جيبك ألفي دولار والجنوبيون أخذوا مثلها بعد دفع العمولة للكوريين.
- أنا لا أعرف شيئاً، أيّها الشرطي الكريه.
- لستُ بحاجة لاعترافك. مصارعاتُ الكلاب جريمة مقرفة، لكنّها يا هوغو أفادتك كي تنجو بجلدك من شيء أكثر خطورة: مقتل راشيل روسين. استدرْ وضعْ يديك خلفك —أمره بوب مارتين والقيد جاهز.
- قل لأمّي إنّني لن أغفر لها أبداً —قال الفتى بدموع الغضب.
- لم يكن لأمّك أي علاقة بهذا، يا أهبل،قليل الأدب. سوف تمزّقُ قلب المسكينة إلسا.

الجمعة، 24

كان بيتُ ثِلِسْتِ روكو "غادةً" من "الغادات المزوّقات"في حي هايت- أشبوري وواحدا من الثماني وأربعين ألف مسكن من الطراز الفكتوري والإدواردي التي نبتت مثل الفطر في سان فرانسيسكو ما بين عامي 1849 و1915، وقد جيء ببعضها قطعاً قطعاً من إنكلترا ورُكب مثل قطع الأحجيات. وكان بيتها تحفة عمرها أكثر من مئة عام، بُني بعد زلزال 1906 بقليل، ومرّ بمراحل متعاقبة من العظمة والانحطاط. تعرّض ما بين الحربين العالميتين لإهانة أنّه طلي بلون السفن من فائض طلاء البحرية الرمادي، لكنّه أُعيد تشكيله في عام 1970 ودُعِمَت أساساتُهُ بالإسمنت المسلح وطُلي بأربعة ألوان، الأزرق الغامق في الخلفية والأزرق السماوي والفيروزي في الزخارف الناتئة، والأبيض في أطر الأبواب والنوافذ. كان البيت مظلما وغير مريح بمتاهة غرف صغيرة وأدراج شديدة الانحدار، وقد قُدّر ثمنه حديثاً بمليوني دولار لكونه من ميراث المدينة التاريخي ونقطة جذبٍ للسياح. كانت روكو قد اشترته بأقل من ذلك بكثير، من مدخراتها، ثمرة استثمارات جيّدة بفضل تنبّؤاتها الفلكية في وول ستريت.

صعدت إنديانا درجاتِ البسطة الخمس عشرة، قرعت الجرس، نغمة أجراس فيينّيةِ الذوق لا نهاية لها وسرعان ما فتحت لها عرّابةُ ابنتها البابَ. كانت ثِلِسْتِ روكو قد اختيرت عرّابةً لأماندا نظرا لصداقةِ السنوات الطويلة مع دونيا إنكارناثيون مارتين ولكونها كاثوليكية مُحافظة، على الرغم من أنّ الفاتيكان كان يُدين التنبّؤ. كان جَدّا ثِلِسْتِ كرواتيّين تعارفا وتزوّجا في السفينة التي تركتهما في إليس أيسلند في نهاية القرن التاسع عشر. استقرّ الزوجان في شيكاغو، المسماة بجدارة عاصمة كرواتيا الثانية، نظرا للعدد العالي من المهاجرين الذي وصل إلى المدينة من ذلك البلد. العائلة التي بدأت بالعمل في البناء وفي معامل الملابس راحت تنتشر في ولايات أخرى وتزدهر في كلّ جيل، وخاصّة الفرع الذي وصل إلى كاليفورنيا وأثرى

من محلات المأكولات. كان والد ثِلِسْتِ أوّل من ذهب منهم إلى الجامعة ثمّ تخرّجت هي بعد ذلك في الطبّ النفسي، المهنة التي مارستها لزمن قصير، إلى أن اكتشفتْ أنّ التنجيم كان أقصر طريقة لمساعدة الزبون وأكثر فاعلية من التحليل النفسي. وبلغ الجمعُ بين المعارف الأكاديمية والتنجيم في المحصّلة من النجاح حدّ أنها سرعان ما وجدت أنّ الزبائن الذين كان عليهم أن ينتظروا أشهرا من أجل استشارة يفيضون عنها. عندها خطر لها البرنامج التلفزيوني، الذي مضى عليه خمسة عشر عاماً على الأثير. بدأت بعدها تُقدِّمُ خدماتها عبر الشبكةِ العنكبوتية بمساندة فريق من الشباب. كانت تظهر على الشاشة في طقم داكن، دقيق التفصيل، وقميص أبيض وطوق من اللؤلؤ الكبير كبيض السلحفاة، وشَعر أشقر مجموع فيّ لفةٍ أنيقةٍ فوق النقرة ونظارةٍ بعدستَين قديمتين على شكل عيني هرّ، لم تُستخدم منذ 1950، وكانت صورتها تشبه صورة طبيبة نفسية يونغية فاتت تقليعتها، لكنّها كانت ترتدي في منزلها كيمونوات اشترتها من بركلي. لم يكن الكيمونو، الذي له شكلُ حرف التاء اللاتيني وكمّان عريضان، والطبيعي جدا بالنسبة للغيشا، يُوافقُ جسمها الكرواتي، لكنّها كانت ترتديه بكثير من الأناقة.

تبعت إنديانا ثِلِسْتِ عبر أدراج أخرى إلى صالة صغيرة سداسية الشكل، حيث جلست تنتظر مضيفتها، التي أصرّت على أن تقدّم لها الشاي. بدا لها جوّ البيتِ القديم ضاغطاً بحرارة تدفئته العالية جداً ورائحةِ سجاده المتعفن وأزهاره الذابلة ونور مصباح خزفه وشاشته الصفراء، والحضور الهادئ لسكانه القدماء، الذين كانوا يعبرون الجدران ويستمعون إلى الأحاديث من الزوايا.

عادت ثِلِسْتِ بعد دقائق من المطبخ وكُمّا الكيمونو يرفرفان مثل الأعلام ومعها صينية فيها فنجانان من الخزف الصيني وإبريق من الحديد الأسود. رفعت غطاء الإبريق كي تستنشق إنديانا عبقَ الشاي الفرنسي ماركو بولو، مزيج الفواكه والأزهار، واحدة من الكماليات الممتعة في حياتها كامرأة وحيدة. صبّت المشروب وجلست متربعة مثل فقير هنديّ على أحد الكراسي الكبيرة.

نفّست إنديانا بينما كانت تنفخ في الفنجان عن مشاغلها، بالثقة المكتسبة عبر سنين كثيرة من العلاقة العائلية والاستشارات الفلكية، دون أن تدخل في التفاصيل، لأنّ العرّابة كانت على اطلاع بما جرى لها مع ألان كِلرْ. هتفت لها إنديانا في اليوم التالي لتَلَقيها المجلة التي ستنهي أربعَ سنوات من الحبّ السعيد. حاولت ثِلِسْتِ أن تقلص بعد ذلك الحادث إلى حدوده الدنيا، لأنّه كان يقلقها أن تبقى إنديانا عازبة وهي في الثلاثين ونيّف من عمرها؛ فالشباب يمرّ سريعا وشيخوخة المرء وحيداً مسئمة، قالت لها وهي تُفكّر بأن حياتها ذاتها ستكون أسعد إلى جانب بلاك جاكسون، مؤسفٌ أنّ الرجل عنده ميل للترمُّل. ومع ذلك فالخيانة بالنسبة لإنديانا كانت سببا أكثرَ من كافٍ كي تصرف حبيبها. كانت ثِلِسْتِ قد انتهت للتوّ من قراءة طالع ريان ميلر، الذي لم تره قطّ،بناء على طلبها.

– لِيلِرْ هذا مظهر ذكوري جدّاً، صحيح؟
– —صحيح.
– ومع ذلك ثمانية من كواكبه موجودة في منطقة الأنثى.
– لا تقولي لي إنّه مثليّ! —صاحت إنديانا.

وضّحت لها ثِلِسْتِ أن الأبراج لا تُشير إلى ما يُفضّله الشخص جنسيّاً بل فقط إلى قدره وطبيعته وطبيعة ميلرْ فيها ملامح أنثوية قوية، فهو خدومٌ، ودودٌ، حامٍ يكاد يمكن القول بأنّه أوميّ، الشروط المثالية لكي يكون طبيبا أو مُعَلِّماً، لكنّ ميلرْ محاصَرٌ بعقدة البطل وفي طالع نجومه تناقضات ملحوظة، لذلك لم يُقِم وزنا لأمر النجوم ولا لطبيعته ذاتها وكان يعيش ممزّقاً بين مشاعره وأعماله. ضاع بين تسلط الأبِ واكتئاب الأمّ والحاجة لأن يُجرِّب رجولته وشجاعته، ذكاءه في أن يحاط بالرفاق الأوفياء بالتجربة، نزعته للإدمان والتهوّر. بل وأشار الطالعُ إلى لحظة مفصلية في حياته نحو العام 2006، لكنّه لم يذكر أنّه كان جنديّاً أو أنّه فقد رجله وكان على وشك أن يموت.

- أنتِ تعشقينه –استنتجت؟؟ ثِلِسْتِ روكو.
- هل هذا ما تقوله الكواكب؟
- هذا ما أقوله أنا.
- العشق بمعنى العشق ربِّما لا، لكّنه يشدّني كثيراً. إنّه صديق عظيم، لكن من الأفضل ألا أُفكر بالحبّ، فهو يأتي بكثير من التعقيدات. والحقيقة أنّ عندي أنا أيضاً تعقيداتٍ، يا ثِلِستِ.
- إذا تمسّكت به فقط كي تنسي ألان كلر فإنّك ستمزّقين قلب الفتى الطيّب.
- حدثت له أشياء سيّئة كثيرة. إنّه عقدة من الندمِ والذنبِ والعدوانيةِ والذكرياتِ السيّئة والكوابيس، ريان يضيقُ بنفسه.
- كيف حاله في السرير؟
- جيّد، لكنّه يمكن أن يكون أفضلَ بكثير وبالمقارنة مع ألان كِلِّرْ يبقى كل الرجال خلفه .
- خلفه؟ –سألتِ روكو.
- لا تسيئي الظّن. أريد أن أقول إنّ ألان يعرفني، يعرف كيف يُعاملني، رومانسي، واسع الخيال ورقيق.
- هذه أشياء يمكن تعلمها. هل هذا الميلِّرْ عنده حسّ الفكاهة
- إلى هذا الحدّ أو ذاك.
- يا للأسف، هذا لا يُتَعلَّم، يا إنديانا.

شربتا فِنجانين من الشاي واتفقتا على أنّ مقارنة بين طالعَي إنديانا وميلرْ قد تُوضّح بعض النقاط. أعطتها ثِلِسْتِ قبل أن ترافقها إلى الباب عنوانَ الراهب الذي يغسلُ الكارما.

السبت، 25

كانت أماندا تغزو المطبخَ مرّة في العام لهدف أكثر جدّية (من تسَخين فنجان شوكولاتة في الميكرويف، ألا وهو الشروع بمهمّةِ

تحضير حلوى الرقائق وحلوى الحليب[20] لعيد ميلاد جدّتها إنكارناثيون، هي قنبلة من صفار البيض والزبدة والسكر. كان ذلك مشروعها الوحيد في المطبخ، وإن كانت المهمة الشاقة في الحقيقة من نصيب إلسا دومينغِثْ: عجن الرقائق الناعمة وخبزها. هي فقط كانت تقوم بغلي أربعة أكواب حليب مكثف في قدر من أجل صناعة الحلوى ثم تركيب التورت ووضعِ الشموع في المُنْتَجِ المنتهي.

إنكارناثيون مارتين، التي كانت ما تزال تطلي شفتيها بالأحمر وتصبغ شعرها بالأسود، وتحتفل منذ عقد من الزمان بذكرى ميلادها الخامس والخمسين عاماً بلا تبدّل، هذا يعني أنّها أنجبت أوّل ولدٍ لها في التاسعة من عمرها، لكنّ أحداً لم يتوقّف عند هذه الحسابات الشحيحة. أيضاً لم يكونوا يحسبون عمر أمِّ إنكارناثيون، والدة الجدّة، التي بقيت راسخة أمام مرور الزمن، مستقيمة مثل شجرة حور بكعكةِ شعرها المضغوطة وبؤبؤيها اللذين لنسر، القادرين على رؤيةِ المستقبل. كان يُحْتَفل بعيد ميلاد إنكارناثيون في نهاية آخر أسبوع من كلّ شباط بسكرة في "اللاتيني المجنون"، وهو ناد لرقص السالسا والسامبا، كان يغلق أمام الزبائن من أجل استقبال مدعوّي آل مارتين. وكانت الحفلة تتوّجُ بوصول فرقة من شيوخ المارياتشي[21]، أعضاء الفرقة الأصلية لخوسِهْ مانول مارتين، الزوج المتوفى منذ زمن طويل. كانت إنكارناثيون ترقصُ حتى لا يبقى رجل واحدٌ واقفاً كي يُرافقها، بينما أمّ الجدّة تُراقب من عرشها المرتفِع، كيلا يفقد أحدٌ، مهما كان سكراناً، الحشمة. إليها كانوا يُقدّمون الاحترام لأنّها بمعمل حلوياتها،

---

[20] نوع من الحلوى يصنع في عموم أمريكا الجنوبية وحيث يوجد هؤلاء وأساسه الحليب والسكر المحروق وتُغطى به في كثير من الأحيان قوالب الحلوى.

[21] Salsa مصطلح بُدئ باستخدامه في نهاية الستينيات من القرن المنصرم وهي حصيلة تأثيرات موسيقية كوبية وعناصر موسيقية كاريبية وأمريكية لاتينية بعامة وجاز.

Samba هي نوع من الموسيقى ذات الأصول الأفريقية التي نشأت وتطوّرت في البرازيل وولدت رقصة تعرف بهذا الاسم

Mariachi نوع من الموسيقى التقليدية أصلها من غرب وشمال المكسيك وانتشرت في العالم كلّه لاحقاً.

المؤسّس عام 1972 أنعشت العائلةَ وبدّلت عدّة أجيال من العمال وجميعهم كانوا من المكسيك ومن أمريكا الوسطى.

كانت تورتا حلوى الحليب، غير القابل عمليّاً للتخريب، تزن أربعة كيلوغرامات هذا دون أن تُحسب الصينية، وتكفي لتسعين شخصاً، لأنّها كانت تُقطّعُ إلى شرائح شفافة، وتدوم بضعة أشهر مجمدة. كانت دونيا إنكارناثيون تتلقاها بكثير من مشاعر التقدير، على الرغم من أنّها لم تكن تأكل حلوى، لأنّها هدية حفيدتها المفضّلة: نور عينيها، وملاك روحِها وكنز شيخوخَتِها، كما كانت تُناديها في طفرات تجليها. عادة ما كانت تنسى أسماءَ أحفادِها الستّة الذكور، لكنّها كانت تجمع وتحتفظ بخصلاتِ شعر أماندا وأسنانه االحليبية. ما من شيء كان يسرّ الأم الكبرى مثل أن ترى أحفادها السبعة وأبناءها وبناتها مع زوجاتهم وأزواجهم مجتمعين، بمن فيهم إنديانا وبلاك جاكسون، الذي كان تشعر تجاهه بضعف سرّي، فقد كان الرجل الوحيد الذي من الممكن أن يحلّ محلّ خوسِهْ مانول مارتين في قلبها، قلب الأرملة، لكن هناك كارثة أنّه حمو ابنها. زنَى محارم أم مجرّد خطيئة؟ لم تكن متأكدة. كانت قد منعت ابنها بوب من أن يظهر مع إحدى الصعلوكات اللواتي كان يقيم علاقات معهنّ، لأنّه ما زال أمام الله وسيبقى متزوّجاً من إنديانا، ما لم يحصل على إعفاء من الفاتيكان. ألم تأتِ بالبولونية؟ سألت أماندا أباها هامسة حين وصل إلى اللاتيني المجنون.

بدأ عرضُ أطباق الطعام المكسيكي، غير الملوث بالتأثير الأمريكي الشمالي، باكرا؛ وبَقي المدعوّون يأكلون ويرقصون حتى منتصف الليل. نجحت أماندا الضجرة من أبناء عمومتها، المتوحشين الذين لا علاج لهم، في انتزاع أبيها من حلبة الرقص وجدّها عن الطاولة وحملهما جانباً.

حققّنا نحن جماعة *نازع الأحشاء* تقدّماً في التحقيق بالجرائم، يا أبي — أخبرته.

- ما الترّهة الجديدة التي خطرت لك الآنَ، يا أماندا؟

- ما من ترّهة. *نازع الأحشاء* لعبة مستلهمة من أحد ألغاز تاريخ الجريمة جاك نازع الأحشاء، قاتل النساء الشهير، الذي قام في عام 1888بعملياته في الأحياء البائسة في لنِدن. هناك أكثر من مئة نظريّة حول هويّة *نازع الأحشاء*، حتى ليُشَكّ بأنّه أحد أبناء العائلة المالِكة.

- وما علاقة هذا بي؟ -سألها أبوها، وهو يتصبّب عرقاً من التِكيلا والرقص.

- لا شيء. ليس عن جاك هذا أريد أن أُكَلّمَك بل عن *نازِع الأحشاء* في سان فرانسيسكو. إنّنا نربط مع اللاعبين الآخرين خيوطا، ما رأيك؟

- فظيع، يا أماندا. سبق وحذّرتُك. هذا من عمل قسم جرائم القتل.

- لكنّ قسمك لا يعملُ شيئاً، يا أبي! هذا قاتل على التسلسل، اسمع منّي -أصرّت الصغيرة، التي أمضت أسبوعَ عطلة الشتاء في مراجعة معلومات أرشيفاتها وفي التواصل مع لاعبي *نازع الأحشاء*.

- ما دليلك، يا آنسة نازعة الأحشاء.

- انظر في المصادفات: خمس جرائم قتل، إد ستيتون ميتشل ودوريس كونستانت، ريتشارد أشتون وراشيل روسين وجميعهم في سان فرانسيسكو، ما من واحدٍ عليه علامات عراك. دخل المرتكب دون أن يستخدمَ العنفَ في فتِح الأقفال، أي أنّه يتمتع بدخول سهل، يعرف كيف يفتح أنواعاً مختلفة من الأقفال ومن المحتمل أنّه يعرف ضحاياه، أو على الأقل عاداتهم. منح نفسه الوقت لتخطيط وتنفيذ كلّ جريمة قتلٍ على أكمل وجه، وفي كلّ حالة أخذ معه سلاح الجريمة وهذا ما يُبرهن على التخطيط المسبق: مسدس ومضرب بيسبول، محقنتا هيروين، صاعق كهربائي وربّما اثنان وخيط صيدِ سمك.

- كيف علمتِ بخيط صيد السمك؟

- من التقرير الأولي لتشريح راشيل روسين، الذي قرأه كابلْ. أيضاً راجع تقرير إنغريد دونْ عن إدْ ستيتون، الحارس الذي قتله بالرصاص في المدرسة، هل تتذكر؟

- طبعاً أتذكّر–ردّ المُفتِّش.
- هل تعرف لماذا لم يُدافع عن نفسه ولماذا استقبل طلقة الرحمة راكعاً على ركبتيه؟
- لا، لكنّني واثق من أنّك تعرفين.
- نحن لاعبي لعبة *نازع الأحشاء* نُفكِّرُ أنّ القاتلَ استخدمَ الصاعق الكهربائي ذاته الذي قتل به ريتشار أشتون. شلّه بشحنة صاعقة، سقط ستيتون على ركبتيه ثمّ وقبل أن يستطيع أن يفيق قتله بالمسدّس.
- رائعة، يا بنيتي – اعترفَ رئيسُ المفتشين.
- كم برهة يدوم تأثير الصاعق —سألته أماندا.
- بحسب الحالة. في شخص بحجمِ ستيتون يمكن أن يدوم ثلاث أو أربع دقائق.
- زمن أكثر من كاف لقتله. تُرى هل كان ستيتون واعياً؟
- بلى، لكنّه مشوّش، لماذا؟
- لا لشيءٍ... أباثا، عالمة النفسِ في *نازع الأحشاء* تؤكّدُ أنّ القاتل دائماً يمنح نفسه الوقت كي يتكلم مع الضحايا. هي تعتقدُ أنّ عندها شيئاً تقوله لكم. ما رأيك بهذا، يا أبي؟
- ممكن. لم يقتل أحداً منهم من خلفٍ ولا بشكل مُفاجئ.
- وضعُ مضربالبيسبولٍ في... أنت تعرف إلى ما أشير، تمّ بعد موت ستيتون. هذا مهمّ جدّاً، يا أبي، إنّه شيء مشترك بين الجرائم، الفاعل لم يُعَذِّب ضحاياه وهم أحياء، بل انتهك الجثث: ستيتون بمضرب البيسبول، الزوجين كونستانت بتعليمهما كما تُعَلّم الماشية بفردِ اللحام، أشتون بالصليب المعقوف وروسين بتعليقها كمجرمة.
- لا تَستَبِقي الأمور، فتشريح روسين لم ينتهِ بعد.
- بقيت بعض التفاصيل، لكنّ هذا صار معروفاً. هناك اختلاف بين الجرائم، لكنّ التشابهات تُشير إلى قاتل واحد. موضوع الانتهاكاتِ اللاحقةِ على الموت خطرت لكابل —قالت أماندا مؤكدة نبرتها اللاتينية التي أخرجتها من الروايات البوليسية.

- كابلُ هو أنا—وضّحَ الجدُّ كما تقول أماندا، لم تكن غاية القاتل تعذيب الضحايا، بل ترك رسالة.
- هل تعرف ساعةَ موت راشيل روسين؟ —سألت أماندا أباها.
- بقيت الجثّة معلّقةً بضعة أيّام، بالتأكيد ماتت الثلاثاء ليلاً، لكننا لا نعرف الساعة بالضبط.
- يبدو أنّ كلَّ الجرائم ارتُكِبَت عند منتصف الليل. نحن لاعبي *نازع الأحشاء* نُحقق فيما إذا كان هناك أحداث أخرى مماثلة في السنوات العشر الأخيرة.
- لماذا هذه المدّة؟ —سأل المُفتّش.
- علينا أن نمنح أنفسنا بعضَ الوقت، يا أبي. بحسب شارلوك هولميز، أقصدُ صديقَنا في لعبة *نازع الأحشاء* وليس شخصية رواية آرثر كونان دويل، فحصُ الحالاتِ القديمة سيكون إضاعةً للوقت، لأنّه إذا كان قاتلا على التسلسل، كما نعتقدُ، ويلتقي من صورة القاتل النمطيّة، فعمره أقلّ من خمسة وثلاثين عاما.
- ليس هناك ما يؤكّد أنّه كذلك وإذا كان، فهو ليس معتاداً. ليس هناك معالم مشتركة بين الضحايا—ردّ المُفتّش.
- أنا واثقة من وجودها، بدل التحقيق بالحالات منفصلةً ابدأْ بالبحث عن شيء مُشترك بين الضحايا، يا أبي. سيُعطينا هذا الدافعَ للجريمة. هذه هي الخطوة في أيّ تحقيق، وفي هذه الحالات واضح أنّ الأمرَ لا يتعلّقِ بالمال، كما هو معتاد.
- شكرا، يا أماندا. ماذا سيفعل قسم جرائم القتل من دون مساعدتك القيّمة؟
- اضحك، إن شئت، لكنّني ألفتُ انتباهَك إلى أنّنا في *نازع الأحشاء* نأخذ هذا على محمل الجدّ. ستشعر بالكثير من الخجل حين نحلّ نحن الجرائمَ قبلك.

بدّلٍ ذلك اليومُ حياةَ آلانْ كِلِّرْ حين رأيٍ نفسه في مكتب أخيه مُجرَّداً من امتيازاته. تكفّلَ مارك ولوثيٍلّ كِلرْ بديونه المادّية وأطلقا عمليةَ بيعٍ ووِدسايد. لم يكن ضرورياً أن يطرداه من البيت الكبير القديم، لأنّه لم يكن يعرف متى تحين الساعة كي يهرب منه. شعر بنفسه سجيناً لسنوات وانتقل في أقل من ثلاثة أيّام إلى كرم نابّا ومعه ثيابه وكتبه وأقراص موسيقاه وقطعتا أثاث قديمتان أو أكثر، ومجموعاته الرائعة. اعتبر ذلك حلاً مؤقّتاً لأنّ مارك كان قد وضع عينه على تلك الأرض منذ زمن طويل وسرعان ما سينتزعها منه، إلا إذا حدث شيء غير متوقّع، كأن يموت فيليب وفلورا كِلرْ فجأةً وفي وقت واحد، لكنّ هذا كان احتمالاً بعيداً، فأبواه لن يعملا معروفاً مع أحدٍ وبخاصّة معه فيموتان. استعدَّ ليستمتع بوجوده في نابّا ما دام يستطيع، دون أن يقلق من المستقبل، كانت هذه تلك ملكيته الوحيدة، التي كان يرغب فعلاً بالاحتفاظ بها، أكثر من لوحاته وقطع يَشْبِهِ وخزفِهِ الصيني والهواكي[22] المهرّبة.

كانت درجة الحرارة في نابّا في ذلك الأسبوع أعلى بخمس عشرة درجة من سان فرانسيسكو، وكانت النهارات دافئة والليالي باردة، غيوم مذهلة تُبْحِرُ في سماء مرسومةٍ بالألوان المائية وللهواء رائحة دبال الأرض النائمة، حيث تستعدُّ الدوالي لإطلاق أوراقِها في الربيع والحقولُ يغلبُ عليها لونُ زهرِ الخردل الأصفرِ الوَهّاج. ومع أنّه لم يكن يعرف شيئاً بالزراعة ولا بتحضير النبيذ إلاّ أنّه كان يملك شغفَ المالِك، يُحبّ ملكيته ويمشي بين خطوط الدوالي المستقيمة، يدرس النباتات يقطفُ أحضاناً من الأزهار البرّية، يفحص قبو نبيذه

---

[22] Huaco تطلق على الفخاريات والخزفيات التي تنتجها أي من الحضارات القديمة التي تعاقبت على البيرو.

الصغير، يَعدُّ ثمَّ يعدُّ الصناديق والزجاجات، يتعلّم من العمال القليلين، الذين كانوا يُقلمون الدوالي، وكانوا فلاحين مكسيكيين جوّالين، عاشوا من العمل في الأرض أجيالاً، كانت حركاتهم سريعة، دقيقة وناعمة، يعرفون متى عليهم أن يُقلموا وكم برعماً عليهم أن يتركوا على الشجيرات.

كان ألان قادراً على أن يُعطي كلَّ شيء مقابل تلك الملكية المباركة، لكن ما كان يكسبُهُ من أعماله الفنّية ومجموعاته لا يكاد يُغطي ديونه من بطاقات الاعتماد، التي تراكمت عليه فوائدُها بسعر الربا. سيكون من المحال عليه أن يحمي مزرعته من أطماع أخيه، فمارك حين يضعُ نصبَ عيْنَيْهِ شيئاً فإنّه يُنفذه بعناد وحشيّ. حين علمت صديقتُهُ جِنِفييف فانْ هوتْ بضائقتِهِ طرحت عليه أن تؤمِّن له شركاء رأسماليين لتحويل الكرم إلى تجارة رابحة، لكنَّ ألانْ كان يُفضِّل أن يُسَلمه لأخيه مارك، فهكذا يبقى في إطار الأسرة وليس تحت رحمة مجهولين. راح يتساءل ماذا سيفعلُ عندما يخسره، أين سيعيش. كان قد سئم من سان فرانسيسكو، دائماً الوجوه والحفلات ذاتها، النمائم الماحقة ذاتها والأحاديث المبتَذَلة ذاتها، لا شيء يوقفه في تلك المدينة غير الحياة الثقافية، التي لم يكن يُفكر بالتخلي عنها. كان يُداعب فكرة أن يعيشَ في بيتٍ متواضعٍ في إحدى القرى الهادئة في وادي نابّا، في سانتا هِلِنا ويعملَ مع أنّ فكرة البحث عن عمل لأوّل مرّة في الخامسة والخمسين من العمر كانت مُضحِكةً. فيمَ يستطيع أنَ يعمل؟ فمعرفته ومهاراته المُحتفى بها في الصالونات لم تكن بالنتيجة مفيدة لكسب العيش، وسيكون غير قادر على الالتزام بساعاتِ عمل أو تَلَقّي أوامر، كانت عنده مشاكل مع السلطة، كما كان يقول بخفةً حين يتمّ التطرّق للموضوع. "تزوَّجني، يا ألان، فالزوج في عمري يليق بي أكثر من عاشق شاب"، اقترحت عليه جِنِفييف على الهاتف مُقهقهة. "هل ستكون لنا حياة زوجية مفتوحة أو محصورة؟" سألها ألان وهو يُفكر بإنديانا جاكسون. "جماعية بالطبع!" ردّت هي.

كان ألان يجدُ في ذلك البيت الريفي، بجدرانه السميكة يقطينيةِ اللون وأرضيته الخزفيةِ الحمراء، يجدٍ هدوءَ دير، ينام من دون حبوب منوّمة يملك وقتاً كي يُقلبَ أفكاراً، بدل أن يقفز من فكرة إلى أخرى في ممارسة متواصلة للسخافة. بينما كان ألان جالساً على كرسيّ الخيزران في الممرّ المسقوف تائهَ النظر في الروابي وشُجيرات الكرمة اللامتناهية وكأس في يده وكلب ماريّا اَلمستخدَمة مستلق عند قدميه اتخذَ أهمَّ قرار في حياته، بقي يضغط عليه أسابيع في يَقظته ونومه، بينما حجج عقله تصارع مشاعره. دقّ عدّة مرات رقم إنديانا دون أن يحصل على جواب فافترض أنها أضاعت جوّالها من جديد وللمرّة الثالثة في الأشهر الستّة الأخيرة. أنهى كأس نبيذه وأخبر ماريّا بأنّه سيذهب إلى المدينة.

بعد ساعة وعشرين دقيقة ترك كِلِّرْ سيارته اللكسوس في مرآب أونيون سكوير تحت الأرض.قطع نصف كتلة أبنية إلى محل مجوهرات بولغاري. لم يكن يفهم انجذاب الغالبية للجواهر، التي كانت تُكلف غاليا ويجب حفظها في صناديق حديدية وهي تزيد من عمر المرأة التي تتقلدها. كانت جِنِفييف تشتري الجواهر كاستثمار وهي تُفكر أنّا الشيء الوحيد الذي سيحافظ على قيمته في الكارثة الكونية القادمة سيكون الماس والذهب، لكنّها نادرا ما كانت تتقلدها، كانت في خزانة أحدِ بنوك سويسرا، بينما هي تستعمل نسخاً رخيصة عنها. رافقها ذات مرّة في مانهاتن إلى محل بولغاري في الجادّة الخامسة واستطاع أن يُقدّر التصاميمَ والجرأة على تركيب الأحجار الكريمة والنوعيّة الفنّية، لكنّه لم يكن قد دخل قط إلى محلّ سان فرانسيسكو.

رحّب به الحارس الأمني، الخبير بمعرفة نوع الطبقة الاجتماعية للزبائن، دون أن يقلق من مظهره غير المرتّب وحذائه التي يعلوه الطين الجافّ. اهتمّت به امرأةٌ سوداءُ اللباس بيضاءُ الشعر وحِرَفيّة الماكياج؟

– أحتاج خاتماً لا يُنسى—طلب منها كِلِّرْ، دون أن ينظر إلى شيء مما كان معروضاً في الواجهات.

- ماس؟
- لا، ماس أبداً لا. فهي تعتقد أنّه يتم الحصول عليه بالدم الأفريقي.
- الماس الذي عندنا مصدره موثق
- حاولي أن تُقنعيها —ردّ كِلِرْ.

قدّرت البائعة كما حارس الباب بسرعة خاصّية الزبون، وطلبت منه أن ينتظر لحظة لتختفي خلف باب وتعود بعد لحظات ومعها صينية سوداء مبطنة بالحرير الأبيض حيث كان يرتاح خاتم بيضويّ، رائع في بساطته، ذكر كِلِرْ بمجوهرات الإمبراطورية الرومانية البسيطة.

- هذا الخاتم من مجموعة قديمة، لن تجد شيئاً يشبهه في المجموعات الحديثة. إنّه زبرجد برازيلي، رأسه بيضوي وغير مستخدم في مثل هذا الحجر، معشّق في الذهب الناشف 24 قيراطاً. طبعاً عندنا أحجار كريمة أكثر قيمة بكثير، يا سيّد، لكن من وجهة نظري، هذا من الأشياء التي أستطيعُ أن أُريك إيّاها ولا يمكن أن تُنسى—قالت البائعةُ.

أدرك كِلِّرْ أنّه سيرتكب حماقةً لا تُغتَفر، شيئاً يُمكنُ لأخيه مارك أن يصلبه لأجله، لكن ما أن حطّت عليه عينه التي تهوى جمعَ التحفِ على ذلك الشيء الناعم حتى ما عاد يُريد أن يرى شيئاً آخر، فإحدى لوحات بوتِرو المقتناة على وشك أن تُباع في نيويورك ومنها سوف يُسدِّدُ جزءاً من ديونه، لكنّه قرّر أنّ للقلبِ أولوياته.

- أنتِ على حق، إنّه لا يُنسى. سآخذه، وإن كان غالياً أكثر من اللازم بالنسبة إلى غندور ثري مفلس مثلي وأنعم من اللازم بالنسبة لامرأة مثلها لا تُميِّز بين بولغاري وحليةً رخيصة.
- تستطيع أن تُسَدّد ثمنَهُ بالتقسيط.
- أحتاجُهُ اليوم بالذات. لذلك وجدت بطاقات الاعتماد —ردّ كِلِّرْ بأحرّ ابتسامة عنده.

بما أنّه كان يملك متسعاً من الوقت والحصول على سيارة أجرة أقل من مُحالٍ بقليل فقد ذهب سيراً على قدميه إلى نورث بيث مستقبِلاً الهواء الباردَ بوجهه وسعيدَ المزاج. دخل إلى مقهى روسيني راجياً ألا يكون دور داني دانجِلو، لكنّ هذا خرج للقائه بأكثر مظاهر التقدير والاعتذارات تكراراً ومبالغةً لأنّه تقيّأ في سيارته الليكوس.

– انسَ، يا داني، كان هذا في العام الفائت –قال ألانْ مُحاولاً أن يفلت من ذراعه.

– اطلب ما تشاء، يا سيّدٍ كِلّر فهذا على حسابي –أعلن داني صارخاً فعلاً– لن أستطيع أبداً أن أدفع لك ما فعلتَ لأجلي.

– تستطيع أن تدفعه لي الآن بالذات، يا داني. اهربْ لخمس دقائقٍ واذهب ونادِ إنديانا. أعتقد أنّها أضاعت الجوّال. قل لها إن أحداً يحتاجها، لكن لا تقُل لها إنه أنا.

كان داني، الرجل الذي بلا ضغائن، قد غفر لإنديانا فضيحةَ نادي نرسيس، لأنّها حضرت بعد يومين جارّة ريان ميلر للاعتذار منه على تخريبها لليلة انتصاره، كما غفر لجندي النخبة، لكنّه استغلّ المناسبة كي يعلمها أنّ رهاب المثلية عادة ما يُغطّي الخوف من الاعتراف بالمثلية عند الشخص ذاته، وأنّ رفاقية الجنود فيها كلّ أنواع الإشارات الجنسيّة، يعيشون في اختلاط حميم واحتكاكٍ جسدي متحدينٍ بروابط الوفاء والحبّ وتمجيد الفحولة، مستبعدين النساء. لو كان ميلرْ في ظروف أخرى لزلزله لأنّه يُشَكّكِ بفحولته، لكنّه قبل الانزعاج لأنّ جسمه كان ما يزال مضعضعاً من المُشادّة في النادي وروحه المعنوية ضعيفة بسبب اجتماع الكحوليين المُغفلين.

انطلق داني دانجِلو بروح متواطئة إلى العيادات البديلة وعاد بعد قليل ليقول لِكِلّرْ إنّ إنديانا قادمة ما إن تُنهي الجلسة الأخيرة. قدّم له فنجان قهوة أيرلندية وشطيرة هائلةٍ، لم يطلبها، لكنّه هاجمها بنهم. بعد عشرين دقيقة رأى ألان كِلرْ إنديانا تعبر الشارع وقد

جمعت شعرها في ذيل وارتدت دثاراً وانتعلت حذاء سويدياً فتركته لفحةُ التأثّر مغروساً في كرسيّه. بدتٍ له أجمل من التي يتذكرها، ورديّة، ومشعّة، نسمةً ربيع دائمة. حين دخلت ورأته، ترددت، مستعدّة للانسحاب، لكنّ داني صادها من ذراعها وقادها إلى طاولة كِلرْ، الذي كان وقتها قد نجح في أن يقف على قدميه. أجبر داني إنديانا على الجلوس على الكرسي وابتعد ما يكفي كي يمنحهما إحساساً بالخصوصية، لكن ليس إلى حدّ أن يضيع ما كانا يقولانه.

- كيف حالك، يا ألان؟ أراك هزيلاً –سلّمت هي عليه بنبرة محايدة.

- كنتُ مريضاً، لكنّني أشعر الآن أنّني أفضل من أيّ وقت.

دخل في تلك اللحظة إلى المقهى غاري برونسفيك، آخر مرضى يوم الثلاثاء، خلف خطوات إنديانا وهو يُخطط أن يدعوها للغداء، لكنّه ما إن رآها مع رجل آخر حتى توقف مرتبكاً. استغلّ داني التردّد كي يدفعه نحو طاولة أخرى ويهمس له بنبرة سرية بأن يتركهما لوحدهما، لأنّ ذلك كان يبدو بكل وضوح موعد حبّ.

- ما الذي أستطيع أن أفعله من أجلك؟ سألتْ إنديانا كِلرْ.

- كثيراً. مثلاً تستطيعين أن تُغيّري حياتي، تُغيّريني، تقلبيني مثل جورب.

نظرت إليه من طرف عينها، غير واثقة، بينما هو يبحث عن علبة بولغاري، التي اختفت في جيوبه، إلى أن وجدها أخيراً ووضعها أمامها بارتباك تلميذ.

- هل ستتزوّجين من عجوز فقير، يا إندي؟–سألها دون أن يعرف صوتَهُ ذاته، وحكى لها الأحداث المستجدة دفقاً وهو يبلع الهواءَ من السرعة، وأنّه سعيد لأنّه خسر كلّ شيءٍ، وإن كان هذا مبالغاً به، فقد كان عنده ما يكفي، لم يكن إلى حدّ أنّه سيجوع، لكنّه كان يمرّ في أسوأ أزمة في حياته، يقول الصينيون إنّ الأزمة خطرٌ وفرصةٌ وتلك كانت فرصته ليبدأ من جديد ويفعل ذلك معها، هي

حبّهُ الوحيد، كيف لم يعرف هذا ما إن كادٍ يعرفها؟ كان أحمقَ، لم يكن يستطيع أن يستمرّ هكذا فقد كان سئماً من وجوده ومن نفسه من أنانيته وحذرِهِ. كان سيتغيّر وعدها بذلك، لكنّه يحتاج لمساعدتها، فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك بمفرده. كلاهما استثمر أربع سنواتٍ في علاقتهما، كيف سيسمحان بأن تفشل بسبب سوء فهم. كلمها عن البيت الصغير الذي كان سيشتريه في سانتا هلِنا وحول حمامات المياه المعدنية في كاليستونغا، المكان المثالي كي تكرِّس نفسها للمعالجة بالعطور، سيعيشان حياة رعوية وسيربيان كلاباً وهذا أكثر منطقية من تربية الخيولِ واستمرّ يُفرّج عما كان يحمله في داخله ويغويها بما سيفعلان معاً ويطلب منها الغفران ويرجوها: "تزوّجي مني غدا ؟.

مدّت يدها مخنوقة من فوق الطاولة وأغلقت فمه.

- هل أنت واثقٍ، يا ألان؟
- ما كنتُ يوماً في حياتي أكثر ثقة بشيء من الآن.
- أنا لا. قبل شهر كنتُ سأقبل دون تردّد، لكن عندي الآن شكوك كثيرة. حدثت لي أشياء...
- وأنا أيضاً —قاطعها كِلِرْ— شيءٌ انفتحَ في داخلي، في قلبي وغزتني قوّة طافحة ورائعة. من الصعب عليّ أن أوضح لك ما أشعر به. إنّني مُفعَم بالطاقة، أستطيع أن أهزم أيَّ عائق. سوف أبدأ من جديد وأمضي قدماً. إنّني أكثر حياة من أيّ وقت. ما عاد باستطاعتي التراجع، يا إنديانا. هذا هو اليوم الأوّل من حياتي الجديدة.
- لا أعرف أبداً ما إذا كنتَ تتكلّم جدّياً، يا ألان.
- جدّيّ تماما، لا شيء من السخرية هذه المرّة فقط حقائق رواية وردية. أعبدُكِ، يا امرأة. ما من حب آخر في حياتي، ليس لِجنِفييف أدنى أهميّة، أقسم لك بأقدس الأقداس.
- المسألة لا تتعلّق بها بل بنا. ما المشترك بيننا، يا ألان؟
- الحبّ. ما الشيء الذي سيكون غيره؟
- سأحتاج لبعض الوقت.

- كم؟ عمري خمسة وخمسون عاماً، ليس عندي فائض من الوقت، لكن إذا كنتِ تريدين هذا فعليّ أن أنتظر. يوم؟ يومين؟. أرجوك امنحيني فرصة أخرى، لن تندمي، نستطيع أن نذهب إلى الكرم، الذي ما زال لي وإن لن يكون لوقت طويل. أغلقي عيادتك لبضعة أيّام وتعالي معي.

- ومرضاي؟

- باللّه عليك، لن يموت أحد لعدم وجود المغناطيسات أو روائح المعالجة! اعذريني، لكن كيف لن تستطيعي أن تأخذي بضعة أيام إجازة! سأراهن كثيراً عليٍ ولهي بك يا إندي، إلى حدٍّ أنّك ستتوسّلين إلي أن نتزوّج —ابتسم كِلِرْ.

- إذا توصلنا إلى هذه النقطة عندها ستستطيع أن تسلّمني هذا —ردّت إنديانا إليه علبة البولغاري دون أن تفتحها.

آذار

الجمعة، 2

كانت أماندا تنتظرُ والدها في مكتب سكرتيرته الصغير، الذي تُغطّي جدرانه صور بترا هورّ في منامات بيضاء والحزام الأسود في منافسات الفنون العسكرية. كان طول المرأة مئة وخمسين سنتيمتراً ووزنها ثمانية وأربعين كيلوغراماً، لكنّها تستطيع أن ترفع رجلاً ضعف وزنها وترميه بعيداً. قليلة هي الفرص التي أتيحت لها لاستخدام هذه المهارة منذ أن بدأت العمل في قسم جرائم القتل، لكنّها أفادتها كثيراً للدفاع عن نفسها في ساحة السجن، التي عادة ما تكون فيها المُشادات عنيفة جداً، كما في سجون الرجال. في العشرين من عمرها بعد أن أنهت الحكم المضاف الذي حكمت عليها به راشيل روسين، استثمرت الأشهر الثلاثين في التجوال في البلد على درّاجتها النارية. فقدت في تلك الطرق التي لا نهاية لها كلّ وهم كان باستطاعته أن يُنقذها من طفولة هجران ومراهقة بين مجرمين. الثابت الوحيد في حياتها كمسافرة جوّالة كانت الفنون العسكرية، التي كانت أفادتها لحماية نفسها وكسب قوتها.

عندما كانت بترا تصلُ إلى قرية كانت تبحث عن البار، واثقةً من وجودهِ مهما كان المكان فقيراً وبعيداً، تجلسُ إلى طاولةِ العرض تُطيل شربها لبيرتها الوحيدة، وسرعان ما كان يقتربُ منها واحدٌ أو عدد من الرجال بهدفٍ واضح، ومالم يكن بينهم واحد بصراحة لا يُقاوَم وهو ما كان نادر الحدوث، كانت تردعهم بحجّة أنّها سحاقية

وتتحدّى على الفور أفتَلَهُم عضلاتٍ لمصارعتها جسداً بجسد. قواعدها كانتِ واضحة: كلّ شيء مسموح إلا السلاح بكلّ أنواعه. كانت تتشكل حلقة صغيرة وتقوم مراهنات ويخرجون إلى الفناء أو إلى زقاق مخفيّ، حيث تخلع بترا سترتها الجلديّة تثني ذراعيها ورجليها التي لطفلة صغيرة بين ضحكات الذكور وتعلن أنهما يستطيعانِ أن يبدأا. كان الرجل يُهاجمها عدداً من المرات دون خبثٍ، واثقاً من نفسه ومبتسما إلى أن ينتبه إلى أنّها تسخر منه، تتملص منه مثل ابن عرس. عندها كان ينفدُ صبره وينقضّ عليها بجدّيةٍ مدفوعاً بسخرياتِ الفضوليين، مستعدّا لأن يسحقها بضربة من قبضته. وبما أنّ هدف بِتْرا كان تقديم عرض نزيهٍ لا يُخَيِّبُ الجمهورَ، فقد كانت تُصارع مُنافسَها برهة طويلة، متفادية ضرباته ومنهِكة إياه، وأخيرا حين تكون قد أثارت حنقه وجعلته يتصبّب عرقا، تمسك بالرجل بإحدى طرقها، مستغلة اندفاعَه ووزنه كي تُثبّته على الأرض وتجمعُ مبالغ المراهنة وسط ذهول الاحترام ترتدي سترتها وخوذتها وتنطلق هاربة على دراجتها النارية قبل أن يستفيق المهزوم من الإهانة ويُقرِّر ملاحقتها. كان باستطاعتها أن تكسب في مصارعة واحدة مئتي دولارٍ أو ثلاثمئة، تكفيها لأسبوعين.

عادت بِترا إلى سان فرانسيسكو بزوج برّاق في المقعد الخلفي من الدراجة النارية، حلو، وسيم ومدمن مخدرات، نَزلا في فندق وَخيم وراحت تعمل في أي عمل يُعْرَضُ عليها، بينما راح هو يعزف على القيثارة في الحديقة العامّة ويستهلك ما تنتجه هي. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها عندما تركها الزوج والخامسةِ والعشرين حين حصلت على وظيفةٍ إدارية في مديريّة الشرطةِ، بعد أن هزمت بول مارتين بالمنهج الذي كانت قد أتقنته في مرحلة المصارِعة الجوّالة من حياتها.

هكذا حدث: في بار كامِلوت حيثٍ كان يجتمع رجال الشرطة خارجَ ساعاتِ العمل ليسترخوا قليلاً بجرعتين، وكان الزبائن من الثبات بحيث أن وجْها جديدا يلفت الانتباه، وبخاصة وجه فتاة وصلت متبجّحة. ظنّ نادلُ البار أنّها حَدَثٌ فطلب منها الهويّة قبل

أن يُقدّم لها البيرة. أخـذت بِّـترا زجاجتهـا وعـادت لتواجـه مـارتين وآخرين، كانوا يقيسونها من عاليها إلى سافلها بعين ناقدة. ما الـذي تنظرون إليه؟ هل عندي شيء يمكـن أن تشـتروه؟ سـألتهم. وتـدبّرت أمرها كي تُثير أشجعَهم، كما قالـت، وكـان بالنتيجـة بـوب مـارتين باتفاق عامّ، لكنّها لم تنجحْ هذه المرّة بـأن تجعـل الرجـال يُجـازفون بسـجِلّ خـدمتهم في مراهنـاتٍ غـير شـرعية، فاضـطُرّت لأن تقـوم بعرضها بحماس رياضِي خالص. نهضَ بوب مارِتين عـنِ الأرض وهـو ينفض بنطلونَهُ ويُمشطُ شعره بأصابعه وهنّأ الفتاة، بعيداً عـنِ الشـعورِ بالإهانـة مـن هزيمتِـه وسـخرية رِفاقـه، وصـافحها مصـافحةً صـادقة وعرض عليها عملاً. بدأت حياة بِّترا المستقرّة.

- هل أبي مع أياني—سألتها أماندا.
- وما أدراني! إسأليه هو.
- هو يُنكر لكنَّ عينيه تبرقان حـين تُـذكَرُ. أحـبُّ أيـاني أكثـرِ بكثير من البولونية، وإن كنتُ أعلم أنّهـا لا تصـلح لأن تكـونَ زوجـةَ أبٍ. هل تعرفينها؟
- جاءت إلى هنا مرّتين لتدلي بتصـريحاتها، إنّهـا جميلـة، لا يُمكن نكران ذلك، لكنّنيِ لا أعرِف ماذا سـيفعل أبـوك معهـا، فهـي صاحبة أذواق باهظة ومعقدة جدّاً. أبـوك بحاجـة إلى امـرأة بسـيطة، تُحبُّه ولا تأتيه بمشاكل.
- مثلكِ أنتِ؟
- لا تكوني جسورة. علاقتي بالمفتّش مهنيةٌ حصراً.
- كم هو مؤسف، لن يهمّني أن تكوني زوجـة أبـي، يـا بِّـترا. نغيّر الموضوع. هل تكلّمت مع إنغريد دونْ؟
- بلى، لكن مـا مـن وسـيلة، سـيُمزّقها أبـوك نتفـاً إن تركتـكِ تحضرين عملية تشريح.
- ولماذا سنقول له ذلك؟
- لا تحشريني في هذا. تدبّري أمرك مع إنغريد.

- على الأقل تستطيعين أن تحصلي لي على نسخةٍ عن تقريرَيّ عمليَّتَيّ تشريح ريتشارد أشتون وراشيل روسين.
- جدُّك اطلع عليهما.
- تفوته أشياء أساسيةٍ. أُفضّل أن أراهما بأمّ عيني. هل تعرفين ما إذا كانوا سيُجرون تحليلاً للحمض النووي؟
- فقط لأشتون. إذا استطاعَ الأبناء أن يُثبتوا أنّ أياني قتلت زوجها يستطيعون أن يضعوا أيديهم على المال. بالنسبة لروسين، حدث أنّها وفرت ثلاثمئة ألف دولار، لكنّها لم تتركها لابنها بل للملائكة الحارسة.
- ومن يكون هؤلاء؟
- منظمة غير ربحية. متطوّعون يسيّرون دوريات في الشوارع لمنع الجريمة. أعتقد أنّها بدأت في نيويورك في نهاية السبعينيات حين كانت تلك المدينة مشهورة بانعدام الأمانِ. يتعاونون مع الشرطة ويسيرون في لباس موحّد، مؤلف من سترة وكمّة حمراء، يستطيعون أن يعتقلوا مريبين، لكنّهم لا يستطيعون أن يحملوا سلاحاً. يوجد الآن من هذه الملائكة الحارسة في عدد من البلدان ولديهم، إضافة إلى عملهم في المراقبة، برامجُ تعليم للشباب وورشات وقاية من الجريمة.
- طبيعي في قاضية أنّ ترغب بمساندة مجموعة تُحاربُ الجريمة. –ارتأت أماندا.
- نعم، لكنّ الابن أصيب بخيبة وتأثّر لأنّه خسر الإرث أكثرَ مما لأنّه خسر أمّه. عِنده هناك شيء يُسجّل عليه: أمضى الأسبوع في جولة صفقات، سنتأكد من ذلك.
- ربّما تعاقد مع قاتل كي يتخلّص منها. كانت علاقتهما سيّئة، أليس كذلك؟
- هذه الأشياء تحدث في إيطاليا، يا أماندا. في كاليفورنيا لا أحد يقتل أمّه لأنّ علاقته بها سيّئة. أما بالنسبة للزوجين كونستانت فإن حروق فردِ اللِحام التي لم تكن تعني للنظرة الأولى شيئاً تظهر في الصور أنّها حروفا.
- أيّة حروف؟

- F و A . لم نقع بعد على تفسير لهذا.
- يجبٍ أن يكون لهما تفسير. يا بترا المجرم ترك في كلّ ضحية علامة أوٍ رسالة. قلت هذا لأبي منذ قرابة عشرة الأيّام، لكنّه لا يُقيم لي وزنا: نحن أمامٍ قاتل على التسلسل.
- بلى يقيم لك وزناً، يا أماندا. كلّ القسم يبحث عن روابط بين الجرائم.

الأحد، 4

كانت أماندا تُخصّصُ ساعةً لِتُطابق حساباتِ أمها البدائية في صباح أوّل أحدٍ من كلٍّ شهر حتى ولو كان دورها في أن تقضي نهاية الأسبوع مع أبيها. كان عمر حاسوب أمّها المحمول ستّ سنوات وحان وقت تحديثه أوٍ شراء آخر، لكنّ صاحبته كانت تُقدّره كما لو أنّه حيوان منزليّ وتُفكر باستخدامه حتى ينفق بميتة طبيعيّة، على الرغم من أنّه صار في الآونة الأخيرة يُسَبِّب لها إزعاجات. فجأة تظهر على الشاشة ومن دون أي مُبرّر، مشاهدُ جماعٍ وتعذيبٍ وأجسادٍ كثيرة معروضة وعذاب ومعاناة، لا شيء يسرّ النظر. كانت إنديانا تُغلق تلك الصور المزعجة على الفور، لكنّ المشكلة كانت تتكرّر إلى حدّ أنّها سمّتِ الفاسقَ، الذي كان يسكنُ قرصَها الصلب أو يدخل من النافذة ليختلط بمحتوى حاسوبها، المركيز دو ساد

أخذت أماندا على عاتقها أمور المحاسبة منذ الثانية عشرة من عمرها وكانت تأخذها بصرامة مُرابٍ. كانت الأولى في معرفة أنّ أجورَ أمّها لا تكادُ تكفي لتحافظ على حياةٍ رهبانيةٍ متواضعة. مساعدة الآخرين على الشفاء كان عمليّة بطيئةً تستنفد طاقة وموارد إنديانا؛ هي في الحقيقة لم تكن تعتبره عملاً، بل رسالة. غايتها كانت صحّة المرضى وليس حصيلة عوائدِها وتستطيع أن تعيش بالقليل، إذ أنّه لا

يهمها الاستهلاك وكانت تقيس سعادتها بصيغة أساسية "يوم سعيد زائد يوم سعيد يساوي حياة سعيدة" تعبت ابنتها من تكرار أنّ عليها أن ترفع أسعارها —مهاجر غير شرعيّ يقطف برتقالاً يكسبُ في الساعة أكثر منها لأنّها فهمت في النهاية أنّ أمّها تلقت الوصية الإلهية بالتخفيف من معاناة الآخر وعليها إطاعتها وهو ما كان يعني بكلمات عملية إنّها ستبقى دائماً فقيرة، ما لم تفز بمحسن أو تتزوّجَ من شخص ثريّ، مثل كِلِرْ. وكانت أماندا ترى أنّ الفاقة أفضَل من هذا.

على الرغم من أنّ الصغيرةَ لم تكن تؤمنُ بالصلاة كطريقةٍ فعّالة لحلّ مشاكل الأمور العملية فقد لجأت إلى جدّتها إنكارناثيون، التي كانت على تَواصل مباشر مع القديس يهوذا تداوس، كي تُخرج كِلر من حياة أمّها. كانِ القديس يهوذا يجترحُ معجزاتٍ بسعر عادل، مستَحق الدفعِ نقداً في معبد شارع بوش أو بواسطةِ شيكٍ بالبريد وما إن لجأت إليهِ دونيا إنكارناثيون حتى ظهر كِلرْ في مقالِ المجلة، الذي كلّف إنديانا دموعاً كثيرةٍ حتى ظنّت أماندا أنّها تخلّصت من الرجل إلى الأبد، وأنّ ريان ميلر سيحلُ محلّه، لكنّ الأمل تبخّر من بين يديها توّاً مع انسلال أمّها مع عشيقها القديم إلى نابّا.. سيكون على جدّتها أن تُجدّد مفاوضاتها مع القدّيس.

كان الطلاقُ بالنسبة إلى دونيا إنكارناثيون خطيئة وفي حال إنديانا وابنها خطيئة غير ضرورية، لأنّه بقليل من الإرادة الطيّبة يستطيعان أن يتعايشا كما يأمر الله. في أعماقهما كانا متحابين، إذ لا أحد منهما عاد ليتزوّج، وكانت تأمل أن يُذعنا سريعاً لهذه الحقيقة الجليّة ويعودا فيجتمعا. أن يكون لابنها صديقات مشكوك بفضيلتهن كان محلّ لوم عندها، الرجال كائنات ناقصة، لكنّها لا يمكنُ أن تقبل بأن تُجازف إنديانا بدخولها إلى السماء وبسمعتها بإقامةِ علاقاتها خارج الزوجية. بقيت سنواتٍ ضحية مؤامرة عائليّة لإخفاء وجود ألان كِلرْ، إلى أن حكت لها أماندا ذلك في فورة صراحة. عانت المرأة من ضيق ملحميّ، دام بضعة أسابيع، إلى أن تغلب قلبُها كربةِ بيتٍ على

مآخذِها ككاثوليكيةٍ وحضنت إنديانا من جديد، لأن الخطأ بشريّ والعفو إلهيّ، كما قالت لها. كانت تُحبُّ كنَّتَها على الرغم من وجود جوانب كثيرة في حياة تلك الشابّة قابلة للتحسّن: ليس فقط طريقتها في تربية أماندا، ملبسها وتسريحتها، بل أيضاً عملها، الذي بدا لها وثنيّا، وحتى ذوقها في الديكور الداخلي، فبدل الأثاث الفخم الذي أهدته إليها بطيب خاطر، ملأت إنديانا شقتها بالطاولاتِ والرفوف والخزائن وأنابيبِ الاختبار والأوزان والأقماع والقطارات ومئات القوارير من مختلف الأحجام، حيث كانت تُخزّن خلاصاتٍ مجهولة، بعضها جيءبه من بلدان خطيرة، مثل إيران والصين. كان لبيتها مظهر مخبر سرّيّ، مثل تلك المحابر التي تظهرُ في التلفزيون، حيث يطبخون المخدرات. جاءت الشرطة في مناسبتين أو أكثر لتقرعَ باب كنَّتها السابقة، مستنفرة من رائحة العطور المفرطة التي كان الجو يعبق بها كما لو أنّ قدّيسة ماتت. أجبرت حفيدتُها بلاك جاكسون — ما ألطفه من رجل! أن يضعَ شبكاً على الرفوفِ كيلا تنسكبِ الزيوتُ المركزة في حال وقوع زلزال فتسممٍ أمّها وربّما الجيران أيضاً. حدث هذا بعد أن قرأت في كتابٍ قصصٍ جنسيّة من اليابان أن بغياً من القرن الخامسِ عشر سمّمت عشيقها بالعطور. كانت دونيا إنكارناثيون ترى أنّ أحدا يجب أن يراقب قراءاتِ حفيدتها.

كانت أماندا تُبارك قوانينَ الهندسة الوراثية، لأنّ مَلَكَةَ الإشفاء عند أمّها لم تكن وراثية. كان عندها خطط أخرى لمستقبلها، تُفكر أن تدرس الفيزياء النووية أو ما يشبه ذلك، تُدرك النجاح المهنيّ، تعيشَ حياة مريحة وأن تقومَ بالمناسبة بواجبها الأخلاقي بإعالة أمّها وجدّتها، اللتين ستكونان وقتها مسنتين في الأربعين والسبعين على التوالي من عمرهما، هذا إذا كانت حساباتها صحيحة.

كانت أمّها تنفق قليلاً، تتحرّك على الدراجة، تقصّ شعرَها بمقصّ المطبخ مرّتين في العام وترتدي ملابس مستعملة، لأنّه ما من أحد سيتوقف عند ما كانت ترتديه، كما كانت تقول، وإن كان هذا غير صحيح، لأنّ هذا كان يهمّ ألان كِلر كثيرا، على الرغم من تدبير

إنديانا إلاّ أن المال كان يقلّ بين يديها لإنهاء الشهر وتُضطرّ لأن تلجأ إلى أبيها أو إلى زوجها السابق كي تخرج من ضائقتها. كانت أماندا تعتبر ذلك طبيعيّاً، لأنّهما كانا من عائلتها، لكن كان يصدمها أن يظهرَ الآنِ كِلرْ لإنقاذها كما حدث في بضع مرّات. ميلرْ، نعمٍ، لكن كِلرْ إطلاقاً لا، لأنّ أمّها كانتِ تقول إنّ العشيق مهما كان كريماً فإنّه يقبض في النهاية دينَهُ معروفاً يؤدّى له.

الشيء الوحيد الذي كان رابحاً، إلى هذه الحدّ أو ذاك، في حسابات إنديانا هو العلاج بالعطور. فقد أصبحت اسماً مشهورا بخلاصات زيوتها، التي تشتريها بالجملة وتُفرِّغها في قوارير داكنة وتضع لها لصاقة ببراعة وتبيعها في كاليفورنيا وولايات أخرى. كانت أماندا تُساعِدها في تعبئتها وتعرضها عبر الشبكة العنكبوتية. كان العلاج بالعطور بالنسبة لإنديانا فنّاً دقيقا، يجب أن يُمارس بكثير من الحكمة، من خلال دراسة اضطراباتِ وحاجاتِ كلّ شخص قبل تحديد المُركب من أكثر الزيوت ملاءمة لكلّ حالة، لكنّ أماندا وضّحت لها أنّ هذه الدقة بالنتيجة غير مقبولة من وجهة النظر الاقتصادية. كانت فكرتها استثمار العلاج بالعطور في الفنادق والمنتجعات الصحية الفخمة لتمويلٍ المادة الأولية المكلفة. كانت هذهَ المنشآت تشتري أكثر الزيوتِ شعبية وتقدّمها بأي طريقة كانت، قطرة هنا وأخرى هنالك، كما لو أنّها عطور، دون أن تتخذ أدنى حدود الحذر أو تتحقق من خواصها، أو أن تقرأ التعليمات، على الرغم من تحذيرات إنديانا من أنّ سوءَ استعمالها يمكن أن يكون مؤذيا مثل حالة مريض الصرع الذي يتعرّض لرائحة الشمرة واليانسون، أو المرأة الشبقة التي تتعرّض لرائحة الصندل والياسمين، كانت ابنتها ترى أن عليها ألا تقلق من هذا فنسبة المصابين بالصرع والشبقات بين مجموع السكان ضئيلة جدّاً.

كان باستطاعة الصغيرة أن تُسمي كلّ خلاصات زيوتِ أمِّها، لكن لم تكن تهمّها خاصيّاتها لأنّ المعالجة بالعطور كانت فنّاً نَزَوِيّاً وهي تميل إلى العلوم المحضة. برأيها لم يكن هناك براهين كافية على أن

الباتشولي يدفع إلى الرومانسية أو أنّ االخبّازى تُحفّز على الإبداع كما تؤكدُ بعضُ النصوص الشرقية القديمة جداً، المشكوك بصحّتها. فزيت زهر البِرتقال لم يكن يطفئ غضب والدها ولا الخزامى تمنح أمّها اتجاهاً عملياً، كما يجب أن تفعل. هي كانت تستخدم المليسة للخوف دون أيّ نتيجةٍ ملحوظة والميرمية لإزعاجات الحيض، التي فقط كانت تعطي نتيجةً باستخدامها مع مسكنات الألم من صيدلية جدّها. كانت ترغب بأن تعيش في عالم منظم، بقواعد واضحة والعلاج بالعطور، مثل كلّ علاجات أمّها كان يساهم في الغموض والتشويش.

كانت قد انتهت من الحسابات وتُعدّ حقيبةَ ظهرها كي تذهبِ إلى المدرسةٍ الداخلية، حين عادت إنديانا بحقيبة ثيابها المتسخة وبلون برونزي خفيفٍ بفضل شمسِ شتاءِ وادي نابّا الشاحبة. استقبلتهاً بوجه متجهّم.

– في أيّ ساعة تصلين، يا أمّي!

– اعذريني، يا بُنيّتي، أردت أن أكون هنا كي أستقبلك لكن كان هناك زحام كثير وتأخرنا. كنتُ بحاجة لهذه الأيام الثلاثة من الإجازة. كنتُ متعبة جداً. كيف جرت أمور المحاسبة. أتصوّر أن عندك لي أخباراً سيئة، كما هو الحال دائماً. هيّا بنا إلى المطبخ لندردش قليلاً. سأعمل لك شاياً. ما زال هناك متسع من الوقت فجدّك لن يأخذك إلى المدرسة حتى الخامسة.

حاولت أن تُقبّلها، لكنّ أماندا تملّصت منها وجلست على الأرض لتهتف لجدّها بالجوّال كي يأتي سريعاً. جلست إنديانا بجانبها. انتظرت حتى انتهت من الكلام وأخذت وجهها بكلتا يديها.

– انظري إليّ، يا أماندا. لا يمكنك أن تذهبي إلى المدرسة وأنت غاضبة منّي. علينا أن نتكلم. هتفتُ لك الأربعاء كي أحكي لك أنّنا أنا وألان تصالحنا وسنذهب إلى نابّا لنقضي بضعة أيام. لم يكن هذا مفاجئاً لك.

– إذا كنتِ ستتزوّجين من كِلِّرْ فأنا لا أريد أن أعرف.

- موضوع زواجنا ما زال محل نظر. لكن إذا ما قرّرت ذلك ستكونين أوّل من يعرف شئِت أم أبيتِ. أنت أهمّ شيء في حياتي، يا أماندا، ولن أهجرك أبداً.

- أُراهن على أنّك لم تحدّثي كِلِرْبموضوع ريان ميلِّرْ! هل تظنين أنّني لا أعرفُ أنّك نمتِ معه؟ كوني أكثر حذرا مع بريدك؟

- هل قرأتِ مراسلاتي الخاصّة؟

- أنتِ ليس عندك أيّ شيء خاص. أستطيع أن أقرأ ما يحلو لي في حاسوبك المحمول، لذلكَ عندي كلمة سرك: شاكتي. أنتِ نفسك أعطيتها لي، تماماً كما أعطيتها لجدّي، لأبي ولكلّ كاليفورنيا. أعرف ما فعلت مع ريان وقرأت رسائلٍ حبّك التافهة. كذب! ملأت رأسه بالأوهام وذهبت بعدها مع كِلِرْ. أي نوع من الأشخاصِ أنتِ؟ لا يمكن الوثوق بك. ولا تقولي لي إنّني مُرَيِّلة ولا أفهم شيئاً من شيء، لأنّني أعرف تماما ماذا يُسمّى هذا.

شعرت إنديانا، لأوّل مرّة في حياتها، بالرغبة بصفعها. لكنّها لم تستطع أن تبدأ الحركة. حاولت بحكم العادة أن تُفسّر الرسالةَ، التي تُشوِّشُها الكلمات، واحمرَّت حين رأت ضيقَ ابنتها وانزعجت، لأنّها كانت تعرف أنّه كان عليها أن تقدّم توضيحا لريانْ قبل أن تذهب مع ألانْ، لكنها اختفت، متجاهلةً الخطط التي وضعتها لنهاية الأسبوع. لو أنّها كانت تُحبّ ريان كثيراً كما جعلته يظنُّ، أو لو أنّها على الأقلّ تحترمه كما يستحقّ، ما كانت لتُعامله بتلك الطريقة، ولكانت صريحة معه ولوضَّحت له أسبابها. لم تجرؤ على مواجهتِهِ وبرّرت ذلك بحجة أنّها تحتاج وقتا كي تحسِمِ أمرها بين الرجلين، لكنّها ذهبت إلى نابّا، لأنّها اختارت ألان كِلِرْ، الذي كان يربطها به شيء أكثر من حبٍّ سنوات أربع. ذهبت بنيّة أن تُوَضّح بعضَ الأمور وعادت بِخاتم في محفظتها، خلعته من إصبعها عندما نزلت من سيارة كِلِرْ لتتفادى أن تراه ابنتها.

- معك حقّ، يا أماندا —اعترفت منخفضةَ الرأس.

تلا ذلك وقفة طويلة، كلاهما جالستان على الأرض، قريبتانٍ دون أن تلمس إحداهما الأخرى، إلى أن مدّت الطفلة يدها لتمسحَ دمعة عن وجه أمِّها. راح رعبُ إنديانا من أن تتزوّج من شخص تكرهه ابنتها يزداد لحظة بلحظة وكانت أماندا تُفكر من جانبها أنّه إذا كان كِلرْ سيصير زوجَ أمّها سيكون عليها أن تبذل جهداً كي تُعامله بأدب.

كانتا في هذه الحال حين أفزعهما رنينُ جوّال أماندا، إنّها كارول أندرووتر، التي لجأت إلى الابنة لأنّها لم تنجح بالتواصل مع أمِّها منذ الخميس. أخذت إنديانا الهاتف وحكت لها أنّها قضت بضعة أيام استرخاءٍ في كرم نابًا. عبّرت كارول بنبرةٍ نائحةٍ عن سعادتها لأنّ أموراً كثيرة تجري لصالحها: حبّ، إجازة وصحة، على الأخص صحة وتمنّت لها من كلّ قلبها ألا تنقصها أبداً، لأن الحياة من دون صحّة لا تستحقّ أن تُعاش، تقول لها هذا عن تجربة. كان أملها الوحيد المعالجة الشعاعيّة. أرادت أن تعرف تفاصيل أيّامها في نابا وكيف أقنعها كِلرْ بالعودة إليه بعد الذي جرى بينهما؛ فخيانة مثل تلك من المستحيل أن تُنسى. انتهت إنديانا بأن قدّمت لها توضيحات، كما لو أنّه كان واجباً عليها واتفقتا على أن تلتقيا يومَ الأربعاء في السادسة والنصف في مقهى روسيني.

– هتفت لي كارول مرّاتٍ عديدة كي تستعلم عنكِ وكادت تُجنّ حين قلتُ لها إنكِ مع كِلرْ. لا بدّ أنّك صديقتها الوحيدة –علقت أماندا.

– ولماذا عندها رقم هاتفك؟

– كي تسألني عن سالبِ إل أتون. جاءت عدّة مرات لتراها. ألم يقل لك جدّي؟ كارول تعبد القطط.

الاثنين، 5

شاركت إسمِرالدا في لعبة نازع الأحشاء من مَشفى في أوكلاند. كانوا يُخضعون الصغيرَ للمعالجة بالخلايا الجذعية الجنينية، خطوة أخرى على طريق تصميمه على المشي.

كانت أماندا قد وضعت لائحةً في دورها كمعلّمة، بالمفاتيح المتوفِّرة لجرائم القتلِ الخمس، التي أبقت عليهم مشغولين منذ كانون الثاني. كان عند كلٍّ لاعبٍ نسخة، وقد وصل شارلوك هولميز، بعد دراسة الأحداث بمجهر منطقهِ الدامِغ، إلى بعض الاستنتاجات المختلفة عن استنتاجات أباثاَ، التي كانت تقترب من المشاكل عبر دروب المملكة الباطنيّة الوعرة، عن الكولونيل بادينغتون، الذي كان يحكم على الواقع بمعيار عسكري، أو اسمِرالدا، الغجرية المتسكعة التي لم يكن ضروريّاً بالنسبة إليها إتعاب المخ، لأنّ كلّ شيء تقريباً ينجلي تلقائيّا، يكفي أن تُطرحَ الأسئلةُ ذات الصلة. كان الشبانُ مُتَّفقين على أنّ الأمر يتعلّق بشريرٍ بخطورةِ جاك نازع الأحشاء.

- لنبدأٍ بجريمة "مضرب البيسبول في غير مكانه" هيا يا كابل —أمرت المُعلمة.

- إدْ ستيتون بقي متزوّجاً لفترة قصيرة في شبابه. لم تُعرَف له بعدها علاقةٍ مع النساء. لكنّه كان يدفع لحارسين له ذكرين، وكان يُشاهد أفلاماً خلاعية مثلية. في المدرسة لم يُعثر في سيارته رباعيةِ الدفع على سترته ولا على قبّعة اللباس الرسمي. على الرغم من أنّ التلاميذ الذين كانوا في موقف السيارات رأوه يخرج وعَرَفوه ومن لباسه الموحّد.

- من كان حرّاسه؟ —سألت إسمِرالدا.

- شابّان بورتوريكيان لكن ما من أحدٍ منهما كان له موعد معه في تلك الليلة وحججهما قويّة. شهود موقف السيارات لم يروا شخصاً آخر في السيارة التي ذهب فيها.

- لماذا لم يستخدم ستيتون سيارته؟

- لأنّ الشخص الذي رأوه لم يكن إدْ ستيتون —استنتج شيرلوك — بل القاتل، الذي ارتدى سترة وقبّعة الحارس وخرج بهدوء من المدرسة أمام نظر الشهود الثلاثة، الذين حيّاهم بيده وصعد إلى السيارة ذاتها التي جاء فيها وذهب. الحارس لم يخرج من المدرسة أبدا، لأنّه كان ميتاً في الصالة الرياضية. وصل القاتلُ إلى المدرسة في الوقت الذي

كان فيه موقفُ السيارات مليئاً بالسيارات ولا أحد انتبه لسيارته ودخل من الباب الرئيسي دون مشاكل، اختبأ في الداخل وانتظر حتى ذهب الجميع.

– انقضَّ على ستيتون في الصالة الرياضيّة، عندما كان هذا يقوم بجولته كي يُغلقَ الأبوابَ ويُفعِّلَ الإنذار. إستراتيجية تقليديّة: هجوم مباغت. شلَّهُ بالفرد الكهربائي وقتله بطلقة في الرأس –أضاف الكولونيل بادينغتون.

– هل عثرنا على الرابط بين جامعة أركنساس وإدْ ستيتون؟

– لا. المفتّش بوب مارتين حقق في هذه النقطة. ما من أحدٍ في تلك الجامعة ولا في فرقها الرياضية، الذئاب الحمر، كان يعرف ستيتون.

– الذئاب الحمر؟. ربّما لا يتعلق الأمرُ برابطة بل برمز أو رسالة –ارتأت أباثا.

– الذئب الأحمر، كانيس روفوس، وهو واحد من نوعين ما زالا موجودين، الآخر، الذئب الرمادي أكبر منه. في عام **1980** أعلنوا انقراض نوع الذئاب الحمراء من الطبيعة، لكنّهم زاوجوا بين النماذج القليلة التي كانت في الأسْر واستطاعوا أن يضعوا برنامج لرعاية جرائها يُقدّر أنّ هناك بحدود المئتينَ في حالة بريّة –أخبرهم كابِلْ، الذي كان قد درس الموضوعَ في العام الماضي، عندما انشغلت حفيدته بالمستذئبين.

– هذا لا يفيدنا في شيء –ردّ الكولونيل.

– كلّ شيء يُفيد –صحّح له شارلوك هولمِز.

اقترحت المعلّمة الانتقال إلى "جريمة فرد اللحام المزدوجة" وأظهر كابِلْ الصورةَ التي حصل عليها للحروق على وركي الضحيّتين، ميشيل كان عليه الحرف **F** ودوريس الحرف **A**. كما قدّمَ صورا للحقنتين وفرد اللحام وزجاجة المشروب الكحولي وشرحٍ أن الكساناكس الذي نوّمَ به القاتلُ الزوجين كونستانت كان محلولاً في علبة حليب كرتونية.

– ولكي يعطي مفعوله في كأسين وضع الفاعلُ عشرة أو خمسة عشر قرصاً في ليتر الحليب.

- من غير العقلاني أن يضع المُخدّر في الحليب، لأنَّ الأطفالَ هم من يتناولونه عادة وليس البالغون —تدخّل الكولونيل.
- كانٍ الأطفال في رحلة في تاهوي. كعشاءٍ، كان الزوجان يأكلان دائماً شطائر الجامبو أو الجبن مع فنجانين من القهوة السريعة الذوبان في الحليب. هذا ما حدّثتني به هنرييتا بوست، الجارةُ التي اكتشفت الجثّتين. وقد أخفت القهوة طعم الكساناكس —وضّح كابِلْ.
- يعني، أنّ القاتل كان يعرف عادات الزوجين —استنتج شارلوك.
- كيف وصل المشروب الكحوليّ إلى برّاد الزوجين كونستانتِ؟ —سألت إسمِرالدا.
- هذا النوعِ من الفودكا غير موجود في البلد. نظفوا الزجاجةَ من أثر البصمات بأناةٍ.
- أو أنّ القاتل تعامل معها بالقفازاتٍ، مثل الحقن وفرد اللحام. هذا يعني أنّ القاتلَ وضعها هناك عمداً —قال شارلوك.
- رسالة أخرى —قاطعته أباتا.
- بالضبط.
- هل هي رسالة من كحوليّ إلى آخر؟ من بريان تورنِر إلى ميشيل كونستانت؟ —سألت إسمِرالدا.
- ليس لبريان تورنِر ٍهذا الذكاء فهو بدائيّ جدّاً.. لو أراد أن يترك رسالة لكان فرّغ عدداً من زجاجات البيرة على جسديهما وما كان ليبحث عن مشروب كحولي صربيّ مجهول ليضعه في البرّاد — قال كابِل.
- هل تعتقدون أنّ القاتل صربيّ؟
- لا، يا إسمِرالدا. لكنّني أعتقد أنّه ترك لنا في كلّ حالة مفتاحاً للتعرف عليه. فهو من الصلف وِالثقة بنفسه بحيث أنّه يسمح لنفسه باللعب بنا—قال الكولونيل غاضبا.
- أو بالأحرى باللعب بالشرطة، لأنّه لا يعرفنا أبداً – صحّحتْ أماندا.
- هذا ما أردتُ قوله. تفهمونني.

- لم يُعثر على أيّ رابط بين القاتل المشكوك به بريان تورنشر، الذي وقعت مشاجرة بينه وبين ميشيل كونستانتِ والضحايا الآخرين. ليلة وفاة الطبيب النفسي، كان تورنر موقوفاً في سجنٍ بتالوما بسبب مشاجرة أخرى، وهذا ما يدلّ على سوء مزاجه وأيضاً على أنّه ليس هو المشتبه به -قالت أماندا.

- ليلة موت... -تمتمت أباثا ولم تستطِع أن تتمّ الجملة، فقد كانت أفكارها تهرب منها بسبب الجوع والأدوية.

وضّحت معلّمةُ اللعبة أنّ المتهمين الأساسيين "في جريمة الصعق الكهربائي، ما زالا أياني وغالانغ. كان أبوها قد استجوب الأشخاص الذين كانوا على تواصل مع الطبيب النفسي خلال الأسبوعين السابقين على مقتلهِ. وخاصّة أولئك الذين تواجدوا عنده في الاستوديو؛ وكان يُحقق بين الشرطة وأشخاص آخرين مُخوَّلين باستخدامه، عمّا إذا أضاع أحد منهم فرداً كهربائياً، وكان يبحثُ عن الذين اشتروا واحداً أو أكثر في كاليفورنيا، على الرغم من أنّ القاتل يمكن أن يكون قد حصل عليه بطرق أخرى كثيرة. عثر العالِم الجنائي الذي درس ذئب البوادي، الروايةً التي وصلت مع جوربي زوج أياني بالبريد على بضعة عشر مفتاحاً ممكناً، لكنّها جميعها كانت تنتهي إلى زقاق مسدود، لأنّه كتابٌ معقّد قابل لألف تفسير. كان هناك أكثر من سبعين مسطرة من الحمض النووي في المخبر وحمض غالانغ النووي وحده يلتقي مع حمض نووي مُسجّل، لأنّه مكث ستّة أشهر سجيناً في فلوريدا، في عام 2006 لحيازته على مخدرات، لكن وبما أنّ الرجلَ يعملُ في منزل أشتون، كان من الطبيعي أن تكون بصماته على كلّ الأبواب.

- وأخيراً في حال "جريمة التي أعدمت" لدينا تقرير التشريح النهائي. لقد شُنقت المرأة -قالت مُعلمة اللعبة.

- المشنقة هي أداة عقاب قديمة جداً -أعلمهم بادينغتون. وتقوم على خنق الضحية ببطء لإطالة الاحتضار. كانت الآلة تتألف عامّة من كرسيّ لها ظهر يربطون إليه رقبة المحكوم بحبلٍ أو سلك أو حزام

معدني ويشدّونه من الخلف بمِلوى وله أحياناً عقدة من الأمام مخصّصة لسحق الحنجرة.

- استخدموا شيئاً شبيهاً بهذا مع روسين. خيط نايلون لصيد السمك مع كرة صغيرة ربّما خشبية—شرحت أماندا.

- ما إن يضعوها حتى تُسهّل المشنقةُ عملَ الجلاّد، لأنّه يكفي شدّ المِلوى، فهو لا يحتاج إلى جهدٍ جسدي ولا مهارة. ثمّ إنّ روسين كانت مُخدَّرة، لا تستطيع أن تُدافع عن نفسها. حتى إنّ باستطاعة امرأةٍ صغيرة أن تخنق بهذا الشكل عملاقاً—تابع بادينغتون، مستعدّاً دائماً للبرهان عن معرفته بهذه الموضوعات.

- امرأة... يمكن أن تكون امرأة. ولماذا لا؟ ارتأت أباثا.

- يمكن أن تكون امرأة من قتلت ستيتون، أشتون والزوجين كونستانت، لكنّها تحتاج إلى قوّة لإخضاع روسين، رفعُ جسمها وتعليقه إلى المروحة—دحضتها أماندا.

- هذا بحسب الحالة. ما إن أصبحت روسين على السرير والحبل إلى عنقها، حتى صارت المسألة مسألة رفعها قليلا فقليلا—قال بادينغتون.

- ثمّ إنّ المرأة كانت مُخدّرة عندما شنقوها، لذلك لم تُدافع عن نفسها.

- هممم... مشنقة. طريقةغريبة جداً... —تمتم شارلوك — الضحايا أعدموا. في كل واحدة من هذه الحالات اختار القاتلُ حكماً بالإعدام مُختلفاً: طلقة الرحمة بالنسبة لستيتون، حقنة قاتلة بالنسبة للزوجين كونستانت، صعق كهربائي بالنسبة لأشتون، المخنقة أو المشنقة بالنسبة لروسين.

- هل تعتقدون أنّ هؤلاء الأشخاص يستحقون مثل هذا القتل؟ سألت إسمِرالدا. هذا ما سنعرفه حين نعرف الدافعَ والروابط بين الضحايا —ردّ شارلوك

الجمعة، 9

وصل بدرو ألاركون إلى شقة ميلِّرْ بعد الساعة العاشرة من ليل الخميس، بعد أن حاول عبثاً أن يتصل به بالهاتف. كان قد تلقى عند الظهيرة مكالمة من إنديانا، التي كانت مشغولة جداً على ريان، لأنها كلمته في الليلة الفائتة كي تقول له إنها ستتزوّج من ألان كِلر.

- ظننتُكِ تُحبين ريان —قال لها ألاركون.

- أحبّه كثيرا، إنّه شخص رائع، لكن مضى عليَّ أربع سنوات مع ألان وبيننا شيء مشترك غير موجود بيني وبين ريان

- ما هذا الشيء؟

- الوضع لا يسمح بالحديث عن هذا الأمر، يا بدرو، ثمّ إنّ على ريان أن يحلّ بعض مسائل الماضي، ليس جاهزاً لعلاقة جدّية.

- أنتِ حبُّهُ الأوّل، هذا ما قاله لي. كان سيتزوّج منك. طبيعيّ أن يتخذ ميلِّرْ هذا القرار دون أن يُخبر المعنيّة به.

- أخْبَرَني، يا بدرو. كلّ هذا ذنبي، لأنّني لم أكن واضحة معه. أعتقد أنّني كنتُ في وضع سيّئ جدّاً لأنّني قطعت علاقتي بألان وتعلّقتُ بريان كمنقذ. قضينا أسابيع مثالية، لكنّني وأنا مع ريان كنتُ أفكر بألان، كان هذا حتميا.

- المقارنة بينهما؟

- ربّما... لا أدري.

- يصعب عليّ أن أُصدّق أنّ كِلِّرْ سيخرج رابحاً من المقارنة.

- ليس بهذه البساطة، يا بدرو. هناك دافع آخر، لكنّني لم أقله لِريانْ، لأنّه ليس له علاقة به. شعر بالإهانة، قال لي إنّ ألان يُسيطر عليّ ويستغلني، وإنّني غير قادرة على اتخاذ قرار عقلانيّ، وإنّه سيحميني كيلا أرتكب حماقة، راح يصرخ ويهدّدني بأنه سيسوّي هذا الأمر على طريقته. تحوّل، يا بدرو، صار كالمجنون،

كما في نادي داني دانجلو، مع فارق أنّه ليلة أمس لم يشرب كحولاً. ريان كالبركان، ينفجر فجأة ويلفظ حمماً ملتهبة متدافعة.

- ما الذي تريدينني أن أفعله يا إنديانا؟

- اذهبْ وقابله، كلِّمْهُ، حاول أن تجعله يُحكِّم عقله، فقد رفضَ أن يسمعني والآن لا يردّ على هواتفي ولا على رسائلي الإلكترونية.

كان ألاركون الشخصَ الوحيد الذي أعطاه ميلِّرْ مفتاح شقته، لأنّه كان يتكفلّ بأتيلا حين كان يُسافر، إذا كان الأمرُ يتعلق بيوم أو يومين فقط، كان يبقى في الشقة مع الكلب، وإذا طال غيابُهُ يحمله معه إلى شقته. قرع ألاركون الجرس مرّتين، وبما أنّه لم يلقَ جواباً فتحَ باب المطبعة القديمة بالشيفرة، صعد في المصعد الصناعيِّ الهائل إلى الطابق الوحيد المشغول في البناء. استعمل المفتاحَ الذي أعطاه له ميلِّرْ لفتح الأبواب المعدنية الثقيلة فوجد نفسه مباشرة في المكان الواسع الفارغ الذي هو مسكن صديقه.

كان المكان مظلماً، لم يسمعْ نباحَ الكلب ولم يردّ أحدٌ على ندائه. وقع على القاطع الكهربائي متلمساً الجدار، أشعل النور وسارع لفصل الإنذار، نظام الأمان الذي يمكن أن يصعق الدخيل، الذي يدخل دونٍ دعوة والكاميرات التي كانت تتفعّل مع أيِّ حركة وكانت دائماً مشغلة حين يخرج ميلِّرْ. كان السرير مُرتّباً وما من كأس واحدٍ متسخ في المَجلى، ويسود ترتيب ونظافة عسكريّين المكانَ. جلس ليقرأ كتيِّب تعليماتِ حاسوبات ميلِّرْ بينما هو ينتظر.

ذهب ألاركون، بعد ساعة وبعد أن حاول مرّات عديدة الاتصال بصديقه بالجوّال، إلى سيارته ليبحث عن المتّة والرواية الأمريكية اللاتينية التي كان يقرؤها وعاد إلى الشقة. راح يحمص شريحتين من الخبز ويسخّن ماءً لمتّتِهِ وعاد إلى الصالون ليقرأ، مستخدماً هذه المرّة وسادة وبطانيّةٍ ميلِّرْ الكهربائية، لأن الشقة كانت باردة جدّاً ولم يكن قد شُفي تماماً من نزلة بردٍ عنيدة راحت تزعجه منذ بداية كانون الثاني. عند منتصف الليل أطفأ النور متعباً ونام.

استيقظ ألاركون في الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة صباحاً مذعوراً وفوّهة مسدس على جبينه. "كدتُ أقتلك، يا أبله. في ذلك الفجر الضبابي كان النور لا يكاد يتسلّلُ من النوافذ الخالية من الستائر وتبدو هيئة ميلرْ عملاقة وهو يمسك بالمسدّس بكلتا يديه وجسده في وضعيّة هجوم وتقاسيم وجهٍ قاتل حاسمة. بالكاد دامت الصورة لحظة، إلى أن استوى ميلرْ وخبّأ مسدسه في بيته الجلديّ الذي كان يحمله تحت السترة الجلدية، لكنّه بقي راسخاً في عقل صديقه بصدمة كشف. كان أتيلا يُراقبُ المشهدَ مترصّدا من المصعد، حيث لا شكّ أمره ميلرْ أن ينتظر.

- أين كنتَ، يا رجل –سأل الأوروغواني بهدوء كاذب وقلبه في فمه.
- لا تدخل إلى هنا ثانية دون أن تخبرني! كان الإنذار والكهرباء مفصولين وفكرت بالأسوأ.
- رجل مافيا روسي أو إرهابيّ من القاعدة؟ آسف لأنّني خيّبتُ أملك.
- أحذّرك بجدّية، يا بدرو. أنت تعرف أنّه يوجد هنا معلومات في غاية السرّية. إيّاك أن تعود وتخيفني بهذا الشكل.
- هتفتُ لك حتى تعبتُ. وإنديانا أيضاً. جئتُ لأنّها هي من طلبتْ مني ذلك. أُكرّر عليكِ السؤال، أين كنت؟
- ذهبتُ لأتكلم مع كِلر.
- مُسلّحاً بمُسدّس! رائع. أعتقد أنّك قتلته.
- اقتصرت على هزِّه قليلاً. ما رأي إنديانا بهذا الأهبل؟ يمكن أن يكون أباها.
- لكنّه ليس كذلك.

حكى له ميلرْ أنّه ذهب إلى كرم نابّا مستعداً لأن يتفاهم مع كِلرْ رجلاً لرجل. ثلاث سنوات وأنا أراه يُعامِل إنديانا كعشيقة مؤقّتة وشبه سرّية، واحدة من كثيرات، لأنّه كان يخرج مع أخريات، مثل البارونة البلجيكية التي قالوا إنّه كان سيتزوّج منها. أخيراً حين

أثقلت الحالة على إنديانا قطعت العلاقَة معه بقي أسابيع دون أن يتصل بها، الدليل على قلة ما كانت تلك العلاقة تهمّة في الحقيقة.

- لكن ما إن عرف أنّها كانت معي حتى جاء بخاتم ليعرض عليها الزواج، وهذا أحد تكتيكاته لكسب الوقت. سيكون عليه أن يمرّ على جثّتي!. سأُدافع عن امرأتي بأيّة طريقة.

- طرق جنديّ النخبة يمكن أن تكون غير مناسبة في هذه الحالة — اقترح عليه ألاركون.

- هل عندك فكرة أفضل؟

- أن تتفرّغ لإقناع إنديانا بدل أن تُهدِّد كِلَرْ. سأُحَضِّر لنفسي متّةً أخرى قبل أن أذهب إلى الجامعة. هل تريد قهوة؟

- لا، لقد فطرتُ. سوف أمارسُ تماريني، الكي غونغ وأخرج بعدها لأُنزِّه أتيلا.

وصل الأوروغواني بعد ساعة إلى بالو ألتو وهو يقود سيارته على الطريق 280 على صوت ثِساريا إيبورا الحسّية يرافقها دون عجلةٍ ويستمتع بمنظر الروابي الخضراء المتماوجة، كما فعل يومياً على امتداد سنوات ودائما بالتأثير النافع على مزاجه. لم يكن عنده في تلك الجمعة دروس، لكنّ باحِثَيْن، يُطوّرُ معهما مشروعاً كان ينتظرانه في الجامعة، كانا شابين عبقريينِ يصلان بِثقة وخيال وسرعةٍ إلى استنتاجاته ذاتها التي كانت تُكلفه جهدا ودراسة. مجّال الذكاء الاصطناعي ينتمي إلى الأجيال الجديدة، التي تأتي التكنولوجيا مع حمضها النووي وليس إلى شخص مثلي يُفكِر بأن عليه أنٍ يتقاعد، كان ألاركون يتنهّد. كان قد قضى ليلة سيّئة على أريكة ميلرْ وليس في جسده سوى كأسين من المتّة، ويحتاج لأن يفطر ما إن يصل إلى ستانفور، حيث يستطيع أن يأكل كالملك في أيّ من مقاهيها. قاطعه جوّاله بنشيد أوروغواي الوطني وردّ عليه بمكبّر الصوت في السيارة.

- إنديانا؟ كنتُ سأهتف لكِ لأقولَ لكِ عن ميلِّرْ، كلّ شيء جيّد...

- بدرو! ألان مات! -قاطعته إنديانا ولم يسمح لها إجهاشها الاستمرار.

دخل المُفتِّش بوب مارتين على الخطّ وأخبرَه بأنه يهتف من سيارته وأنّ إنديانا تلقت قبل عشرين دقيقة هاتفاً من قسم شرطة نابّا تُعلِمُها بأنّ ألان كِلِرْ ماتٍ في كرمِه. لم يبغوا أن يعطوها تفاصيل، باستثناء أنّه لم يمت موتاً طبيعيّاً، أمروها أن تحضر لتتعرّف على الجثّة، على الرغم من أنَّ مستخدمي البيت فعلوا ذلك وعرضوا عليها أن يذهبوا في طلبها، لكنّه قرّر أن يأخذها بنفسه، لأنّه لم يكن يريدُ أن تواجِه إنديانا الوضعَ دون مساندته. كانت نبرته جافّة ودقيقة وأغلقَ قبل أن يتمكن ألاركون من التحقق من المزيد.

كانت إنديانا في ذلك الصباح تخرج في من الحمّام، عاريةً ومُبلَّلةَ الشعر حين تلقت مكالمة شرطة نابّا. مضت نصف دقيقة قبل أن تقوم بردّ الفعل وتنزلَ راكضة إلى بيت أبيها ملفوفة بمنشفة تناديه صارخة. أخذ بلاك جاكسون الهاتِف وطلب المساعدة من أوّل شخص خطر بباله في تلك اللحظة الحرجة: صهره السابق. خلال الوقت الذي استغرقته إنديانا وأبوها في ارتداء ملابسهما وتصفية القهوة حضر بوب مارتين برفقة شرطيّ آخر في سيارة دورية وانطلقوا بأقصى سرعة ممكنة وقد شغلوا صفارة الإسعاف إلى الطريق الشمالي السريعِ 101.

في الطريق تكلّمَ المُفتِّشُ مع زميلِهِ في نابّا، الملازم ماكلوغلين، الذي لم ينتابه شك بأنّها جريمة قتلٍ، لأنّه لا يمكن أن يُعزى سببُ الموت إلى حادث أو انتحار. قالٍ إنّ المكالمة وصلت إلى الـ 911 في السادسة وسبع عشرة دقيقة صباحاً من امرأة عرّفت بأنها ماريّا بِّسكادِرو، مستخدمة في المنزل. كان أوّل من وصل وبدأ باستقصاء الأحداث، التفتيش أوّلي، ختمِ المكان واستجواب المستخدَمَيْن، ماريّا ولويس بّسكادِرو، المستخدمين المنزليين في الإقامةِ، وهما مكسيكيان إقامتهما شرعيّة عملا في الكرم ثماني سنوات، أوّلاً مع المالك السابق ثمّ مع

المتوفّى. كانا يتكلّمان قليلاً من الإنكليزية، لكن سرعان ما سيصل أحدُ عناصره الذين يتكلمون الإنكليزية ويستطيع أن يتفاهم معهما. عرض بوب مارتين عليه أن يُترجم له، وطلب منه أن يحصرَ الدخول إلى كلّ العقار، وليس فقط إلى البيتِ، وسأله من الذي سيرفع الجثّة. أجابه الملازم أنّ منطقته هادئة جدّاً، لم تكن تشهد حالات كتلك، وليس عندهِ طبيبُ تشريح أو شرعيّ، عادة ما كان يُوَقّع بيانَ الوفاة طبيبٌ محلي، طبيبُ أسنان، صيدلانيّ أو مالك وكالة دفن الموتى. أمّا إذا كانٍ هناك شك بسببِ الوفاة ويحتاج إلى تشريح فإنّهم يستدعون واحداً من ساكرامِنتو.

- اعتمد على دعمي، يا ملازم –قال له بوب مارتين– قسم جرائم القتل في سان فرانسيسكو تحت تصرُّفك. لدينا كلّ الإمكانيات الضرورية. كانٍ السيّد ألان كِلر ينتمي إلى عائلة وجيهة في مدينتنا وكانٍ في الكِرم مؤقتاً. إذا بدا لك فسآمر على الفور أن يرسلوا إليّ طاقماً شرعياً كي يرفعوا الجثّة ويجمعوا الأدلة. هل أخبرت عائلة كِلر؟

- نحن الآن بصدد هذا. وجدنا اسم وهاتفَ إنديانا جاكسون مثبت بالمغناطيس على باب برّاد البيت. وكان عند الزوجين بسكادِرو تعليمات بالاتصال بها في حال الضرورة.

- نحن ندخل في الطريق 29، أيّها الملازم مكلوغلين، سرعان ما سنكون هناك.

- أنا بانتظارك هنا، سيّد رئيس المفتشين.

وضّحت إنديان أنّ ألان كان خائفاً على صحته، يقيس ضغطَهُ يوميّاً ويعتقد أنّ من الممكن أن يتعرّضَ في سنّهِ في أيّة لحظة إلى نوبةٍ قلبية، ثمّ إنّه تعرّضَ إلى خوف شديد بسببِ خطأ مخبر طبّي، ولذلك وضع هاتفها في محفظة نقوده وعلى البرّاد "لم يفدْهُ هذا كثيرا فإمّا أنّكِ أضعتِ الهاتف أو أنّ المدّخرة فرغت" علّق المُفتّشُ، لكنّه أدرك أنّ عليه أن يكون الآنَ ألطف مع إنديانا، التي لم تتوقف عن البكاء طوال الطريق. وخلص إلى أن زوجته السابقة كانت تُحبُّ كِلرْ أكثر مما كان يستحقّ.

استقبلهم في الكرم الملازم مكلوغلين، وهو في حدود الخمسين من عمره، له مظهر أيرلنديّ، أشيب الشعر، له أنفٌ سكّير أحمر، وكرش يتدلّى فوق زناره. يتحرّك بثقل فقمةٍ خارجَ الماء، لكنّه كان سريع البديهة وعنده تجربة ستّة وعشرين عاما في الشرطة، ترقّى خلالها بصبر ومن دون تألق إلى هذا المنصب في نابّا، حيث يستطيع أن يُكمل بهدوءٍ ما تبقى له حتى التقاعد. كان مقتل كِلِرْ مشكلة، لكنّه تصدّى للمهمّة بانضباط اكتسبه من مهنته. لم يُخِفْهُ وجود رئيس قسم جرائم القتل في سانٍ فرانسيسكو. ومن جانبه عامله بوب مارتين بكثير من التقدير، تفاديا للإزعاجات. 2021

كان مكلوغلينٍ قد أغلق محيطَ البيت ووضع عدداً من عربات الشرطة حول العقار منعاً للدخول، وترك لويس بسكادور في الصالون وزوجتَهُ في المطبخ بهدف استجواب كلّ منهما على انفراد، دون أن يتاح لهما الاتفاق على الأجوبة. سمح لبوب مارتين فقط أن يُرافقه إلى الصالون حيث كانت الجثّة، كي يُجنّب الآنسة ذلك المنظر، كما قال، كما لو أنّه نسي أنّه هو من استدعاها. كان عليهما أن ينتظرا وصولَ فريق الطبّ الشرعيّ، الذي أرسلته بترا هوبّ وكان في الطريق إلى هناك.

كان ألان كِلِرْ مائلاً في كرسيّ كبير تبغيٍّ اللون، مريحٍ، مستنداً برأسه إلى ظهر الكرسي، في وضعية من بوغت نائماً القيلولة. كان يجب أن يُشاهد بشفته المجروحة وآثار الدم والصدر المخترق بسهم كي يُدرك أنّ موته كان عنيفا. راقب بوب مارتين الجسدَ وبقيةَ المكان مملياً ملاحظاته الأولى على مسجّلةِ جيب بينما مكلوغلين يُراقبه من العتبة بيدين متكتّفتين فوق كرشه، كان السهم قد دخل عميقا مسمّرا الجسد بظهر الكرسيّ، وهو ما يدلّ على رامٍ خبير أو على رمية عن قرب. استنتج أنّ حفنة الدم على القميص تعود إلى الأنف واستغرب أنّ جرحَ السهم لم ينزف إلا قليلاً جداً لكن لم يكن باستطاعته أن يفتّش الجسد حتى يصل فريق الطب الشرعي.

كانت ماريّا قد أعدّت في المطبخ قهوةً للجميع وراحت تُداعب بالدور رأس كلب ريفي بلون القرفة ويدَ إنديانا، التي بالكاد كانت تستطيع أن تفتح أجفانها المنتفخة من البكاء. كانت إنديانا تعتقد أنّها آخر من رأى ألان كِلرْ حيّاً، باستثناء القاتل. كانا قد تناولا عشاءهما باكرا في سان فرانسيسكو، أوصلها إلى بيتها وودّعها على أساس أن يلتقيا يوم الأحد، بعد أن تعود أماندا إلى المدرسة. كان كِلرْ قد عاد إلى الكرم، الرحلة التي لم تُثقِل عليه، ففي الليل لا يوجد ازدحام وكان يرافقه كتاب صوتيّ.

استجوب بوب مارتين والملازم مكلوغلين ماريّا بسكادِرو على انفراد في المكتبة، حيث كانت مجموعات خزف الهواكو الصينية في كوى في الجدران، محميّة بزجاج سميك وبالقفل والمفتاح. فصلت ماريّا الإنذار من أجل تفتيش أوّلي لمكلوغلين، لكنّها حذّرتهما بألّا يلمسا زجاجَ المجموعاتِ، التي كان لها نظام أمان منفصل. كان كِلر يخلط بين الرموز وكثيرا ما كان ينطلق إنذار ما لأنّه لم يتمكن من فصله، لذلك لم يكن تستخدم إنذارات البيت بل فقط إنذارَ المكتبة حيث توجدُ كاشفات حركة وكاميرات تلفزيونية. في فيديوهات الليلة الفائتة، التي شاهدها مكلوغلين لم يُسجل أيّ شيء غير طبيعي، ما من أحدٍ دخل إلى تلك الصالة قبل أن تفتحها ماريّا للشرطة.

كانت المرأة بالنتيجة واحدة من أولئك الشهود الغريبين، تتمتّعُ بذاكرةٍ جيدة وخيال قليل، تكتفي بالرد على الأسئلة دون تفكير. قالت إنّها تعيشُ معَ زوجها في بيت صغير داخل العقار، على بعد عشر دقائق سيرا على الأقدام من البيت الرئيسي، هي تقوم على أمور المطبخ وجوانب أخرى من الأعمال المنزلية وزوجها يقوم بأعمال الصيانة والعناية والبستاني والسائق. كانا على علاقة طيّبة جدّاً مع كِلرْ، ربّ العملِ الكريمِ وغيرِ المتشدّد في التفاصيل. كان الكلبُ لهما وُلِدَ وعاش دائما في العقار، لكنّه لم يكن يوماً حارساً جيّداً، تجاوز العاشرة من عمره ويجدُ مشقّةً في المشي، ينام في شرفتها صيفاً وداخل مسكنها شتاء، ولذلك لم ينتبهْ حين دخل القاتلُ إلى البيت الكبير.

عند الساعة السابعة من مساءٍ اليوم السابق حمل زوجها حطباً إلى مدخنتي صالة وغرفة نوم كِلِرْ. أغلقا بعدها البيت دون أن يوصلا الإنذار وذهبا مع الكلب.

- هل لاحظت شيئاً غير معهود ليلاً؟
- من بيتنا لا يُرى مدخل الكرم ولا هذا البيت. لكن البارحة قبل أن يصل لويس ومعه الحطب جاء رجل ليتكلّم مع السيّد كِلِرْ، وضّحتُ له أنه لم يكن موجوداً، لم يبغِ أن يترك اسمه وذهب.
- هل كنتِ تعرفينه؟
- لم يسبق أن رأيته.

وضّحت ماريّا أنّها عادت في ذلك الصباحِ في السابعة إلّا الربع إلى البيت الكبير لتُعدَّ القهوة والخبز المُحمّصَ لفطور السيّد. بقيتْ في المطبخ وفتحتْ باب الممر للكلب، لأنّ كِلِرْ كان يُحِبّ أن يوقظه الكلب، ، الذي كان يصْعَدُ بصعوبة إلى السرير ويرتمي فوقه. بعد هنيهة سمعتْ ماريّا عويلَ الكلب. "ذهبتُ لأرى ما كان يجري ورأيتُ السيّد على كرسي الصالةِ الكبير. أحزنني أنّه نام هناك ودون غطاء والمدخنة مطفأة. لا بدّ أنّه شعر ببردٍ شديد. حين اقتربتُ ورأيتُ، رأيتُ كيف كان، عدتُ إلى المطبخ هتفت للويس بالجوّال ثم وعلى الفور للرقم 911."

الأحد، 9

كانت جثّةُ ألان كِلِرْ تنتظر في مستودع الجثث كي يتمَّ فحصها من قبل إنغريد دونْ، بينما راح شقيقا الميتِ مارك ولوسيل يُحاولان بكلّ الوسائل التي في متناول أيديهما أن يغطّوا على فضيحة ما جرى، التي لها رائحة رجال عصابات إجرام وقاع المجتمع. من يدري ما الذي حشر فنانُ الأسرة نفسَه فيه. كانت إنديانا الأكثر هدوءاً بفضل

مُركّب من العطور الطبيــة، خلاصــة القرفــة والتأمّــل. بــدأت تُخطـط لحفل تخليدي لذلك الرجل الذي عنى لها الكـثير في حياتهـا، ذلـك لأنّه لَن تكون له هناك جنازة على المدى المنظور. كان كِلـر قـد كتـب على إثر تشخيص سرطان البروستات الخاطئ عنده وثيقة عدلية بأنّـه لا يرغب بأن يوصَل بأنابيب الإنعـاش وأنّـه يريـد أن تُحـرقَ جثّتُـهُ ويُنثرَ رمادُهـا فـوق المحـيط. لم يأخـذ بالحسـبان أنـه سِيمرّ بعمليـة التشريح المهينة وسيبقى مُجَمّدا في مستودع الجثث أشهراً حتى تتضح ظروفُ موته تماما.

هبطَ فريقُ التحقيق بالجرائم الذي وضعَهُ المُفتشُ بوب مارتين تحتَ تصرّف الملازم مكلوغلين، على نابا كاملا وجمعَ كمية غير معهودة من الأدلةِ من مكان الجريمـة ومحيطِهـا. عثـر في أرض الحديقـة الرخـوة والرطبـة علـى آثـارِ عجـلاتٍ وأحذيـةٍ، وجمـعَ مـن الأبـوابِ شـعرَ حيواناتٍ لا ينطبق على شـعر كلـب الـزوجين بسـكادور. كـان علـى الجرس والأبواب وفي الصالة عددٌ من البصمات، التي ما إن استُبعِدتْ بصمات سكان البيتِ حتى صـار بالمسـتطاع تحديـد هويـة صـاحبها، على الأرضية الخزفيةِ تركت دوسات حذاء متسـخ آثارهـا الواضـحة، التي حدّدت على أنّها آثارُ أحذيةٍ عسكريّةٍ مستخدمة جدّاً، من النوع الذي يمكنُ الحصول عليه من حوانيـتِ مُخَلّفـاتِ الجـيش، الدارجـة بين الشباب. لم يعثـر علـى علامـاتِ دخـول عنيـف واسـتنتج بـوب مارتين أنّ كِلرْ عرف القاتلَ وفتح له البابَ. كانِ الأنفُ مصدرِ غالبيّـةِ بقع الدم على قميص الضحيّة، كمـا افـترض المُفـتّشُ، وتـدفّق بفعـل الجاذبية حين كان الرجل ما يزال حيّاً.

أشارت إنغريد دون في تقييمها الأولـيّ إلى أنّ كِلـرْ كـان قـد مضـى على موته برهة طويلة حين تلقى السهم لأنّه لم يكن هنـاك دمٌ كـثير متناثراً حوله. أُطلِق السهم أو بالأحرى النبلة من أمـام عـن بعـد مـتر ونصف تقريبـاً مـن مسـدس سـهام كتلـك الـتي تسـتَخدم في الرياضـة

والصيد، وهو سلاح صغير بالمقارنة مع نماذج أخرى، لكن من الصعب إخفاؤه نظراً لشكله. لو أنّ الضحيّة تلقّت تلك الصدمة وهي حيّةٌ لكانت نزفت بعمق.

الوصف الذي قدّمتْهُ ماريّا بِسكادِرو للشخص الذي وصل إلى الكرم مساءَ الجريمة وسأل عن ألان كِلِرْ جاء بالنتيجة مألوفاً جدّاً بالنسبة لبوب مارتين كما لو أنّه قدم له صورةً لريان ميلِرْ، الذي لم يكن يُقدّره إطلاقاً، لأنّه كان واضحاً أنّه عاشق لإنديانا. ذكرت ماريّا شاحنة صغيرةً سوداء مرتفعةً عن الأرض، لها عجلات شاحنة وكلباً غريباً يعلوه شعرٌ وندب، رجلا مفتولاً وطويلاً له شعر قصير على الطريقة العسكرية وكان يعرج. كلّ شيء كان ينطبقُ عليه.

جاء ردّ فعل إنديانا أمام التلميح بأنّ ميلِر كان في بيت كِلِر غير مصدِّق على الإطلاق، لكن يبدو أنّها قبلت الدليل ولم تستطع أن تمنع زوجها السابق من أن يحصل على أمر بتفتيش الشقةِ ويطلقَ نصفَ رجال قِسْمِهِ لصيد المُتّهم، الذي اختفى. كانَ ريان ميلر، بحسبِ بدرو ألاركون وعددٍ من أعضاء نادي الدلفين، الذين تمّ استجوابهم كثيرَ السفر بسبب عمله، لكنّهم لم يستطيعوا أن يشرحوا له أين ترك كلبه أو شاحنته الصغيرة.

حين علمت إلسا دومينغِث بما حدث نزلت في بيت آل جاكسون لتعتني بالأسرة، تطبخُ أطباقاً مريحة وتهتمّ بالزوار الذين اصطفوا كي يُقدّموا التعازي لإنديانا، بدءاً من زملائها في عيادات الطبّ البديل وحتى كارول أندِرووتر التي وصلت ومعها حلوى التفاح ومكثت خمسَ دقائق فقط. رأت أنّ إنديانا لم تكن في وضع يسمحُ لها بالعمل في اليوم التالي وعرضت نفسها كي تقوم بوضع إعلان على باب المكتبِ رقم 8 يُبيّنُ أنّ العيادة مُغلّقة حداداً وستُفتحُ في الأسبوع القادم.

كان بلاك جاكسون قد رافق صهره السابق في اليومين الماضيين وعنده من المواد ما يكفي كي يُغذّي الهوس المرَضِيّ للمشاركين في لعبة

نازع الأحشاء، بينما حفيدته تعاني من عذاب الندم. فقد تسلّت الصغيرة في أكثر من مرّة بالتخطيط لقتل عشيق أمّها وحرّكتْ القوى فوق الطبيعية عَند يهوذا تداوس كي يُصَفّيه، دَون أن تعلمٍ أنّ القديس سيُنفّذُهُ حرفيّاً. كانت تنتظر شبحَ كِلِرْ، الذي سيأتي ليلاً لينتقم منها. كذلك كان يُساهم في ثقل شعورها بِالذنب القلق الحتميّ الذي ستُثيره عندها هذه الجريمة الجدَيدة، تحد جديد لأعضاء لعبة *نازع الأحشاء*. كانت الحفيدة والجدّ يعرفان وقتها أنّ التنجيم هزمهما: كان حمّامُ الدمّ الذي تنبّأت به ثِلِسْتِ روكو حدثاً لا يمكن نكرانه.

السبت، 17

سرعان ما هدأت النفوسُ في البيت وانقطعَ بكاءُ أمِّها التي تحمّلت ألم الأرملة دون أن يُتاحَ لها الوقت كي تتزوّج. استدعت أماندا أعضاءَ لعبة *نازع الأحشاء*. أقل ما يمكن أن تفعله لتُهَدّئ كِلِرْ البائس، الذي راح يبحث عنها والسهمُ مغروز في صدره، هو أن تكتشفَ من الذي أطلقه. كان ألان كِلِرْ حبّ عمر أمّها العظيم، كما خطر لإنديانا أن تقول بين الدموع وصار مقتله المأساوي تحدّياً للعائلة. حكت لرفاقها ما كانت تعرفه عن "جريمة رمية السهم المريعة" وحثّتهم للقبض على المسؤول الحقيقيّ كمعروف شخصيّ لها ولتفادي أن يدفع ريان ميلرْ ثمنَ جريمة لم يرتكبها.

اقترح شارلوك أن يُراجعوا المعلومات المتوفرة حتى تلكِ اللحظة، وأعلن أنّه اكتشف شيئاً مهمّاً بعد أن درس بالميليمتر عدداً من الصور التي حصلَ عليها كابلْ، مُكبِّراً إيّاها في حاسوبه.

- علامة المشروب الذي عُثر عليه في برّاد الكحوليّ السابق ميشيل كونستانتِ هي شير بيك، والتي تعني بالصربية –قال شارلوك– ذِئبَ الثلج. يظهر موضوعُ الذئب في الكتابِ الذي تلقته

زوجةُ ريتشارد أشتون بالبريد، بعد يومين من وقوع الجريمة. بحث علماء نفس الشرطة عن مفاتيح لمضمون الرواية، لكنّني أعتقد أنّ المفتاح موجودٌ في العنوان، ذئب البوادي، وشعار مضرب البيسبول في حالة إدْ ستيتون ينطبق على ذئاب جامعة أركانساس الحمر.

- هذا ما قالته أباثا، إنّها رسالة —ذكرتهم أماندا.

- ليست رسالة ولا مفتاحاً، إنّه توقيع القاتل —أكّد الكولونيل بادينغتون—. التوقيع له معنى بالنسبة إليه فقط.

- لو كان كذلك لوقّع جميعَ الجرائم. لماذا لم يفعل ذلك مع روسين وكِلرْ؟ —تدخّلت إسمِرالدا.

- لحظة —صاحت أماندا—، اهتف إلى أبي، يا كابل واسأله عن تمثال الزجاج الذي تلقته القاضية بعد موتها.

بينما راح الفتيةُ يُتابعون مغامراتهم اتصلَ الجدّ بصهره السابق، الذي كان يردّ دائماً على مكالماته، إلا إذا كان في الحمّام أو في السرير مع امرأة، وأجابه هذا بأن تمثال سواروفسكي كان كلباً. هل يمكن أن يكونَ ذئباً؟ ألحّ بلاك جاكسون. بلى، يمكن أن يكون، يبدو كلبَ رعي ألمانيا ممطوط الرقبة كما لو أنّه يعوي. يعود لمجموعة قديمة متوقّفة منذ 1998، وهو ما يمنح القطعة قيمة، بالتأكيد كانت روسين قد اشترتها عبر الشبكة العنكبوتية لكنّه لم يُعثر على أثر للصفقة.

- إذا كان ذئباً فسيكون لدينا توقيعُ الفاعل في كلّ الحالات، باستثناء حالة كِلرْ —خلصت أماندا.

- جميع الجرائم تحتوي على تشابهاتٍ في طريقة التنفيذ، حتى وإن بدت ظاهريا مختلفة، باستثناء جريمة كِلرْ. لماذا؟ —سألت إسمِرالدا.

- لا يوجد ذئب في جريمة كِلرْ وتمتّ على مسافة قليلة عن خليج سان فرانسيسكو، الأرض المُحدّدة في نبوءة التنجيم التي غطّاها قاتلنا حتى الآن. كِلرْ هو الوحيد الذي ضُرب قبل موته، لكنه مثل الآخرين لم يُدافع عن نفسه —قالت أماندا.

- لديّ فكرة... يمكن أن يكون الفاعل نفسه، لكنّ الدافعَ مختلف —قالت أباثا.

- ليس لدينا الدافع في أيٍّ من الحالات —أشار بادينغتون.

- لكن نستطيع أن نأخذ بالحسبان ما تقوله أباثا. أفكارُها تكاد تكون دائماً صائبة —نبّهتهم أماندا.

- هذا لأنّني أتلقى رسائل من الماوراء. فأنا تُكَلّمُني الملائكةُ والأرواحُ. نحن الأحياء والأمواتُ معاً، الشيء ذاته... —تمتمت أباثا.

- لو تغذيت من الهواء، مثلكِ، لرأيتُ رؤى وسمعت أصواتاً —قاطعتها إسمِرالدا، خائفة من أن تضيع الأخرى في التنجيم وتذهب باللعب في اتجاه خاطئ.

- لماذا لا تفعلين ذلك— سألتها عالمة النفس، مقتنعة بأنّ البشرية ستتطوّر إلى حالة أرقى إذا ما تخلّت عن الطعام.

- كفى، تذكروا أنّه ممنوعة علينا في لعبة *نازع الأحشاء* التعليقات التهكمية. هيّا بنا نهتمّ بالأفعال —أمرت مُعلمة اللعب.

- هذه هواجِس وليست أفعالاً —دمدم الكولونيل بادينغتون.

- قاتلُنا تمادى مع ضحاياه، مثل جاك نازع الأحشاء ومجرمين أسطوريين آخرين درسناهم، لكنّه فعل ذلك بعد أن قتلهم. هذه رسالة. كما ترك توقيعه ترك أيضاً رسالته —قال شارلوك .

- هل يبدو لك ذلك؟

- أساسيّ، يا إسمِرالدا. الشنق أيضاً رسالة. الفاعل لم يختَرْ طريقة الموت على عماها. هذا مجرم مُنظّم وطقسيّ.

- يُخطّط لكلّ خطوةٍ وللانسحاب، لا يترك علامات. لا بدَّ أنّه متدرِّبٌ عسكرياً، إنّه استراتيجي رائع؛ كان من الممكن أن يكون جنرالاً رائعاً —قال الكولونيل بإعجاب.

- هذا الرجل بدل أن يكون كذلك صار قاتلاً بدم بارد —قالت أماندا.

- ربّما ليس رجلاً. حلمتُ بأنّه امرأة —تدخّلت أباثا.

طلب كابلْ إذنا بالكلام وما إن أعطي له حتى وضع اللاعبين في صورة التحقيق في قضيّة ألان كِلِرْ. نظراً لزاوية الضربة على الوجه

حدّد فريق الطبّ الشرعي أنّه تلقاها من أمام وبقبضة مغلقة من شخص أعسر، وقويّ بشكل خاص وطوله علىٍ الأقل مئة وثمانون سنتيمتراً، وربّما مئة وخمسة وثمانون سنتيمترا وهو ما يلتقي مع آثار الحذاء الكبيرة في مدخل البيت وعلى الأرض الخزفية، وهذا ما يستبعد أن يكون مرتكب الجريمة امرأة. كشف التشريح عن أنّ الوفاة وقعت قلٍ نصف ساعة من اختراق نبل القوسِ الجسد، ونظراً لأنّ لونَ بشرة كِلرْ كان وردِياً بشكل غير طبيعيّ يُشكّ بأن سبب الموت هو ملح السيناايد وهو ما أكده التشريح.

- وضّح لنا هذا، يا كابلْ –طلبت منه أماندا.
- إنّه معقّد، لكنّني سأحاول تبسيطه. السيناايد سمّ أيضيّ سريع وفعال يمنع الخلايا من استخدام الأوكسجين. كما لو أنّ كلّ أوكسجين الجسد قد سُحِب. الضحية لا تستطيع أن تتنفس، تدوخ، تُصاب بالغثيان أو تتقيّأ، تفقد الوعيَ ويمكن أن تُعاني من تشنجات قبل أن تموت.
- ولماذا تصبح البشرة ورديّةً؟
- بسبب ردّ فعل كيميائي بين السيناايد وأيْضِ اليحمور في خلايا الدم الحمراء. يصير لون الدم أحمر برّاقاً، كثيفاً مثلَ الطلاء.
- أهكذا كان الدم على قميص كِلرْ؟ –سألت إسمِرالدا.
- ليس كلّه. فالرجل نزف من أنفه قبل أن يهضم السمّ. هناك بعض الدم اللاحق علىٍ السيناايد، لكنّه قليل جدّاً. لم ينزف من الجرح، لأنّه كان ميتاً.
- اشرح لنا كيف أعطوه السمّ، يا كابلْ –طلب شارلوك.
- عُثِر على السيناايد في كأس من الماء بالقرب من الضحية، وكذلك في كأس آخر على طاولة السرير في غرفة نومه. وضع القاتلُ ذرّة من المسحوقِ الأبيض، لا يُرى عملياً من نظرة بسيطة، في قاع الكأس كي يتأكد من أنّه إذا لم يتناول ألان كلر السمّ في الويسكي، الذي يشربه عادة قبل أن ينام فإنّه سيفعل ذلك في الليل.

- السيانيد سامٌّ جداً. تكفي كمية صغيرة جداً كي تُحدث الموت خلال دقيقتين، كذلك يدخل إلى الجسم عن طريق الجلد أو الاستنشاق، لذلك كان على القاتل أن يحمي نفسه جيّداً —وضّح شارلوك هولميز.

- الجواسيس في الأفلام يحملون كبسولات سينايد كي ينتحروا في حال أنّهم سيُعذّبونهم . كيف يتمّ الحصول عليه؟ —سألت إسمِرالدا.

- بسهولة، يُستَخدم في المعادن، في استخلاص الذهب والنحاس والبلاتين. يمكن أن يكون القاتل قد اشتراه من حانوت التزَوُّد بالمواد الكيميائية أو عبر الشبكة العنكبوتية.

- السمّ سلاح أنثويّ. طريقة جبانة. نحن الرجال لا نقتل بالسمّ، نقتل وجهاً لوجه. —أشار بادينغتون فقوبلت ملاحظتُهُ بضحكة عامّة.

- امرأة بطول أكثر من مئة وثمانين سنتيمتراً، قويّة تنتعل حذاء جنديّ يجب أن تكون بطلة أولمبية برفع الأثقال. شخص بهذا الشكل لا يحتاج لأن يعتمد على السمّ، كان باستطاعته أن يسحق رأس الضحيّة بضربة أخرى من قبضته —أصرّ الكولونيل.

- هل أخذتم بالحسبان أنّ الشخص الذي ضرب كِلِرْ ليس هو نفسه الذي قتله؟ اقترحت أباثا.

- لا يُعجبني، فيه كثير من التكلّف وكثير من المصادفات —ردّ الكولونيل.

- ممكن، لكن باستطاعتنا أن نفحص الأدلّة ونأخذ بالحسبان ما تقوله أباثا —تدخّل شارلوك هولميز.

قبل أيّام بقي الشابان عبقريا الذكاء الاصطناعي ينتظران الأستاذ بدرو ألاركون، الذي لم يصل إلى الاجتماع المبرمج. ما إن تلقى هاتف إنديانا تعلن له مقتل ألان كِلِرْ حتى استدار الأوروغوانيّ وشرع في طريق العودة إلى سان فرانسيسكو. قام خلال الطريق بعدّة محاولات للاتصال بميلِرْ. وصل إلى الشقّة عندما كان ميلِرْ قد أنهى حمامه

وارتداء ملابسه بعد أن قام بالجري مع أتيلا وتحدّث مع جنرال من البنتاغون في واشنطون. فتح باب المصعد المعدنيّ. وقدّم له خبر المفاجأة قبل أن يتمكن ميلرْ من سؤاله لماذا عاد.

- ماذا تقول؟ كيف مات كِلِر؟

- أخبرتني إنديانا منذ ساعة، لكنّها لم تستطع الكلام، أخذ زوجها السابق المفتّش مارتين الهاتف منها ولم تتمكن من أن تقول لي شيئاً آخر. كانت ذاهبة في سيارة مارتين. كلّ ما أعرفه هو أنّ الموت لم يكن طبيعيّاً. أستطيع أن أقسم أنّ إنديانا هتفت لي كي أخبرك. ما به هاتفك؟

- تبلّل، عليّ أن أشتري آخرَ.

- إذا كانت هذه جريمة، كما أظنّ، فأنت في ورطة، يا ريان. كنتَ مع كِلِرْ ليلاً، ذهبتَ لرؤيته مسلّحاً بمسدّس، وحسب كلامك هززته قليلاً وهذا يضعك في دور المُتّهم الرئيسي الذي لا تُحسد عليه. أين كنت طيلة الليل؟

- هل أنت تتهمني بشيء؟-زمجر ميلرْ.

- يا رجل، جئتُ لأساعدك. أردتُ أن أصلَ إلى هنا قبل الشرطة.

حاول ميلرْ التحكّمَ بالغضب الذي كان يحرقه من الداخل. موت منافسه مناسب جدّاً وهو لا يتأسف عليه، لكنّ بدرو كان على حقّ، فوضعه كان خطيراً: عنده الدافع والفرصة. حكى لصديقه أنّه وصل إلى كرم كِلِرْ البارحة مساء، يجب أن يكون بحدود السابعة والنصف، لكنّه لم ينظر إلى الساعة، وجد البوّابة الكبيرة مفتوحة، ساق السيارة عبر طريق بطول ما يقارب الثلاثمئة متر رأى البيت وبحيرة مستديرة فيها ماء. توقف أمام الباب ونزل مع أتيلا، المربوط إلى سير، لأنّ الكلب كان بحاجة لأن يبول. قرع الباب قرابة الثلاث مرّات، قبل أن تفتح له أخيراً امرأة لاتينية وهي تنشف يديها بالمئزر، قالت له إنّ ألان كِلِرْ لم يكن موجودا، لم تستطع أن تستمرّ بالكلام، لأنّ كلباً ضارباً للبياض يحرّك ذيله ظهر خلفها، بدا وديعاً، لكنّه عندما رأى

أتيلا راح ينبح. وراح أتيلا بدوره يشدّ سيره عصبياً فأغلقت المرأة بوجههما الباب. ذهب ليترك الكلب في الشاحنة الصغيرة، وعادَ ليطرق الجرس، فتحتِ البابَ هذه المِرّة مواربةً وقالت له من الشقّ بإنكليزيّة بائسة أنّ كِلِرْ سيعودُ ليلاً فإذا رغب يستطيع أن يترك اسمه، فأجابها بأنّه يُفضّل أن يهتف له فيما بعد. خلال ذلك كان الكلبان ينبحان، واحد داخل البيت والآخر في الشاحنة. قرَّر أن ينتظر كِلِرْ، لكنّه لا يستطيع أن يفعل ذلك هناك، فالمرأة لم تَدْعُهُ للدخول وبدا له غريباً أن يقعد لينتظره في سيارته هناك. وجَد أنّ من الحكمة أكثر أن ينتظره في الشارع.

صفَّ ميلِّرْ سيارته بمصابيحها المُطفأة في مكان يستطيع أن يرى منه بوضوح مدخلَ العقار المضاء بمصابيح قديمة.

- بقي البابُ الكبير مفتوحاً على مِصراعيه، كان كِلِّر يستدعيهم كي يُهاجموه، لم يتخذ إجراءات الحذر، على الرغم من أنّه يملك أعمالاً فنيّة وأشياء قيّمة، بحسب ما يبدو.
- تابِعْ —قال ألاركون.
- تعرفت بالحد الأدنى على المكان، هناك جدار قرميدي بطول عشرة أمتار على جانبي البوّابة الكبيرة، هي للديكور أكثر مما للحماية، بقية السياج الذي يحدّد العقار مكوّن من شجيرات الورد. رأيت أنّ هناك أزهاراً كثيرة، على الرغم من أنّنا دخلنا توّاً آذار.
- في أيّ ساعة وصل كِلِرْ؟
- انتظرتُ قرابة الساعتين. توقّفت سيارته اللكسوس في المدخل، نزل كِلِرْ ليأخذ الرسائل من صندوق البريد، دخل بعدها في السيارة وأغلق البوّابة بجهاز التحكم عن بعد. تعرف أنّ حاجزاً من الورد لم يكن ليوقفني. تركتُ أتيلا في الشاحنة الصغيرة، لم أبغِ أن أخيفَ كِلِرْ وذهبت إلى البيت وسط الطريق. لا تظن أنّني حاولتَ أن أتخفى أو أن أُفاجئهُ، لا شيء من هذا. قرعتُ الجرسَ ففتح لي كِلِرْ نفسه على الفور تقريباً. وهذا ما لن تصدّقه يا بدرو. هل تعلم ما قاله لي؟ ليلة سعيدة يا ميلِرْ، كنتُ بانتظارك.

- لا بدَّ أنّ المرأة قالت له إنّ بلطجيّاً لـه مظهـرك كـان يبحـثُ عنه. من السهل توصيفك، يا ميلر، خاصّة إذا كنتَ مع أتـيلا. كـان كِلِرْ يعرفك. أيضاً يمكن أن تكون قد حذّرته إنـديانا مـن أنّـك هـدّدت بأن تحلّ الأمور على طريقتك.
- إذن ما كان ليُدْخِلني، ولكان استدعى الشرطة.
- ها أنت ترى، بعد كلّ شيء لم يكن إلى هذه الدرجة من الحماقة.

حكى له ميلِّرْ بصراحة كيـف تبـعَ كِلِّـرْ حتـى الصـالة ورفـضٍ أن يجلس كما رفض كأس الويسكي الذي قدّمه له هذا وقال له واقفـاً مـا كان يُفكر به تجاهه، وأنّه خسر فرصته مـع إنـديانا وأنّهـا الآن معـه ومنٍ الأفضل له ألا يدخل بينهما، لأنّ النتائج سـوف تكـون مزعجـةً جدّاً. إذا كان منافسه قد خاف فقد عرف كيف يخفـي خوفـه جيِّـداً وأجابه دون أن يتبدّل بأن هذا القرار يعود إلى إنديانا وحـدها. وليَفـز الأفضلُ بينهما، قال ذلك بنبرة ساخرة وأراه الباب، لكن وبما أنّه لم يتحرّك حاول أن يأخذه من ذراعه. فكرة سيّئة.

- جاء ردٍّ فعلي غريزياً. لم أنتبه متـى أرسـلت لـه لكمـة علـى وجهه —قال ميلرْ.
- ضربته؟
- لم أضربه بقوّة، يا بدرو. ترنّح قليلاً وخرج دم من أنفه، لكنّه لم يسقط. شعرتُ بنفسي فظيعا. ما بي، يا بدرو؟ أفقدُ أعصـابي مـن أيّ ترهة. لم أكن هكذا.
- هل شربت؟
- ولا قطرة بائسة، يا رجل. أبداً.
- ماذا فعلت بعدها؟
- اعتذرتُ منه، ساعدته في الوصول إلى كرسيّ كبير وصببتُ له ماءً. كان هناك زجاجة ماء وزجاجة ويسكي فوق خزانة صغيرة.

نظّف كِلِّرْ الدمَ بكمّ قميصه، أخذ الكأس ووضعه على الطاولة قربَ الكرسيّ الكبير وأشار لميلِّرْ إلى الباب للمرّة الثانية وقال له ليس هنـاك

ما يوجب أن تعلم إنديانا بهذا الحدث السوقيّ. بحسبِ ميلِّر كان هذا كلّ شيء، عاد لشاحنته الصغيرة و مضى عائداً إلى سان فرانسيسكو، لكنّه كان منهكاً، فقد بدأت تُمطر رذاذاً وكان انعكاس الأضواء على الأرض يعميه،، لأنّه لم يكن قد وضع العدستين اللاصقتين، اللتين كان يستخدمهما دائما تقريباً. ظنّ أن من الحكمة أكثر أن يرتاح قليلاً في السيارة. "لستُ على ما يرام، يا بدرو، سابقاً كنت أحافظ على دمي باردا، حتى تحت القصف المطبق والآن خصام لمدة خمس دقائق يوجعني رأسي"، قال. أضاف أنّه خرج من الطريق، أوقف السيارة، سوّى وضعيته في المقعد ونام على الفور تقريباً. استيقظ بعد ساعات، حين لم تكد تبين أنوار الفجر في السماء الغائمة بينما أتيلا يخدشه بحذر متلهّفاً للخروج. منح الكلبَ فرصة أن يرفع رجله فوق إحدى الجنبات وتابع حتى أول مطعم ماكدونالد وجده مفتوحاً في تلك الساعة، اشترى همبورغر لأتيلا، تناول فطوره وذهب إلى شقّته، حيث وجد ألاركون بانتظاره.

- أنا لم أقتله، يا درو.

- لو اعتقدت أنّك فعلت لما كنتُ هنا. خلّفت وراءك مذنّباً من العلامات، بل وبصماتك على الجرس والكأس وزجاجة الماء ومن يدري أين أيضاً.

- لم يكن عندي ما أخفيه، لماذا كنتُ سأُفكّر بآثاري اللعينة؟ باستثناء قليل من الدم من الأنف، كان كِلر في وضع ممتاز حين غادرت.

- سيصعب عليك إقناع الشرطة بهذا.

- لا أفكر بأن أحاول ذلك. بوب مارتين يكرهني والشعور متبادل، لا شيء سيسرّه كثيراً مثل أن يتهمني بقتل كِلرْ، وإذا استطاع ببقيّة الجرائم الجديدة. يعرف أنّ إنديانا وأنا صديقان ويشك بأنّنا كنّا عشيقين. حين نلتقي يتكهربُ الجوّ وتنطلق شرارات، نلتقي أحياناً في حقل الرماية وتثور حفيظته لأنّني رام أفضلَ منه، لكن أكثر ما يفزره هو أنّ ابنته تُحبّني. أماندا التي لم تتحمّل قط أيّاً من طالبي

ودّ أمّها كانت سعيدةً حين علمت أنّها كانت معي. بوب مارتين لم يغفر لي هذا.

- ماذا ستفعل؟

- أمرّغه على طريقتي، كما فعلتُ دائماً، سوف أعثر على قاتل كِلٍّر قبل أن يسجنني مارتين ويعتبر القضية بحكم المنتهية. عليّ أن أختفي.

- هل أنت معتوه؟ الهرب دليل الارتكاب، من الأفضل أن نبحث عن محامٍ جيّد.

- لن أذهبٍ بعيداً. أحتاج لمساعدتك. أمامنا عدّة ساعات قبل أن يتعرّفوا علىٍ آثاري ويأتوا في طلبي. يجب أن أنقل محتوى حواسيبي كاملا إلى ذاكرة يو إس بي وأمحو الأقراص الصلبة، لأنّها ستكون أوّل ما سيُصادرونه وهذه المعلومات في غاية السريّة. سيستغرق مني وقتاً.

طلب من صديقه أن يُؤمّن له زورقاً فيه حجرة ومحرّك جيّد، على ألاّ يشتريه من موزّع، لأنّه سيشك بالدفع نقدا ويمكن أن يُخبر الشرطة. يجب أن يكون مركباً مستعملا وفي حالة جيّدة. كذلك يحتاج لبيدونات محروقات لعدّة أيّام وجوّالين جديدين للتواصل لأنَّ جوّاله لا يعمل وألاركون يحتاج لواحدٍ فقط للتواصل معه.

فتح جندي النخبة صندوقاً حديدياً مموّهاً في الجدار وأخرج عدّة رزم من الأوراق النقديّة وبطاقات اعتماد وإجازات قيادة. مرّر للأوروغوائي خمسة عشر ألف دولار من فئة المئة دولار، مربوطة بمطاطة.

- يا يسوع! ما فكّرتُ بهِ دائماً: أنت جاسوس -صاح ألاركون مع صَفْرَة تعجّب.

- أُنفق قليلاً ويدفعون لي جيّداً.

- المخابرات المركزية أم الإمارات العربية؟

- كلاهما.

- هل أنت غنيّ؟ -سأله ألاركون.

- لا. ولا أريد أن أصير. ما في الصندوق الحديدي هو تقريباً كلّ ما أملك. لم يهمّني المالُ قط، يا بدرو، وأنا أشبه في هذا إنديانا. أخافُ أن ننتهي نحن الاثنين متحوّلين إلى زوجين من المتسولين.
- ما الذي يهمّك إذن؟
- المغامرة. أريدك أن تحمل معك كل ما هو موجود في الصندوق الحديدي كيلا تُصادره الشرطة. سيترتّب علينا بعض النفقات. إذا حدث لي شيء، تسلم الباقي لإنديانا، اتفقنا؟
- مستحيل. سأبقي عليه لنفسي ولن يعلم به أحد. على كلٍّ هذا مال غير شرعيّ أو مزوّر.
- شكراً، يا بدرو، أعرف أنّ باستطاعتي أن أثق بك.
- إذا ما حدث لك شيء، يا ريان، سيكون بسبب الصلف. ينقصك الشعور بالواقع، تعتقد أنّك سوبرمان. هاهـ! أرى أن عندك خمسة جوازات سفر مختلفة. جميعها تحمل صورتك –قال ألاركون وهو يسترقّ النظر إلى الوثائق.
- لا أحد يعرف متى يمكن أن تفيد. إنّها كالسلاح: حتى لو لم أستخدمها أشعر بأمان أكثر بامتلاكِها. أنا صلف لكنّني أيضاً حذر، يا بدرو.
- لو لم تكن عسكرياً لكنتَ رجل مافيا.
- دون شك. سأكون في ميناء تيبورون خلال ثلاث ساعات سأنتظرك حتى الثانية مساءً. مهمّ ألا تترك آثاراً لشراء الزورق. عليك بعدها أن تُخفي شاحنتي. كلّ هذا يُحوّلك إلى متواطئ. هل من مشكلة؟
- أبداً.

الاثنين، 19

بعد أسبوعين حين طال ذراعُ التنجيم الطويلُ أسرتَهُ، لام بوب مارتين نفسه لأنّه لم يولِ تحذيراتِ ابنته المتكرّرة أذناً صاغية. كانت

أماندا قد وضعته خطوة بخطوة في صورة اكتشافات لاعبي لعبة *نازع الأحشاء*، الذين لم يكونوا بحسب فهمه أكثر من خمسة أطفال وجد يتسلون بلعبة الأدوار، إلى أن اضطُرَّ مُكرهاً لأن يعترف بأن جرائم سان فرانسيسكو المثيرة كانت من فعل قاتل علِي التسلسل. كان عمل قسم جرائم القتل يقوم حتى مقتل ألان كِلرْ على تحليل الأدلة والبحث عن رابط بين القضايا، بخلاف المنهج المتّبع الذي كان يبدأ العثور على الدافع. كان من المستحيل أن يتنبّؤوا بالأسباب التي كانت تدفع المجرم إلى اختيار ضحاياه المتباينين جدّاً. ومع ذلك فإنّ التحقيقَ، بعد مقتل كِلرْ، اتخذ طابعاً آخر، لم تعد المسألة تتعلّق بالعثورِ على الفاعل، بتتبُّع أدلةٍ عشوائية، بل بإثبات أنّ مشتَبَهاً به محدّداً كان الفاعل وبإلقاء القبض عليه. المُتّهم هو ريان ميلرْ.

تأخّرَ الأمرُ بتفتيش المطبعة القديمة، حيث كان يعيشُ ميلرْ، بضعةَ أيام، لأنّه تضمّن حتى أدقّ الفجوات القانونية. كان هذا يضمنُ أنّ الدليلَ المُحْرزَ كان صالحاً في محاكمة. قليلون هم القضاة الذين كانوا مستعدّين لتوقيع أمر بمثل هذه السعة. كان المتّهم جنديّاً من جنود النخبة، بطلَ حربٍ، يعمل ظاهريّاً في مشاريع سرّية مع الحكومة والبنتاغون. إنّ خطأً في الجانب الشرعي يمكن أن يكون خطيراً، لكنّ نتائجَ منع اعتقالِ قاتِل مُفترَض كانت أخطر بكثير. أخيراً أذعن القاضي للضغطِ المُسند لرئيس قسم المفتشين، الذي ما إن حصل على الأمرِ حتى ترأسَ فريقاً من عشرة أشخاص، غزا شقة ميلرْ الرحبة مزوّداً بأحدث التكنولوجيات.

كان المفتّش يصبو لأن يُبرهن على أنّ الأدلة التي بين يديه تنطبق على تلك التي سيعثر عليها في الشقة. كان عنده الوصف الذي قدّمته ماريّا بِسكادِرو للرجلِ والكلبِ اللذين رأتهما مساءَ الجريمة، الذي ينطبق على ريان ميلرْ وعلى ذلك الحيوان المريع الذي يُرافقه دائماً، هذا القفاز لهذا الكفّ. عثروا في المكان على شعر كلبٍ، الذي حدّدوا

أنّـه لمـالينواز بلجيكـيٍّ، علـى آثـار الحـذاء في المـدخل وعلـى بـلاط الأرضية، بصماتِ ميلرٌ على الباب والجرس، الزجاجةِ وكـأس المـاء، أليافِ مادّة تركيبية تنطبق علـى دميـة الـدب الـوردي وعـدّة عَينـاتٍ أخرى مثل قشور جلدٍ وزغب، التي خلفتها اللكمة الـتي تلقاهـا كِلـر على وجهه، والتي تُفيد في تحديدِ الحمض النـووي. في الشـقة عثـروا على شعرِ الكلب ذاته، الأليافِ الوردية، آثـار الحـذاء علـى الأرض، قواريرَ نصَفِ ممتلئة باللكسناكس واللورازمب، أسـلحة ناريـة وقـوس رماية على دريئة، نموذج المنافسة، مع نظام عتلةٍ من حبال وبكرات. كانت ذخيرة الأسلحة مختلفة عن الطلقة في رأس إدْ ستستون وكـذلك لم تكن السهام مثل السهم الذي اخترق كِلرْ، لكنّ وجودها كـان يـدلُّ على أنّ صاحبها كان متآلفاً مع استخدامها.

انتهت الحواسيب المصادرة إلى المخبر المعني، لكن وقبل أن يتمكّن مهندسو الشرطة من فتحـها جاء أمرٍ من واشنطن بختمها حتى يُتخذ قرار بشأنها. كان من المحتمل جدّاً أن يكـون ميلـرْ قـد نـزّل برنـامجَ تدمير ذاتي، وإذا لم يكن كذلك فوحـدها السـلطات المعنيّـة تسـتطيع فتحـهًا والدخول إلى محتوياتـها. عندما استُجوب بدرو ألاركون، وضّح أنّ صديقه كان يتعاون مع شـركاتٍ أمنيـة في دُبَـيّ وأنّـه كـان يغيـب أحياناً لأسبوعين أو أكثر، لكن ما من أحدٍ خرج من البلد بجواز سفر ريان ميلرْ.

- ميلرٌ ليس مسؤولاً، يا أبي —قالت له أماندا عندما علمت من بِتّرا هور بالتفتيش— هل ترى أنَّ له وجهَ قاتل على التسلسل؟
- أرى له وجَه مشبوهٍ بقتل ألان كِلرْ.
- لماذا سيفعل شيئا من هذا القبيل؟
- لأنّه عاشقٌ لأمّك —قال بوب مارتين.
- لا أحد يقتل غيرةً منذ شكسبير، يا أبي.
- أنت مخطئة، الغيرةُ هي الدافع الرئيسي للقتل بين الأزواج.

- حسن. من الممكن أن يكون لدى ميلّر دافعاً في قضية كِلِّرْ، لكن وضّح لي مشاركتَهُ في الجرائم الأخرى. لا شكّ أنّها ارتُكِبت كلها من قبَل الشخص ذاته.

- دُرّب على الحرب وعلى القتل. لا أقول إنّ جميع الجنود قتلة بالقوة الكامنة، إطلاقا، لكن هناك رجال مُختلون يدخلون القوات المسلحة، يتلقون ميداليات على الأعمال ذاتها التي تقودهم في الحياة المدنية إلى السجن أو إلى مأوى للمجانين. أيضاً هناك أشخاص طبيعيون تختلّ عقولهم في الحرب.

- ريان ميلرْ ليس مجنونا.

- أنت لستِ خبيرة في الموضوع، يا أماندا. لا أدري لماذا تستلطفين هذا الشخص. إنّه خطير.

- أنت لا تستلطفه لأنّه صديق أمّي.

- أنا وأمّك مُطلّقان، يا أماندا. لا يهمّني أصدقاؤها. لكنّ ميلّرْ يملك سجلا حافلا بالرضوض الجسدية والعاطفيّة والاكتئاب والكحولية والمخدرات والعنف. يتداوى بمضادات الاكتئاب والأرق، المخدّرات ذاتها التي قضت على الزوجين كونستانتِ.

- بحسب جدي كثيرون هم الناس الذين يتناولون هذه الأدوية.

- لماذا تُدافعين عنه، يا ابنتي!

- للحس المشترك، يا أبي! في كلّ الجرائم راعى الفاعل أن لا يترك آثاره، وبالتأكيد غطى نفسه بالبلاستيك من رأسه وحتى قدميه، نظف كلّ الذي لمسه، بما في ذلك ما أرسله بالبريد، ككتاب أشتِون أو ذئب روسين الكريستالي. هل تعتقد أنّ هذا الرجلَ سوف يُنظف أثر بصماته عن السهم ويتركها في كلّ مكان من بيتِ ألان كِلرْ، بما في ذلك كأس الماء المسموم؟ لا معنى لذلك.

- هناك حالات يفقد فيها القاتلُ التحكّم بحياته ويبدأ بزرع آثاره، لأنّه يرغب في أعماقه بأن يعتقلوه

- هلِ هذا ما يقوله علماء نفس الجريمة عندك؟ سيموت ريان ميلِّرْ ضحكا من هذه النظريّة. للتعاملِ مع السيانيد يجب استخدام

قفازاتٍ مطاطية. هل تعتقد أنّ ميلِّرْ استعملها كي يصبّ السمَّ وخلعها كي يمسك بالكأس؟ لن يفعل هذا حتى لو كان أبله!

- لا أعرف حتى الآن كيف جرتِ الأمور، لكن عليك أن تعديني بأن تُخبريني فوراً إذا ما حاول ميلرْ أنٍ يتصلٍ بأمِّك.

- لا تطلُبْ منّي هذا، يا أبي، لأنّ إنسانا بريئا يمكن أن ينتهي بالحكم عليه بالموت.

- يا أماندا، لست مستعداً للمزاح. سيملك ميلِّرْ الفرصةَ كي يُبرهِن عن براءته، لكن علينا الآن أن نعتبره خطيرا جداً. حتى ولو لم يكن مرتكب الجرائمِ الأخرى، فكلّ شيء يُشير إليه في قضية كِلرْ. هل فهمتني؟

- بلى، يا أبي.
- عِديني.
- أعدك.
- بماذا؟
- بأن أخبرك إذا ما علمت بأنّ ريان اتصلَ بأمي.
- هل صالبتِ أصبعيك وراء ظهرك[23]؟
- لا، يا أبي أنا لا أخدعُك.

عندما وعدت أماندا أباها بأنّها ستشي بريان ميلِّر لم يكن في نيّتها أن تفي بوعدِها، لأنّ وعداً مقطوعاً يُثقلُ أقل على الضمير من تدمير حياةِ صديق. من بين شرّين عليها أن تختار أهونهما-، لكنّها طلبت من أمّها ألا تُخبرها إذا ما ظهر جنديّ النخبةِ بين مرضاها أو في مشهد عامّ عاطفيّ. لا بدّ أنه كان لإنديانا علاقة بتعبير ابنتها، لأنّها اقتصرت على القبول دون أن تستفسرَ أكثر.

كانت إنديانا على معرفة بأنّ الشرطة استنفرت للقبض على ميلِّرْ، كمتهمٍ وحيد بمقتل كِلِّرْ، لكنّها مثلُ أماندا لم تكن تعتقد أنّه قادرٌ

[23] عندما يتمنى أحد أمنية أو يخاف من خطر أو يريد أن يكذب عادة ما يصالبُ السبابة مع الوسطى.

على ارتكاب جريمةٍ بدمٍ بارد. لا أحد أكثر منها كان يرغب بالقبض على المجرم. كانت تعرِفُ أنّ ذلك الصديقَ، الحبيبَ لأسبوعين، ذلك الرجلَ الذي عرفتْهُ بعمق وجابتْهُ بيديها المُعالِجَتَيْن وبشفتيْها المجنونتين، لم يكن المجرم. كانت إنديانا ستجِدُ نفسَها في حرج من إعطاء جوابٍ معقول لو أنّهم سألوها كيف يمكن أن تكون بهذه الثقة من براءة ميلر، العسكريّ الذي كان يُعاني من نوبات غضب، وأطلق النار على مدنيين، بما فيهم نساء وأطفال وعذّبَ سجناءَ كي ينتزعَ منهم اعترافات، لكنّهم لم يسألوها وباستثناء بدرو ألاركون لا أحدَ كان يعرف ماضي الجنديّ. كان يَقين إنديانا يرتكز على رسائل حدْسِها وحكم الكواكب، التي تستحقّ منها في مثل تلك الظروف ثقة أكبر من معيارٍ زوجِها السابق. ما من رجل من الرجالِ الذين اهتمّت بهم وقعَ وقعاً حسناً في نفسٍ بوب مارتين، منذ أن تطلّقا، لكنّه كان يكنّ لِريان ميلَرْ كراهيةً خاصّة، لخصتها أماندا بكلماتٍ قليلة: كلاهما فحل ولا يستطيعان أن يتعايشا على أرض واحدة، كانا رجلي غاب، أورانغوتانين[24]. بالمقابل كانت إنديانا تحتفل بفرائس زوجِها السابق على أمل أن يعثرَ من كثرة ما كان يُجرّب من نساء، على زوجةِ أبٍ مثاليةً لأماندا ويستقر. الصورةِ الفلكية التي قدمتها ثِلِسْتٍ روكو لم تشِرِ إلى نزعة قتل عند ريان ميلِر، وهذه سِمة طَبعٍ لا شكّ ستظهرُ في طالع نجوم من ارتكبَ أعمالاً مريعة.

لم يكن ضروريّاً أن تُخفي إنديانا شيئاً عن أماندا ولا أن تكذب هذه على أبيها، لأنّه إذا لم يتصل ريان ميلر بأمّها فقد اتصل بابنتها بطريقة غير مباشرة. حضر بدرو ألاركون إلى مدرسة الصغيرة عند الخروجِ من الدرس، انتظر حتى ذهبت الحافلاتُ والسياراتُ وطلب أن يتكلم معها عن فيديو. استقبلته الأخت ثِتيل المسؤولة عن البنات

---

[24] نوع من القرود طويل الذراعين، أحمر وأحياناً بنّي الشعر، موطنه الأصلي ماليزيا وإندونيسيا ويعني اسمه إنسان الغابة.

الداخليات، وهي اسكتلندية طويلة وقويّة ولا تظهر عليها سنواتها الستّ والستون بعينيها، الزرقاوين النيليتين القادرتين على التقاط شقاوة طالباتها قبل أن يرتكبنها. ما إن ربطت بينه وبين مشروع تلميذتها عنٍ أوروغواي حتى قادته إلى صالة الصمت، كما كانت تُسمّي ملحقاً بالمصلى صغيرا. كان للسياسة المسكونية للمؤسّسة ثقلٌ أكثر من التقليد الكاثوليكي وكان لطفلات الديانات الأخرى وكذلك للاأدريات، مكان لممارساتهن الروحية ولكي يكنّ على انفراد مع أنفسهنّ. حجرة خالية من الأثاث بأرضيةٍ من الخشب المصقول مطلية بأزرق رمادي مريح مع عدد من المساند الدائرية للتأمل وسجادات صغيرة ملفوفة في زاوية للطالبتين المسلمتين الوحيدتين. كانت في تلك الساعة خالية تكاد تكون في ظلمة لا يكاد يُنيرها نور المساء، الذي كان يدخل كضربات ريشة خفيفة من نافذتين. على زجاجهما تتقاطع أغصان شجرة لاريس المشوقة في الحديقة والصوت الوحيد الذي كان يصل إلى ذلك المكان المقدّس هي نغمات بيانو بعيد، رأى ألاركون بتأثر منقولاً إلى زمن آخر ومكان آخر، هما من البعد بحيث صارا شبه منسيين: طفولته، قَبل أن تقضي حربُ العصابات على براءته، في مصلى جدّته في مسكن الأسرة في بايساندو، في أرض الماشية، سهلِ الأعشاب الفسيح على خلفية أفق لا نهاية له من سماء فيروزية.

حملت ثِثيل زوجاً من الكراسي المطوية وقدّمت للزائر زجاجة ماء، ذهبت لتنادي طالبتها، ثمَّ تركتهما لوحدهما، لكنّها تركت البابَ مفتوحاً وأوحت لهما بأنّها قريبة، لأنّ ألاركون لم يكن في لائحة زوار الصغيرة في المدرسة.

حضرت أماندا ومعها آلة تصوير فيديو، تماماً كما كانت قد اتفقت معه بالبريد الإلكتروني. وضعتها على القاعدة الثلاثية وفتحت دفتر ملاحظاتها. تكلما عن أوروغواي لمدة خمس عشرة دقيقة ومرّت عشر دقائق بالتهامس عن الفارّ. في كانون الأوّل حين علم ألاركون بأنّ

لاعبي لعبة *نازع الأحشاء* بدؤوا يُحلِّلون جرائمَ سان فرانسيسكو اهتمَّ على الفور بالموضوع ليس لأنّه سحره أن خمسة أطفال مريّلين منفردين ومنعزلينٍ ومتحذلقين يتنافسون مع جهاز التحقيق الهائل للشرطة، بل أيضا لأنّ وظائفَ الدماغ البشري كانت من اختصاصه. كان الذكاءُ الاصطناعي، كما كان يشرح لطلابه في أوّل أيّام الدراسة، نظريةً وتطويراً لنظام حسابٍ قادرٍ على القيام بعملياتٍ تتطلّب عادة ذكاءً بشريا. هل هناك فرق بين الذكاء البشري والاصطناعي؟ هل تستطيع آلة أن تخلقَ وتشعرَ بالانفعالات والصور وتملك وعياً؟ أم أنّها فقط تستطيع أن تُقلّد وتُكمِلَ بعضَ القدرات البشرية؟ من هذه الأسئلة تفرّع اختصاصٌ أكاديميٌّ كان يسحر الأستاذ، علم المدارك العقلية، التي تعتبر مُسَلّمَتُهُ شبيهة بمسلمة الذكاء الاصطناعي، ذلك أنّ نشاط الدماغ البشري ذو طبيعة حسابية. غايةُ علماء المدارك العقلية هو الكشف عن ألغاز الجهاز الأكثر تعقيدا، الذي نعرفه: الدماغ البشري. عندما كان ألاركون يقولُ إنّ من المُحتمل أن يكون عدد حالات الدماغ البشري يفوق عدد الذرات في الكون كانت كلُّ فكرةٍ مسبقة عن الذكاء الاصطناعي لدى طلابه تتهاوى. كان صِبيةُ لعبة *نازع الأحشاء* يُفكّرون بمنطق تستطيعُ الآلةُ أن تزيده بطريقة لا تُصدّق، لكن كان لديهم شيء خَاصّ بالكائن البشري: الخيال. كانوا يلعبون بحريةٍ تامّة، لمجرّد التسلية وهكذا راحوا يلجون فضاءاتٍ داخلية لا يُدركها حالياً الذكاءُ الاصطناعي. كان بدرو ألاركون يحلم بإمكانية أن يحصد ذلك العنصرَ الزلق من العقل البشري وأن يُطبِّقه على حاسوب.

لم تكن أماندا تشكّ بشيء من هذا، هي التي أبقت على ألاركون في صورةِ التقدم الذي كان يحرزهُ اللاعبون لمجرّد أنّه صديقُ ميلر، ولأنّه وجدّها الوحيدان اللذان أظهرا بعضَ الاهتمام باللعبة، إضافة إلى الأخت ثِثيل.

- أين ريان؟ –سألت أماندا الأوروغواني.

- يتحرّك. الهدف المتحرّك اصطياده أصعب.. ميلزْ ليس جاك نازع الأحشاء، يا أماندا.
- أعرف. كيف أستطيع مساعدته؟
- بالكشف سريعاً عن القاتل. يمكنكم، أنتِ ولاعبو *نازع الأحشاء*، أن تكونوا دماغَ هذه العملية وميلزْ الذراع المُنفذ.
- شيء يُشبه العميل 007.
- لكن من دون أدوات تجسّس. لا شيء من الأشعةِ القاتلة في المقلمة أو محركات الدفع الارتجاعي في الأحذية. ليس عنده غير أتيلا وعدّة جنديّ النخبة.
- مما تتكون؟
- لا أعرف، أفترض أنّها مُكوّنة من مايوه، كيلا يُضطرّ لأن يسبح عارياً، وسكين في حال هاجمته سمكة قرش.
- هل يعيش في زورق؟
- هذا سرّ.
- هذه المدرسة فيها أربعون هكتاراً بين حديقة وغابة في حالة وحشية. يوجد ثعالب ووعول ودببة غاسلة وأبناء آوى وهذا القط وذاك من القطط الجبليّة، لكن ما من كائن بشري يمشي فيها. إنّه مكان رائع للتخفّي، وأنا أستطيع أن أحمل إليه طعاماً من المقهى. الطعام جيّد هنا.
- شكراً، سنأخذه في حسباننا. حالياً لا يستطيع ريان أن يتواصل معك ولا مع أيّ شخص آخر. أنا سأكون الواسطة. سأعطيكِ رقماً سرّياً. دقّقي الرقم، اتركيهِ يرن ثلاثاً وافصليه. لا تتركي رسائل وسأتدبّر أمري كي أستدلّ عليك، عليّ أن أمضي بحذر، لأنّهم يُراقِبونني.
- من؟
- أبوكِ. يعني الشرطة. لكن ليس خطيراً، يا أماندا، أستطيع أن أُضيِّعهم، فقد قضيت عدة سنوات من شبابي وأنا أُضلّلُ شرطة مونتيفيديو.
- لماذا؟

- بدافع المثالية، لكنّني شُفيتُ من هذا منذ زمن.
- في القديم كانت تضليل الشرطة أسهل من الآن، يا بدرو.
- ما زال، لا تقلقي.
- هل تعرف الدخول إلى حاسوبات الآخرين، كَقرصان ؟
- لا.
- ظننتُك عبقريّاً في علم التحكّم الآلي. يا ترى ألم تكن تعمل بالذكاء الاصطناعي؟
- الحواسيب بالنسبة إلى الذكاء الاصطناعي مثل التلسكوبات بالنسبة لعلم الفلك. لماذا تحتاجين للقرصان—سألها الأوروغواني.
- إنّه وسيلة جيّدة بالنسبة إلى خطٍ تحقيقي. سيفيدنا نحن لاعبي *نازع الأحشاء*، وجود القرصان كثيراً.
- إذا حانت اللحظة أستطيع أن أحصل لك على واحد.
- سنستخدمُ مأموري كمراسل، أنا وكابلْ لدينا رمز. كابل هو جدّي.
- أعرف. هل هو موثوق.

ردّت عليه أماندا بنظرة جليدية. ودّعا بعضهما رسمياً في باب المدرسة تُراقبهما عن قرب الأخت ُثِثيل. كانت المرأة تكنُّ ودّاً خاصّاً لأماندا مارتين لأنّهما كانتا تشترِكان في حبّ روايات الجرائم الاسكندينافية المروّعة، ولأنّ الصغيرة في طفرة ثقة، ندمت عليها لاحقاً، حكت لها أنّها تُحَقق في حمام الدم الذي أعلنت عنه ثِلِسْتِ روكو. أسفتْ لأنّ الأخت ُثِثيل، التي كانت ستعطي ذهباً مقابلَ لو أنّ الأطفالَ سمحواٍ لها أن تشارِك في اللعبة، راحت تُتابعُ منذ تلك اللحظة، خطوة خطوة عمليةَ البحث وكان يصعب جداً أن يُخفى عنها شيء أو أن تُخدَع. 349

- لطيف جدّاً الفارس الأوروغواني – علّقت بنبرة جعلت أماندا تدخل في حالة استنفار تلقائية–. كيف تعرّفت عليه؟

- إنّه صديقُ صديق للعائلة.
- هل له علاقة بلَعبة *نازع الأحشاء*.
- ما هذه الأفكار، يا أخت! جاء من أجل العَمَل الذي أحضّره لدرس العدالة الاجتماعية.
- لماذا كنتما تتهامسان؟ بدا لي أنّني التقطت بعض التواطؤ.
- تضليل مهني، يا أخت. الشكّ عملكِ، أليس كذلك؟
- لا، يا أماندا. عملي هو خدمة يسوع وتربية الطفلات — ابتسمت الاسكتلندية بأسنانها الكبيرة كزهرِ دومينو.

السبت، 24

خلالِ الأسبوع الأوّل من حياته الجديدة كَفَارٍّ من العدالة، أبحر ريان ميلرْ في خليج سان فرانسيسكو في الزورق الذي أمنّه له ألاركون، زورق إنقاذ بطول خمسة أمتار، فيه حجرةٍ صغيرة وله محرّك ياماها جبّار وإجازة باسم مُزَيّف كان يتوقف ليلا في شرمٍ، ينزل أحياناً مع أتيلا كي يجري بضعة كيلومترات في الظلمة، التمرين الوحيد الذي يستطيعان ممارسته إضافة إلى السباحة بمطلق الحذر. كان باستطاعته أن يستمر بالسباحة في تلك المياه لسنوات، دون أن يُضطرّ لأن يخرج إجازة الزورق أو أن يعترضَهُ أحد، ما دام لا يرسو في السواحل الشعبية جدّا، لأنّ مراكبَ خفر السواحل، لا تستطيع أن تبحر في مياه قليلة العمق.

كانت معرفته بالخليج، إلى حيث خرج مراتٍ كثيرة ليجذّف ويتنزّه في الزوارق الشراعية وليصيد الخفِش والقاروس مع بدرو ألاركون تُسهّل عليه حياته كمتخفّ. كان يعرف أنّه في منجاةٍ في أماكن مثل ريبيْرا دِسدِنْتادا[25]، اسم ميناء صغير للزوارق المفككة

---

[25] الضفة الدرداء.

والبيوت الطافية، حيث السكان القليلون المغطون بالوشم وسيّئو الأسنان، لا يكادون يتكلمون فيما بينهم، ولا ينظرون إلى عينَي الغريب، أو في بعض بيوت مصبّ الأنهار، حيث يزرعُ السكان الماريجوانا أو يطبخون الميتانفيتامين ولا أحد يرغب بشدّ الشرطة إليه. ومع ذلك سرعان ما صارت الحياة لا تُحتمل بالنسبة للرجل كما للكلب نظراً لضيق الزورق وبدأا يتخفيان في البرّ، يُخيّم في الغابات. قليل الوقت الذي ملكه ميلرْ كي يُحَضِّر للهرب، لكن كان عنده ما لا بدّ منه، حاسوبه المحمول، هويات مختلف، أوراق نقدية في كيس ضدّ الماء والنار وجزء من معداته كجندي نخبة، لأسباب عاطفية أكثر مما لاحتمال أن يستخدمها.

اختبأ مع الكلب ثلاثة أيّام في وينغو، وهي قرية شبحية في سونوما، فيها جسرٌ قديم لا يُستخدم، متآكل بالصدأ ودرابزين من خشب مبيضّ بفعل الشمس وبيوت خربة. كان من الممكن أن يمكثا زمناً أطول، ترافقهما الأعشاب والقوارض والوعول والحضور الصامت للأرواحِ التي منحت وينغو شهرتها، لكنَّ ميلرْ خاف أن يجذبَ اقترابُ الربيع صيّادي الماء والبر والسياح. كان في الليل يتخيَّلُ، وهو متدثر في كيس نومه والريح تصفرُ في ألواح الخشب ويشعر وأتيلا الملتصق بجسمه يمنحه دفءً، أنّ إنديانا بجانبه، ملتصقة إليه، رأسها على كتفه وذراعه فوق صدرها وشعرُها الأجعد يدغدغ فمه.

في ليلته الثالثة في القرية المهجورة تجرّأ ميلرْ على استحضار شربات لأوّل مرّة. تأخّرتْ قليلاً في الوصول، لكنّها عندما وصلت لم تكن هي الصورة الباهتة والدامية التي كانت تأتيه في كوابيسه، بل طفلة الذكريات التي لم تتغيّر، بتعبير خوفِها ومنديلها المزهر وأخيها في حضنِها. عندها استطاع أن يطلب غفرانها ويعدَها بأنّه سيعبُرُ العالمَ بحثاً عنها وأن يقول لها في مونولوجٍ لا نهاية له، ذلك الشيء الذي لم يَقُله لأحدٍ قط، لها وحدها، لأنّه ما من أحدٍ يُريد أن يعرفِ واقعَ الحرب، فقط يعرفون رواية الرعب البطولية المُنَقّاة، ولا أحد يريد أن

يستمعَ إلى جنديّ يتحدّثٍ عن عذابه، يحكي له مثلاً أنّـه بعـد الحـرب العالمية اكتُشفَ أنَّ واحداً مـن كـلِّ أربعـة جنـود كـان يُطلق النـارَ كـي يقتل. لقدٍّ تغيِّر التدريبُ العسـكريّ صـار لتـدمير هـذا الـرفض الغريـزي ولخلق رد آلي بالضغط على الزناد دون تردّد عند أوّل محـرّضٍ انعكـاس محفور في ذاكرةِ العضلات، وهكذا نجحوا في أن يجعلوا خمسة وتسـعينَ بالمئة َمن الجنـود يقتلـون دون تفكـير، نجـاح حقيقـيّ؛ لكـنّ المـنهج لم يكتمل بعدُ لإسكاتِ قرعِ الأجراس الذي سيتردّد فيمـا بعـد في الضـمير، بعد المعركة حينِ يكون عليهم أن يلتحقوا بالعالم الطبيعـي وتكـون لهـم وقفات كي يتفكروا، حين يبدأُ العارُ الكوابيسُ التي لا تستطيع الكحـولُ ولا المخدراتُ التخفيفَ منها. وحين لا يعود يوجـد مكـانٌ يُفرغـون فيـه شراستهم المتراكمة، وينتهي بعضهم إلى البحـثِ عـن شـجار في البـارات وآخرون إلى ضرب زوجاتهم وأولادهم.

حكى لشربات أنّه كان ينتمي إلى حفنة منِ المقاتِلين المُتخصّصـين، الأفضل في العالم. كلّ واحدٍ منهم كان سلاحا قاتلا، وظيفتـه العنـف والموت، لكن الضمير استطاع أحيانا أن يكون أقوى من التدريب ومـن كلّ الأسباب الرائعة للحرب —واجب، شرف، وطن— ويـرى بعضـهم الدمار الذي يخلفونه أينما ذهبوا ليُقاتِلوا، يرون الرفاقَ ينزفون بسببٍ قنبلة معادية وأجسادَ المدنيين المحاصرين في المعركـة، نسـاء وأطفـالا وشيوخا ويتساءلون لماذا يُقاتلون، مـا الغايـة مـن هـذه الحـرب، منِ احتلال بلدٍ وإنزال المعاناة بناس مثلهم، ماذا سيحدث لـو أنّ جيوشـا غازية دَخلت حيِّهم، دمّرت بيوتَهم وكانت الجثثُ المداسة هي جثث أولادهم وزوجاتهم، ويتساءلون أيضا لماذا الولاءُ للأمّة أعظم من الـولاء للهِ أو للإحساس بالخير والشر ذاته، لمـاذا يسـتمرون في مهمّـة القتـلِ هذه وكيف سيتعايشون مع المسخ الذي تحوّلوا إليه.

أصغت إليه طفلةُ العينين الخضراوين صامتةً ومشدودة إليه، كما لو أنّها تفهم اللغة التي كان يُكلّمها بها وتعرف لماذا كان يبكي، وبقيت معه حتى نامَ في كيسه، منهكا وذراعه على ظهر الكلبِ الذي يسـهر على حلمه.

عندما ظهرت صورةُ ريان ميلرْ في وسائل الإعلام طالبة من الجمهور أن يُبلغ الشرطة عن مكان وجوده. اتصل بِدَرو ألاركون بصديقته دنيس ويست، التي كان يثقُ بحصافتها دون تحفظات وعرض عليها الحاجة لمساعدة فار يبحثون عنه بتهمة القتل المُتَعَمّد، كما شرح لها بنبرة مازحة، لكن دون التقليل من المخاطر. تحمّست هي لفكرة تخبئته، لأنّه صديقُ ألاركون ولأنّه ليس لميلرِ مظهر المجرم، ولأنّها كانت تنطلق من مسلمة أنّ الحكومة والعدالة بعامّة والشرطة بخاصّة فاسدة. استقبلت جنديَّ النخبة في بيتها، الذي اختاره ألاركون لوجوده في منطقة مزارع ولقربه من دلتا نهر نابا، الذي يصبُّ في خليج سان بابلو، الجانب الغربي من خليج سان فرانسيسكو.

كانت دنيس تملكُ بستانَ خضار وأزهار بمساحة هيكتار ونصف لأطايبها الخاصّة وكذلك مأوى للأحصنة الهرمة، التي كان أصحابها يُسلمونها لها بدلَ أن يقتلوها، حين لا تعود تنفعهم وصناعة منزلية لمحفوظاتِ الفاكهةِ والفراريج والبيض، التي كانت تبيعها في الأسواق الجوّالة وفي حوانيت المنتجاتِ العضوية. كانت قد عاشت أربعينِ عاماً في العقار ذاته، محاطةً بالجيران ذاتهم، غير الاجتماعيين كثيرا معها، مُكرِّسة نفسها لحيواناتها وأرضها. في هذا الملاذ المتواضع، الذي أنشأته على قياسها والبعيد عن الضجيج وسوقيةِ العالم، استقبلتْ ريان ميلرِ وأتيلا، اللذين كان عليهما أن يتأقلما مع حياة ريفية مختلفة جداً عن تلك التي عاشاها، في بيتٍ بلا تلفاز ولا أدواتٍ منزلية كهربائية، لكنّ إشارة الشبكة العنكبوتية فيه جيّدة، بين حيوانات منزلية مُدلّلة وأحصنة متقاعدة. لم يعيشا قط برفقة امرأة وللمفاجأة اكتشفا أنّها أقل هولاً مما كانا يتوقّعان. برهن أتيلا منذ البداية عن تربيته العسكرية عندما قاومِ بصبر إغواء أن يلتهِمَ الدجاجات، التي كانت تنقر الأرضَ طليقةً، أو أن يُهاجمَ القطط، التي كانت تستفزّه بوقاحة واضحة.

إضافة إلى أنّ دِنيسْ استضافت ريان، بادرت لتمثيل ميلرْ في لعبةِ نازع الأحشاء، ذلك أنّه لم يكن باستطاعته أن يُظهر وجهه. طلبت

منها أماندا أن تشارك لأنّها كانت بحاجة لذلك، وابتدعوا على الفور شخصية للعب، باحثة بذكاءٍ خاصّ، اسمها جِزابِلْ. الوحيدُ الذي كان يعرف هويّتِها كان مأمورها كابِلْ، لكن ما من أحدٍ منهما كان يعرف أين يتخفى جنديُّ النخبة ولا من تكون المرأة المُسنّة بجديلتها الرمادية التي تتخذ مكانها أمام الشاشة كجِزابِل، لم يُستَشر بقيةُ اللاعبين بها، لأنّ أماندا راحت تصير أكثر استبدادية كلما ازدادت الجرائم تعقيداً، لكنّ الذين اعترضوا في البداية سرعان ما استطاعوا أن يتبيّنوا أن اللاعبة الجديدة تُساوي وزنها ذهباً.

- كنتُ أُراجِع تقاريرَ الشرطة حول القضايا —أعلنت مُعلّمة اللعب.
- كيف حصلتِ عليها؟ —سألت إسمِرالدا.
- مأموري يستطيع الوصول إلى الأرشيفات وأنا صديقة بِّترا هور، مساعدة رئيس المفتشين التي تبقيني على اطلاع. سنُمَرِّرُ نسخة من الكل إلى جِزابِل.
- يجب ألا يكون لأحدٍ ميّزة على اللاعبين الآخرين —اعترض الكولونيل بادينغتون.
- صحيح. أعتذر، لن يحدث ثانية. لنرَ ماذا تقول جِزابِل.
- وجدتُ شيئاً يتكرَّر في جميع الحالات باستثناء حالة ألان كِلِّرْ. الضحايا الخمس الأوائل كانوا يعملون مع الأطفال. إدْ ستيتون، كان مستخدماً في إصلاحيةِ أريزونا. الزوجان كونستانت كانا يكسبان عيشهما من مسكنٍ لأطفال ترسلهما خدمة حمايةِ الطفولة، ريتشارد أشتون كان مُتخصِّصاً بعلم نَفس الطفل وراشيل روسين كانت قاضية في محكمة الأحداث. يمكن أن تَكون مُصادفة، لكنّني لا أعتقد. بالمقابل كِلرْ لم يكن له قط علاقة بالأطفال، بل ولم يبغِ أن ينجب أبناء.
- هذا مفتاح مهمّ جدّاً. إذا كان دافِع القتل على علاقة بالأطفال، نستطيع أن نفترض أنّه لم يقتل كِلِرْ —قال شارلوك هولميز.
- أو قتله لدوافع أخرى —قاطعته أباثا، التي كانت قد اقترحت هذا الاحتمال من قبل.

- نحنُ لا نتكلّم عن أطفال عاديّين بل عن أطفال عندهم مشاكل في السلوك، أيتام أو شديدي الخطورة. وهذا يحدُّ من الخيارات —قال الكولونيل بادينغتون.

- الخطوة المقبلة هي التحقيق فيما إذا كانت الضحايا تعرفُ بعضها ولماذا. أعتقد أنه يجب أن يكون هناك طفل أو عدّة أطفال يربطون بين القضايا —قالت أماندا. 355

الاثنين، 26

الجرائم التي أبقت على المفتِّش بوب مارتين على أحر من الجمر نالت بعض التغطية في وسائل الاتصال في سان فرانسيسكو، لكنّها لم تصل إلى حدّ أن تُثير الهلعَ بين السكان، لأنّ وجودَ قاتل على التسلسل لم يتجاوز حدود الجوّ المُغلقَ لقسم جرائم القتل. عالجت الصحافة الجرائم بشكل منفصل دون أن تربط بينها. لم تلقَ صدى في بقيّة البلد. السكان لم يكونوا يتأثّرون عندما يقومُ عنصريٌّ أو طالبٌ مُسَلّح فقد توازنه بقتل أبرياء كي تقوم الساعة، قليلاً ما تهمّه ستّ جثث في كاليفورنيا. الوحيد الذي ذكرهم مرّتين كان مذيع إذاعةٍ شهيرٍ من اليمين المتطرّف، الذي كانت الجرائم بالنسبة إليه عقاباً إلهياً بسبب المثلية ومناصرة المرأة والبيئة في سان فرانسيسكو.

كان بوب مارتين ينتظر أن تسمحَ اللامبالاة القومية له بأن يقومَ بعمله دون تدخّل من مكتب التحقيقات الفدرالي وهذا ما حصل عمليّا حتى بعد أسبوعيْن من وقع الشبهات حول ريان ميلرْ. كان قد حضر للتو إلى مكتبه اثنان من مكتب التحقيقات الفدرالي، مُحاطَيْن بكثير من السريّة حتى أنّه كان من المكن للمرء أن يتساءل عمّا إذا لم يكونا مُحتالين. للأسف كانت أوراق اعتمادهما شرعية وتلقى هو تعليماتٍ من المفوّض بأن يُقدّم لهما أعظم التسهيلات، الأمر الذي نفذه مُكرهاً. كان

قسم شرطة سان فرانسيسكو قد أنشئ في عام 1849 في زمن حمى الذهب وكان مكوّناً بحسب كاتب مقال من ذلك الزمن من قطاع طرق أخطر من اللصوص، مُهتمّين بإنقاذ أصدقائهم القدماء من عقوبةً مستحقة وليس للدفاع عن القانون. كانت المدينة في حالةٍ فوضى وستمرّ سنواتٌ كثيرة قبل أن يحلّ النظام. ومع ذلك قوي عودُ الشرطةِ قبل الوقت المتوقع من قبل كاتب المقال وكان بوب مارتين يشعر بالاعتزاز لأنّه ينتمي إليه. كان قسمه يتمتّع بسمعةِ أنّه قاس مع الجريمة ومتساهلٌ مع الاعتداءات الصغيرة ولا يمكن أن يُتهم بالوحشية والفساد وعدم الكفاءة، كما هو حال الشرطة في أماكن أخرى، على الرغم من تلقيه شكاوى مفرطة من سوء سلوك مزعوم. قليلة هي الشكاوى التي كانت ترتكز على أسس. المشكلة بحسب مارتين ليست في الشرطة، بل في الرغبات اللعينة بتحدّي السلطة التي كانت تُميّز سكان سان فرانسيسكو؛ هو كان يثق تماماً بفعالية فريقِهِ؛ لذلك أسف لوجود الشرطة الفدرالية الذين يعقدون التحقيق فقط.

اللذان مثلا في مكتب بوب مارتين هما الشرطيان نابليون فورنيير الثالث، وهو أمريكيّ من أصل أفريقيّ من لويزيانا، سبق أن عمل في قسم تجارة المخدّرات والهجرة والجمارك قبل أن يُوفد إلى الخدمة السرية، ولوريان باركوت، من فيرجينيا، إحدى المشاهير ضمنَ الوكالة لأنّها برزَت في أعمال بطولية في عملية ضدّ الإرهاب. كانت الشرطية بشعرها الأسود وعَينيها الكستنائيتين بأهدابهما الطويلة بالنتيجة أكثرَ جاذبية في شخصها مما في الصورة. أراد بوب مارتين أن يَسْتَميلَ باركوت بابتسامة شاربه الذكريّ وأسنانه الناصعة، لكنّه تراجع عندما كادت شدّة يدها تكسر أصابعه؛ تلك المرأة كانت قد وصلت في مهمّة محدَّدة ولا تبدو مستعدّة لأن تلهو بالإعجاب به. سحب لها الكرسيّ بالأناقة التي تعلمها من أسرته المكسيكية فجلست على آخر. تنحنحت بِترا هور التي كانت تُراقب المشهد من عتبة الباب، كي تُخفي ضحكتها.

عرض المفتِّشُ على زائريه ملفات الجرائم الستّ، ووضعهما في صورة التحقيقات واستنتاجاته الخاصّة، دون أن يذكر مساهمة ابنتهِ أماندا وحميهِ السابق، بلاك جاكسون، لأنّه يمكن أن يبدو ذلك للواصلين توّاً محسوبية. هذه المحسوبية كان مديناً بها للمرحوم ألان كِلرْ، الذي كانت تغريه علاقة غشيان محارم أسرة إنديانا. لم يكن يعرفُ هذه الكلمة البائسة قبل أن يسمعها من كِلرْ ويبحث عنها في القاموس.

بدأت باركوتٍ وفورنيير بالتأكُّدِ من أنّ أحداً لم يمدّ يدَهُ إلى حواسيب ريان ميلرْ ومن أنّها كانت محميّة تماماً في غرفة القسم المُدرّعة، أغلقا بعد ذلك على نفسيهما كي يدرسا الإثبات بحثاً عن التفصيل الذي يكشف مؤامرة أعداء الولايات المتحدة المعتادين. التوضيح الوحيد الذي قدّماه لِبوب مارتين هو أنّ جنديّ النخبةِ كان يتعاون مع شركة أمنية خاصّة في خدمة الحكومة الأمريكية في الشرق الأوسط؛ تلك كانت المعلومة الرسمية، وليس من المناسب نشر المتبقي. كان عمله سرّياً ويشمل بعض المناطق الرمادية التي كان العملُ فيها ضرورياً على هامش الاتفاقيات لضمان الفعالية. في وضع معقد مثل وضع تلك المنطقة، يجب أن يوضع في الميزان واجبُ حمايةِ المصالح الأمريكية في كفّة وفي أخرى الاتفاقات الدولية، التي كانت تحدّ أكثر مما هو معقول من القدرة على العمل. لم يكن باستطاعةِ الحكومة والقوات المسلحة أن تجدَ نفسها متورّطةً في بعض النشاطات، التي لا يسمح بها الدستور ولا يوافق عليها الجمهور. لذلك كانوا يلجؤون إلى المُتَعاقدين الخاصّين. كان واضحاً أنّ ميلرْ كان يعمل لصالح المخابرات المركزية، لكنّ هذه الوكالة لم يكن باستطاعتها أن تعمل على الأرض الوطنية، التي كانت من اختصاص مكتب التحقيقات الفيدرالي. لم يكن يهمّ الشرطيّين الفدراليين ضحايا سان فرانسيسكو الستة على الإطلاق؛ فمهمّتهما هي إنقاذ المعلومات التي كان يملكها ريان ميلرْ، قبل أن تقعَ في أيدي العدوّ، والعثور على جنديّ النخبة كي يجيبَ على بعض الأسئلة وسحبه من التداول.

- هل يرتكب ميلرْ جرائمَ على المستوى الدولي؟ –سأل بوب مارتين مندهشاً.
- هي مهمات وليست جرائم –أجاب فورنيير الثالث.
- وأنا الذي كنتُ أعتقدُ أنّه مجرّد قاتل على التسلسل!
- ليس عندك أدلة على ذلك ولا تعجبني نبرتَك الساخرة، يا مفتّش مارتين – صدّته باركوت.
- في ملف كِلرْ توجد براهين دامغة ضدّه –ذكّرها رئيس المفتشين.
- براهين على أنّه زار ألان كِلّر، لكن ليس على أنّه قتله.
- لسبب ما هرب.
- هل أخذت بالحسبان أنّ رَجُلَنا يمكن أن يكون قد اختُطِفَ؟ –سألت المرأةُ.
- لا. بصراحة لم يخطر لي ذلك –ردَّ الشرطيُّ مخفياً بمشقّةٍ ابتسامة.
- ريان ميلرْ عنصرٍ ثمين بالنسبة للعدوّ.
- عن أيّ عدو نتكلم؟
- لا نستطيع أن نكشفَ عنه –قالت لوراين باركوت.

كذلك أرسلوا من مكتب التحقيقات الفيدرالي في واشنطن اختصاصياً بتقنيات علِوم الحوسبة الفائقة كي يُحلِّلَ الأجهزة التي صادروها في مسكن ميلر. كان المُفتِّش مارتين قد عرض على فورنيير الثالث وباركوت جماعتَهُ أنفسهم لهذه المهمّة، الخبراء مثل خبراء واشنطن، لكنّهما أجاباه بأنّ المحتوى سرّي. كلّ شيء كان سرّياً.

لم يكن قد مرَّ أربع وعشرون ساعة على وصول الفدراليّيْن حتى راح صبر بوب مارتين ينفد. برهنٍ فورنيير الثالث على أنّه شخصٌ عصابيّ، غير قادر على أن يندب أحداً، وكان يؤخّر عملَ البقيّة بمسعاهُ لمعرفة كلّ التفاصيل الدقيقة. كانت علاقته بلوراين باركوت منذ البداية سيّئة وباءت محاولاته اللاحقة لاسترضائها بالفشل. كانت تلك المرأة منيعة

أمام إغواءاته، بل وعلى الرفاقية البسيطة "لا تشعر بالإهانة، أيّها الرئيس، ألا ترى أنّ باركوت سحاقية؟" واسَتْهُ بِّترا هورّ.

قرَّرَ الاختِصاصي في الحوسبة أن يُحلّل الأقراص الصلبةَ، مُحاولاً أن يُنقذ شيئاً، على الرغم من أنّ من المفترض أن يعرف ميلر جيّداً كيف يمحو كلّ المحتوى. في هذه الأثناء راح بوب مارتين يُقدّم جردا لفورنيير وباركوت عن كلّ ما فعله قسمُ جرائم القتل منذ يومين من بحثٍ للوصول إلى ميلرْ. اقتصروا في الأسبوع الأوّل على طلب المساعدة من شرطة منطقة الخليج واستخدام المخبرين المعتادين، لكنّهم نشروا بعدها صورة ووصفاً لميلر في وسائل الاتصال والشبكة العنكبوتية. تلقوا مذّاك عشرات الإبلاغات من أشخاص رأوا شخصاً أعرج له شكل الغوريلا يرافقه كلبٍ ضار يحوم، لكن ما من واحد منها أعطى نتيجة جيّدة. أوقفوا خطأً شحاذَين مع كلبيهما في ظروف مختلفة وأطلقوا سراحهما على الفور. أحد أبطالِ حرب الخليج الفارسي حضر إلى قسم ريتشموند قائلا إنّه ريان ميلرْ، لكنّهم لم يأخذوه على محمل الجدّ، لأنّ كلبه كان من سلالة جاك سوسم تِريير وكان أنثى.

استجوبوا الناس الذين كانوا على علاقة مع الفارّ، مثل فرانك رينالدي. مدير نادي الدلفين، حيث كان ميلرْ يسبح عادة؛ صاحب العقار الذي كان يعيش فيه؛ بعضَ الفتية عاثري الحظ، الذين كان يُدرّبهم؛ داني دانجلو من مقهى روسيني، مستأجري مكاتب عيادات الطب البديل وبشكلٍ خاص أقرب صديق إليه بدرو ألاركون. كان بوب مارتين قد تكلمً مع إنديانا، لكنّه لم يذكرها لشرطيَّي مكتب التحقيقات الفدرالي إلا عبورا، كأي واحدٍ من معالجي العيادات البديلة؛ لم يكن هناك ما هو أبعد عن روحه من أن يلفت انتباه الشرطيَّيْن إلى أحِد من أسرته. كان يعرفُ أنّ حبا رومانسيا قصيرا جمعتها مع ميلرْ، الأمر الذي لسببٍ ما لم ينجح هو نفسه في فهمِه. كان يعكّر مزاجه أكثر من السنوات الأربع التي قضتها مع ألان كِلرْ، راح يدمدم ما الميزات التي يملكها ميلرْ ويمكن أن تشدّ إليه إنديانا، ورأى أنّها نظراً لطبيعتها لا شك أنّها أشفقت عليه ونامت معه، لم

يكن باستطاعة إنديانا أن ترفض مبتوراً. كم هي غبية هذه المرأة. كيف ستكون ممارسة الحبِّ مع رجل تنقصه رجل؟ إنه عمل سيرك، الإمكانيات محدودة، من الأفضل عدم تصوّره. تصميمه على القبض على الفار، كان غيرة مهنيّة خالصة، لا علاقة لها أبداً بالسفالاتَ التي قام بها مع أمِّ ابنته.

- هل ألاركون هذا شيوعيّ؟ -سألت لورين باركوت، التي تأخرت أربعين ثانية في العثور على الأوروغواني في قاعدة بيانات مكتب التحقيقات الفدرالي في هاتفها الجوّال.
- لا. إنّه أستاذٌ في جامعة ستانفورد.
- هذا لا يعني أنّه لا يمكن أن يكون شيوعيّاً -أصرّت هي.
- هل ما زال هناك شيوعيون؟ ظننتُ أنّ تقليعتهم قد مرّت. نحن داخلون على هاتف ألاركون ونُراقبه. لم نكتشف حتى الآن شيئاً يربطه بالكرملين ولا شيئاً غير شرعيّ أو مريباً في حياته الحالية.

برهن شرطيّا مكتب التحقيقات الفيدرالي للمُفتِّش على أنّ الفارّ كان جنديَّ نخبةٍ مدرّباً على العيش في أقسى الظروف -على أن يتخفى، يفلتَ من العدوّ ويواجه الموت- وسيكون من الصعب جدّاً القبض عليه. الشيء الوحيد الذي يمكن تحقيقه من خلال استنفار السكان هو خلق حالة من الذعر؛ إن من الملائم إسكات وسائل الاتصال والاستمرار بالبحث بطريقة رصينة، مع المساعدة التي لا غنى عنها التي يُقدمانها. أصرّا على الضرورة الملحة لأن لا يُنْشَر أيُّ شيء يشير إلى نشاطات ريان ميلرْ ومؤسّسة الأمن الدولي.
- واجبي ليس حماية أسرار الحكومة بل متابعة هذا البحث، حلُّ مسألةِ الجرائم الستّ العالقة ومنع حدوثِ أخرى -قال بوب مارتين.
- طبعاً، يا مفتِّش -ردّ نابليون فورنيير الثالث-. ليس في نيتنا التدخّل في عملك، لكنّني أحذّرك من أنّ ريان ميلرْ شخص متقلّب، مع احتمال وجود اضطراب عصبيّ، يمكن أن يكون قد ارتكب الجرائم التي تُعزى له في وضع عقليّ متوتّر. على كلّ الأحوال هو بالنسبة إلينا ورقة محروقة.

- يعني أنّه ما عاد يفيدكم، تحوّل إلى مشكلة ولا تعرفون ماذا ستفعلون به. يمكن التخلص من ميلرْ. هل هذا ما تقوله لي، أيّها الوكيل فورنيير؟
- أنتِ من يقول هذا، لا أنا.
- نُذكّرك بأن ميلرْ مسلح بشكلٍ كبير وهو عنيف —أضافت لورين باركوت– كان طوال حياته جنديّا. معتاد على أن يرمي ثمّ يسأل بعدها. أنصحك بأن تفعل الشيء ذاته، فكر بأمن رجالك والمدنيين.
- ليس من المناسب أن يُلقى القبض على ميلرْ ويبدأ بالكلام، أليس صحيحا؟
- أرى أنّنا نفهم بعضنا، أيّها الرئيس.
- أعتقد أنّنا لا نفهم بعضنا، يا باركوت. أعتقد أن طرق وكالتك تختلف عن طرق وكالتنا —ردّ مارتين، منزعجا– ريان ميلرْ بريء حتى يُثبَتَ العكس. غايتنا هي القبض عليه لاستجوابه كمشبوه، وسنُحاول أن يصيبه ويصيب الآخرين أقلُّ ضرر ممكن. واضح؟

عند الخروج من الاجتماع أخذت بِّترا هور، التي كانت تتجسّس من حجرتها الصغيرة، كما هو الحال دائما، المفتِّشَ من كمّه ودفعته إلى ما وراء الباب وأصرّت على أن تُقبّله على فمه. "هكذا يتكلمون! أنا فخورة بك، يا مُعلمي!" لم يتمكن بوب مارتين، المُباغَتِ، من استعادة وعيه قبل أن تختفي مساعدته مثل الجنّية. بقي ملتصقاً بالجدار بطعم تلك القبلة، علكة قرفة، وحرارةٍ متأخّرة دبّت في جسده.

السبت، 31

أوّل من استنفر لغيابِ إنديانا هي ابنتها، لأنّها كانت تعرفُ عاداتِها أكثرَ من أيّ شخص آخر، واستغربت أنّها لم تأتِ للعشاء معها ومع جدّها، العادة التي لم يعترها تبدّل، مع بعض الاستثناءات القليلة جداً، منذ أن دخلت المدرسة الداخليّة قبل أربعِ سنوات. الأم وابنتها

كانتا تنتظران منذ الاثنين كي تلتقيا، خاصّة حين يكون على أماندا أن تقضي السبتَ والأحدَ مع أبيها. لولا أن دخل في حياتها ألان كِلر، الذي طلبها مراتٍ معدودة يومَ جمعة، كما من أجل الرحلة إلى تركيا أو حضور عرض خاصّ، لم يكن عند إنديانا أعذار كي تغيب عن ساعات الطعام. كانت تنتهي من آخر زبون، تركب درّاجتها، تأخذ شارع برودوي ستريت، بنواديه، نوادي التعرّي وباراته، وتُتابع في جادة كولومبوس أفينيو حيث مكتبة أضواء المدينة، عشّ البيتنيكز، تمرّ أمام بناء فرانسيس فورد كوبّولا، المكسو بالنحاس، واللافت للنظر، وتتابع حتى ساحة بورتزموث على حدود شاينا تاون، حيث يجتمعُ الشيوخ ليمارسوا التاي تشي ويُراهنوا على ألعاب الطاولة، ومن هناك تتابع إلى بناء ترانس أمريكا، هرم سان فرانسيسكو المميّز. كانت الساعة التي يتغيّر فيها مظهرُ المنطقة المالية، لأنّ المكاتبَ تُغلق والحياةَ الليلية تبدأ. تمرّ تحت جسر باي بريدج، الذي يصل سان فرانسيسكو بأوكلاند، أمام ملعب البيسبول الجديدِ ويستغرقُ معها مِن هناك وحتى حيها أقلٍ من عشر دقائق. كانت تتوقف هناك أحياناً كي تشتري شيئاً لذيذاً للعشاء وسرعان ما تكون في البيت جاهزة للجلوس إلى الطاولة. بما أنّها كانت تصل متأخّرة والجدُّ وأماندا لا يطبخان فقد كانوا يعتمدون على موزّع ليتزا أو إرادةِ إلسا دومينغِث الطيبة، التي عامّة ما كانت تترك لهم في البرّادِ شيئاً يأكلونه. في تلك الجمعة انتظرَ الجدُّ والحفيدةُ إنديانا حتى التاسعة ليلاً، قبل أن يذعنا لتسخين البيتزا، المتيبّسة كالكرتون.

- ترى هل حدث لها شيء —تمتمت أماندا.
- ستصل. أمك تجاوزت الثلاثين من عمرها، ومن الطبيعي أن تخرج من حين لآخر مع بعض الأصدقاء ليتناولوا جرعة بعد أسبوع من العمل.
- لكن كان استطاعتها أن تهتف لنا. فأيّ من هؤلاء الأصدقاء المفترضين يستطيع أن يعيرها جوّاله.

أصبح السبتُ على سماء برتقالية وربيعٍ يُعلن عن نفسه في براعم المغنوليا والعصافير الطنانة الواقفة في أوج طيرانها، مثل مروحيات

منمنمةٍ بين ألوان الحديقة الزهرية الصارخة. استيقظت أماندا مذعورة، على فأل سيئ وجلست على السرير، وهي ترتعد من خُمار كابوس كان ألان كِلِرْ يحاول فيه أن يقتلع السهم من صدره. كانت غرفتها مُضاءة بأشعةٍ ذهبيَّةٍ خفيفةٍ تمرّ عبر الستائر وأنقذ التونا خفيفة كزبدٍ تنام حلمها، حلمَ القطّة السعيدة الملتفة على الوسادة. أخذتها الصغيرة بين ذراعيها وغاصت بأنفها في بطنها الدافئ متمتمةً بتعويذةٍ كي تتخلص من الأحلام الليلية الضاغطة.

ذهبت حافية ترتدي قميصَ جدِّها الداخليّ، كمنامةٍ، إلى المطبخ لتقدّم الحليبَ للقطة ولتسخن الشوكولاتة لنفسها، متبعة أثرَ رائحة القهوةِ والخبزِ المُحَمّص التي كانت تطفو في البيت. كان بلاك قد سبقها وراح يُشاهِدُ الأخبارَ منتعلاً الخفَّ ومتلفعاً بدثار الفانيلا القديم، ذاته الذي كان يرتديه عندما كانت زوجته حيّة، قبلَ سبع عشرة سنة. وضعت أماندا القطّةَ في حضنه وصعدت إلى كهف الساحرة عبر السلم اللولبيّ، الذي كان يصلُهُ بالبيت الرئيسي. وعادت على الفور إلى المطبخ تصرخ أنّه لا أحد في غرفة أمّها والسرير لم يُستخدم. كانت المرّة الأولى التي يستطيع الجدُّ والحفيدة أن يتذكرا أنّ إنديانا لن تنام خارج البيت دون أن تُعلمهما.

- تُرى أين يمكن أن تكون قد ذهبت، يا جدّي؟
- لا تهتمّي، يا أماندا. ارتدي ملابسَكِ بهدوء. سآخذكِ إلى أبيك وأمرّ بعدها على عيادة إنديانا. أنا واثق من أنَّ هناك تفسيراً لهذا.

لكنّه لم يكن موجوداً. عند الظهيرة وبعد البحث عنها في الأماكن التي كانت تتردّد عليها والاتصال بأصدقائها المقرّبين دون نتيجة، بما في ذلك دونيا إنكارناثيون، التي لم يكن يرغب أن يستنفرها أكثر من اللازم وبثِلِسْتِ روكو المخيفة، التي ردّت على الهاتف في منتصف الرسالة الصوتية فقط لأنّها رأت رقم الرجل، الذي كانت تُفكر بالزواج منه، هتف جاكسون لبوب مارتين وسأله عمّا إذا كان يتوجّبُ إعلام

الشرطة. نصحه صهره السابق بأن يتروّى قليلاً، لأنّ الشرطة لا تستنفرُ من أجل اختفاء مزعوم لبالغ لا يذهب لينام ذات ليلة في بيتهِ، وأضاف بأنّه سيقوم ببعض التحقيقات وسيخبره ما إنْ يحصلٍ على أخبار. كلاهما كان يخاف أن تكون إنديانا مع ريان ميلرْ، وِنظرا لمعرفتهما الجيّدة بها فقد كان باستطاعتهما أن يُعدّدا عددا من الأسباب التي تبرِّرُ هذا الخوفَ، بدءً من عاطِفتها الجامحة، التي تدفعها لِنجدة فارّ من العدالة، وحتى قلبها المُضطرب الذي يجعلها تتبع حبّاً آخرَ كي تستبعد به الذي خسرته توّاً. الاحتمال الذي لم يكن ليجرؤ الاثنان عِلى أخذه بعين الاعتبار هو أنّ إنديانا يمكن أن تكون مع ريان غصباً عنها، كرهِينة. افترض بوب مارتين أنّهما في هذه الحال سيعرفان بذلك سريعاً، حيِن يرنّ الهاتفُ ويطرحُ الخاطفُ شروطه.انتبه إلى أنّه كان يتصبَّبُ عرقاً.

بدأ جوّالُ بدرو ألاركون السريَ يهتزّ في جيبِ بنطلونه حين كان في منتصفِ الكيلومترات السبعة التي يجريها يومياً في حديقة برسِيديو، يتدرّب للسباق الثلاثي الذي كان سيشارك فيه مع ريان ميلر، لو لم تتعقد أمور هذا. اثنان فقط يستطيعان أن يهتفا له على ذلك الرقم، صديقه الفارّ وأماندا مارتين. تأكّد من أنّها الصغيرة، غيّر اتجاهه وتابع جريه نحو أقرب مقهى ستاربوكس، حيث اشترى فرابوكتشينو، المشروب الذي لا يمكن أن يقارن بالمتة الطيبة، لكنّه يفيدُ لتضليل من يمكن أن يكون قد تبعه حتى هناك. طلب من شخص آخرَ أن يعيره جوّاله وهتف لأماندا التي جعلت جدَّها يتكلم. الحديثُ مع بلاك جاكسون اقتصر على أربع كلمات: أربعون دقيقة، نادي الدلفين. هرع ألاركون على الفور إلى سيارته ومِن هناك إلى الحديقة المائيّة وحالفه الحظ غير المتوقع بأن وجد مكاناً يصفّ فيه سيارته. سار بعدها إلى النادي وكيسه على كتفه بخطواتٍ رشيقة، كما كان يفعلُ كلَّ سبت.

وصل جاكسون إلى ساحة غيراردِلّي في سيارة أجرة وِسار إلى النادي مختلطاً بالسياحِ والعائلات التي كانت تتنزّه مستغلة اليوم

المشمس، الذي كان واحداً من تلك الأيام التي يشبه فيها نورُ الخليج نور اليونان. كان ألاركون ينتظره في بهوِ النادي المظلم، غارقاً ظاهرياً في الورقة المقطعة إلى مربعات حيث كان أعضاء النادي القطبي يُسَجِّلون الكيلومترات التي سبحوها في ذلك الشتاء. أشار إلى بلاك فتبعه هذا إلى غرف الملابس في الطابق الثاني.

- أين ابنتي– سأل بوب الأروغوائيُّ.
- إنديانا؟ كيفَ تريدني أن أعرف؟
- هي مع ميلرْ، أنا واثق. لم تعد للبيت منذ البارحة، كما لم تهتف. لم يحدثْ هذا من قبل قط. التفسير الوحيد هو أنّها معه، ولم تتصل بنا حذراً ولكي تحميه. أنت تعرف أين يختبئ ميلرْ، أوصل له رسالة منّي.
- إذا استطعتُ سأقول له ذلك. لكنّني أستطيع أن أُقسم لك إنّها ليست معه.
- دعني من القسم، تكلّم أوّلاً مع صديقك، فأنتَ شريك فارٍّ ومسؤول عن إعاقة العدالة، إلى آخرِ ما هنالك. قل لميلرْ إنّه إذا لم تهتف لي إنديانا قبل الثامنة ليلاً، ستكون أنتَ من سيدفع الثمن.
- لا تُهدِّدني، يا بلاك. أنا معك.
- نعم، نَعم، اعذرنيِ، يا بِدرو. إنّني متوتِّرٌ قليلاً –تمتم الجدُّ متنحنحاً كي يُخفي الضيقَ الذي سدّ حنجرته.
- سيكون من الصعب جدّاً التكلّم مع ميلرْ، فهو في تحرّك دائم، لكنّني سأحاول. انتظرِ هاتفي، يا بلاك، سأتصل بك من غرفة هاتف عامّة ما إن أعلم شيئاً.

قاد ألاركون بلاك جاكسون عبر ممر ضيق يصل نادي الدلفين بغريمهِ نادي ساوث إند كي يخرج من باب غير الذي استخدمه هو، ذهب بعدها إلى الشاطئِ حيث يستطيع أن يتكلم بسلام. هتف لصديقه كي يوضح له الوضعَ وأكد له ميلرْ، كما توقّع، أنه لا يعرف شيئاً عن

إنديانا، وقال له إنّ آخر مرّة تكلّم فيها معها كانت من شقّته يوم الجمعة التاسع من آذار، يوم اكتُشفت جثّةُ ألان كِلِّرْ. خلال الأيّام التي انقضت على تخفيه أوشك ألف مرّة أن يهتف لها، بل وأن يُخاطر بكلّ شيء ويمثل أمامها في العيادات البديلة، لأنّ ذلك الصمت الذي كان يفصل بينهما راح يصبح في كلّ يوم أثقل وغيرَ محتمل؛ كان بحاجة لأن يراها، يُعانقها، ويكرّر عليها أنّه يُحبّها أكثر من أيّ شخص ومن أيّ شيءٍ في حياته وأنّه لن يتخلّى عنها أبداً. لكنّه لا يستطيعُ أن يحوّلها إلى شريكه. ليس عنده ما يُقدّمه لها، فعليه أن يمسك بقاتل ألان كِلِّرْ ويُنظف اسمَهُ. حكى لِلألاركون أنه بعد أن أتلف محتوى حواسيبه وقبل أن يُغادر شقّته، هتف لأماندا، لأنّه كان واثقاً من أنّ إنديانا نسيتْ جوّالها أو أنّ مدّخرته فرغت.

- كانتا معاً واستطعتُ أن أُكلّمَ إنديانا ووضّحتُ لها أنّني لم أقتل كِلِّرْ، وإن كان صحيحاً أنّني ضربته، وأنّ عليّ أن أتخفّى، لأنّ هذا يُجَرّمني.
- وبماذا أجابتك؟
- بأنّني لستُ مديناً لها بتوضيحاتٍ، لأنّها لم تشكّ بي قط، ورجتني أن ألجأ إلى الشرطة. طبعاً رفضت وجعلتها تعدني بألاّ تشي بي. كانت أقلّ اللحظات مناسبة كي أذكر علاقتنا، إذ لم يكن قد مضى على مقتل كِلِّرْ غير ساعات قليلة، لكنّني لم أستطعْ أن أتفادى ذلك وقلتُ لها إنّني أعبدها وإنّني ما إن تنجلي الحالة حتى أحاولَ عشقها بكلّ الوسائل. لا شيء من هذا يهمُّ الآن، يا بدرو. الشيء الوحيد الذي يهمّ الآن هو إنقاذها.
- مضى على غيابها بضع ساعاتٍ فقط.
- إنّها في خطر شديد! -صاح ميلرْ.
- هل تعتقدِ أنّ لاختفائها علاقةً بمقتل كِلِّرْ؟
- دون شكّ، يا بدرو. ونظراً لخصوصياتِ مقتلِ كِلِّرْ، أنا واثق من أنّنا أمام مرتكب الجرائم السابقة.

- لا أرى علاقة بين إنديانا وهذا القاتل على التسلسل.
- حالياً أنا أيضاً لا أراها، لكن صدّقني، يا بدرو، هذه العلاقة موجودة. علينا أن نعثر على إنديانا فوراً. صِلني بأماندا.
- أماندا؟ الصغيرة الآن متوتِّرة مما جرى، لا أدري كيف تستطيع أن تُساعِدك.
- سوف ترى.

نيسان

الأحد، 1

انطلقَ رئيسُ المُفَتِّشين نحو نورث بيث، بالثياب التي كان يرتديها للرياضة، ترافقه ابنته، التي رفضت أن تبقى خلفه وكانت تحمل معها سالبِ إل أتون فيٍ حقيبتها. هتف من السيّارة لِبِّترا هور، حكى لها ما جرى، واعياً أن مساعِدته كانت في أيّام الأحد حرّةً ولا يتوجَّب عليها أن تكترث به، وطلب منها أن تؤمّن له أسماء وهواتف كلّ المعالجِين في عياداتَ الطب البديل وكذلك أسماء وهواتف زبائن إنديانا وبِّدرو ألاٍركون، المسجّلة في قسم جرائم القتل منذ أن بُدئ بالبحث عن ميلرْ. صفّ سيارتَهُ بعد عشر دقائق في صفّ مزدوج أمامٍ البناء الأخضر بنوافٍذه التي بلونِ زرق الدجاج. وجدَ البابَ الرئيسي مفتوحاً، لأنّ عدداً من المعالِجينَ يعملون في نهايات الأسابيع. صعد المُفتِّش تتبعه أماندا، التي ارتدَّتْ إلى الطفولة —كانت تسير مطأطئةً رأسها، تمصُّ إصبعها، وقلنسوةٍ بلوزتها هابطة حتى عينيها، موشكةً على البكاء– الطابقين قفزاً وتسلق السلم المحمول الذي يؤدّي إلى ملحق ماتيوس بِّريرا ليطلب مفتاحَ عيادة إنديانا.

كان الرسامُ الذي لا شكَّ اقتُلِع من فراشه ومَثُلَ عارياً باستثناء منشفةٍ مُنَسَّلة على خصره ليغطي عورته، وجدائلٍ رأسه منطلقة مثل أفاعي ميدوسا وتعبير وجهه فارغ،كمن دَخَّن شيئاً أكثر من التبغ ولا يتذكر السنة التي يعيش فيها، لكنّ الرثاثة لم تُنْقِص من كياسةِ هذا

الرجل ذي العينين السائلتين والشفتين الشهوانيتين والجميل مثل تمثال برونزي لِبينفِنوتو سيليني.

ما كان للملحق البرازيليٍّ أن يَلفتَ الانتباهَ في حيّ بائس في كالكوتا. فقد رفعه بِّريرا شَيئا فشيئاً فوق سطح العقار بين خزّان الماء وسلم النجاة الخارَجي بالحرِّية ذاتها التي يُنفذ بها أعماله الفنّية. جاءت النتيجة جهازاً حيّاً ذا شكل مُتبَدِّل مُكوَّن أساساً من الكرتون والبلاستيك وألواح من الزنك وأُخَرى مِنَ النشارة المضغوطة وأرضية إسمنتية في أجزاء وفي أخرى رُكبَت قطع من اللينوليوم بشكل سيّئ وغطي بعضها الآخر بأسمال من السجاد. كان المسكن من الداخل متاهة من الفضاءات المشوّهة تؤدّي أهدافاً مختلفة ويمكن تعديلها برفة عين بنزع قطعةٍ من القماش المشمّع، تحريكِ حجاب أو بمجرد إعادة تنظيم الصناديق والجوارير التي تشكل معظم أثاث البيت. عرَّفَهُ بوب مارتين من أوّل نظرة بجحر هِيبيين، خانق، متّسخ ودون شك غير قانوني، لكنه اضطرَّ للاعتراف في داخلِهِ بأنّ له سحره. كان نور الصباح المنخول من خلال ألواح البلاستيك الزرقاء يُضفي على الجوّ مظهرَ حوض مائيّ، اللوحاتُ ذاتِ الأحجام الكبيرة والألوان البدائية التي كانت في بهو البناء مُريعةً، بدت في تلك السقيفة صبيانية وكانت الفوضى والقذارة اللتان ستبدوان في مكان آخر مقرفة مقبولتين هناك كنزوة من نزوات الفنّان.

– ثبّت المنشفة، يا بِّريْرا، انظرْ، أنا مع ابنتي –أمره بوب مارتين.

– مرحباً يا أماندا –سلّم الرسامُ، ساداً المدخل كيلا يرى الزائران نباتات الماريجوانا خلف منطقة فُصِلَت بستائر حمّام.

كان بوب مارتين قد رآها، كما كان قد شمّ رائحة دخانها الجليّ: بخار فيه حلاوة دبقة تملأ الملحق، لكنّه لم يعتبر نفسه معنياً، لأنّه هناك لأجل قضيّة أخرى. وضّحَ له أسبابَ زيارته المزعجة وحكى له بِّريْرا أنه تكلّم مع إنديانا مساء يوم الجمعة، حين كانت خارجة.

- قالت لي إنّها ذاهبة لتلتقي ببعض أصدقائها في مقهى روسيني وستذهب بعدها إلى بيتها حين يخف زحام السيارات.

- هل ذكرت اسم الأصدقاء؟

- لا أتذكر، الحقيقة أنّني أوليتها قليلاً من الانتباه. كانت هي آخر من خرج من البناء. أغلقتُ البابَ الرئيسيّ في حدود الساعة الثامنة أو ربّما التاسعة... —ردّ برّيرا بغموض، غير مستعد كثيراً لأن يُقدِّم معلومات للشرطيّ، لأنّه اعتقد أنّ إنديانا كانت في إحدى مغامراتها الجسورة وهو لم يكن يُفكر بأن يُسهّل لزوجها السابق مهمّة العثور عليها.

لكنّ موقف المفتِّش كان يدلّ على أن من الأفضل له أن يتعاون، على الأقل ظاهرياً، فارتدى بنطلونه الجينز الأبدي، أخذ رزمة مفاتيح وقادهما إلى المكتب رقم 8. فتح الباب وبقي بأمر من مارتين، الذي لم يكن يعرف ما سيجدهُ في الداخل، ينتظر في الممرّ مع أماندا.كلّ شيءٍ في عيادة إنديانا كان مرتّباً، المناشف فوق بعضها، الملاحف نظيفة فوق طاولة التدليك، قوارير خلاصة الزيوت، المغنطيسات، الشموع والبخور جاهزة للإشعال يوم الاثنين، والنبتة الصغيرة التي حملها لها البرازيليُّ في إطار النافذة وكان هناك ما يُشير إلى أنّها سُقِيَتْ توّاً. رأت أماندا من الممر حاسوب أمّها المحمول على طاولة الاستقبال وسألت والدها عمّا إذا كان باستطاعتها أن تفتحه لأنّها تعرف كلمة السرّ. وضّح لها بوب مارتين أنهما قد يُخرِّبان بصماتِ الأصابع، ثمّ نزل إلى سيارته ليبحث عن قفازات وكيس بلاستيكي.تذكر في الشارع الدراجة فاتجه إلى جانب البناء حيث يوجد شبك حديدي تصفه فيه. وجد أنّ درّاجة إنديانا فاقشعرّ بدنه حين رأى كانت مقيّدة هناك. شعر بطعمٍ صفراوي في حنجرته.

لم يكن داني دانجِلو يعمل في ذلك اليوم في مقهى روسيني، لكنّ بوب مارتين استطاعَ أن يستجوبَ زوجاً من المستخدَمين لم يكونا واثقين من أنّهما رأيا إنديانا، لأنّ المحلّ كان مساء الجمعة مزدحماً، مرّر المفتِّش صورة لإنديانا كانت عند أماندا على جوّالها على بعض

طاقم المطبخ والزبائن الذين كانوا يستمتعون في تلك الساعة بتناول القهوة الإيطالية وأفضل أنواع الحلوى في نورث بيش. كان هناك عدد من الزبائن المواظبين يعرفونها. لكنّهم لا يتذكرون أنّهم رأوها يوم الجمعة. كان الأب والابنة على وشك أن يذهبا حين اقترب منهما رجل بشعر ضاربٍ للحمرة وثيابٍ مجعّدة كان يكتب على كرّاسٍ من الورق الأصفر على إحدى طاولة في العمق.

- لماذا تبحثان عن إنديانا جاكسون؟ -سألهما.
- هل تعرفها؟
- لنقل نعم، على الرغم من أنّ أحداً لم يُعرّفنا على بعض.
- أنا رئيس مُفتّشي قسم جرائم القتل، بوب مارتين، وهذه ابنتي أماندا -قال الشرطيّ مظهرا هويته.
- صموئيل هاميلتون جر. تحرّي خاص.
- صموئيل هاملتون؟ مثل التحرّي الشهير في روايات غوردون؟ -سأل المُفتّش.
- كان أبي. لم يكن رجل تحرٍ بل صحفيّاً وأخافُ أن يكون المؤلّف قد بالغ في مآثره. كان هذا في الستينيات. عجوزي مات، لكنّه عاش سنوات طويلة على أمجاده الماضية أو بالأحرى أمجاده المُحوّلة إلى روايات.
- ماذا تعرف عن إنديانا جاكسون؟
- ما يكفي، أيّها المُفتّش، بل وأعرف أنّها كانت متزوّجة منك وأنّها أم أماندا. اسمح لي أن أوضّح لك. قبل أربع سنوات تعاقد معي السيّد ألان كِلِرْ، كي أراقبها. المحزن أنّ كثيرا من دخلي يأتي من ناس يَغارون، يشكون بشريكاتِهم، هذا هو الجانب الأكثر مقتا وإزعاجاً في عملي. لم أستطعْ أن أُقدّم للسيّد كِلِرْ أي معلومة مهمّة، فأوقف المراقبة، لكنّه كان يهتف لي كلّ بضعة أشهر بعد أن تحلّ به نوبة غيرة جديدة، لم يقتنع قط بأنّ الآنسة جاكسون وفيّة له.
- هل تعلم أنّ ألان كِلِرْ قُتِل.

- بلى، طبعاً. ظهر هذا في كلّ وسائِل الإعلام. أنا حزين على الآنسة جاكسون، لأنّها كانت تُحبُّه كثيرا.

- نحن نبحث عنها، يا سِيّد هاميلتون. اختفتْ منذ الجمعة. يبدو أنّ آخر من رآها كان رساماً يعيش في العيادات الشاملة.

- ماتيوس بِريْرا؟

- نفسه. يقول إنّه رآها مساءً وإنّها كانت قادمة لتلتقي ببعض الأصدقاء هنا. هل تستطيع أن تُساعِدنا؟

- الجمعة لم أكن هنا، لكنّني أستطيع أن أعطيك لائحة بالأصدقاء الذين ترددت عليهم الآنسة جاكسون في السنوات الأربع الأخيرة. المعلومات موجودة عندي في البيت، أعيش قريبا من هنا.

بعد نصف ساعة كان صموئيل هاميلتون قد وصل إلى قسم الشرطة ومعه محفظة ورقة سميكة وحاسوب محمول، سعيدا لأنّه وجدَ لأوّل مرّة خلال أشهر عنده شيئا مهمّا بين يديه، شيئا أكثر من ملاحقةِ أشخاص ينتهكون الحريّةَ بالمال، يتجسسون على زوجاتهم بالتلسكوب ويُهدِّدون ناسا بؤساء لا يدفعون إيجارا أو فوائدَ قرض. كان عمله مزعجا، ليس فيه من الشاعرية ولا الخيال شيء، كما في الكتب.

كانت بِّترا هور قد تنازلت عن يوم عطلتها وتواجدت في المكتبِ مُحاولَةً أن تُشجّع أماندا، التي تقوقعت على الأرض، خرساء منكمشة إلى نصف حجمها الطبيعي، معانقة كيس سالب إل أتون . كانت المساعدة في ذلك الصباح في الحمّام تصبغ شعرها بثلاثة ألوان حين تلقت مكالمة رئيسها، ولم يكد يسعفها الوقت كي تشطف شعرها وترتدي بسرعة ثيابها قبل أن تخرج مثل الرمح على دراجتها الناريّة، من دون الجِل الذي يُبقي عادة على شعرِها مجعدا، مرتدية بنطلونا قصيرا وقميصا حائلَ اللون وحذاءً رياضيّاً. كانت بِّترا تُمثّل فتاة في الخامسة عشرة من عمرها.

كان المُفتّش قد استدعى طاقمَ مخبرَ الطبّ الشرعي كي يأخذوا آثار البصمات عن حاسوب إنديانا ليذهبوا بعدها إلى العيادات الشاملة

ليجمعوا أدلّة. كانت أماندا تغوصُ كلمّا سمعت تعليمات أبيها أكثر وأكثر في ملاذ قلنسوتها، على الرغم من أنّ بِّترا هورٍ وضّحت لها أنّها إجراءات أساسيّةٍ لجمع معلوماتٍ ولا تعني أن شيئاً خطيراً حدث لأمّها. أجابتها أماندا بنشيجٍ وهي تمصُّ إبهامها بحنق. وعندما تبيّن أن الصغيرة تعود القهقرى بعمرها مع مرور الساعات وخوفاً من أن تنتهي إلى القماطات، أخذت بِّترا الهاتف بمبادرة ذاتية وهتفت للجدّ.

"لا زلنا لا نعرف شيئاً، يا سيّد جاكسون، لكن رئيس المفتشين يكرّس نفسه كاملاً للبحث عن ابنتك. هل تستطيع أن تأتي إلى القسم؟. بوجودك هنا ستشعر حفيدتك بأنّها أفضل. سأرسل في طلبك سيارة دورية. اليوم، يوم سباق كذبة نيسان والسير مقطوع في شوارع كثيرة.

كان صموئيل هاميلتون قد نشر خلال ذلك على مكتب بوب مارتين موادَّ ورّاقتِهِ الوفيرة والتي كانت تحتوي على سجلٍّ حياة إنديانا السرّي الكاملِ، ملاحظاتٍ حول ذهابها وإيابها، نقل لمحادثاتها الهاتفية المخترقة وعشراتِ الصور، غالبيتها عن مسافة معيّنة، لكنّها واضحة بما يكفي عندما تُكبّر على الشاشة. كان هناك أفرادُ عائلتها، زبائن عيادتها، بمن فيهم الكلب والأصدقاء والمعارف. ساور بوب مارتين شعور بالاستنكار للطريقة التي تجسّسَ بها ذلك الرجلُ على إنديانا وبالاحتقار لألان كِلرْ، الذي تعاقد معه، وشعر بالاهتمام المهني بتلك المادة القيّمة وبالضيق الذي لا مناص منه وهو يرى خصوصياتِ تلك المرأة معروضة أمامه، هي التي كان يشعر تجاهها بعاطفة الحماية الضارية. أثّرت فيه الصور حتى النخاع: إنديانا عليِ الدرّاجة تجتازِ الشارِعَ برداء الممرّضة، في سيران في غابة، معانقة أماندا، مُحادِثة أحداً، وهي تتكلم بالهاتف، تشتريَ في السوق، مُتعبة، سعيدة، نائمة في شرفة شقّتها فوق مرآب أبيها، حاملة تورتا هائلة لدونيا إنكارناثيون، وهي تتجادل معه في الشارع منزعجة ويداها على خصرَيْها. إنديانا بلطفها الرقيق وبراءتها، بنضارتها، نضارة الصبيّة، بدت له جميلة كما في الخامسة عشرة من عمرها حين أغواها خلفَ

مدرّج صالة الألعاب الرياضية في المدرسة، بالحماقة والتهوّر اللذين كانت تمارس بهما كلّ شيء في تلك المرحلة، وكره نفسه لأنّه لم يحبّها ويرعاها كما كانت تستحقّ ولأنّه أضاع فرصة أن يشكّل معها بيتاً لطيفاً، كان من الممكن أن تزدهر فيه أماندا.

– ماذا تعرف عن ريان ميلرْ؟ –سأل المُفتّشُ هاميلتون.

– إلى جانب أنّهم يبحثون عنه بسبب مقتل السيّد كِلِرْ، أعرفُ أنّه عاش حباً رومانسياً مع الآنسة جاكسون، دام قليلا جدّاً، وحدث هذا حين قطعت هي وكِلِر العلاقة بينهما، وبالتالي لم تكن خيانة، ولم أذكر هذا للسيّد كِلِرْ. الآنسة تقع وقعاً حسناً في نفسي، إنّها امرأة طيّبة، لا يوجد كثير مثلها في العالم.

– ما رأيك بميلرْ؟

– كان السيّد كِلِرْ يغارُ من نصف العالم، وعلى الأخص من ميلرْ. أضعتُ مئات الساعات في مراقبته. أعرفُ بعض الأشياء عن ماضيه وأعرف عاداتِه، لكن الطريقة التي يكسب بها عيشه لغز، أنا واثق من أنّه يعتمد على ما هو أكثر من تقاعدِهِ كمُحاربٍ قديم، يعيش جيّداً ويُسافر إلى خارج البلد. شقّته محاطة بإجراءات أمنيّة قصوى، عنده عددٌ من الأسلحة، جميعها قانونية ويذهبِ مرّتين في الأسبوع ليتمرّن على الرمي في حقل رماية. لا ينفصل أبداً عن كلبه. أصدقاؤه هنا قليلون جدّاً، لكنّه على تواصل مع رفاقِهِ من جنود النخبة الآخرين من مجموعة المهام الخاصّة سيل تيم 6 نفسها. قطع منذ شهرين علاقته مع حبيبته جِنيفِر يانغ، وهي أمريكية من أصل صينيّ، عازبة، في السادسةِ والثلاثين من عمرها، موظفة تنفيذية في بنك، حضرت إلى عيادة إنديانا جاكسون وهدّدتها بأنّها ستلقي على وجهها أسيداً.

– كيف هذا؟ لم تقلْ لي إنديانا هذا قط –قاطعه مارتين.

– في تلك المرحلة كانت إنديانا وميلرْ مجرّد صديقيْن. أعتقد أنّ ميلرْ كان قد ذكر لإنديانا أنّ عنده تلك الخطيبة، كي نسميها بطريقة

ما، لكنّه لم يُقدِّمْها إليها، بحيث أنّه عندما حضرتْ جِنيفِر يانغ إلى العيادة، فكرت إنديانا أنّ المرأة أخطأت بالباب. نزل ماتيوس بْرِيرا من الملحق عندما سمع الصياح وأخرج يانغ من البناء.

- وهلٍ لهذه المرأة سوابق مع الشرطة؟.

- أبدا. الشيء الوحيد الغريب في سلوكها هو أنّها تُشارك سنويّاً في المعرض السادي- المازوخي في شارع فولسوم. عندي صورتان لها وهي تتلقى سياطاً فوق هيكل سيارة بويك قديمة. هل تهمانك؟

- فقط إذا كانت قد عادتَ وأزعجت إنديانا.

- لا. لو كنتُ مكانك، أيّها المُفتِّش، لما أضعتُ وقتي بجِنيفِرِ يانغ. لنتابع موضوع ريانٍ ميلِّرْ، سأختصر بأقصى ما أستطيع. أدرك والدُهُ درجاتٍ عالية جدّاً في البحرية، حيث كان يتمتع بسمعة أنّه صارمٌ بل ووحشيٌّ مع مرؤوسيه، انتحرت أمّهُ بمسدّس خِدمة الأب، لكنّهمٍ دائما قالوا في العائلة إنّه كان حادثاً. دخل ميلِّرْ البحريةَ، مُتّبعاً خطى أبيه، سجلُّ خدمتهِ رائع، حصل على ميدالية الشجاعة، صُرِفَ من الخدمة لأنّه فقد رجلهُ في العراق عام 2007، حصل على الوَسام المُستَحَقّ، لكنّه سرعان ما ضاع في المخدرات والكحول... يعني ما هو معتاد في هذه الحالات. أعاد تأهيلَ نفسه ويعمل لصالح الحكومة والبنتاغون، لكنّني لا أعرف فيما يعمل، ربّما في الجاسوسيّة.

- اعتُقِلَ في الثامن والعشرين من شباط بسبب عنفه في أحدٍ النوادي. ثلاثة أشخاص انتهوا إلى المستشفى بسببه. هل تعتبره قادراً على قتل كِلِرْ؟

- يمكن أن يكون قد فعل ذلك في فورةِ غضب، لكن ليس بهذه الطريقة. إنّه جندي من النخبة، أيّها المُفتِّش. لو أنّه هو لواجهَ خصمه ولَمَنَحَهُ فرصة الدفاع عن نفسه، وما كان ليستخدم السمّ إطلاقاً.

- موضوع السمّ لم يُنشر. كيف عرفت؟

- إنّه عملي. أعرفُ أشياءَ كثيرة.

- إذاً ربّما تعرف أين يختبئ ميلرْ.
- لم أعمل على البحث عنه، أيّها المُفتِّشُ. لكنّني إذا فعلتُ لا شكّ سأعرف.
- افعل، يا سيّد هاميلتون، نحن بحاجة لكلّ مساعدة نستطيع الحصول عليها.

أغلق بوب مارتين بابَ مكتبِهِ كيلا تسمعَه أماندا واعترفَ لصموئيل هاميلتون عن شكه باحتمال أن يكون ميلرْ قد خطف إنديانا.

- انظر، يا مُفتِّش، منذ أن علمتُ أنّ الشرطةَ تبحث عن ميلرْ تفرّغت للبحث عن الآنسة جاكسون، آخذاً بالاعتبار احتمال أن يلتقيا. عملي قليلٌ في هذه اللحظة ويفيض عني الوقت. راقبتها مرّاتٍ ومرّات ما يجعلني أكادُ أعتبرها صديقتي. ميلرْ مُتَيّم بها وفكّرت بأنه سيُحاول أن يُقرّبها منه، لكن بحسب علمي لم يتواصلا —قال هاميلتون.
- لماذا تقول هذا؟
- أنت تعرف الآنسةَ أفضل منّي، يا مُفتِّش: إنّها شفّافة. لو أنّها تُساعد ميلرْ لما استطاعت أن تُخفيه. ثمّ إنّ عادتها لم تتغيّر. عندي خبرة بذلك. أعرف متى يُخفي أحدٌ شيئاً.

بينما كان بوب مارتين يُراجِعُ تقاريرَ رجل التحرّي الخاص وصلَ بلاك جاكسون مستعجلا، مقطوعَ النفس إلى مكتب بِترا هور الصغير، حيث وجدَ حفيدته متكوّمةً على الأرضَ وجبينها على ركبتيها وقد انكمشت إلى حدّ أنّها بدت كومةً من خرق. جلس بجانبها، دون أن يلمسها، لأنّه كان يعلم كم يمكن أن تكون الصغيرةُ عصيّةً على التواصل وانتظر بصمت. بعد خمس دقائق، بدت لبِترا ساعاتٍ، أخرجتْ أماندا يداً من بين ثنياتِ ثيابها ولمست الهواء بحثاً عن يدِ جدّها.

- سالبِ إل أتون تحتاجُ للهواء والطعام وللقيام بحاجاتها. هيّا، يا رائعتي، لدينا الكثير مما علينا أن نعمله —قال الجدُّ بنبرةِ تهدئةٍ لحيوان مذعور.

- أمّي...
- هذا ما أقصده، يا أماندا. علينا أن نعثر عليها. واعدت لاعبي *نازع الأحشاء* كي نجتمع خلال ساعتين. الجميع متفقون على أنّ لهذا أولويّة وقد شرعوا بالعمل؟ هيا، انهضي، يا صغيرتي، تعالي معي.

ساعدها الجدُّ على النهوض، سوّى لها ثيابها قليلاً، وفي اللحظة التي كان ذاهباً وهو يمسك بيدها، أوقفتهما بِترا التي كانت تتكلّم بالهاتف، بإيماءة منها.

-في المخبرِ صار عندهم بصمات الحاسوب وسوف يحضرونها خلال لحظة.

صعد شرطيّ بالحاسوبِ المحمول في الكيس البلاستيكي ذاته الذي وضعه فيه بوب مارتين قبل ساعاتٍ وسلمهم تقرير المخبر. لم تظهر عليه غير بصماتِ إنديانا؛ سحبَ المُفتِّشُ الجهازَ من الكيس والتفّ الجميع حول مكتبه، بينما راحت أماندا، المعتادة على محتواه كصاحبتِهِ، تفتحه بقفازين مطاطيين. عندما شعرت بفائدتها خرجت من الشلل الذي كان يطبق عليها ورفعت القلنسوة عن وجهها، لكنّ تعبير وجهها المسحوق لم يتبدّل. كانت إنديانا الخرقاء جداً فيما يتعلق بالأجهزة الآلية أو الإلكترونية، تستخدم نسبةً مئوية دنيا من قدرةِ حاسوبِها للتواصل والبيانات ومعالجات كلّ مريض وحسابها وأكثر قليلا. قرؤوا بريد آخر ثلاث وعشرين ساعةً، منذ مقتل ألان كِلرْ ولم يجدوا غير رسائل سطحية من مراسليها المعتادين. طلب بوب من بِترا أن تنسخها، عليهم أن يدرسوها بحثاً عن أيّ تفصيلٍ كاشف. سرعان ما صارت الشاشة سوداء فتمتمت أماندا لاعنةً، فقد سبق وتعرّضت لهذه المشكلة.

- ماذا يجري؟ -سأل المُفتِّشُ.
- المركيز دو ساد. المنحرف الملاحِق الشخصي لأمّي.

لم تنتهِ من قول هذا حتى عادت الصورةُ إلى الشاشة، لكن وبدل ممارسات الوحشية والجنس القذرة التي كانت أماندا تنتظر ظهورها ظهر فيديو بمنظرٍ شتوي مضاء بقمر، في مكان ما من شمال العالم، فسحة في غابةِ صنوبرٍ وثلجٍ وجليدٍ وصوتِ ريح. بعد ثوان برزت بين الأشجار هيئة مفردة، بدت في البداية مجرّد ظلّ، لكن مع تقدّمها على الثلج تحددت ملامحها ككلبٍ كبير. شمَّ الحيوانُ الأرضَ، وهو يسير في دوائر، جلس بعدها، رفع رأسَهُ نحو السماء وحيّا القمر بعواءٍ لا ينتهي.

دام المشهدُ أقل من دقيقتين وترك الجميعَ في حالةِ ارتباك باستثناء أماندا، التي انتصبت واقفة مترنّحة وقد خرجت عيناها من محجريهما وصرخة اخترقت حنجرتها. "الذئب، توقيع القاتل"، استطاعت أن تقول قبل أن تنحني وتتقيّأ على كرسيّ والدها الصحيّ.

في أكثر من مناسبة قلتِ لي إنّكِ تثقين بحظّك، يا إنديانا، تعتقدين أنّ روحَ أمّكِ تسهر على عائلتك. وهذا ما يُفسّر أنّك لا تفعلين شيئاً من أجل المستقبل، لا توفرين سنتيماً واحداً وتعيشين يومَكِ، سعيدةً مثلَ زيز، بل وتخلّصت من كلّ مخاوفِ أيّ أم عادية، تعتبرين أمراً حاصلاً أنّ أماندا سوف تمضي قدماً بجدارتها الذاتية أو بمساعدة أبيها وجدِّها؛ حتى في هذا أنت غير مسؤولة. أحسدكِ، يا إنديانا. أنا لا يُحالفني الحظ وليس عندي ملائكة تحرسني. بودّي أن أؤمن بأنّ روح أمي ترعاني، لكنّ هذه أفكار صبيانيّة. أرعى نفسي دون مساعدة من أحدٍ. آخذ حذري لأنّ العالم معادٍ وأساء مُعاملتي.

أنت ساكنة جدّاً، لكنّني أعرف أنّك تسمعينني. هل تُدَبّرين أمراً؟ انسيهِ. في المرّة الأولى التي استيقظت فيها، ليلة السبت، كان الجوّ من الظلمة والرطوبة والبرد والصمت المطلق بحيث أنّك ظننتِ نفسَكِ ميتة ومقبورة. لم تكوني مُهَيّأة للخوف. بينما أنا أعرفُ جيّداً ما هو الخوف. نمتِ أربعاً وعشرين ساعةً وكنتِ مشوّشة، أعتقد أنّ لحظاتِ صحوك صارت مُذّاك قليلة. تركتُكِ تصرخين وتصرخين برهة، كي

تُدركي أنّه ما من أحد سيأتي لمساعدتك، وحين سمعتِ صدى صوتك هذا يدوّي في رحابة هذا الحصن، أغلق الذعر فمَك. عليّ أن أكمّ فمَكِ تحسّباً حين أخرج، وإن كنتُ لا أحب أن أفعل ذلك، لأنّ الشريطَ اللاصق سوف يخدش جلدك. قد تستعيدين في غيابي وعيَكِ للحظاتٍ ثم تعودين لتفقديه، إنّه تأثير الدواء الذي أعطيه لكِ كي تبقي مرتاحة، من أجل راحتك. إنّه مجرّد بنزوديازبين، لا ضرر فيه وإن كان عليّ أن أعطيك جرعة كبيرة منه. قد تكون التشنجات أو انقطاع النَفس هي التعقيدات الوحيدة، لكن نادراً ما يحدث هذا. أنتِ قويّة، يا إندي، وأنا أعرف كثيراً عن هذا. منذ سنوات طويلة وأنا أدرس وأجرّب. هل تتذكرين كيف وصلتِ إلى هنا؟. بالتأكيد لا تتذكّرين أيّ شيءٍ. شيء طبيعيّ، فالكيتامين الذي أعطيته لك يومَ الجمعة يُحدث فقداناً للذاكرة. إنّه مُخدّر مفيد جدّاً، وقد أجرت المخابرات المركزية الأمريكية تجاربَ عليه من أجل الاستجوابات، إشكالياته بالنتيجة أقلّ من التعذيب. أنا شخصيّاً أمقت الوحشيةَ، ومنظرُ الدم يُسبّب لي دوخة ما من أحد من الأشرار الذين قتلتُهم عانى أكثر مما يجب. المنوّماتُ بالنسبةِ لحالتكِ مناسبة، تُساعدك على تمرير الساعات، لكنّني غداً سأبدأ بتقليص الجرعة تفادياً للمخاطر ولكي نستطيع أن نتحدّث. ما زلتُ أسمعُك تُتَمْتمين بشيءٍ عن ضريح، تظنين أنك مقبورة، على الرغم من أنّني شرحتُ لكِ الوضع. ألمُ بطنك سيزول، كما أنّني أعطيك مسكّنات ومضاد تشنجات. تشغلني راحتُك. أُكرّرُ عليكِ هذا ليس كابوساً، يا إنديانا، كما أنّكِ لستِ مجنونة. طبيعي ألّا تعرفي ما جرى لك في الأيّام الأخيرة، لكن سرعان ما ستتذكّرين من تكونين وتبدئين بالاشتياق لابنتكِ، لأبيكِ وحياتِك السابقة. الوهن طبيعيٌّ أيضاً وسَيَزولِ، اصبري، لكنّك لن تتحسّني ما لم تأكلي. عليكِ أن تأكلي شيئاً. لا تُجبريني على اتخاذ إجراءات مزعجة. حياتُك لم تعد ملككِ، حياتُك مُلكي وأنا قائم على صحتك أنا من سيُقرّر كيف وكم ستعيشين.

الثلاثاء، 3

استطاعت أماندا بفضل لعبةِ نازع الأحشاء التي أبقت عليها مشغولةً، أن تخرجَ من حالَة الرعب التي أدخلها فيها يقينها بأنَّ الذئبَ يحتفظ بأمّها، وما من حجّة من حجج أبيها نجحت بإقناعها بأنّ غياب إنديانا لا علاقة له بالجرائم السابقة، في الواقع هو أيضاً لم يكن يصدّق الحجج التي كان يُحاول أن يُهدّئ بها ابنتَهُ. كان رمز الذئب الرابط الوحيد الذي يملكونه بين إنديانا والقاتل، وكان أوضح من أن ينكروه. لماذا إنديانا؟ لماذا ألان كِلرْ؟ كان رئيس المفتّشين يشعر بأنّ معرفته أو تجربته المتراكمة خلال سنوات عمله لا تفيده في شيء ويأمل ألا تُخيّبه حاسّةُ شمّ الشرطيّ التي كثيراً ما كان يتبجّح بها.

بما أنّ أماندا بقيت تُعاني من نوبات رعب، فقد هتف بلاك جاكسون إلى المدرسة كي يوضّح للأخت ثِيل مأساةَ أسرته ويُبيّن لها أنّ حفيدته ليست في وضع يسمح لها بالعودة إلى المدرسة. أذنت الراهبة بغياب الصغيرة الوقت الذي تحتاجه، وقالت إنّها ستُصلي مع الأخواتِ الأخريات لأجل إنديانا وطلبت أن يبقوها في صورة الوضع. بلاك أيضاً لم يذهب إلى العمل مفرّغاً نفسه بالكامل للعناية بحفيدته والمساهمة في اللعبة، التي ما عادت تسلية وتحوّلت إلى واقع مُريع. كان أعضاء لعبة *نازع الأحشاء* يواجهون " أمّ الألعاب كلها"، كما لقبوا عملية البحث اليائسة عن إنديانا جاكسون.

خلُصَ بوب مارتين إلى أنّ القاتلَ كان مختلّ العقل، استثنائيّ الذكاء، منهجيّ العمل لا يكلّ، واحداً من أعقد وأخبث المجرمين الذين علم بهم. كان يؤكد أنّ عمَلَهُ الروتينيّ سهلٌ لأنّ لديه شبكة من المخبرين يبقونه على معرفة بمجريات الأمور في العالم السفلي ولأنّ لغالبية المجرمين العامين بطاقاتٍ، إنّهم مجرمون منتكسون، فاسقون، مُدمنون، كحوليون، أو ببساطة بُلَهَاء، لأنّهم يتركون خلفهم

خيطاً من الإشارات، يتعثّرون بظلّهم، ويخونون ويشون ببعضهم بعضاً، ثم يقعون بثقلهم. كانتِ المشكلة في الأشرار الذين يحلقون عالياً، الذين يوقعون أضرارا كارِثية، دون أن يُوسّخوا أيديهم، يملصون من العدالة ويموتون شيوخاً على أسرّتهم. لكن لم يُصادفه في سنوات خدمتِهِ كلها أحدٌ مثل الذئب، ولا يعرفِ في أيّ نوع يُصَنِّفُهُ، ما دافعه، كيفٍ كان يختار ضحاياهُ وكيف يُخطط لكلّ جريمةٍ. كان يشعر وكأنّ يداً تشدّ على معدته؛ يعتقدُ أنّ الذئبَ قريبٌ جدّاً منه، وأنّه عدوّ شخصيّ. كان مقتلُ ألان كِلر تحذيراً واختفاءُ إنديانا تحدّياً موجّهاً إليه. كان الاحتمال المروِّع بأن يُنَكّل بأماندا يغمره بعرق بارد.

لم يعد المُفتِّشُ إلى شقّتِهِ منذ اختفاء إنديانا، كان يأكلُ في المقهى أو ما تأتيه به بِّترا، ينامُ على كرسيّ ويستحمّ في صالة القسم الرياضية. اضطرت بِّترا يومَ الاثنين لأن تذهبَ لتأتيه بثياب نظيفةٍ وتأخذ المستعمل منها إلى التنظيف. هي أيضاً لم تمنح نفسها راحةً، لأنّها لم تره قط مهووساً إلى حدِّ أن يُهمل مظهره وكان هذا يُقلِقها. كان مارتين يُحافظ على جسمه كلاعبِ كرةٍ قدم بواسطة أجهزة الرياضة البدنية، ولَهُ رائحة كولونيا تُكلف مئتي دولار، يدفع أكثرَ من اللازم على حلاقةِ شعره، ويفصلون له قمصانه من الكتان المصري على مقاسه. كانت أطعمُهُ وأحذيتُهُ خاصّة. لو أنّ بوب مارتين أراد، كما كان يحدث في كلّ لحظة، لاستسلمت له أيُّ امرأة، إلاها بالطبع. حين وصلتِ بِّترا يوم الثلاثاء باكرا جدّاً إلى المكتب ورأت رئيسَها أطلقت كلمةَ ارتياعٍ نابية: الشارب الذي رعاه طيلةَ عقدٍ اختفى.

- ليس عندي وقت كي أنشغل بشعر في وجهي —دمدم المُفتِّشُ
- يُعجبني، يا رئيسي. تبدو أكثر إنسانية. كان الشارب يُضفي عليك بعضَ الشبهِ بصدام حسين. لنرَ ما رأي أياني.
- وماذا سيهمها!
- حسن، أتصوّر أن الأمر سيكون مختلفاً مع دغدغة الشارب... تعرفُ ما أريد قوله.

- لا، يا بِّترا. ليس عندي فكرة عمّا تريدين قوله. علاقتي بالسيّدة أشتون تقتصر على التحقيق بمقتل زوجها.
- إذا كان الأمر كذلك فإنّني أهنّئك، يا مُعلّمي. ليس من صالحك أن تتورّط مع امرأة مريبة.
- تعرفين جيّداً أنّها ما عادت مريبة. فمقتل ريتشار أشتون مرتبط بالحالات الأخرى. الشبه بين الجرائم واضح. أياني ليست قاتلة على التسلسل .
- ما أدراك؟
- يا يسوع، بِّترا ما بك!
- حسن، لا تغضب. هل أستطيع أن أسألك لماذا قطعتما العلاقة؟
- لا تستطيعين، لكني سأجيبك. لم نجتمع قط بالطريقة التي تظنينها. وهنا ينتهي هذا الاستجواب غير المعقول. اتفقنا؟
- بلى، يا مُعلم. سؤال أخير. لماذا لم تنجح مع أياني؟ مجرّد فضول.
- مجروحة جسديا وعاطفيًا. عندها موانع تمنعها عن... الحبّ. اليوم الذي جاءت فيه إلسا دومينغث لتتكلم عن مصارعة الكلاب وهتفتِ لي، كنتُ مع أياني. تعشينا في بيتها. ، لكن بعدها وبدلٍ أن تقوم بيننا لحظة رومانسية، كما كنتُ أتوقع، أرتني فيلماً وثائقيّاً عن ختان المرأة وحكت لي عن التعقيدات التي عانت منها بسبب ذلك، بما في ذلك عمليتين جراحيتين. لم تُقِم علاقاتٍ حميمة مع ريتشارد أشتون، وقد سجّلا هذا في عقدِ الزواج. تزوّجت أياني كي تَتَمتّع بأمان اقتصاديّ وهو كي يُظهرَها كشيءٍ فاخر ويُثيرَ الحسد.
- لكن بالتأكيد لم يحترم أشتونَ في تعايشه معها شروطَ العقدِ ولذلك كانا يتشاجران —استنتجت بِّترا.
- هذا ما أعتقده، مع أنّها لم تقله لي. الآن أفهم دور غالانغ، هو الرجل الوحيد المسمح له بالدخول إلى خلوة أياني الحميمة.
- قلتُ لك هذا، يا مُعلم. هل تريدُ قهوة؟ أراك تقضي ليلك من جديد هنا. حول عينيك هالتا راكون. اذهب وارتحْ في بيتك، إذا كان هناك أخبار سأُعلمك بها فورا.

- شكراً، لا أُريد قهوة. كنتُ أفكّر أنّ مرتكبَ الجرائم الخمس في سان فرانسيسكو ليس نفسه الذي قتل مِيلر في نابّا. مجرّد إحساسٍ داخليّ، لكنِ من الممكن أن يكون ريان ميلرْ قد قتل ألان كِلِرْ غيرة ونسخَ طريقة الذئب كي يُبعدَ الأنظار. يمكن لأماندا أن تكون قد حكت له التفاصيل التي لم تُنشر. ابنتي داخلة في هذه القضيّة حتى شحمتي إذنيها وتستلطف ميلرْ، من يدري لماذا. يجب أن يكون بسبب ذلك الكلب.

- لو تواصلت أماندا مع ميلرْ لكنّا عرفنا.

- هل أنتِ واثقة؟ هذه الصغيرة قادرة على أنِ تُضلّلنا جميعاً.

- أشكّ أن يكون ميلرْ من تخلص من ألان كِلِرٍ بطريقة أبعد ما تكون عن طبيعة الجنديّ وأن يترك المشهد مزروعاً بالبراهين ضدّه. إنّه رجل ذكي ومُدَرّب على الحذر والسريّة، والدمِ البارد من أجل القيام بأصعب العمليات الحربيّة. لا يُجرّم نفسه بهذه الطريقة الفجّة.

- هذا ما تراه أماندا -اعترف الشرطيّ.

- إذا لم يكن الذئب ولا ميلرْ، من سيكون قاتل كِلِرْ؟

- لا أعرف، يا بِّترا. كما لا أعرفُ من المسؤول عن اختفاء إنديانا. ما زال مِيلر هو المشبوه الأكثر وضوحاً. كلفتُ صموئيل هاميلتون كي يُحقق في شيء اقترحته عليّ أماندا: كان الزوجان كونستانت وأشتون وروسين يعملون مع أطفال. يمكن لهذا الأثر أن يقودنا إلى الذئب.

- ولماذا لجأت إلى هاميلتون؟ -سألته بِّترا.

- لأنّه يستطيع أن يُحقق دون أن يستخدم خدمات القسم المشغولة ولأنّ لديه تجربة. هذا الرجل يوحي إليّ بالثقة.

كان لاعبو نازع الأحشاء، بمن فيهم جيزابِل، قد أوقفوا أعمالَهم الروتينية ونشاطاتهم العادية كي يتفرّغوا تماماً لدراسةِ الحالات، كلّ بمهاراته الخاصّة وبقوا على تواصل دائم عبر الجوّالات ويجتمعون في حوار منقول بالفيديو، ما إن يكتشفوا دليلا جديدا، وكثيرا ما يكون

في منتصف الليل. أمام استعجال هذه المهمّة بدأت أباثا تأكل كيلا تنقصها الطاقة وتجرّأ السير إدموند بادينغتون على الخروج من غرفته، حيث مضى عليه سنوات محبوساً فيها، كي يتكلّم شخصيّاً مع شرطي أيرلندي متقاعد عجوز في نيوجرسي، خبير بجرائم القتل على التسلسل. كانت إسمِرالدا وشارلوك هولميز، الأولى في أوكلاند في نيوزلندا، والآخر في رنو في نيفادا يُحلّلان المعلومات المتوفرة مرّة أخرى، منطلقين من الصفر. وكانت أباثا من عثرت على المفتاح لفتح صندوق باندورا.

– تماماً كما وضّح لنا شارلوك هولميز في لعبة سابقة، جميع الجثثِ باستثناء جثة راشيل روسين، التي عثر عليها بعد ثلاثة أيّام من مقتلها، كانت في حالة تخشّب وهذا ما يسمح بتقدير ساعة الجريمة. نعرف بيقين أنّ خمسَ ضحايا ماتوا حوالي منتصف الليل ونستطيع أن نجزم بأنّ الشيء ذاته حدث لروسين —قالت جِزابِل — ممثلة عن ميلرْ وألاركون.

– بماذا يفيدنا هذا؟

– هذا يعني أنّ القاتل لا يعمل إلاّ في الليل.

– يمكن أن يعمل نهاراً —قال شارلوك هولميز

– إنّه بسبب القمر —تدخّلت أباثا.

– كيف بسبب القمر؟ —سألت إسمِرالدا.

– القمر غامض، يدلُّ على حركات رحلة الروح من حالة تقمّص إلى أخرى، يُمثّل الأنوثيّ، الخصوبة، الخيالَ وكهوفَ اللاوعيّ المظلمة. القمر يؤثّر على الحيضِ والمدِّ والجزرِ —وضّحت الطبيبة النفسية.

– اقطعي الحديث، يا أباثا، هيّا بنا إلى اللبّ —قاطعها السير إدموند بادينغتون.

– الذئب يُهاجم عندما يكون القمرُ بدراً —ختمت أباثا.

– وضّحي، يا أباثا، إنّك تهذين.

- أيّها المأمور، آمرك أن تتدخّلَ من الآن فصاعداً حين يكون عندكَ ما تقوله، لا تحتاجُ لأن تطلبَ إذناً —قالت معلّمة اللعب، نافدةَ الصبر.

- شكراً، يا مُعلّمة. هل لاحظتم أنّ هناك جريمةً كلَّ شهر؟ ربّما كانت أباثا على حقّ —طرح المساعد.

- كلُّ الجرائم ارتُكِبَت والقمر بدرا—قالت أباثا، بعزم أشد من المعتاد، لأنّها أكلت نصف كعكة.

- هل أنت متأكّدة؟ —سألت إسمِرالدا.

- لنر. أمامي هنا تقويما العامين 2011 و2012 —تدخّلت جِزابل.

- ارتكب الذئبُ جرائم القتل في الحادي عشر من تشرين الأوّل والعاشر من تشرين الثاني من العام الماضي وفي التاسع من كانون الثاني والسابع من شباط والثامن من آذار من هذا العام —قال شارلوك هولميز.

- كان القمر بدراً! في كل الحالات كان القمر بدراً —صاحت جِزابل.

- هل تعتقدين أنّنا أمام كائن نصفه بشر ونصفه حيوان ويتحوّل في ليالي البدر؟ —طرحت إسمِرالدا متحمِّسة أمام هذا الاحتمال. درسنا أنا وجدّي المتستذئبين حين سئمنا من مصاصي الدماء، هل تتذكر، يا كابل؟ —قالت أماندا.

- الرجلُ الذئبُ هو الأذكى والأكثر عدوانية بين المستذئبين —قال الجدّ— هناك ثلاثة أشكال للمستذئبين، بشري، هجين وذئبي. ليس اجتماعياً، يعيشُ منفرداً، يعملُ ليلاً في شكله الهجين أو الذئبي، هو لاحِم ووحشيّ جدّاً، لكنّه في شكله البشري لا يُميّزُ عن الأشخاص الآخرين.

- ذلك خيال ونحنُ ما عدنا نلعب، هذا واقعي —ذكّرهم الكولونيل بادينغتون.

- في المشفى حيث أدخلوني في العام الماضي كان هناك شخص يتحوّل إلى رجل عنكبوت. كانوا يربطونه كي يمنعوه من الخروج طائرا عبر النافذة. قاتلنا يعتقدُ أنّه الرجلُ الذئب —أصرّت أباثا.

- هل تعنين أنّه مجنون؟ —سألت أماندا.

- مجنون؟ لا أعرف. أيضاً يقولون عنّي إنّني مجنونة —ردّت أباثا.

حدثت وقفة طويلة بينما كان اللاعبون يهضمون تلك المعلومة، قُطِعَتْ بسؤال من أسئلة إسمِرالدا المميّزة.

- ماذا جرى في الليلة التي كانِ فيها القمر بدراً في كانون الأوّل؟ **391**

عاش رئيسِ المفتّشين لحظة رعبٍ عندما هتفت له أماندا في الخامسة فجرا لتحكي له قصّة الرجل الذئب والقمر البدر. كانت ابنته أغرب مما كان يعتقد الجميع وقد حان الوقتِ كي يلجأ إلى طبيب نفسي سريريّ ومع ذلك وعندما قارِنوا لاحقاً تواريخَ الجرائم مع منازل القمر التي شرحتها له بسرعة قبلَ أن يُراجعَ تقارير الشرطة عن اليوم العاشرِ من كانون الأوّل من العام الفائت، الليلة التي كان فيها القمرُ بدرا، وبقية تقارير ذلك الأسبوع. كانٍ للقضية جانب هو من الحصافة بحيث أنّه لم يجرؤ على أن يُكلف به أحدَ رجال التحرّي عنده، الذين كانوا، فضلا عن هذا، مشغولين بالتحقيقات العالقة وبشرطيّي مكتبٍ المخابرات الفدرالية، اللذين زعزعا إيقاعَ قسم جرائم القتل، وهكذا كلف به بترا هورّ. بعد خمس وثلاثين دقيقة وضعت المساعِدة المطلوبَ على مكتبه.

في الليلة المعنيّة حدثت عدّة وفياتٍ لأسباب غير طبيعية في سان فرانسيسكو، مشاجرات، حوادث، انتحار وجرعات زائدة، يعني فواجع روتينية، لكنّ حالة واحدة لفتت انتباهَ المفتّش ومساعِدَتِهِ، حادث وقعَ في المنطقة الوحيدة لمخيّم المدينة في روب هيل والموصوف بلغة تقارير الشرطة الجافة. في صباح الحادي عشر من كانون الأوّل اشتكى الأشخاص القليلون المخيّمون في مخيّم روب هيل إلى المدير من

وجودِ رائحةِ غاز في أحد البيوت المقطورة، وبما أنّه ما من أحد أجاب حين قرعوا الباب لجأ المدير إلى اقتحام الباب فوجدوا جثّتي زوجين سائحين: شارون وجوي فاركاس قادمين من سانتا باربارة في كاليفورنيا مختنقين بأحادي أوكسيد الفحم. لم يحدث تشريح، ذلك أنّ سببَ الموت بدا واضحاً: حادثٌ ناتج عن أنّ الزوجين كانا سكرانين ولم يتوقّفا عند تسرّب غاز بوتان الموقد الصغير. كان هناك زجاجة جين نصف فارغة في البيت المقطور. وعثرت الشرطة على أخٍ لجوي فاركاس في إوريكا، حضر بعد يومين ليتعرّف على الجثتين. أراد الرجل أن يأخذ البيت المقطور، لكنّ هذا صادرته الشرطة إلى أن يُغلق ملف القضيّة.

عيّن بوب مارتين رجلَ تحرٍ لمهمة البحثِ عن شقيق جوي والتحدّثِ مع شرطة سانتا باربارة للتحقيق حول الضحيتين وأمر فريقَ تحقيق شرعي بتمشيط مقطورة فاركاس بحثاً عن أيّ دليل يمكن أن يكون مفيدا. وهتف على الفور إلى ابنته كي يشكرها على الدليل الذي قدمته له وليعلمها عن الزوجين الميتين ليلة كان القمر بدرا في كانون الأوّل.

- إنّها عملية إعدام أخرى، مثل السابقات بابا، كان البيت المقطور غرفة خنق بالغاز للزوجين فاركاس

- ألان كلر مات مسموما.

- أيضاً هذه طريقة في الإعدام. تذكّري سقراط.

- من؟

- يوناني مات منذ زمن. أجبروه على شرب الشوكران. النازيون أعدموا أيضاً بالسيانيد عددا من الجنرالات فقدوا الحظوة، لكن ما من شيء من هذا يُساعدنا على العثور على أمّي.

- الخطف جريمة فيدرالية. كلّ شرطة البلد تبحث عنها، يا أماندا. شغّلي التلفاز وسترين صورة إنديانا في كلّ القنوات —قال لها المفتّش.

- رأيتُها، يا أبي. هتف عدد من الأشخاص كي يعزّونا وجاءت إلسا كي تبقى معنا حتى تظهر أمّي. هل استجوبت مرضاها؟

- طبعاً. هذا عمل روتيني، لكن لا أحد يعرف شيئاً. وما من أحدٍ يقع في مرتبة المشبوه. أجيبيني بكلّ صراحة، يا بنيتي. هل تعتقدين أنّ إنديانا ذهبت مع ريان ميلرْ؟ كلاهما اختفى.
- إنّها عند الذئب! كيف لا تفهم هذا؟
- هذا مجرّد نظريّة، لكنّني آخذها بكلّ جدّية.
- بقي ثلاثة أيّام كي يكتمل القمر، يا أبي. سيهجم الذئبُ من جديد —قالت الطفلة وقطع إجهاش صوتها.

وعدها بوب مارتين أن يضعها بصورة كلّ خطوةٍ من التحقيق. عندما أجابته بأنّها ستبحث عن أمّها بنفسها، فكّر أنّها تقصد لعبة *نازع الأحشاء* وانتابه إحساس مبهم من الراحة، كما لو أنّ السماء أرسلت إليه مساعدَةً سحرية. كان قد بدأ يأخذ موضوع هؤلاء الصبية بجدّية.

الأربعاء، 4

موفياً بما وعد به، هتف المُفتّش إلى ابنته في السابعة صباحاً كي يكشف لها عن نتائج تحقيقات صموئيل هاميلتون. حارس الأمن إدْ ستيتون، الذي اتُهم في مناسبات عدّة بالتحرّش الجسدي بأطفال تحت مسؤوليته في بويس كامب والذي طرد بسبب وفاة طفل في عام 2010، حصل بعدها بقليل على عمل في مدرسة في سان فرانسيسكو بفضل رسالةِ توصيةٍ من القاضية رشيل روسين.

المرأة المُلقَّبة "بالجزّارة" بسببِ أحكامها الدراكولية ضدّ الشباب الذين كانوا يمرّون في محكمتها، كانت تتلقى دعوات كثيرة كي تُحاضر في الإصلاحيات، بعضها رُفعت ضدّه مئاتُ الشكاوى من سوء معاملة الداخليين. كانت مكافأتها عن كلّ دردشة عشرة آلاف دولار. كانت كاليفورنيا، التي تُعاني من تزايد نسبة المجرمين بين السكان تتعاقد على خدمات إصلاحية للأحداث في ولايات أخرى و كان بويز

كامب ومؤسسات أخرى شبيهة تتمتع بفضل روسين بتدفّق زبائن متواصل عليها. لم يكن ممكناً اتهامها بتلقي عمولات أو رشاوى، فقد كانت أرباحها تظهر على شكل أجور عن محاضراتها وهدايا وبطاقات دخول للمسرح وصناديق مشروبات كحولية وإجازات في هاواي وعابراتِ محيطات في المتوسّط والكاريبي.

– شيء آخر سوف يهمّكِ، يا أماندا هو أنّ رشيل روسين وريتشارد أشتون كانا يعرفان بعضهما مهنيّاً. كان الطبيب النفسي يقوم بالتقييم النفسي للأطفال والفتية الخاضعين للمحاكم ولخدمة حماية الطفولة –قال رئيس المُفتّشين.

– وأفترض أنّ منزل الزوجين كونستانت كان يستقبل أطفالاً تُرسلهم إليه روسين.

– هذا ليس من عمل القاضي، بل من عمل خدمة حماية الطفولة، لكن يمكن القول إنّه كان هناك علاقة بينهما –وضّح الأبُ– اسمعي هذا، يا أماندا. في عام **1997** كان هناك شكوى ضدّ ريتشارد أشتون، سرعان ما سُكِتَ عنها لاستخدامه صدمات كهربائية ومخدرات تجريبية في معالجة الأحداث. كانت مناهج أشتون مُريبة، كيلا نقول أكثر من ذلك.

– يجب التحقيق بموضوع الزوجين فاركاس، يا أبي.

– نحن في هذا، يا بُنيّتي.

عليكِ أن تكوني أكثر يقظة، يا إندي، أرى أنّكِ تتحسسين كثيراً من الأدوية. تستطيعين أن تظهري لي بعض الامتنان، فانا أحاولُ أن أمنحكِ أقصى الراحة، نظراً للظروف. على الرغم من أنّنا لن نقارن هذا بفندق فيرمونت، عندك سرير لائق وطعام طازج. السرير هنا، هو الوحيد، ما تبقى نقالات للجرحى، عودان وقطعة قماش. أحضرت لكِ علبة أخرى من الضمادات اللاصقة ومضادا حيويا للحمّى. هذه الحمّى تُعقّد خططي قليلاً، حان وقت أن تستيقظي، لأنّكِ حقيقةً لستِ مُخدّرة، فقط أعطيكِ خليطا من المهدّئات والمسكّنات والمنوّمات

كي أُبقي عليك هادئة، إنّها جرعات مناسبة، لا شيء مما يُبرّر حالة الانهيار عندك.

اعملي جهدكِ كي تعودي إلى الحاضر. كيف هي ذاكرتك؟ هل تتذكّرين أماندا. إنّها طفلة فضولية. الفضولُ هو أُمّ كلّ الآثام، لكنّه أيضاً أمّ كلّ العلوم. أعرف الكثير عن ابنتك، يا إنديانا، أعرف مثلاً أنّها تُكرّس نفسها الآن للبحثِ عنك وإذا كانت فعلاً ذكية كما يَعتقد الجميع فإنّها ستكتشف المفاتيح التي أعطيتُها لها، لكنّها لن تكتشفها أبداً في الوقت المناسب. مسكينة أماندا، إنّني أشفق عليها، سوف تقضي حياتها مؤنّبة نفسها على هذا.

عليكِ أن تُقَدّري كم أنتِ نظيفة، يا إنديانا. جهدتُ في أن أغسلك بالإسفنجة ولو أنّك تعاونت قليلاً، لكنتُ استطعتُ أن أغسلَ لك شعرك. كانت أمّي تقول إنّ الفضيلة تبدأ بالنظافة، جسدٌ نظيف عقل نظيف. حتى في الفترات التي كنّا نعيش فيها في سيارة أو شاحنة صغيرة كانت تتدبّر أمرها كي نتمكن من الاستحمام يومياً، فقد كان هذا بالنسبة إليها بأهمّية الغذاء. هنا عندنا مئة خزّانَ من الماء، مختومة منذ الحرب العالمية الثانية، هناك أيضاً ولن تُصدّقي هذا، قطعة أثاث من الخشب المحفور مع مرآة من الزجاج المشطوف، لم يُمَسّ ولم يُخْدَش. البطانيات أيضاً من ذلك الزمن، مدهش أنّها نظيفة وفي حالة جيّدة. يلاحظ أنّه لا يوجد عثّ. ثقي بي لن أسمح بأن تصابي بقمل أو التهاب، ثمّ إنّني أحميك أيضاً من الحشرات. أفترض أنّ في هذا المكان كلّ أنواع الحشرات المقرفة وخاصّة الصراصير، على الرغم من أنّني رششتُ هذه الغرفة بعمق قبل أن آتي بكِ. طبعاً لم يكن باستطاعتي أن أرشّ كلّ شيء، فهذا المكان شاسع. لا توجد جرذان لأنّ البومَ والقطط، التي عاشت هنا لأجيال، تأخذ على عاتقها القضاء عليها. هل كنتِ تعرفين أنَّ في الخارج يكثر الدجاجُ الرومي البرّي.

ألبستُكِ بعد أن غسلتُكِ قميصَ نومك الأنيق، الذي أهداه لك كِلّرْ وكنتِ تحتفظين به لمناسبة خاصّة. وهل من مناسبةٍ خاصّة كهذه.

اضطُررتُ لأن أرمي ببنطلونك إلى القمامة، كان ملطخاً بالدم ولا أستطيع أن أتلهى بغسيل الثياب. هل كنتُ تعرفين أنّني أملكُ مفتاحَ شقّتك. قطع الثياب التي اختفت من خزانتك هي عندي. أردت أن أملكَ ذكرى منكِ وأخرجتها دون أن أتصوّر أنّها ستفيدنا الآن. يا للدورات التي تدورها الحياة! أستطيع أن أدخلَ متى أشاء إلى شقّتك. الإنذار الذي وضعهُ زوجك السابق لعبة، عمليّاً كنتُ هناك يومَ الأحدِ ونزلتُ إلى بيت أبيك، ألقيتُ نظرة على أماندا، التي كانت تنام حاضنة قطتها. بدا لي أنّها في وضع جيّد، على الرغم من أنّني أعلم أنّها كانت في غاية التوتّر ولذلك لم تذهب إلى المدرسة، أقل ما يمكن أن تفعل، يا لها من صغيرة مسكينة. عندي أيضاً مفتاح مكتبك وكلمة سرّ حاسوبك، طلبتها منكِ كي أشتري بطاقاتِ سينما عبرِ الشبكة العنكبوتية، أعطيتِها لي دون تردّد، أنت متهاونة جدّاً، لكن الصحيح أيضاً هو أنّه لم يكن هناك ما يُبرّر لك أن ترتابي منّي.

سيكون عليّ أن أكمّ فمكِ من جديد. حاولي أن ترتاحي، سأعود هذه الليلة، لأنّه ليس باستطاعتي أن أدخل وأخرج في أيّ ساعة. حتى ولو لم تصدّقي في الخارج الوقتُ الآن صباح. جدران هذه الغرفة ستائر من مادّة غريبة، مثل المطاط الأسود أو الكتّان المُشمّع السميك، ثقيلة لكنّها إلى حدّ ما مرنة، كتيمة، لذلك يبدو لك أنّك دائماً في ليل. غاص السقف في بعض أجزاء الحصن وخلال النهار يتسرّب بعضُ النور، لكنّه لا يصل إلى هنا. تعرفين أنّه ليس باستطاعتي أن أترك لك قنديلاً، سيكون خطيراً. أعرف أنّ الساعات تصير بالنسبة إليك أبديّةً وأنّك تنتظرينني متلهّفةً. بالتأكيد تخافين أن أنساك، أو أن يحدث لي شيء فلا أستطيع العودة، وعندها ستموتين جوعاً وأنت مربوطة إلى السرير. لا، يا إندي، لن يحدث لي شيء، سأعود، أعدُكِ بذلك. سأحضر لك طعاماً ولن يكون عليّ أن أطعمك بالقوّة. ماذا تحبّين أن تأكلي. اطلبي مني ما تشائين.

كانت ساعة رئيس المُفتّشين الجدارية تحفة من الأربعينيات، يحتفظ بها قسمُ جرائم القتل لدقّتها السويسرية المتناهية. كان بوب مارتين الذي وضعها أمام مكتبه إلى جانب عددٍ من صور المغنين المكسيكيين، بينهم والده مع فرقته: مارياتشيس، يشعرُ بأنّ ضغطه يرتفع كلما حدّدت العقاربُ المعدنية مرورَ الوقت. إذا كانت أماندا مصيبة -وبالتأكيد كانت كذلك- فأمامه وقت حتى يوم الجمعة ليلاً وبضع ساعات للعثور على إنديانا حيّة. كذلك أقنعته ابنته بأنّ العثورَ على إنديانا يعني الإمساك بالمرض النفسي الدموي الفالت من عقاله في المدينة، وإن لم ينجح هو بالربط بين إنديانا وهذا المجرم.

في التاسعة صباحاً تلقى هاتفاً من صموئيل هاميلتون، الذي كرّس اليوم السابق لمقارنة لائحة الصداقات في حاسوب إنديانا بلائحته هو. في التاسعة وخمس دقائق ارتدى المُفتّش سترته، أمر بِّترا هورْ بأن تُرافقه وذهب إلى نورث بيث في سيارة دوريّة.

في عيادات الطب البديل كان الجميع قد رأوا صورة إنديانا جاكسون في التلفزيون أو الصحف وكان عدد من زملائها يُناقشون الحدث في ممرّ الطابق الثاني، أمام باب العيادة رقم 8، المختومة بشريط الشرطة الأصفر. بقيت بِّترا هورّ معهم تأخذ معلومات منهم بينما المُفتّش يصعد راكضاً إلى الطابق الثالث ويتسلّق بخفّة قردٍ الدرج الضيق الذي يقود إلىٍ السطح. لم يطرق البابَ المتهاوي، هوى به برفسة ودخل، ناخراً من نفاد صبرهِ، حتى السرير الذي كان ينام عليه ماتيوسٍ بّريْرا بثيابه كاملة وحذائه وحلمِ غليونه الناعم. استيقظ الرسام متدلياً فيَ الهواء في يدي لاعب كرة القدم الأمريكية الهائلتين، بوب مارتين، الذي كان يهزّه مثل خرقة.

- ستقول لي مع من ذهبت إنديانا يومَ الجمعة!
- سبق وقلتُ لكٍ كلّ الذي أعرفه... -ردّ بّرِيْرا الذي لم يكن قد استيقظ بعدُ تماما.

- هل تريد أن تقضي السنوات العشر القادمة في السجن بسبب تجارتك بالمخدرات؟ -انتهره المفتِّش على بعد سنتيمترات قليلة من وجهه.
- ذهبت مع امرأة، لا أعرف ما اسمها، لكنّني رأيتها مرّاتٍ عديدة هنا.
- صِفها.
- إذا تركتني أستطيع أن أرسمها لك -اقترح عليه البرازيلي.

أخذ قلم فحم وناول المُفتِّشَ خلال دقيقتين صورة بابوشكا روسية.

- أنت تسخر منّي، أيّها البائس؟ -زمجر مارتين.
- هذه هي، أعدك.
- تُدعى كارول أندرووتر؟ - سأله المُفتِّش. هو الاسم الذي أعطاه له صموئيل هاميلتون، والذي لم يكن في بريد إنديانا الإلكتروني، الذي نسخته بِّترا قبل أن يُحفظ الحاسوب إلى جانب الأدلة الأخرى.
- بلى، أكاد أكون متأكداً من أنّها تُدعى كارول -أصرّ بِّرِيْرا.- إنّها صديقة إنديانا. ذهبتا معاً. كنتُ أنا في الأسفل في البهو ورأيتهما تخرجان.
- هل قالتا لك شيئاً؟
- قالت لي كارول إنّهما ذاهبتان إلى السينما.

هبط الشرطيّ إلى الطابق الثاني ونقّلَ الصورةَ المرسومة بين مستأجري العيادات البديلة، الذين كانوا ما يزالون مع بِّترا. أكّد عددٌ منهم أنّهم رأوا في بعض المناسبات تلك المرأة برفقة إنديانا. وأضاف ياميكو ساتو أنّ كارول أندرووتر كانت تُعاني من السرطان وفقدت شعرها بسبب العلاج الكيميائي، وهذا ما يُفسّر المنديل الروسي على رأسها.

عندما وصل المُفتِّش إلى مكتبه لصق الرسم الذي رسمه ماتيوس بِّرِيْرا على لوحة الجدار أمام مكتبه، حيث نشر بقيّة المعلومات التي يمكن أن تكون دليله في بحثه عن الذئب وإنديانا. هكذا وهي أمام عينيه، طوال الوقت خطر له شيء. كان يعرف، لأنّ هذا حدث معه في عدة مناسبات، أنّ فرط المعلومات والضغط لحل مشكلة ما في مدّة

زمنية قصيرة عادة ما تُعيقُ عن التفكير بوضوح. وفي هذه الحالة كان هذا يضاف إلى الضيق الذي كان يشعر به. كان يُقارن نفسه بجرّاح مكرهٍ على إجراء عمنية خطيرة لكائن عزيز. حياة إنديانا تتعلق بمهارته. ومع ذلك كان يثق بغريزته، غريزة الصياد، كما كان يُسمّي ذلك الجزء من دماغهِ، الذي يسمح له بأن يكتشفَ الآثار الخفيّة، يتنبّأ بالخطوات التي خطتها وستخطوها فريستُهُ. يتخطى الاستنتاجات التي لا تعتمد على أسس المنطق ويصيب دائما تقريبا. كانت اللوحة أمامه تفيده في الربطِ بين مختلف جوانب التحقيق، لكنها كانت تفيده على الأخص كي يُنشِطَ غريزة الصياد تلك.

منذ أن بدأت ابنته تتكلّم عن قاتل على التسلسل اجتمع عدة مرات مع أطبّاء نفسيين شرعيين من قسًمه لدراسة حالات مشابهة وقعت في العشرين سنةِ الأخيرةٍ وبخاصّة في كاليفورنيا. لم تكن هذه الطريقة من القتل المنظّم عفويّةً وتعود إلى تخيلات متكرّرة راحت تتشكل عبر سنوات إلى أن يأتي شيء ويُطلق قرارَ التنفيذ. بعضهم كان يريد أن يُعاقِب مثليين أو عاهراتٍ وآخرون كانت تدفعهم الكراهية العنصرية أو نوعُ من أنواع التعصّب، لكنّ ضحايا الذئب كانوا من الاختلاف بحيث بدا أنّ الاختيار كان يتمّ بالمصادفة. تساءلوا ما قناعات الذئب وما الصورة التي كان يملكها عن نفسه، هذا إذا كان يعتقد نفسه ضحيّة أو مُنتقِماً. كلّنا أبطال في قصّتنا الذاتية. ما قصّة الذئب؟ للإيقاع به على المُفتِّش أن يُفكر مثله، أن يتحوّل إلى الذئب.

أعلنت بِّترا هورّ عند الظهيرة أنّها لم تعثر على إشارة واحدة تدلّ على وجود كارول أندووتر. لم يكن هناك إجازة قيادة سيارة، ملكية، بطاقة اعتماد، حساب مصرفي، هاتف أو وظيفة تحت هذا الاسم، كما أنّها لم تظهر مسجّلة كمريضة سرطان في أيّ مستشفى أو عيادة في منطقة خليج سان فرانسيسكو وضواحيها. كيف كانت تتواصل مع إنديانا؟ يمكن أن يكون له مدخل على حاسوب إنديانا محا الرسائل الإلكترونية بالطريقة ذاتها التي أدخل فيها مشهدَ الذئب، أو أنهم

فقط كانا يتحدثان بالهاتف. وبما أنّهم لم يعثروا على جوّال إنديانا طلب بوب مارتين على الفور أمراً قضائياً كي تقوم شركة الهاتف بتعقب مكالمات ذلك الرقم، لكنّ هذا سيتأخّر يومين. صارت كارول أندرووتر، التي رآها عدد لا بأس به من الأشخاص في الأشهر الأخيرة، شبحاً.

ما من أحد تفضّل وأخبرَ ثِلِسْتِ روكو بأنّ إنديانا قد اختفت. علمت بذلك بعد عدّة أيّام من خلال مكالمة هستيرية من صديقتها إنكارناثيون، التي كانت قد فاوضت يهودا تاديوس كي يعثر لها على أمّ حفيدتها. "ألم تري إنديانا في التلفزيون؟، مسكينتي أماندا! لا تعرفين كم أثّر هذا على الصغيرة، تكاد تفقد عقلها، تعتقد أنّ الذي اختطف أمها رجلٌ ذئب -حكت لها إنكارناثيون.

ثِلِسْتِ التي كانت قد رأت قبل أسبوعين صورة ريان ميلرْ في التلفزيون حضرت إلى قسم جرائم القتل، عازمة على التحدّث إلى رئيس المفتّشين وحين حاولت بِترا هور أن تمنعها سحقتها على الجدار بدفعة واحدة. الاحترام الكبير الذي كانت تشعر به تجاه التنجيم منعها من استخدام معرفتها بالفنون العسكرية لإيقافها. اندفعت روكو في مكتب بوب كارتين وهي تهزّ بيديها محفظة ورق على بعد ميليمترات قليلة من أنفه، وكانت تحتوي على رسالتين فلكيتين ومختصر لقراءة مقارنة بين الاثنتين قامت بها توّاً.. وضّحت له أنّها خلال سنواتها الطويلة التي كرّستها لدراسة النجوم وعلم النفس البشري بحسبِ مدرسةٍ كارل غوستاف جونغ، لم يحدث أن رأتِ شخصين متوافقين نفسياً مثل إنديانا جاكسون وريان ميلر. كانا معاً في حيوات سابقة. ودون أن تذهب بعيداً كانا حديثاً أمّاً وابناً ومكتوباً عليهما أن يلتقيا وينفصلا إلى أن يستطيعا أن يحلا صراعهما الروحيّ والنفسيّ. في هذا التقمّص كان لديهما فرصة حقيقيّة لكسر هذه الحلقة.

- غير معقول! -ردّ الشرطيُّ منزعجاً من الاقتحام.

- هكذا. أنبّهك، يا بوب، لأنّه إذا كانت إنديانا وريان قد هربا معاً، كما يجب أن يكون قد حدث، لأنّه مكتوب في تشكيل النجوم، وأنت إذا حاولت أن تفصل بينهما ستدنّس كارماك بشكل خطير.

- إلى الشيطان بالكارم! أحاولٍ أن أقوم بعملي وتأتين لتزعجيني بحماقاتك. إنديانا لم تهرب مع ميلرْ، خطفها الذئب -صرخ بوب مارتين وقد خرج عن طوره.

لأوّل مرّة منذ زمن طويل ثِلستِ روكو تبقى مصعوقة لا تعرف بماذا تجيب. عندما استطاعت أن تقوم برد فعل وضعت الرسالتين في المحفظة استعادت حقيبتها الجلدية وتراجعت موازنة نفسها على الكعبين العاليين.

- تراك تعرف إلى أيٍّ برجٍ فلكي ينتمي الرجل الذئب؟ -سألته بوجل من الباب.

افتحي عينيك، يا إندي، حاولي أن تُركزي انتباهَكَ على ما أقوله لك. انظري، إجازة قيادة السيارة هذه من العام 1985، الصورةٍ الوحيدة لأمّي، إذا كان هناك أخرى فقد مزّقتها، كانت حذرة جدّاً من ناحية خصوصياتها. أيضاً لا يوجد صور أخرى سابقة على الحادية عشرة. هذه الصورة سيئة جدا، الجميع يبدون مجرمين في صور إجازاتِ القيادة. تظهر أمّي بدينة ومهملة لنفسها، على الرغم من أنّها لم تكن كذلك. كان عندها عدّة كيلوغرامات زائدة، هذا صحيح، لكنّه لم يكن لها وجهُ المجنونة هذا قط، وكانت دائماً تمضي في غاية الترتيب دون أن يكون هناك شعرة واحدة في غير مكانها. كانت مهووسة بهذا ثمّ إنّ عملها كان يتطلّب ذلك. العادات التي لقنتني إيّاها قادت حياتي: نظافة، تمارين، طعام صحي، لا تدخين ولا شرب كحول أبدا. في صغري لم يكن بمقدوري أن أخرجَ لأمارس الرياضة، مثل أطفال آخرين، كان عليّ أن أبقى في البيت، لكنّها علّمتني فوائدَ الرياضة وما زالت هذه أوّل ما أُفعله حين

أستيقظ. سرعان ما سيكون عليك أن تقومي ببعض التمارين، يا إنديانا، عليك أن تتحرّكي، لكن سننتظر حتى يتوقّف نزيفك وتستعيدي توازنك.

كان لي أفضل أمّ يمكن أن توجد، متفرّغة لي تماماً، تعبدني ترعاني، تحميني. ماذا كان سيحل بي لولا هذه المرأة القديسة. كانت لي أمّاً وأباً. كانت تحكي لي في الليالي بعد العشاء وبعد مراجعة واجباتي قصّةً، كنّا نصلي وبعدها تدثّرني في السرير، تُقبّلني على جبيني وتقول لي إنّني طفلتها الجميلة والطيبة. كانت في الصباح وقبل أن تذهب إلى العمل تدلني على ما يجب أن أدرسه، ثمّ تودّعني بعناق شديد، كما لو أنّها تخاف ألا نعود ونلتقي، وإذا لم أبكِ تعطيني حبة سكاكر. "سأعود سريعاً، أحسني التصرف، يا حبيبتي، لا تفتحي الباب لأحد ولا تردّي على الهاتف ولا تحدثي ضجة لأنّ الجيران بدؤوا يثرثرون وأنت تعرفين كم الناس سيّئين. كانت الإجراءات الأمنية لصالحي، ففي الخارج توجد مخاطر لا تُحصى، جرائم، عنفٌ، حوادث، جراثيم، لا يمكن الثقة بأحد، هذا ما علمتني إيّاه. كان النهار يطول عليّ. لا أتذكر كيف كنتُ أُمضي الساعات في سنوات عمري الأولى. يبدو أنّها كانت تتركني في زريبةٍ أو مربوطة من خصري إلى قطعة أثاثٍ، مثل كلبٍ صغير، تفادياً لإيذائي لنفسي وتترك لي ألعاباً وطعاماً في متناول يدي، لكن ما إن بدأتُ أستخدم عقلي حتى ما عاد هذا ضرورياً، لأنّني تعلمتُ أن أتسلى وحيدة. كنتُ في غيابها أنظفُ الشقةَ وأغسلُ الملابس، لكنّني لا أطبخُ لأنّها كانت تخاف عليّ من أن أجرح أو أحرق نفسي. أيضاً كنتُ أشاهدُ التلفزيون وألعبُ، لكنّني كنتُ أعمل واجباتي قبل كلّ شيء. كنتُ أدرس في البيت، فأمي كانت مُعلّمة جيّدة ورحتُ أتعلمُ بسرعة وهكذا حين ذهبت إلى المدرسة أخيراً كنتُ أفضلَ إعداداً من الأطفال الآخرين. لكن هذا حدث لاحقاً.

هل تريدين أن تعرفي كم مضى عليكِ هنا؟ لا يكاد يصلُ إلى خمسة نهاراتٍ وست ليالٍ، وهي ليست شيئاً في عمر الإنسان، خاصّة إذا كنتِ

قد قضيتها نائمةً. اضطررتُ لأن أضعَ لك فوطات. في البدايةٍ كان من الأفضل أن تنامي، لأنّ الخيار الآخر كان الإبقاء عليك مقيّدة وقلنسوة في رأسك، مثل سجناء غوانتانامو وأبو غريب. العسكر يعرفون كيف يصنعون الأشياء، القلنسوة خانقة، هناك ناس يُجنون منها والقيود مزعجة جدّاً، تنتفخ الأيدي وتزرقّ الأصابعُ يدخل المعدن في المعصمين وتلتهب الجراحُ أحياناً: بالإجمال: ورطة. أنت لست في وضع يسمحُ لك بتحمّل كلّ هذا ولا أنوي أن أجعلك تتعذّبين أكثر مما هو ضروريّ، لكن عليك أن تتعاوني معي وتُحسني التصرّف. هذا هو الأنسبُ.

كنتُ أحدّثكِ عن أمّي. قالوا إنّها معتوهة وتُعاني من عقدة المُلاحقةِ، وإنّها لذلك تُبقي عليّ محبوسة ونعيش هاربتين. ليس صحيحاً. كانت لأمي أسبابٌ جيّدة كي تعمل ما كانت تعمله. كانت تسحرني تلك الأسفارُ، محطاتُ المحروقات، الأماكنُ التي نتوقفُ فيها لنأكل، الطرق السريعة الأبديّة، المناظر المختلفة. كنّا ننام أحياناً في فنادق الاستراحات، وأحياناً أخرى نُخيّم. يا لها من حرّية! كنّا نسافر دون مخطط، ونتوقف في أيّ مكان، وإذا ما أعجبتنا بلدة نبقى فيها زمناً ونقيم كيفما استطعنا بحسب ما معنا من نقود، في البداية في غرفة، ثم وما إن تعثر على عمل ننتقل إلى شيء أفضل. كان بالنسبة إليّ سيّان المكانِ الذين نكون فيه. كل الغرف كانت تتشابه. كانت أمّي تحصل دائماً على عمل، يدفعون لها جيّداً وكانت مرتّبة جداً، تُنفق قليلاً، توفر، وهكذا كانت دائماً جاهزة عندما يكون علينا أن نرحلَ إلى مكان آخر.

في تلك اللحظات ذاتها كان لاعبو لعبة *نازع الأحشاء* يطرحون أسئلةً جديدة. كانت مُعَلمةُ اللعب قد أبلغتهم بكلّ تفصيل من تحقيق الشرطة وآخر ما كان بين أيديهم هو لغز كارول أندرووتر، التي كانت أماندا مدينة لها بسالبِ إل أتون

— يبدو لي شيئاً غريباً أن تكون هناك شكوى ضدّ ريتشارد أشتون لإساءته معاملة طفل في عام 1997 وأخرى ضدّ إدْ ستيتون في عام 1998. أرسلت مأموري كي يقوم ببعض التحقيقات —قالت أماندا.

- لم أبغِ أن أزعجَ رئيس المُفتّشين الذي كان مشغولاً حتى قمة رأسه، لكن ساعدتني جِزابل، التي تستطيع الدخول إلى كلّ أنواع المعلومات، لا أعرف كيف تفعلين ذلك، يا جِزابل، لا بدّ أنّك خبيرة هكرُ وقرصانة معلوماتية من النوع الأوّل...

- هل لهذا علاقة بموضوع النقاش، أيّها المأمور —سألت إسمِرالدا.

- عفواً. المُعَلّمة فكّرتْ أنّ هناك ارتباطاً بين الشكوَيَيْن وبفضل جِزابل تبيّن أنّ هناك فعلاً ارتباطاً، ثم إنّ هناك ارتباطاً بالقاضية راشيل روسين. كلتا الشكويين قُدِّمتا إلى محكمة الأحداث من قبل مساعدة اجتماعية وتتعلقان بالطفل ذاته، طفل يُدعى لي غالِسبي.

- ماذا يُعرفِ عنه؟ —سألت إسمِرالدا.

- كان يتيماً —قالت دِنيس ويست بدورها كجِزابل، وهي تقرأ الورقةٍ التي أعطاها لها ميلرْ— مرّ ببيوتٍ استقبال عديدة، لكن فيها جميعاً حدثت معه مشاكل. كان صبيّاً صعباً شُخّص عنده اكتئاب، وتخيلاتٍ هاذية، ونفور اجتماعي. عيّنوا له ريتشارد أشتون طبيباً نفسيّاً، فعالجه لبعض الوقت، لكنّ المساعدة الاجتماعية قدّمت شكويٍ ضدّه لاستخدامه الصدمة الكهربائية. كان غالِسبي طفلاً خجولاً، مصدوماً، ضحية الصبية القساة في المدرسة، أولئك العنيفين الذين لا يخلو منهم مكان. في الخامسة عشرة من عمره اتُهم بإحداث حريق في أحد حمامات في المدرسة، حيث الصبية الَذين كانوا يزعجونه. ما من أحدٍ أصيب بأذى، لكنّهم أرسلوا غالِسْبي إلى إصلاحية. 405

- أظّن أنّ راشيل روسين هي من حكمت عليه وأنّ الإصلاحية كانت بويز كامب في أريزونا، حيث كان إدْ ستيتون —تدخّل شارلوك هولمز.

- أحسنت التفكير —قالت جِزابلٍ—. المساعدة الاجتماعية ذاتها اشتكت على إدْ ستيتون لتماديه جنسيا مع لي غالِسبي، لكنّ روسن من تُخرجه من البوي كامب.

- هل نستطيع أن نتكلّم مع هذه المساعدة الاجتماعية؟ -سألت إسمِرالدا.
- اسمها أنجِليكِ لارسون. متقاعدة وتعيش في ألاسكا، حيث حصلت على عمل كمعلّمة -أخبرتهم جِزابِل.
- لذلك وُجِدِ الهاتف. يا مأموري، احصل لنا على هاتف هذه السيّدة -أمرت المعلمة.
- لن يكون ضروريّاً. إنّه معي -أعلنت جِزابِل.
- رائع. لماذا لا نهتف لها؟ -سألت إسمِرالدا.
- لأنّها لن تُجيبَ على أسئلة مجموعة من الصبية، مثلنا. سيكون الأمر مختلفاً إذا ما هتفت الشرطة -قال الكولونيل بادينغتون.
- لا نخسر شيئاً من المحاولة. من سيجرؤ؟ -سألت أباثا.
- أنا أجرؤ، لكنّني أعتقدُ أنَّ صوتَ جدّي، أعني وقعَ صوتِ كابِلْ، سيكون أكثرَ إقناعاً. هيّا، يا مأموري. اهتف لها وقلْ لها إنّك من الشرطة. حاول أن تتكلم بنبرة سلطة.

بلاك جاكسون، غير الراغب بأن يمّرر نفسه كشرطيّ، الأمر الذي ربّما لم يكن شرعياً، قدّمَ نفسَهُ ككاتب، نصف كذبة، لأنّه كان يُخطط بجدّية لتحقيق حلم حياتِهِ ويصير روائيّاً. أخيراً صارَ عنده موضوع: الذئب، كما اقترحت عليه حفيدته. حدث أنّ كانت أنجِليك لارسون امرأة منفتحة ولطيفة إلى حدّ جعل المأمورَ يأسفِ لأنّه خدعها، لكنّ الوقتَ تأخّر كي يتراجع. كانت المرأة تتذكر جيّداً لي غالِسبي. لأنّها بقيت عدّة سنوات مسؤولة عنه وكانت قضيته من أهمّ القضايا في حياتها المهَنِيّة. تكلمت مع بلاك جاكسون خمساً وثلاثين دقيقة. حكت له ما تعرفه عن غالِسبي وقالت إنّها لم تسمع عنه شيئاً منذ عام 2006، لكنّهما قبل هذا التاريخ كانا يتواصلان دائماً في عيد الميلاد. ودّعت أنجِليك وبلاك كلّ منهما الآخرِ كصديقين قديمين. وعرضت أن تعود وتتكلم متى يشاء وتمنت له حظاً جيداً مع روايته.

كانت أنجِليك لارِسون تتذكّر بالتفصيل انطباعَها الأوّلَ عن لي غالِسبي وكانت كثيراً ما تراجع هذا الانطبَاع في عقلها، لأنّ ذلك

الطفل استطاع أن يمثل خلاصة عملها كمساعدة اجتماعية بكلّ خيباتها ولحظات رضاها النادرة. مئات من المخلوقات من أمثال غالِسبي أنقذتهم الخدمةُ من وضع مريع وبعدٍ وقت قصير كانوا يعودونٍ وهم في ظروف أسوأ، أكثر تأذّياً وأقل أملاً وفي كلّ مرّة أكثر انغلاقاً إلى أن يتموا الثامنة عشرة ويفقدوا الحماية القليلة التي كانوا تلقوها ويُرمى بهم إلى الشارع. كلّ أولئك الأطفال كانوا يُصهرون بالنسبة إلى أنجِليك في غالِسبي ويمرون بمراحل مشابهة: جبنٍ، ضيق، حزن ورعبٍ يتحوّل مع الزمن إلى تمرّدٍ وحنق ثم أخيراً إلى استهتّار أو بًرودة وعندها لا يعود يوجد ما يمكن فعله وًتضطر لوداعهم بإحساسٍ من يرمي بهم إلى الوحوش.

وضّحت لارسون لِبلاك جاكسون أنّه في صيف عام 1993 عانت امرأة من نوبة قلبية في موقف للحافلات، وخلال البلبلة التي حدثت في الشارع سرق منها أحدهم محفظتها قبل أن تصل الشرطة وسيارة الإسعاف. أُدخِلت إلى المشفى العام في سان فرانسيسكو، فاقدة الوعيَ وفي حالة خطيرة وبلا وثائق. بقيت المرأة في حالة غيبوبة ثلاثة أسابيع قبل أن تُتوفّى بنوبة قلبية ثانية شاملة. وما إن تدخّلت الشرطة حتى عرفوا هويتها، ماريون غالِسبي، واحد وستون عاماً، ممرضة مؤقتة في مشفى لاغونا هوندا، مقيمة في ديلي ستي في جنوب سان فرانسيسكو. حضر شرطيان إلى عنوانها، وهو بناءٌ متواضع لأناس منخفضي الدخل، وبما أنّه ما من أحدٍ ردّ على الجرس، استدعوا صانع أقفال، لم يستطع أن يفتح الباب لأنّه كان مغلقاً بمرتاجين من الداخل. أطلّ عدد من الجيران على الممر ليروا ما كان يحدث وهكذا علموا بوفاة المرأة التي شغلت تلك الشقة. لم ينتبهوا لغيابها، قالوا، لأنّه لم يمض على وجود ماريون غالِسبي في البناء إلا أشهر قليلة، لم تكن ودودةَ ولا تسلّم على أحد منهم تقريباً، حين تلتقي بهم في المصعد. سأل أحد الفضوليين أين كانت الابنة، ووضّح للشرطيينِ أنّ طفلة، لم يرها أحدٌ، لأنّها لا تخرج إلى أيّ مكان كانت تعيش أيضاً هناك . بحسبِ الأم كانت الطفلة تعاني

من مشاكل عقلية ومن مرض في الجلدِ يسوء مع الشمسٍ، لذلك لم تكن تذهبُ إلى المدرسة وتدرس في البيت، كانت جبانة جداً ومطيعة، تبقى هادئة بينما تذهب هي إلى العمل.

بعد ساعة جاء رجال الإطفاء ونصبوا سلّماً تلسكوبياً من الشارع، كسروا نافذة ودخلوا إلى الشقة وفتحوا الباب للشرطة. كان المسكن المتواضع مكوناً من صالون وغرفة نوم صغيرة ومطبخ أمريكيّ وحمام. وكان فيه الحد الأدنى من الأثاث؛ بالمقابل كانَ هناك عدد من الحقائب والصناديق ولم يكن فيها أشياء شخصية، باستثناء صورة ملونة لقلبِ يسوع المقدّس وتمثال جصّ صغير للعذراء مريم. كانت له رائحة مكان مغلق ويبدو غير مأهول، بحيث أنّه لم يكن هناك تفسير لكون الباب موصداً من الداخل. وجدوا في المطبخ بقايا أغلفة حبوب وعلب محفوظات وزجاجتي حليب وأخرى لعصير برتقال، جميعها فارغة. الشيء الوحيد الذي كان يدل على وجود الطفلة هو الثياب والدفاتر المدرسية، لم يعثروا على دمية واحدة. كان الشرطيان مستعدين للذهاب حين خطر لواحدٍ منهما أن يُلقي نظرة أخيرة على خزانة الملابس مبعداً ما بين الثيابِ المعلقة. هناك كانت الطفلة مختبئة تحت كومةٍ من الخرق، قابعةً مثل حيوان. حين رأت الرجلَ راحت تئن مذعورة بحيث أنّه لم يبغِ أن يخرجها من ملجئها بالقوّة وطلب مساعدة. وعلى الفور وصلت شُرطية، نجحت بعد برهةٍ طويلة من التوسّل في أن تقنع الصغيرة بأن تخرج. كانت متسخة، شعثاءَ الشعر وضامرةً تعلوها ملامحِ المجنونة وقبل أن تجعلها تخطو ثلاث خطوات اضطرّت الشرطيةُ لأن تسندها لأنّه أغمي عليها بين ذراعيها.

رأت أنجِليك لارسون لي غالِسبي لأوّل مرّة في المشفى بعد ثلاث ساعات من إنقاذها المأساوي من شقة ديليَ سيتي، كانت على نقّالة إسعاف موصولة إلى كيس مصل، نصف نائمة، لكنّها متيقّظة لكلٍّ من يقترب منها. قالت الطبيبةُ المقيمة التي استقبلتها إنّها كانت تبدو

مصابة بهزال الجوع، جافة، التهمت بسكويتاً، قشطةً، جيليه وكل الذي وضعوه أمامها، لكنّها تقيّأته على الفور. وقد دافعت عن نفسها على الرغم من ضعفها مثل قطّة شرسة حين حاولوا أن يخلعوا لها ملابسها كي يفحصوها، وقرّرت الطبيبة أن الأمرّ لا يستحق استخدام العنف معها، وكان من المفضّل أن ينتظروا حتى تؤدي المهدّئات التي أعطوها لها مفعولها. علّقت قائلة لِلارسون إنّها كانت تزعق إذا ما اقترب منها رجل. أخذت المساعدة الاجتماعية يدَ الطفلة، وضّحت لها من تكون ولماذا هي هناك وأكّدت لها أن لا شيء عليها أن تخافَهُ هناك وأنّها ستبقى إلى جانبها كل الوقت الضروري، إلى أن تصل عائلتها. "أمّي، أريدُ أمّي" كانت تردّد الطفلةُ، وأنجِليك لارسون لم يُطاوعها قلبُها كي تقول لها في تلك اللحظة إنّ أمّها ماتت. كانت لي غالِسبي تنام بعمق عندما خلعوا عنها ملابسها كي تستطيع الطبيبة أن تفحصها. عندها تبيّن لهم أنّها طفل.

أُدخل غالِسبي في قسم الأطفال في المشفى، بينما راحت الشرطة تحاول عبثاً أن تعثر على أحد أقربائه. بدا وكأنّ ماريون غالِسبي وابنها قد خرجا من العدم، لم يكن عندهما أسرة ولا ماض ولا جذور. كان الطفل يُعاني من الأكزيما ذاتِ الأصل التحسّسي ومن داء الثعلبة العصبي وبحاجة إلى معالجة سنّية وهواء وشمس وتمارين، لكنّه لم يكن عنده ما يدلّ على أنّه يُعاني من مرض جسدي أو عقلي كما كان يَعْتقدُ جيرانه في ديلي سيتي. سجلُّ الولادةِ المؤرّخ في 23 تموز 1981 كان يشير إلى أنّ الولادة تمت في البيت في فرسنو، في كاليفورنيا، الجنس ذكر، العرق قوقازي، كان يزن 3,2 كغ ويبلغ طوله 50 سم.

في كانون الثاني من عام 1994 سلّمَ الدكتور ريتشارد أشتون أول تقييمٍ نفسي عن لي غالِسبي. كان التطورِ الجسدي للطفل متناسباً مع سنّ البلوغ، عامل الذكاء أعلى قليلا من العادي، لكنّه محدود بمشاكل عاطفية واجتماعية جدّية. كان يُعاني من الأرقِ والإدمان على

المهدّئات، التي كانت أمّه تبقي عليه من خلالها هادئاً كي يتحمّل الحبس. كلّفهم قصُّ شعره وإلباسه ثيابَ ذكر معركةً، كان يُصرّ على أنّه طفلة وأنّ الأطفال أشرار. كان يشتاق لأمّه، ويبول في السرير ويبكي كثيرا، يبدو دائماً مرعوباً وخاصّة من الرجال ولذلك كانت علاقة المعالج-المريض عنيفة واضطرّوا للجوء إلى التنويم المغناطيسي والمخدرات. ربّته أمّه محبوساً في البيت وبلباس طفلة، علّمته أنّ الناس خطرون وأن العالم سينتهي في المستقبل القريب. كانا يبدلان مسكنهما باستمرار، ولم يكن الطفل يتذكر أو يعرف في أيّ مدن عاش. فقط يتذكّر أنّ أمّه كانت تعملُ في مستشفيات وإقامات العجزةً وتبدّل عملها، "لأنّه كان عليهما أن يرحلا" ولكي يختم الطبيب النفسي تقريرَهُ أشار إلى أنّ المريض لي غالِسبي ونظراً للأعراض البادية عليه يحتاج للمعالجة بالصدمات الكهربائية.

وضّحت المساعدة الاجتماعية للمحكمة أن المعالجةَ النفسية جاءت في النهايةِ بنتائج عكسية، لأنّ الطفل كان يرتعب خوفاً من الدكتور أشتون، لكنّ القاضية راشيل روسين التي لم تطلب استشارةً ثانية أمرت بمتابعة العلاج وأن يوضع غالِسبي في مأوى ويذهبَ إلى المدرسة. في تقرير يعود لعام **1995**، أشارت أنجِليك لارسون إلى أنّ الصبيّ طالبٌ جيّد، لكن ليس عنده أصدقاء، كانوا يسخرون منه لأنّه مُخنّث والمعلمون يعتبرونه غير متعاون. في الثالثة عشرة من عمره انتهى إلى بيت ميشيل ودوريس كونستانت.

أعرف أنّكِ عطشى، يا إندي. ومكافأة على حسن تصرّفك سوف أعطيك عصيرَ برتقال، لا تحاولي أن تنهضي، مصّي القشّة. هكذا. أكثر؟ لا، يكفي كأس حالياً، سأعطيك المزيدَ قبل ذهابي، ما دمت تأكلين ما آتيك به، فاصوليا مع الرز، تحتاجين لاستعادة قواك. إنّك ترتعشين، لا بدّ أنّك مثلجة، هذا المكان رطب جدّاً هناك أقسام غارقة، لأنّ الماء يرشح من الأرض. من يدري كم ساعة مضى عليك وأنت نصفُ

ميتة من البرد. تركتكِ مدثّرة جيّداً بعدد من البطانيات بل وألبستكِ جوربين صوفيين، لكنّك بدأت تتحرّكين واستطعت أن تزيحي الغطاء عنك. عليك أن تبقي هادئة في غيابي، لن تحصلي على شيء بتحرّكك، السيور قوية لن تستطيعي مهما حاولت أن تفلتي منها. لا أستطيع أن أراقبك طوال الوقت، عندي حياتي هناك في الخارج، كما يمكنك أن تتصوّري. شرحتُ لك الوضعَ مرّات عدّة، لكنّك لا تعملين بما أقوله لكِ أو أنّكِ تنسين. أُكرّر عليك أنّه ما من أحد يأتي إلى هنا، نحن في قفر وهذا المكان مهجور منذ سنوات طويلة، العقار مُسَيّج ومنيع، لو لمْ تكوني مكمومةً لاستطعتِ أن تصرخي حتى يبح صوتك ولن يسمعك أحد. ربّما أنك لا تحتاجين للكمامة، لأنّني أرى أنّك خرساء، مثل أرنب، لكنّني لا أريدُ أن أخاطر. بماذا تُفكرين؟ خير لك أن تستبعدي كلّ وهم بالهرب، إذا كان هذا ما تُفكرين به، لأنّه في الحالة غير المحتملة لأن تستطيعي أن تنتصبي على قدميك، سيكون من المحال عليك الخروج من هنا. جدران هذه الغرفة هي أربع قطع قماش سوداء، لكنّها في قبو هائل منِ الإسمنت المسلح والأعمدة الحديدية. الباب أيضاً من حديد وأنا أتحكم بالقفل.

أنت مخدورة أكثر من اللازم، ربّما أنّكِ أكثر مرضاً مما أتصوّر، قد يكون بسبب كمية الدم التي فقدتها، ما بك، يا إنديانا؟ تراك ما عدتِ تخافين؟ هل استسلمتِ؟ يزعجني صمتُك، لأنّ الغاية من وجودك هنا هو أن نستطيع أن نتكلم ونتفاهم. تبدين كاهنا من كهان التبت أولئك الذين يهربون من العالم من خلال التأمّل؛ يقولون إنّ بعضهم يستطيع التحكم بالنبض، الضغط، ضرباتِ القلب بل ويستطيعون أن يموتوا بإرادتهم. ترى هل هذا صحيح؟ هذه هي فرصتُك كي تُطبّقي الطرقَ التي تنصحين بها مرضاك: التأمل، الاسترخاء، أي رطانة العصر الجديد الذي يعجبك كثيراً. أستطيع أن آتيك بمغناطيسات وعطور للمعالجة إذا أردت. وبما أنّك تتأمّلين استفيدي كي تُفكري لماذا أنت هنا، كم أنت نزوية وشريرة. أنت

نادمة، أعرف، لكن تأخّر الوقت كي تتراجعي، تستطيعين أن تعديني بأنك تفهمين أخطاءك وسوف تصححينها، تستطيعين أن تعديني بما يحلو لك، لكنّني سأكون أبله إن صدّقتك. وأؤكّد لك أنّني لست كذلك.

الخميس، 5

قرّر لاعبو لعبة *نازع الأحشاء* بعد أن سمعوا بقيّة قصّةِ لي غالِسبي، بالإجماع أن يُخبروا رئيس المفتّشين باكتشافهم. في ساعةٍ الصباح الأولى دقت أماندا رقم جوّال أبيها وعندما لم تلقَ جواباً، هتفت لِبِّترا هورّ، التي وضّحت لها أنّ شرطيّي مكتب المخابرات الفيدرالية دَعيا كل القسم لاجتماع.

- يعتقِدون أنّنا نخرّب عليهم عملهم بقضيّة ميلرْ. ضيعا وقتهما دون أن يُحققا شيئاً. نصحتهما أن يستغلا الوضعَ كي يسوحا فأخذا كلامي مأخذ سوء. إنّهما ثقيلان جدّاً -قالت بِترا.
- ربّما ذهب ميلرْ إلى أفغانستان. دائماً كان يتحدّث عن دَيْن، وعدِ شرفٍ عالق في ذلك البلد -ارتأت أماندا بهدف تضليلها.
- يريدوننا أن نبحث عن ميلرْ وكأنّه ليس عندنا شيء آخر نفعله. لماذا لا يعثرون عليه هم. لذلك هم يُراقبون العالم كلّه. ما عاد يوجدُ خصوصيّة في هذا البلد اللعين، يا أماندا، في كلِّ مرّة تشترين شيئاً تستخدمينَ هاتفك، الشبكةَ العنكبوتية، أو بطاقةَ الاعتماد، وفي كلّ مرّة تُمخّطين تخلفين أثراً وتعرفُ به الحكومة.
- هل أنتِ واثقة؟ -سألتها أماندا مستنفرةً، لأنّه إذا علمتِ الحكومةُ وأبوها بأنّها تلعب لعبة *نازع الأحشاء* مع ريان ميلر ستنتهي إلى السجن.
- قولي لأبي أن يهتفَ لي لأمرٍ مستعجل ما إن يخرجَ من الاجتماع.

هتف بوبْ مارتين لابنته بعد عشرين دقيقة. في الأيّام الأخيرة نام بشكلٍ متقطع على أريكةِ مكتبه وتغذّى على القهوةِ والشطائر ولم يملك وقتاً للذهاب إلى الرياضة، كان يشعر بجسدِهِ متخشّباً، كما لو أنّه في درع وكان منزعجاً إلى حدّ أنّ الاجتماع انتهى بالصراخ. كان يكره لورين باركوت، تلك المرأة المعذّبة وكان نابليون هذا يُخرجهُ عن صوابه بنزواته. صوت أماندا، الذي كان ما يزال يملكُ القدرة على أن يؤثر به كما كانت تؤثّر به يوم كانت صغيرة، هدّأ قليلاً من سوء مزاجه.

- هل كنتِ تريدين أن تقولي لي شيئاً؟ -سأل ابنتَهُ.

- أولاً أعطني أخبارك.

- عندنا مقطورة فاركاس في المستودع منذ كانونٍ الأوّل لكن أحداً لم يفتشها. هناك أولويات أخرى في القسم. حللنا محتوى زجاجة الجين التي كانت في داخله والنتيجة أنّ يحتوي على الكساناكس. هل تعرفين ما الشيء الآخر الذي عثرنا عليه، يا أماندا.

- ذئب دمية -ردّت هي.

- ألبوم صور للأماكن التي كان فيها الزوجان فاركاس. سافرا في عدد من الولاياتِ قبل أن يستقرّا في كاليفورنيا. وكان هناك بطاقة بريدية مهمة موقّعة من شقيق جوي بتاريخ 14 تشرين الثاني من العام الماضي، يدعوهما كي يلتقوا في سان فرانسيسكو في كانون الأوّل.

- ما المهمّ في ذلك؟

- نقطتان. أوّلاً صورة التي على البطاقة هي صورة ذئبٌ. ثانياً: يؤكّد شقيقُ جوي أنّه لم يرسلها قط.

- أي أنّ الذئب واعدهما كي يقتلهما.

- أكيد، لكن هذه البطاقة ليست كافية كدليل، لا تقاوم أدنى فحص.

- أضِف إليها الكساناكس والقمر البدر.

- لنقل إنّ الذئبَ حضر إلى المقطورة بذريعة ما، وبالتأكيد حمل إليهما زجاجة الكحول هدية لأنّه كان يعرف أنّهما يشربان. الجين

كان يحتوي على المخدّر. انتظر حتى انهارا وفتح صمّام الغاز قبل أن يُغادر. ترك الزجاجة كي يبدو أنّه حادث حدث لزوجين من السكارى نموذجي، وهذا تماما ما افترضته الشرطة.

- هذا لا يُقرِّبنا من الذئب، يا أبي. بقي أمامنا تسع وثلاثون ساعة لإنقاذ أمّي.

- أعرف، يا بنيتي.

- أنا عندي لك أخبار أيضاً —قالت له أماندا بتلك النبرة المتعالية التي اعتاد أن يحترمها في الأسابيع الأخيرة.

لم تُخيب أخبارُ ابنة رئيس المُفتِّشين أملَهُ. هتف على الفور لمديرة حماية الطفولة فأرسلت له هذه ملفّ لي غالِسبي الذي سبق وأعدته أنجِليك لارسون خلال السنوات السبع التي كانت فيها مسؤولة عن الصبيّ.

في ورقة منفردة مكتوبةٍ بخط اليدِ رأت المساعدة الاجتماعية أنّ لي غالِسبي قد عانى كثيرا وأنهم في الخدمة الاجتماعية خيّبوا مثل بقيّة الناس الذين كان يجب أن يُساعدوه، أملَهُ مرّة بعدٍ أخرى، هي نفسها كانت تشعر بأنه كان بمقدورها أن تفعل شيئاً قليلا لأجله. الشيء الوحيد الجيّد الذي حدث للي غالِسبي في حياته المأساوية كان ضمان الحياة بقيمة مئتين وخمسين ألف دولار التي تركتها له أمّه. حدّدت محكمة الأحداث، مبلغاً ائتمانياً وأنَّ باستطاعته أن يقبض نقوده في الثامنة عشرة من عمره.

كي أرفع من معنوياتك أحضرتُ لك شوكولاتة، ذاتها التي كان يهديها إليك كِلْر. خلطة غريبة، شوكولاتة مع الشطة. السكر مُضر ويُسَمّن، على الرغم من أنه لا يهمّك أن تزيدي بضعة كيلوغرامات، تظنّين بأنّها مثيرة، لكنّني أحذّركِ من أنها في الأربعينِ تتحول دائما إلى بدانة. الآن تستظرفين كيلوغراماتك. أنت حلوة جدّا. لا أستغرِبُ أن يفقد الرجال رؤوسهم لأجلك، يا إنديانا، لكنّ الجمال ليس مَلَكَة، كما في قصص الجنّ، هو لعنة، تذكري أسطورة هيلين طروادة، التي

تسببت بحرب مريعة بين الإغريق. دائماً تنقلب اللعنةُ على الجميلة، مثل مارلين مونرو، الرمز الجنسي بامتياز، المكتئبة ومدمنة المخدرات التي ماتت مهجورة ومرّت ثلاثة أيام حتى طالب أحدهم بجثتها. أعرف كثيرا عن هذا، النساء المشؤومات يَسحرنني ويُنفرنني، يجذبنني ويخفنني، مثل الزواحف. أنت معتادة على لفت الانتباه، على أنّكِ مدهشة ومرغوبة، فلا تنتبهين للمعاناة التي تُسبّبينها. النساء الغنّجُ، مثلك، اللواتي يمضين فالتات في العالم يُغوين ويُغرين ويُعذّبن أشخاصاً آخرين دونٍ أيّ شعور بالمسؤولية والشرف. ليس هناك ما هو أكثر رعباً من حب مصدود، أقول لك هذا عن تجربة إنّه عذابٌ مريع، موتٌ بطيء. هل تفكرين مثلاً بغاري بورنسفيك، ذلك الرجلُ الطيّب الذي عرض عليك حبّاً نزيهاً أو ريان كلِر، الذي مات لأجلك. ليس عدلاً. عليكِ أن تدفعي ثمن هذا، يا إنديانا. درستُك في هذه الأيام باهتمام، أولاً درستُ طبيعتك، لكن على الأخص جسدَكِ، الذي أعرفه بالتفصيل، بدءا من الندبة على ردفك وحتى تلافيف فرجك. بل ولقد أحصيت شاماتك.

بقي لي غِلسبي سنتين مع الزوجين كونستانت إلى أن اكْتُشِف في فحص طبيّ أنَّ عند الصبي حروقَ سجائر، وعلى الرغم من أن غالِسبي رفض أن يقول ما حدث له استنتجت أنجِليك لارسون أنّها يجب أن تكون طريقة من طرق الزوجين كونستان التعليمية، كي يعلموه ألا يبول في فراشه وسحبت الفتى من هناك لكنّها لم تنجح في سحب الرخصة من الزوجين كونستانت. بعد وقت قليل أُرْسِلَ غالِسبي إلى بويز كامب في أريزونا لمدة سنة. توسلت أنجِليك لارسون إلى القاضية راشيل روسين بأن تُعيدَ النظرَ بقرارها، لأنّ تلك المؤسسةٍ بنظامِها شبهِ العسكري والمعروفة بوحشيتها هي أقل ما يناسب طفلاً هشاً ومجروحاً مثل غالِسبي، لكنّ روسين تجاهلت حججها.

ونظراً لأنّ الرسائلَ المعدودة التي تلقتها من الصبيّ كانت مراقبة وشطبت بعض عباراتها بالأسود قرّرت المساعِدَةُ أن تذهب لتراه في أريزونا. لم يكونوا في بويز كامب يسمحون بالزيارات، لكنّها حصلت

على إذن من المحكمة. بدا لي شاحباً، هزيلاً ومنكمشاً وظهرت كدماتٌ وجروح على ذراعيه وساقيه، كانت برأي المستشار، وهو عسكريٌ سابق يُدعى إدْ ستيتون، طبيعية، لأنّ الصبية كانوا يُمارسون الرياضة في الهواء الطلق، ثمّ إنّ لِي غالِسبي كان يتشاجر مع رفاقه، الذين كانوا يكرهونه لأنّه كان نواحاً وبكّاءً، لوطياً. "لكن وكما أن اسمي إدْ ستيتون سأجعل منه رجلا"، أضاف المستشار. طالبت أنجلِيك أن يسمحوا لها بأنٍ تتكلم مع لي على انفراد، لكنّها لم تستطع أن تسحب منه شيئاً، كان يُجيب على كلّ الأسئلة وكأنه رجلٌ آليّ ليس عنده تذمّر. استجوبت ممرّضة الإصلاحيةٍ، وهي امرأة بدينة وثقيلة دم، عَلِمَت لارسون أنّ غالِسبي أعلن إضراباً عن الطعام بسببها، ولم يكن أوّل من استخدم هذه الحيل، لكنّه سرعان ما تراجع عندما اكتشف كم كان مزعجاً تلقي الطعام بالإكراه عبر أنبوبٍ في الحنجرة. كتبت لارسون في تقريرها أنّ لي غالِسبي في وضع مزرٍ جداً. "يبدو زومبيا" وتنصح بسحبه فورا من بويز كامب. ومن جديد صمّتْ راشيل روسين أذنيها عن طلبها. وعند ذلك صاغت شكوى شخصية ضدّ إدْ ستيتون، لم تُفد بدورها في شيء. أتمّ لي غالِسبي حكمه لمدة سنة في ذلك الجحيم.

عندما عادت لارسون إلى كاليفورنيا وضعته في بيت جون وإدغار فِرنوود، وهي أسرة إنجيلية استقبلته بالعاطفة التي ما عاد يتوقعها من أحدٍ. إدغار فِرنوود الذي كان يعمل في البناء، حوّله إلى مساعد له وبدأ الفتى يتعلم مهنة، أخيراً بدا أنّه عثر على مكان آمن في هذا العالم. خلال العامين اللاحقين حصل لي غالِسبي على علاماتٍ جيدةٍ في الثانوية وعمل مع فِرنوود. كان لطيف المُحَيّا، أشقر الشعر، قصيرا ونحيلا بالنسبة لفتى أمريكي بعمره، خجولاً ومنعزلاً، يتسلى بالقصص المصورة وألعاب الفيديو وأفلام العنف. سألته أنجِليك لارسون في إحدى المناسبات عمّا إذا كان ما يزال يعتقد أنّ "الصبية أشرار والفتيات أخيار"، لكنّ غالِسبي لم يعرف إلى ما كانت تُشير، فقد أغلقَ في ذاكرته على المرحلة التي أراد أن يكون فيها طفلة.

في الملف كان هناك عدة صور للي غالِسبي، آخرها التقطت في عام 1999 عندما أتمّ الثامنة عشرة وتخلت خدمة حماية الطفولة عن رعايته. قرّرت راشيل روسين أنّه ونظراً للمشاكل السلوكية التي أظهرها لن يتلقى أموال الضمان التي تركتها له أمّه حتى يُتمّ الواحد والعشرين من عمره. في ذلك العام تقاعدت أنجِليك لارسون وذهبت لتعيش في ألاسكا.

استنفر رئيس المفتّشين رجالَهُ للبحث عن لي غالِبسي وأنجِليك لارسون والزوجين فِرنوود.

أحضرتُ لك كوكاكولا، أنت بحاجة ماسّةٍ للسوائل وبعض الكافيين سيفيدك. لا تريدين؟ هيا، يا إندي، لا تكوني صعبة، إذا رفضتِ أن تأكلي وتشربي لأنّك تظنين أنّني أُعطيكِ مخدرات، فكّري قليلاً: أستطيع أن أحقنك بها، كما فعلتُ بالمضاد الحيوي، كان إجراءً جيّداً. خفضَ حرارتَك وخفّفَ نزفَكِ. سرعان ما ستستطيعين أن تخطي بعضَ الخطوات.

سأتابع قصتي، لأنّ من المهّم أن تعرفيني وتفهمي مهمّتي. هذه القصاصة من صحيفة تعود إلى الحادي والعشرين من تموز 1993. يقول العنوان: "طفلة حبستْها أمُّها تكاد تموت جوعاً" بعدها هناك فقرتان محشوّتان بالكذب. تقولان إنّ امرأة لم تُعرف هويتُها ماتت في المشفى دون أن تكشف عن وجود ابنتها، وبعد شهر اكتشفت الشرطة طفلة في الحادية عشرة من عمرها كان قد أُبقي عليها محبوسة طوال حياتها و... تقولان إنّهم وجدوا أنفسهم أمامٍ مشهدٍ مريع. كذب! كنتُ هناك وأُؤكّد لك أنّ كلّ شيءٍ كان نظيفاً ومرتّباً، ولم يكن هناك أيّ شيء مريع. ثمّ إنّه لم يكن شهراً، فقط ثلاثة أسابيع. والمسكينة أمّي لم تكن المسؤولة عمّا حدث. خانها قلبُها ولم تستعدِ وعيها قط، كيف كانت ستُوضّح لهم أنّني بقيت وحدي؟ أتذكر جيّداً ما حدث. هي خرجت في الصباح، كما كانت تفعلُ دائماً، تركتْ لي الغداءَ جاهزاً وذكرتني بأن أقفلَ البابَ بالمِغلاقين وألّا أفتح لأحد مهما كان

السبب. عندما لم تعد في الساعة المعتادة، فكّرتُ أنّها تأخّرت في عملها، أكلت صحن حبوبي بالحليب وبقيتُ أُشاهِد التلفزيون حتى نمت. استيقظت متأخرة جداً ولم تكن قد عادت بعد. عندها بدأت أخاف، لأنّ أمّي لم تتركني قط وحدي كلّ ذلك الوقت ولم تمضِ قط ليلةً في الخارج. انتظرتها في اليوم التالي وعيني على الساعة أُصَلّي وأُصلّي، أناديها بقلبي. كان عندي تعليمات منها بألا أردّ أبداً على الهاتف، لكنّني قرّرت أن أفعل في حال الإصرار، لأنّه إذا كان قد حدث شيءٌ لأمّي، لا شكّ ستهتف لي، لكنّها لم تهتف، كما لم تعد ليلاً ولا صباح اليوم التالي؛ هكذا راحت تمرُّ الأيّام، التي كنتُ أعدها يوماً بيوم في التقويم، الذي كان ملصقاً عندنا على البرّاد. نفد كلُّ ما عندي من طعام، صرت أخيراً آكلُ معجونَ الأسنان، الصابونَ والورق المُبلّل، أخيراً كلَّ ما كان باستطاعتي أن أضعه في فمي. في الأيام الخمسة أو الستة الأخيرة اقتتُ على الماء وحده. كنتُ مستيقظة ولا أستطيع أن أتصوّر أنّ أمّي هجرتني. خطرت لي كلُّ أنواع التفسيرات: تتعلق المسألة بامتحان طاعتي وقوّتي، هاجمَ أمّي لصوص أو أنها موقوفة عند الشرطة، كان عقاباً على شيء ارتكبتُهُ دون قصدٍ. كم يوماً أستطيعُ أن أقاومَ أكثر. كنتُ أقدّر أنّها قليلة جدّاً وأنّ الجوعَ والعطش سيقضيان عليَّ. كنتُ أُصلي وأنادي أمّي. بكيتُ كثيرا وخصصتُ يسوعَ بدموعي. في تلك المرحلة كنتُ مؤمنة جدّاً، مثل أمّي، لكنّني الآن لا أؤمن بشيء. رأيتُ من الشرّ في هذا العالم أكثرَ مما يجعلني أؤمن بالله. بعدها، عندما عثروا عليَّ، راح الجميع يسألونني الشيء ذاته: "لماذا لم تخرجي من الشقة؟ لماذا لم تطلبي مساعدة؟ الحقيقة أنّه لم يكن عندي من ألجأ إليه. لم يكن لنا أقرباء ولا أصدقاء، لم نكن نعرف الجيران. كنتُ أعرفُ أنّه في حالة الطوارئ يجب أن أهتف للرقم 911، لكنّني لم أكن قد استخدمتُ الهاتفَ قط وفكرة التحدّث إلى غريبٍ بدت لي مرعبة.

أخيراً بعد اثنين وعشرين يوماً جاءت المساعدة. شعرت بالطرقات على الباب والصيحات لأن أفتح وأنّهم الشرطة. وهذا ما أرعبني

أكثر، لأنّ أمّي كانت قد هرست دماغي بقولها إنّ أكثر منٍ يُخافٍ منهم هم الشرطة إنّه يجب عدم الاقتراب ممن يرتدون لباسا موحّدا مهما كان الظرف. اختبأت في خزانة الثياب، التي حوّلتُها إلى وجَارٍ . هناك عملت عشا من ثياب. دخلوا من النافذة، كسروا زجَاجا وغزوا الشقة. أخذوني بعدها إلى مشفى، عاملوني كحيوان مخبر، عملوا لي فحوصات مُهينة، أجبروني على ارتداءِ ثيابِ طفل، ما من أحد أشفق عليَّ. أكثرهم وحشيّة كان ريتشارد أشتون، الذي أجرى عليَّ تجارب. كان يُعطيني مُخدرات، يُنوّمني مغناطيسيا، يُشوّشُ عقلي ثم يُشخّص بأنني كنتُ مجنونة. هل تعرفين ماذا يعني العلاجُ بالصدمات الكهربائية، يا إندي؟ شيءٌ مريع، لا يمكن وصفه. من العدل أن يُعاني منه أشتون بلحمِهِ، لذلك أُعدم بالكهرباء.

نزلتُ في عدة بيوت، لكنّني لم أحتمل أيّاً منها، لأنّني كنتُ معتادة على حنان أمّي وربّتني وحدي؛ كان الأطفال الآخرون يُزعجونني، كانوا مُتَسَخين وفوضويين وينتزعون مني أشيائي. بيت الزوجين كونستانت هو الأسوأ. في تلك المرحلة كان ميشيل كونستانت ما يزال يشربُ وكان مريعا حين يسكرُ، كان هناك ستّة أطفال تحت إشرافه، كلهم عركتْهُم الحياةُ أكثر منّي، لكنّه كان يَكنُّ لي حقداً خاصّاً، لا يستطيع أن يراني، لو تعلمين كيف كان يُعاقبني. وكانت زوجته سيّئة مثله. كلاهما كان يستحق الموت على جرائمه، هكذا قلت لهما. كانا مُخدّرين، لكنّهما واعيين، عرفاني وعرفا ما سيجري لهما. كلّ واحدٍ من المحكوم عليهم ملك وقتا ليسمعني وشرحت لكلّ واحدٍ لماذا كان سيموت، باستثناء ألان كلِرْ لأنّ مفعول السيانيد كان سريعا جدّاً.

هل تعلمين ما اليوم، يا إنديانا؟ الخميس 5 نيسان، غداً الجمعة الحزينة والمسيحيون يحيون ذكرى موتِ يسوع على الصليب. في أيّام الرومان كان الصلبُ طريقة شائعة في الإعدام.

بلاك جاكسون الذي مرَّ عليهِ عدّةُ أيّام لم يذهب فيها إلى عمله، مرّ سريعاً على صيدليته كي يتأكّد من أنّ كلّ شيء فيها مرتّب، كان

لديه عمال موثوقون، لكنَّ عينَ الرئيس دائماً ضرورية. في لحظةِ تجلٍّ قرّر أن يهتف من جديد لأنجِليك لارسون، التي شعر تجاهها بتعاطف غريب. لم يكن رجلَ اندفاعاتٍ رومانسية، ويشعر بالحياء من العلاقات العاطفية، لكن لم يكن هناك أيّ خطر مع انجِليك لارسون، فقد كان يفصل بينهما ألف وخمسمئة كيلومترٍ تقريباً من الجغرافيا المتباينة، كان يتصوّرها مغطاة بالجلود تُعَلم الأبجدية لأطفال الإسكيمو وقد تركت زحافتها التي تجرّها كلاب عند باب الكوخ الجليديِ. أغلق على نفسه في مكتب صغير ودقّ الرقم. لم تُبدِ المرأة استغراباً من أن يهتف لها الكاتب الافتراضي مرّتين خلال ساعات قليلة.

– كنتُ أفكّر بِلي غالِسبي –قال بلاك، غاضباً من نفسه لأنّه لم يحضّر سؤالاً ذكيّاً.

– إنّها قصة محزنة جدّاً! آمل أن تفيدك لروايتك.

– ستكون العمود الفقريّ لكتابي، يا أنجِليك، أؤكّد لك.

– يسعدني أن أكون قد ساهمت بشيء.

– لكن عليّ أن أعترف لك أنّني لم أكتب الكتاب بعد، وأنا في مرحلة التخطيط للمحتوى.

– آه، هل صار عندك العنوان؟

– *نازع الأحشاء*.

– هل هي رواية بوليسية؟

– لنقل أنّها كذلك. هل تحبّين هذا النوع؟

– كي أكون صريحة معك، أفضل أنواعاً أخرى، لكنّني على كلّ الأحوال سأقرأُ كتابك؟

– سأرسله إليكِ ما إن يصدر. قولي لي، يا أنجِليك هل تتذكّرين شيئاً آخر عن غالِسبي يمكن أن يفيدني؟

مْمْ... بلى، هناك تفصيل ربّما ليس له أهمّية، لكنّني أحكيه لك على كلّ الأحوال. هل أنت تُسجّل.

– أسجل ملاحظات إذا كان لا يهمّك. ما هو هذا التفصيل؟

– دائماً انتابني شكّ بأن تكون ماريون غالِسبي أمّ لي، عندما تُوفّيت كانت في الحادية والستين من عمرها والصغيرُ في الحادية عشرة، هذا يعني أنّها ولدته في الخمسين، ما لم يكن هناك خطأ في وثائق الولادة.

– قد يحدث، الآن هناك علاجات للخصوبة. في كاليفورنيا تُشاهد في كلّ مرّة أكثر أمهاتٌ في الخمسين يدفعن عربة فيها ثلاثة توائم.

– هنا في ألاسكا، لا. في حالة ماريون يبدو لي أقلّ احتمالاً أن تكون قد عالجت عقماً، لأنّها كانت عازبة وصحّتها سيّئة. ثمّ إنّ التشريح كشف عن استئصال رحمها. لم يتحقق أحدٌ من مكان ولا زمان إجراء العملية.

– لماذا لم تعرضي عليهم شكوكك، يا أنجِليك؟ كان باستطاعتهم أن يفحصوا حمضَ الطفلِ النوويَّ.

بسبب التأمين على الحياة. لأنّني فكّرتُ إذا كان هناك شكوك بهوية المنتفع، يمكن أن يفقد لي المالَ الذي تركته له ماريون. في آخر مرّة تكلمتُ فيها معَ لي في عيلاد ميلاد 2006 قلتُ له إنّ ماريون كانت بدينة وتعاني من مرض السكر والضغط العالي ومشاكل قلبية، وكثيراً ما تكون هذه الحالات وراثية. أكّد لي أنّه يتمتع بصحّة جيّدة وذكرتُ له بشكل عابر أنّ ماريون ولدته في عمر تكون فيه كثير من النساء قد خلفن وراءهن الحيضَ وسألته عن استئصال

الرحم. أجابني أنّه لا يعلم شيئاً عن هذا، لكن هو أيضاً كان يلفت انتباهه أن تكون أمّه بذلك العمر.

- هل عندك صورة جيّدة للفتى، يا أنجِليك؟
- عندي عدد منها، لكنّ أفضلها تلك التي أرسلها إليّ الزوجان فِرنوود في اليوم الذي استطاع فيه لي أن يقبض شيكَ التأمين على الحياة. أستطيع أن أرسلها إليك الآن بالذات. أعطني بريداً إلكترَونياً.
- ليس من الضروري أن أقولَ لك كم ساعدتني، يا أنجِليك. هل أستطيع أن أعود وأهتف لك إذا كان عندي سؤال ما؟
- طبعاً، يا بلاك، يسرّني أن أتكلم معك.

أغلق الجدُّ الهاتفَ وهتف لصهره السابق وحفيدتِهِ. وقتها كان قد صار أمام بوب مارتين على مكتبه أوّل تقرير عن الزوجين فاركاس وبينما كان يسمع راح يُقارن ما يقوله له بلاك جاكسون مع ما كان يعرفه عن فاركاس. وكتبَ دون أن يفلتَ الهاتفَ اسمَ ماريون غالِسبي ومدينة توسكالوسا متبوعاً بعلامة استفهام ومرّرهما لِبترا هور، التي اتصلت بقاعدة المعلومات. حكى المفتّش لحميهِ السابق أنّ الزوجين فاركاس كانا من توسكالوسا، ألاباما وأنّه حدثت لهما مشاكل صغيرة مع القانون —حيازة مخدراتٍ —سرقات، قيادة السيارة تحت تأثيرات الكحول وأنّهما عاشا مؤقتاً في عدد من الولايات. في عام 1986 ماتت لهما ابنة عمرها خمسة أسابيع في بِنساكولا، فلوريدا، مخنوقة ببطانية، بينما كانا هما في بار، تركا الطفلة وحيدة. نفذا سنة سجن لإهمالهما، انتقلا بعدها إلى دِل ريّو في تكساس، حيث عاشا ثلاثَ سنوات ثم إلى سوكورّو في نيومكسيكو حيث مكثا حتى 1997، كان جوي يحصل كعامل على أشغال متفرقة وشارون تعمل كعاملةٍ بار واستمرّا بالانتقال نحو الغرب ماكثين هنا وهناك وقتاً قصيراً إلى أن استقرّا في سانتا باربارة في عام 1999.

- تمعّن في هذا، يا بلاك: في عام 1984 خطفوا منهما في ظروف مُلتبسة ابناً في الثانية من عمره —أضاف المُفتّش— أُدخل الطفل ثلاث

مرات إلى المشفى، المرة الأولى كان عمره عشرة أشهر بسبب ذراع مكسور وكدمات، قال الأبوان أنّه وقع. بعد ثمانية أشهر أصابه التهاب رئة ووصل إلى الطوارئ بحرارة مرتفعة وهزال شديد. استجوبت الشرطة الأبوين لكن لم يُجرِّما، في المرّة الثانية كان الطفل في الثانية من عمره وظهر عنده كسر في الجمجمة وكدمات وأضلاع مكسورة. بحسب الأبوين صدمته درّاجة نارية فرّت. بعد ثلاثة أيّام من خروجه من المشفى اختفى الطفل. بدا الزوجان فاركاس متأثّرين جدّاً وأكدا أنّ ابنهما خُطف. لم يعثرا عليه قط.

- ماذا تقترح، يا بوب؟ هل أنّ هذا الطفل يمكن أن يكون لي غالِسبي؟ -سأله بلاك جاكسون.

- إذا كان لي غالِسبي هو الذئب وكان الزوجان فاركاس ضحيتيه، كما نعتقد، يجب أن يكون بينهم رابط. انتظر لحظة، ها هي بِترا قادمة ومعها شيء عن ماريون غالِسبي.

ألقى بوب مارتين نظرة سريعة على الصفحتين التي مرّرتهما له مساعدته وقرأ القسم البارز لبلاك جاكسون. كانت ماريون غالِسبي تعمل في عام 1984 كممرّضة في قسم الأطفال في مشفى توسكالوسا العامّ. تخلّت في ذلك العام عن عملها فجأة وتركت المدينة. ولم يُعرف عنها شيء حتى وفاتها في 1993 في ديلي سيتي حين ظهرت كأمّ للي غالِسبي.

- لماذا سنبحث أكثر، يا بوب -قال بلاك جاكسون-. ماريون سرقت الطفلَ كي تُنقذه من تعسّف الأبوين. ناضجة، عازبة، بلا أولاد، أعتقد أنّ ذلك المخلوق تحوّل إلى مُبرّر لحياتها. كانت تبدل أماكن إقامتها وربّته كطفلة محبوسة في البيت كي تخبّئه. أُشفق عليها، أتصوّر أنّها كانت تعيش خائفة من أن تنقضّ عليها السلطاتُ في أيّة لحظة. أنا واثقٌ من أنّها كانت تُحب الطفلَ كثيراً.

تأكّدَ رئيسُ المفتّشين في الساعات اللاحقة من أنّ العثورَ على لي غالِسبي بصعوبة العثور على كارول أندرووتر. لم يتلقَّ الزوجان فِرنوود

كما أنجِليك لارسون أخباراً عنه منذ 2006. في ذلك العام استثمر لي نصفَ المبلغ الذي حصل عليه من التأمين في بيتٍ في حالة سيّئة في شارع كاسترو، أصلحه خلال أربعة أشهرَ وباعه لزوْجَيْن مِثْلِيَّيْن بربحٍ يفوق المئة ألف دولار. أعلن في آخر رسالةٍ عيد ميلادٍ أنّهَ قد يذهب لبعض الوقت إلى كوستا ريكا ليجرّب حظّه. ومع ذلك لا يوجد في الهجرة والجوازات تسجيلٌ لجواز سفر بهذا الاسم . استطاعوا أن يتتبعوا أثر إجازة بنّاءٍ هناك ومشرفٍ على أملاك تاريخها 2004، كانت ما تزال سارية المفعول، لكنّهم لم يعثروا على عقودٍ موقعة من قبله غير عقودِ بيتِ شارع كاسترو.

لا بدّ أنّك متفقة معي، يا إنديانا على أنّ الأبوين ليسا من ينجبان بل من يربيان. الأبوان الآخران، شارون وفاركاس لم يتصرّفا قط كأبوين، كانا زوجين من الصعاليك الكحوليين، تركا أختي تموت بالإهمال وأنا كانا يضربانني إلى حدّ أنّه لولا أنَّ ماريون غالِسبي أنقذتني، لكانا قتلاني. بحثتُ عنهما حتى وجدّتُهما، ثم انتظرتُ. تواصلت معهما في العام الماضي، حين كان كلُّ شيء جاهزاً كي أقوم بمهمّتي. عندها مثلتُ أمامهما، لو رأيتِ كم كان تأثرهما بوجودهما أمام ابن ضائع! لم تخطر ببالهما المفاجأة التي حضّرتها لهما.

أي نوع من البهائم هذا الذي يضرب رضيعاً؟ أنتِ أمّ، يا إنديانا، تعرفين الحب الحامي الذي يلهمه الأبناءُ. إنّه دافع بيولوجي، فقط كائنات غيرِ سويّة، مثل الزوجين فاركاس يسيؤون معاملة أبنائهم. وبما أنّنا نتكلم عن الأبناء، فإنّني أُريد أن أُهنِّئك بأماندا، هذه الفتاة ذكية جدّاً، أقول لك ذلك بإعجاب واحترام، لها عقل تحليليّ مثلي. تحبّ التحدّيات الفكرية وأنا أيضاً. لا أخاف من بوب مارتين وجماعته، خرقاء مثل كلّ رجال الشرطة، يحلّون قضيةً واحدة من كلّ ثلاث قضايا قتل وهذا لا يعنَي أنّهم دائماً يقبضون على القاتل الحقيقيّ ويدينونه. خِدَاعُ الشرطة أسهل بكثير من خِداعِ ابنتك.

أوضِّح لك أنّ صورة المختلّ عقلياً، كما صنّفوني، لا تنطبق عليّ. أنا رجل عقلانيّ، مُثقف ومؤدّب، أقرأ، أستعلم وأدرس. خططتُ لهذه المهمّة منذ سنوات طويلة وحين أنجزُها سأعود لأمارس حياتي الطبيعية بعيداً عن هذا المكان. الحقيقة أنّ المهمّة كان يجب أن تكون قد أنجزت في شباط مع إعدام راشيل روسين، آخر المحكوم عليهم في اللائحة، لكنّكِ عقدت مخططاتي ووجدتُ نفسي مُجبراً على أزيح الآن كِلِرْ من طريقي. كان هذا قرارَ آخر ساعة، لم أستطع أن أعدّ الأشياءَ بالعناية التي أوليتُها للأشياء الأخرى. المثالي كان أن يموت عشيقك في سان فرانسيسكو في الساعة التي يجب أن يموت فيها تماماً. إذا أردتِ أن تعرفي لماذا كان عليه أن يموت، فالجواب أنّكِ أنتِ المسؤولة. مات لأنّك عدتِ إليه. اضطررت لأنّ أسمعكِ أشهراً تتحدّثين عن كِلِرْ، ثم عن ميلرْ، تورّطاتك العاطفية ومساراتك الحميمة كانت تُثير اشمئزازي، لكنّني كنتُ أحفظها عن ظهر قلب لأنّها كانت ستفيدني. أنت النوع من البغي التي لا تستطيع أن تكون من دون رجل. ما إن انتهيت من كِلِرْ حتى هرعتِ إلى ذراعي ميلرْ. خيّبتني تماماً، يا إنديانا. تثيرين قرفي.

الذي كان يجب أن يموت هو الجنديّ كي تصبحي حرّةً، لكنّه نجا لأنّك تركتِهِ خائباً دون توضيح. كان باستطاعتِك أن تقولي له الحقيقة. لماذا لم تقولي له إنّك كنتِ حاملاً من كِلِرْ؟ ماذا كانت خطّتُك؟ أن تُجهضي؟ تعلمين أن كِلِرْ لم يكن يحبّ أن يكون عنده أولاد أبداً. أم أنّكِ كنتُ تُفكرين بأن تقنعي ميلرْ بأن الولد ابنه؟ لا أعتقد أنّكِ ستستطيعين أن تحكيه له، لكن يخطر لي أنّ هذا ما كان ليقنعه، كما تقتضي عقدته كبطل وإلّا لكان عليه أن يتكفل بصغير من صلبِ رجل آخر. ضحكتُ كثيراً من رسالة النجوم التي عملتها لك ثِلِسْتِ روكو.

أعتقد من خلال معرفتي بك، يا إنديانا، أنَّ خطّتك كانت أن تكوني أمّاً عازبة، كما نصحكِ أبوك، اثنان فقط كنّا مطلعين على سرّك، أبوك وأنا وما من أحدٍ منّا توقّع ردّ فعل كِلِرْ، حين طلب منك

في مقهى روسيني أن تتزوّجي منه، هو لم يكن يعرفُ شيئاً عن الحمل وأنتِ كنت قد اكتشفتِهِ تواً. بعد يومين حين أعلنته للرجل راح يبكي من احتمال أن يُصبح أباً، الأمر الذي لم يُفكر قط باحتمال حدوثه. كانٍ مثلٍ معجزة. أقنعك بأن تقبلي خاتمه. لا بد أنّه كان مشهداً بذيئاً جداً.

لم يكن في نيّتي قط أن أدفعكِ إلى الإجهاض، يا إنديانا، كان أمراً عابراً. جرعة واحدة من الكِتامين كي تتبعيني إلى هنا ما كانت مؤذية، لكنّني اضطُرِرْتُ بعدها لأن أبقي عليك مُخدَّرة لأيام وبالتأكيد هذا هو الذي سبّب الإجهاض. أرعبتِني. الاثنين حين جئتُ لأراك وجدتُك في غمر من الدم وكاد يُغشى عليّ، فأنا لا أتحمّل مشهد الدم. خفتُ من الأسوأ، من أن تكوني قد تدبّرت أمركِ كي تنتحري، لكن عندها تذكرت الحملَ، نسبة الإجهاض العفوي في عمركِ يتراوح بين عشرة وعشرين في المئة وهي عمليّة طبيعية نادرا ما تتطلب تدخّلا جراحياً. أقلقتني الحرارة، لكنّنا حللناها بالمضاد الحيوي. رعيتُك جيّداً، يا إندي، ستتفهمين أنّني لا أريدك أن تموتي نزفاً، لديَّ خططٌ أخرى.

عندما فحصت أماندا صورةَ لي غالِسبي التي أرسلتها أنجِليك لارسون إلى جدّها شعرت بمخلب في معدتها وبطعم معدنيّ في فمها. كانت واثقةً من أنّها تعرف ذلك الشخصَ، لكنّها لا تستطيع أن تُحدّده، بعد أن قلبت عدّة احتمالات اعتبرت نفسها مهزومة ولجأت إلى جدّها، الذي رأى منذ النظرة الأولى أنّها تُشبه السيّدة المصابة بالسرطان، التي أهدتهما أنقذْ التونا. وذهب الاثنان دون مزيد من التفكير إلى مقهى روسيني، لأنّهما كانا يعرفان أنّ كارول أندرووتر تُمضي ساعاتٍ في القراءة هناك لتُمرّر الوقت ويحين وقتُ معالجتها في المشفى أو أنّها تنتظر إنديانا.

استقبلهما داني دانجِلو، المسرحي دائماً في ردودِ فعله، بمظاهر ودّ كبيرة. لم ينسَ أنّ بلاك جاكسون رعاه في بيته ذاته حين كان

مريضاً. سكب دموعَ حزن على المأساة التيٍ كانت تؤثّر عليهم جميعاً. لا يمكن أن تكون إنديانا قد صارت دخاناً وقد خطفها رجال منٍ الفضاء الخارجيّ، ما التفسير الآخر المكن. قاطعته أماندا واضعةً الصورةَ أمام عينيه.

- من هذا، يا داني؟ -سألته.
- أنا أقول إنّها كارول تلك، صديقة إنديانا، حين كانت شابّة.
- هذا رجل -قال له بلاك.
- أيضا كارول. أي شخص سينتبه لذلك.
- رجل؟ أمّي لم تنتبه ولا نحن! -صاحت أماندا.
- لا؟ فكرتُ أنّ إنديانا كانت تعرفُ. أمّك دائماً سارحة مع القمر، يا عزيزتي، لا تنتبهُ إلى شيء. انتظرا، عندي صورة لكارول. التقطها لها لولو. هل تعرفان لولو غاردنر؟ لا شك أنّكما رأيتماها، دائما تسير هنا. إنّها عجوز غريبة الأطوار، متفرّغة لالتقاط الصور في نورث بيث.

ذهب مسرعاً باتجاه المطبخ وعاد بعد دقائق بصورة فوريّةٍ ملونة تظهرٍ فيها إنديانا وكارول على طاولة قريبة من النافذة وداني يقف مطلا من الخلف.

- موضوع التحوّل هذا فنّ حَسّاس جداً -وضّح لهما داني- هناك رجال يرتدون ملابسَ نساء أجمل من أي عارضة أزياء، لكنّهم غريبو الأطوار، عامّةً ما يُلاحظ هذا عليهم كثيراً. كارول لا تُحاول أن تبدو جميلة، يكفيها أن تشعرَ أنّها أنثى. اختارت نموذجاً رثّاً، مضت تقليعته، تُخفي الجسم بشكل أفضل. أي شخص يستطيع أن يرتدي ملابس قبيحة. أي! يجب عليّ ألا أتكلم بهذه الطريقة عن امرأة مصابةٍ بالسرطان. على الرغم من أنّ هذا يُساعدها، لأنّ المرءَ يغفر لها الشعر المستعار والمناديلَ التي تضعها على رأسها. أيضا يمكن ألا تكون مصابةً بالسرطان وأنّها اخترعته كي تلعب دور امرأة أو كي تلفتَ الانتباه. موضوع التظاهر بالمرض له اسم...

- متلازمة مونشاوسن –تدخّل بلاك، الذي رأى كصيدلاني مما هبّ ودبّ.

- هذا هو بالضبط. إخفاء الصوت بالنسبة إلى مُتحوّل مشكلة، بالنسبة للحبال الصوتيةٍ التي هي أثخن عند الرجل مما عند المرأة، لذلك تتكلّم كارَول همساً.

- أمّي تعتقد أنَّ السبب هو المعالجة الكيميائية.

- إطلاقاً! إنّها حيلة المِهنة، الجميع يتكلمون مثلَ المرحومة جاكلين كِندي.

- الشخص في الصورة عيناه زرقاوان وعينا كارول داكنتان – قالت أماندا. لا أدري لماذا تضع عدسات لاصقة بنية، تضفيان عليها مظهراً سيئاً، تبدو عيناها جاحظتين.

- هل رأيتَ كارول هنا؟

- الآن وأنتِ تسألينني يا أماندا يبدو لي أنّني لم أرها منذ عدّة أيّام. إذا جاءت سأقول لها أن تهتف لك.

- لا أعتقد أنّها ستظهر يا داني.

لم أرتدِ ملابس امرأة منذ زمن طويل، يا إندي، وفعلتُ ذلك فقط لأجلكِ، كي أكسبَ ثقتك. كان عليّ أن أقترب من المفتّش مارتين، كنتُ بحاجةٍ لأعرف تفاصيلَ عن التّحقيق، لأنّ القليلَ الذي تنشره وسائل الاتصال بعامة غير دقيق. وتوقّعتُ أنكِ ستفيدينني في هذا. أنت وبوب مارتين زوجان مطلقان غريبان، قليلون هم الأزواج المتزوجون الذين لهم ودّكما. لكن لم يكن هذا هو الدافع الوحيد، كنتُ أنتظر أن تحبيني، تتعلقي بي. هل فكرت بأنّه ليس لك صديقات؟ كلّ أصدقائك تقريباً رجال، مثل ذلك الجندي الأعرج؛ كنتِ بحاجة لصديقة. كان السرطان فكرة فذّة، اعترفي، لأنّكِ بحرصك على مساعدتي خفضتِ دفاعاتِك القليلة. كيف كنتِ ستشكين ببائسةٍ مُصابة بسرطان في مراحله الأخيرة! كان سهلاً سحب المعلومات منك، لكنّني لم أتصوّر أنّ ابنتك سوف تُساعِدُني

أيضاً، لو كنتُ أؤمن بالحظ لقلت إنّها هدية من السماء، لكنّني أُفضل أن أؤمن بأنّ استراتيجيتي أثمرت. بذريعة أخبار أنقذِ التونا -يا له من اسم غريبٍ لحيوان منزلِيّ- زرتُ ابنتَكِ أحياناً وكنّا نتحادث بالهاتف. دائماً كنتُ حكيماً، كيلا أثير ذعرك، لكنّنا بالحديث كنّا نُعَلّق على لعبة نازع الأحشاء وكانت تضعني في صورة ما راحت تكتشفه . لم تكن تعرف المعروفَ الذي كانت تسديه إليّ.

ذهب الجدُّ والحفيدةُ من مقهى روسيني مباشرة إلى قسمِ جرائم القتل ومعهما صورة كارول أنودرووتر التي زوّدهما بها داني. بلغت لهفة أماندا حدَّ أنّها كانت لا تكاد تستطيع الكلام وهي تتصوّر كم يعرف ذلك الشخص عن أمّها، وهكذا شرع بلاك بالكلام كي يُوَضِّح لبوب مارتين أنّ كارول هي لي غالِسبي. استدعى المُفتّش على الفور رجالَ تحرّيه والطبيبين النفسيين بعلم الجريمة في القسم وهتف لصموئيل هاميلتون، الذي وصل خلال خمس عشرة دقيقة. كان الجميع يشيرون إلى لي غالِسبي كمرتكب لعمليات القتل والمسؤول عن اختفاءِ إنديانا. استنتجوا أنّ غالِسبي غذى لسنوات فكرة الانتقام من الأشخاص الذين أساؤوا معاملته. لكنّه لم يُقرّر العمل إلا بعد أن طرحت عليه أنجِليك لارسون شكّها بأن تكون ماريون غالِسبي، الكائن الوحيد الذي أحبّه في حياته، أمَّهُ. بحث عن أبويه البيولوجيين وحين تمكن من تحديد هويّتهما، عرف أنّ كارثته بدأت يومَ ولادته وعندها هجر عمَلَهُ وصداقاته واختفى شرعيّاً وكرّس سنواته اللاحقة لتحضير نفسه لما كان يبدو لعينيه واجبِ العدالة: تخليص العالم من تلك الكائنات المنحرفة وتفادي أن يُنكلوا بأطفال آخرين. كان يعيش قنوعاً ويرعى مالَهُ، يستطيع أن يُغطي نفقاته حتّى يُنهي مهمّته. كان يُخطط طوال الوقت لكلّ عملية من عمليات القتل، مانحاً إيّاها الوقت المستحقّ، بدءاً من الحصول على المخدّرات والأسلحة وحتى العثور على طريقة لتنفيذها دون أن يترك أثراً.

- غالِسبي محا نفسه من العالم وعاودَ الظهور في العام الماضي كي يقتل إدْ ستيتون -قال المُفتّش.

– متحوّلاً إلى كارول أندرووتر –أضاف بلاك جاكسون.

– لا أظنّ أنّه يرتكبُ جرائمَ قتلهِ بهوية أنثى. في طفولته تلقى رسالة ماريون غالِسبي بأن "الطفلات طيبات والأطفال أشرار". من المحتمل أنّه يرتكبها بهويّة ذكر –غامر أحد الطبيبين النفسيين.

– إذاً لماذا يرتدي ثياب امرأة؟

– يصعب معرفة ذلك. يمكن أن يكون متحوّلاً.

– أو أنّه فعل ذلك كي يكسب صداقة إنديانا. كارول أندرووتر أو بالأحرى لي غالِسبي، مهووس بابنتي –وضّحَ بلاك جاكسون– أعتقد أن غالِسبي، بثياب كارول هو من أوصلَ المجلة التي يظهر فيها ألان كِلِرْ مع امرأة أخرى، وهو ما قطع العلاقة بينهما.

– الانتقامُ موجود في كلّ جرائم القتل باستثناء جريمة قتل كِلِرْ –قال المُفتّش.

– القاتل نفسه بدوافع مختلفة. قتل كِلِرْ بدافع الغيرة –قال الطبيب النفسي الآخر.

وضّح بلاك أنّ إنديانا كانت تثق بكارول وقد أفسحت لها المجال للوصول إلى خصوصياتها الحميمة. كانت كارول/لي تنتظرها أحياناً في صالة استقبال العيادة، بينما هي تعالج مرضاها. لم تنقصها الفرصة للدخول إلى حاسوبها وقراءة المراسلات، ورؤية جداول عملها ووضع الفيديوهات السادية والمازوخية وفيديو الذئب.

– رأيتهما مرّات كثيرة معاً في مقهى روسيني –أضاف صموئيل هاميلتون– لا بدّ أنّ إنديانا حكت لكارول يوم الخميس الثامن من آذار أنّها ستتعشى مع ألان كِلِرْ في سان فرانسيسكو، تماماً كما كانت تحكي لها كلّ تفاصيل حياتها. كارول/لي كان أمامه كل المساء كي تذهب لنابّا، يدخل إلى بيت كيلر يُسمّم الكأسين بالسيانيد، ثم اختبأ كي ينتظره، يتأكد من موته ويُطلق عليه السهم.

– لكنّهُ لم يتوقّع أن يحضر ريان ميلرْ ليتكلّم مع كِلِرْ. لا بد أنّه رآه، أو على الأقل سمعه من مخبئهِ –غامرت أماندا.

- كيف تعرفين متى ذهب ميلِّرْ إلى ذلك البيت؟ -سألها أبوها، الذي منذ ثلاثة أسابيع وهو يشك بأنّ ابنته تُخفي عنه شيئاً، ربّما حانت لحظة أن يتم الدخول على حاسوبها وهاتفها.

- شيء منطقيّ -قاطع الجدُّ بسرعة- ميلّرْ وجد كِلِّرْ حياً، تجادلا، ضربه وذهب تاركاً آثاره في كلّ مكان. شيء مناسب جداً بالنسبة للقاتل. شرب كِلّرْ بعدها الماءَ المسموم ومات في لحظتها. لكنّني لا أفهم لماذا رمى الجثّة بالسهم.

- أيضاً كان المسألة بالنسبة للي غالِسبي تتعلّق بعملية إعدام - وضَّح أحدُ الطبيبين النفسيين-. لقد أضرّ ألآن كِلّرْ به، انتزعَ منه إنديانا وكان عليه أن يدفع الثمن. السهم في القلب رسالة واضحة: كيوبيد وقد صار جلاداً. إنّها تُشبه عملية خوزقة جثّة إدْ ستيتون، إشارة إلى ما فعله به ذلك الرجل في بويز كامب وحرق الزوجين كونستانت كما أحرقاه بالسجائر حين كان يتبوَّل في فراشه.

- ماتيوس بْرِيْرا هو آخرُ مَنْ رأى إنديانا وكارول الجمعةَ مساءً-قال صموئيل هاميلتون- تكلمت مع بْرِيْرا، لأنّ هناك شيئاً يدور في رأسي.

- ما هو؟ -سأل المفتِّش.

- كارول قالت للرسام إنّهما ذاهبتان إلى السينما، لكن بحسب السيّد جاكسون كانت إنديانا دائماً تتعشّى أيّامَ الجمعة في البيت.

- كي ترى أماندا عندما تصل من المدرسة. السيّد هاميلتون على حقّ، إنديانا لا تذهب إلى السينما في يوم جمعة -أكّد الجدّ.

- إنديانا طويلة وقويّة وكارول لا تستطيع أن تأخذها بالقوّة - تدخّل المُفتِّش.

- إلا إذا أعطتها من تلك المخدرات التي تلغي الإرادةَ تماماً وتُحدث فقدان ذاكرة، من تلك التي تُستخدم للاغتصاب مثلاً -ردّ هاميلتون- لم تلفت رؤيته للصديقتين انتباهه، لكنّني عندما طرحت عليه إمكانية أن تكون إنديانا مُخدّرة، أكّد لي أنّها كانت تبدو غائبة قليلاً، لكنّها لم تردّ عليه عندما سلّم عليها وكانت كارول تأخذها من ذراعها.

في الحاديةِ عشرة والربع ليلاً كان الجميعُ متعبين وجائعين، لكن ما من أحدٍ فكّرَ بالأكل أو النوم. لم تكن أماندا بحاجة لأن تنظر إلى ساعة جدار مكتب والدها، فقد مضى عليها سنتان وهي تتدرّب كي تتنبّأ بالساعة. بقي أمام أمّها أربع وعشرون ساعة وخمس وأربعون دقيقة من الحياة.

لم يرتحْ ريان ميلّر في تلك الليلة أيضاً، كان منكبّاً على حاسوبه يبحثُ عن رأس الخيط الذي يسمح له بفكّ كبّة المجاهيل التي كانت بين يديه. كان مع البرامج التي يستخدمها في عمله، التي تسمح له بالدخول إلى أيّ معلومة في العالم كلّه، من أكثرها سرّية حتى أكثرها ابتذالاً. يستطيع أن يتحقق خلال دقائق قليلة مما حدث في اجتماع مدراء أكسون موبيل الحديث، الشركة الصينية للبترول وأرامكو السعودية، أو ما هي وجبة الغداء في مسرح البلشوي. المشكلة لم تكن في الحصول على الجواب بل في صياغة السؤال الدقيق.

كانت دنيس ويست قد ذبحت له ديكاً كي تُحضّر له فَروجاً لذيذاً مطبوخاً على نار هادئة. تركته له في المطبخ مع قطعة خبز كامل كي يُمضي الليل. "حًالفك الحظ، يا بُني"، قالت له مقبّلةً جبينه، فاحمر ريان الذي كان قد أمضى معها أسبوعين، لكنّه لم يعتد بعد على الرقّة العفوية. خلال النهار كان يُلاحظ دفءَ بدايةِ الربيع، لكن الليالي كانت ما تزال باردة والخشبُ يئنّ من تَبَدُّل الحرارة الحادّ، مثل عجوز مصابة بالتهاب المفاصل، مصدر الدفء الوحيد كان مدخنة الصالون، التي قليلا ما كانت تفيد ومدفأة غازٍ، تجرّها دنيس معها من غرفة إلى غرفة بحسب أين تكون؛ ريان ميلر المعتاد على شقته القطبية لم يكن بحاجة إليها. ذهبت المرأة إلى سريرها وتركته غارقاً في حاسوبه وأتيلا عند قدميه. وبما أنّ الكلبَ لم يكن يستطيع أن يتمرّن خارج الهكتار والنصف من أرض دنيس، لأنّه كان سيلفت الانتباهَ أكثر من اللازم فيما وراء ذلك، سَمن وصارَ، منذ أن بدأ

يتقاسم المكانَ لأوّل مرّةٍ في حياته القاسية كمحارب مع كلبين صغيرين وعددٍ من القطط، يُحرّك ذيلَهُ مثل كلبِ صيدٍ سوقِيّ.

في الثانية فجراً أتى ميلرْ على الفروج المطبوخ، الذي تقاسمه مع الكلب. مارس تمارين الكيغونغ، لكنّه لم ينجح في التركيز، كانت الأفكار تتداخلُ وصورة إنديانا تقطعُ عليه مجرى أي تفكير. كان جلدُهُ يلتهب وتنتابه رغبة كي يصرخَ، ينهالَ على الجدران بقبضتيه؛ كان يريد فِعْلا، يحتاجُ لتعليماتٍ، نظام حاسم، عدّو مرئيّ. كان ذلك الانتظار من دون أي هدف محدّد أسوأ بكثير من دويّ أقسى المعارك. "عليّ أن أهدأ، يا أتيلا، لا فائدة منّي في هذا الوضع". ارتمى بثقلْ الهزيمة الرهيبِ على الأريكة كي يُجبر نفسه على الراحة. جهد كَي يتنفسٍ كما علّمته إنديانا، ممعناً بكلّ شهيق وكلّ زفير ولكي يرتاح كما تعلم من معلمه بالكيغونغ. مرّت عشرونَ دقيقة دون أن يتمكن من النوم.

عندها وعلى سطوع آخر جمراتِ المدخنة الخفيفِ رأى طيْفَيْن، طفلة في العاشرة من عمرها ترتدي تنورة طويلة وشالاً على رأسها، تمسك طفلاً صغيرا من يده. بقي ريان ميلر بلا حراك، لا يرفّ له جفن، بلا تنفّس كيلا يُخيفهما. دامت الرؤيا وقتاً من المحال قياسُهُ، ربّما ثوان قليلة، لكنّها كانت من الوضوح كما لو أنّ الطفلين جاءا من أفغانستانَ كي يزوراه. كان قد رآهما سابقاً تماما كما كانا خلال الحرب في عام 2006، مختبئين في حفرةٍ، طفلة في الرابعةِ من عمرها ورضيع. لكنّهما في تلك الليلة في بيت دِنيس لم يكن اللذان جاءا شبَحَيْن من الماضي، بل شرَبات وأخوها كما كانا في تلك اللحظة بعد ستٍّ سنوات. حين انسحب الطفلان بأدبهما الدائم ذاته، شعر الجندي بأن المخلبَ الذي كان يشدّ على قلبِهِ خلال تلك السنوات الستّ قد أفلتَهُ فراح يُجهش راحةً وامتناناً، لأنّ شرَبات وأخاها كانا حيَّين ونجيا من أهوال الحرب. وعدهما بأن يذهب ليبحث عنهما ما

إن يُنفّذَ مهمّته الأخيرة كجندي نخبة: إنقاذ المرأة الوحيدة التي يستطيع أن يُحبّها.

فاجأ الحلم ميلر بعد دقيقة. نام مبللَ الخدّين بالدموع.

آمل أن تغفري لي أنّني أوقعتُ بك بدور كارول، سبق ووضّحتُ لك أنّه كان مزحةً لا خبث فيها. كلّ الذي كنتُ أريدُهُ هو أن أقتربَ منك. فكّرتُ أكثرَ من مرّة أنّكَ انتبهت إلى أنّ كارول رجلٌ وأنك قد قبلت بالوضع، كما تقبلين كلَّ شيء تقريباً، لكنّكِ في الحقيقة لم تهتمّي قطّ بالنظر إليّ، بمعرفتي بعمق. بالنسبة لكِ كان ما بيننا صداقةً سطحية، لكنّها كانت بالنسبة لي بأهمّية مهمّتي.

كما ستُدركين، يا إنديانا، إنّ التخلّصّ من إدْ ستيتون، الزوجَيْن فاركاس والزوجَيْن كونستانت وريتشارد أشتون وراشيل روسين، ما كان ليمرّ دون أن يلفت الانتباه، كان أساسيّاً أن يعلم الجمهورُ بذلك. كان باستطاعتي أن أفعله بحيث يبدو حادثاً عرضياً، ما كان لأحدٍ أن يقوم بالتحقيق وما كنتُ لأنشغلَ، لكنّ هدفي كان دائماً أن أصلحَ أمثالَهم من الكائنات الفاسدة الأخرى، الذين ليس لهم الحقّ بأن يعيشوا في المجتمع. كان يجب أن يكون واضحاً بالمطلق أنّ ضحاياي حُوكِموا وأُدينوا بالموت وأُعدموا. نجحتُ في كلّ الحالات، على الرغم من أنّني كنتُ على وشكِ أن أفشل مع الزوجَيْن فاركاس، لأنَّ الشرطة لم تُحلّلِ محتوى الجين، على الرغم من أنّني تركتُ الزجاجة في المقطورةِ قصداً. عرفتُ توّاً أنّ زوجك السابق اكتشف أنّ الكحول كان يحتوي على مُخدِّر. بعد ثلاثة أشهر! وهذا ما يبرهن لك عن عجز الشرطة.

كانت خطّتي أن يكون خبراً في وسائل الإعلام وأن أستنفرَ من لديهم ضميرٌ قذر، لكنّ الصحفيين كسالى والجمهور غير مبال. كان عليّ أن أجدَ الصيغة كي ألفتَ الانتباه. في أيلول من العام الفائت حين بقي أقلُّ من شهر على تنفيذِ أوّل عملية إعدام، إعدام إدْ ستيتون. رأيتُ في التلفزيون تِلِسْتِ روكو مع برج اليوم. المرأة رائعة،

يجب أن أقول ذلك، نجحت في أن تسحرني، على الرغم من أنّني لا أؤمن بالتنجيم، يستحقّ برنامَجُها هذه الشعبية. خطر لي أن أستخدِمها كي أعطي مهمتي الدعايةَ المستحقّة فأرسلتُ إليها خمسَ رسائل قائلاً لها سيكون هناك في سان فرانسيسكو خمسةُ حمامات دم، أعتقد أنّها استبعدت الأولى كمزحةٍ والثانيةَ كعمل معتوهٍ، لكن لا بدّ أنّها صبّت اهتمامها على الرسائل التالية ودرسَتْ، إذا كانت بالمهنية التي تتحدّث عنها، النجوم.

خذي بالحسبان الإشارة الخفيّة، يا إنديانا، التي هي عاملٌ جبّار جداً. بحثت روكو في النجوم عمّا أرادت أن تجده: التنبّؤ بحمّام الدم المعلن في الرسائل التي تلقتها. ووجدتْهُ بالطبع، تماماً كما ترين أنتِ أنّها أصابت في برَجك. التنبؤات ضبابية جداً ومن يؤمنون بالتنجيم، مثلك، يُفسّرونها بحسب رغباتهم. ربّما رأت روكو التنبؤ مكتوباً بالدم في قبةِ السماء وقرّرت أن تُحذّر الجمهور، تماماً كما كنتُ آمل. حسن، يا إنديانا، أؤيّدكِ رغبةً بالتحليل، بأنّ من المحتمل ألا يكون الأمرُ كذلك؟

ما الأوّل، البيضة أم الدجاجة؟ ربّما حدّدَ وضع الكواكب مهمّتي. أيّ أنّها كانت مكتوبة منذ ولادتي. أنا أقتصر على تنفيذ قدري، كان حتمياً. لن نعرف هذا أبداً. صحيح؟

الجمعة، 6

في الرابعة فجراً حين نامت أماندا أخيراً في سرير جدّها، ملفوفةً بصدريته، ممسكةً بيده وأنقذ-التونا على وسادتها، رنَّ جوّالها، الذي تركته موصولاً على طاولةِ الليل. بلاك الذي لم يتمكن من النوم كان جالساً في العتمة، مشدودا لمرور الوقت في عقارب الساعة

المضيئة، انتفض، بداية على الأمل المجنون بأنٍ تكون ابنته، طليقة أخيراً ثمّ وعلى الفور على ضيق أن تكون أخبارا سيّئة.

اضطرّ شارلوك هولميز أن يُكرّر اسمه كي يُدرك الجدُّ من يكون. لم يحدث هذا من قبلُ قط. إحدى قواعد اللعب كانت ألا يكون هناك اتصال جانبي بين لاعبي لعبة *نازع الأحشاء*.

- أنا شارلوك هولميز. أحتاج لأن أتكلّم مع المُعلّمة —قال الصبيّ في رينو.
- أنا كابل، ما الأمر؟

استيقظت أماندا عندما سمعت صوتَ جدِّها وانتزعت الهاتف من يده.

- يا مُعلّمة عندي معلومة —قال شارلوكٍ.
- ما هِي —سألت أماندا، مستيقظة تماماٍ.
- تحققتُ من شيء يمكن أن يكون مهمّاً: فاركاس يعني ذئب بالهنغارية.
- ما هذا الذي تقوله لي؟
- ما سمعتِهِ. بحثتُ عن ترِجمةِ ذئب في عدّةِ لغات واكتشفت أنّ فاركاس بالهنغِارية تعني ذئبا.
- هذا لا يدلنا علي مكان أمّي.
- لا، لكن يعني أنّه إذا كان القاتلُ قد تبنى رمزَ الذئب فذلك لأنّه مرتبط بشارون وجوي فاركاس. كان ِيعرف هذا قبل أن يرتكب جريمة قتلهِ الأولى، قتَلَ إدْ ستيتون وترك توقيعَ الذئب أو فاركاس في كلّ مشهد منِ مشاهد الجريمة.
- شكرا، يا شارلوكٍ. آمل أن يفيدني بشيء.
- ليلة سعيدة، يا مُعلمة.
- ليلة سعيدة؟ هذه أسوأ ليلة في حياتي...!

درستْ أماندا وجدُها تلك المعلومة الجديدة بعد أن قطعت الاتصال بشارلوك فكّرا كيف يمكن أن يستفيدا منها لحلّ تلك المعضلة.

– ما اسم الطفل الذي ضاع من الزوجين فاركاس؟ –سألت الفتاة متوتِّرةً إلى حَدٍّ أنّ أسنانها كانت تصطك.

– أرجوك، يا رائعتي، اهدئي وحاولي أن ترتاحي، عملتِ أكثر من اللازم، الآن دور الشرطة.

– هل تعرف ما كان اسمه أم لا؟ –صرخت به.

– أعتقد أنّه كان يُدعى أنطون. هذا ما قاله أبوك.

– أنطون فاركاس، أنطون فاركاس –كرّرت وهي تسير في دوائر في الغرفة.

– هذا هو اسم شقيق جوي فاركاس، الذي ذهب ليتعرّف على الجثّتين. هل تعتقدين أنّ... –قال الجدّ.

– هما الحرفان المحروقان على مؤخرتي الزوجين كونستانت. الحرفان الأوّلان! –قاطعته الحفيدة.

– F على ميشيل وA على دوريس –ذكّرها كابل.

– البطاقة التي عثروا عليها في المقطورة كانت موقعة بهذا الاسم. كانت دعوة للقاء في مخيّم روب هيل في العاشر من كانون الأوّل من العام الماضي، لكنّ أخا جوي فاركاس نفى أن يكون أرسلها، على الأقل هذا ما صرّح به للشرطة.

– صحيح، يا جدّي، هو لم يرسلها قط. كانت الرسالة من أنطون فاركاس آخر، ابن شارون وجوي فاركاس. هل فهمت، يا كابل. الزوجان فاركاس سافرا إلى سان فرانسيسكو مع ابنهما وليس مع شقيق جوي. الشخص الذي استقبلاه في المقطورة هو ابنهما الذي أضاعاه.

– يجب أن نهتف لأبيك –قرّر بلاك جاكسون

– انتظر. امنحني دقيقة كي أفكر. علينا أيضاً أن نهتف فوراً إلى ريان. الأفضل أن نقوم بذلك عبر الهاتف.

دقّ بلاك جاكسون الرقم السرّي الذي أعطاه له ألاركون. رنّ الجهاز مرّتين فقط، كما لو أنّ الأوروغواني كان ينتظر المكالمة.

– بدرو؟ اعذرني على الساعة –قال بلاك ومرّر الجوّالَ لحفيدته.

- عليك أن ترسل رسالة إلى ريان. قل له إنّ فاركاس يعني ذئباً بالهنغارية. ابن الزوجين فاركاس اسمه أنطون. لي غالِسبي كان يعرف اسمَهُ ومَنْ أبواه حين وضعَ لائحة الأشخاص الذين سيقتلهم. أعتقد أنّه ليس هناك أثر للي غالِسبي ولا لكارول أندروود لأنّه يستخدم اسمه الحقيقيّ. قل له إن أنطون فاركاس هو الاسم الحقيقيّ. علينا أن نعثر عليه خلال العشرين ساعة القادمة.

وعلى الفور أخبرت أماندا أباها، الذي ذهبَ إلى شقته لأوّل مرة منذ الأسبوع الماضي، وارتمى على سريره بلباسه وحذائه. أيضاً ردّ على الهاتف فوراً فكرّرت أماندا عليه الرسالة.

- عليك أن تلقي القبض على أنطون فاكارس، يا أبي وإجباره على أن يقول أين هي أمّي. اقْتَلِعْ أظافرَهُ، إذا تطلب الأمر. هل سمعتني؟

- نعم، يا بنيتي، أعطني بلاك.

- نعم، أنا هنا، يا بوب-قال الجدّ.

- -الآن هذه القضية بين يديّ، يا بلاك. سأجعل كلّ شرطة سان فرانسيسكو وبقيّة الخليج جميعاً يبحثون عن أنطون فاركاس وسوف أستنفر مكتب المخابرات المركزية. أعتقد أنّ أماندا الآن على وشك أن تعاني من أزمة عصبية، لا تستطيع أكثر، هل تستطيع أن تعطيها مسكناً؟

- لا، يا بوب، نحتاج لأن تكونَ أكثرَ فطنةً في الساعات المقبلة.

في العاشرة صباحاً اتصل ميلّرْ بالمشاركين في لعبة *نازع الأحشاء* عبر السكايب من دون صورة، لأنّ دِنيس لم تكن موجودة كي تظهر مكانه. كان يومَ سوق وخرجتْ باكرا جدّا بصناديق بيضها الطازج وفراريجها ومرطبانات محفوظاتها ولن تعود حتى المساء.

- ما الذي يحدث لكاميرا حاسوبك يا جِزابل؟ -سألت أماندا، التي كانت بجانب جدّها في المطبخ والاثنان على الحاسوب ذاته.

- لا أدري، ليس عندي وقت لإصلاحها الآن. هل تسمعونني جيّداً؟
- تماماً، لكنّ صوتك غريب –قال الكولونيل بادينغتون.
- لوزتاي مُلتهبان.
- هذه آخر أخبار اليوم، أيّها اللاعبون. تقدّم يا كايل –أمرت مُعلِّمة اللعب.

قدّم بلاك خلاصة ما تمّت مناقشته في اجتماع قسم جرائم القتل. كان الصبية قد أحيطوا علماً بأن كارول أندرووتر هي لي غالِسبي وبأنّ الشرطة لم تهتدِ إلى مكانه. أضاف الجدّ اكتشاف أماندا لأنطون فاركاس.

هتفتُ هذا الصباح لِجِزابِل كي تبحث عن أنطون فاركاس. فهي أفضل محقّقة عندنا– قالت أماندا دون أن تُوضّح أنّها تكلّمت مرّتين معها في ذلك الصباح ذاته.

- اتفقنا على ألا يكون لأحد امتياز على الآخرين! –طالب بادينغتون منزعجا.
- ليس لدينا وقت للشكليات، يا كولونيل. فالمعركة بدأت، لم يبق غيرُ ساعاتٍ قليلة لمنتصفِ الليل ولا نعرف أين هي أمّي. يمكن أن تكون قد ماتت –قالت أماندا، بصوت مخنوق.
- إنّها حيّة، لكنّ طاقتها واهنة جدّاً –قالت أباثا بنبرة الأرقة الرتيبة– موجودة في مكان كبير جدّاً، بارد ومعتم، يُسمع صراخٌ وزعيق. أيضاً أحسّ بوجودِ أرواحٍ من الماضي تحمي أمّ المعلمة.
- ماذا اكتشفتِ، يا جِزابِل؟ –قاطعها شارلوت هولميز.
- قبل كلّ شيء علينا أن نشكر شارلوك وأماندا. أعتقد أنّنا بفضلهما على وشك أن نحلّ هذا –قالت جِزابِل

راحت على الفور تُوضّحُ لهم أنَّ من حسن الحظّ أنّ أنطون فاركاس ليس اسماً شائعاً. عثر فقط على أربعة أشخاصَ يحملون هذا الاسم في كاليفورنيا: شقيق جوي غاركاس في إوريكا، عجوز في دارٍ للرعاية في

لوس أنجِلوس، رجلٌ آخر في ساكرامِنتو والأخير في ريشموند. هتفت لأوّل رقم وتلقت جواباً آلياً: "هذا هو أنطون فاركاس، بنّاءٌ مُرخّص، مُفتّش ومُقيّم عقارات، اترك رسالتك وسأهتف لك بأسرع وقت ممكن". هتفت للرقم الثاني وسمعت التسجيل ذاته تماماً. أي أنّ الأمر يتعلّق بذات الشخص.

– هذا أهمّ ما لدينا! —صاح الكولونيل بادينغتون.

– لا يوجد عنوان بريدي لفاركاس في أيّ من المدينتين، فقط صناديق بريد —قالت جِزابِل.

كانت أماندا وبلاك يعرفان هذا، ليس فقط لأنّ ميلِرْ قاله لهما، بل لأنّ بوب مارتين فعل ذلك أيضاً. كانت عناوين الأشخاص الذين يستأجرون صناديق بريد سرّيةً، ويتطلّب الحصول عليها مذكّرة قضائية. أضاف أنّه لا يملك سلطة قضائية في تلكما المدينتين. فقط في سان فرانسيسكو، لكنّ عندما علم الشرطيان الفدراليان، اللذان لم يكونا بحاجة لمذكّرة قضائية، بما كان يجري عرضا نفسيهما فورا للمساعدة. في تلك اللحظة ذاتها كانت لورين باركوت في ريشموند ونابليون فورنيير الثالث في ساكرامِنتو. ما لم يكن الجدّ والحفيدة يعرفانه هو أنّ ريان ميلر وبِدرو ألاركون تحقّقا من شيء آخر.

– هل قلتِ أنّ أنطون فاركاس هذا مفتّش عقارات؟ —سألت إسمِرالدا جِزابِل.

– بلى، لِهذا خطرَ لي أن أُلقي نظرة على الكشوف العقارية الأخيرة التي وقعها أنطون فاركاس في ساكرامِنتو وريشموند، حيث لا شكّ يعمل. هناك واحد منها لا يلفت الانتباه ويلتقي مع الذي وصفته أباثا: واينهافن. إنّها معصرة عنب قديمة في بوينت مولات، حيث كانوا يصنعون النبيذ حتى عام 1919، حين توقّفت عن العمل. شغلتْهُ البحريةُ خلال الحرب العالمية الثانية، وتعود ملكيته الآن إلى مدينة ريشموند —ردَّ ميلر، في دوره كجِزابِل.

- مهمّ جدّاً —قال بادينغتون.
- البناء هائل ومهجور. استخدمت البحريةُ بيوتَ العمّال لإيواء الضباط وحوّلت الأقبية الشهيرة إلى مهاجع وبنت ملجأً مضاداً للطيران.
- هل يبدو لك مكانا مناسباً لإخفاء شخص مخطوف؟ —سألت إسمِرالدا.
- نعم. ممتاز، كأنه مصنوع على القياس، انسحبت منه البحريةُ في عام 1995 وواينهافن منذ ذلك الوقت خال. لا أحد يعرف ماذا سيصنعُ بالبناء. كان هناك مشروع غامض لتحويله إلى كازينو، لكنّه لم يلقِ رواجاً. ما زالت فيه بيوتُ عمال المعصرة. البناء الذي يبدو حصنا من العصور الوسطى أحمرُ اللون، ليس مفتوحاً للجمهور، لكن يمكن مُشاهدته من مركب فالييخو الذي يمرّ قريباً من هناك دون أن يتوقّف، ومن جسر سان رافائل. تعاقدت مدينة ريشموند مع أنطون فاركاس من سانَ رافائل للكشف على العقار.
- أنطون فاركاس أو لي غالِسبي، أو كارول أندرووتر كما تريدون أن تسموا الذئب. يمكن أن يكون قد وضعَ أمّي في أيّ من تلك البيوت المهجورة أو الحصن. كيف سنعثر عليها دون مساعدة من فريق عمليات خاصّة؟ —سألت أماندا.
- لو كنتُ الذئب وكان عندي رهينة لاخترتُ الملجأ المضاد للطيران، لأنّه لا بدّ أكثر حماية. هذه إستراتيجية أساسية —قال الكولونيل بادينغون.
- البيوت مسدودة وقريبة جدّاً من الطريق. ولا تنفع لتخبئة رهينة. أتّفقُ مع الكولونيل بأنّ الذئب سيختار الملجأ المضاد للطيران. وبما أنّ أنطون فاركاس مُكلف حديثاً للكشف عليه فهو يعرف كيف يتمّ الدخول إليه.
- ما الخطوة التالية؟ —سألت إسمِرالدا.
- أن نُخبر أبي! —صاحت أماندا.
- لا — ردعتها جِزابل—. إذا كان أنطونو فاركاس يحجز أمّك في فينهافن لا يمكننا أن نستنفر الشرطة، لأنّهم سيقعون على الحصن مثل جواميس مندفعة ولن نستعيد أمّك أبداً في الوقت المناسب.

- أنا متفق مع جِزابِل. علينا أن نعملَ من دون غيرنا ونأخذه على حين غرّة —وافق الكولونيل بادينغتون.
- لا تعتمدوا علي فأنا في كرسيّ متحرّك في نيوزلندا —ذكّرتهم إسمِرالدا.
- أقترح أن نطلبَ مساعدةَ ريان ميلِّر —تدخّلت جِزابِل.
- من؟ —سألتِ إسمِرالدا.
- الشخص المُتَّهم بقتل ألان كِلِّرْ.
- ولماذا منه؟
- لأنّه جنديٌّ من جنود النخبة.
- لا بدّ أنّ كِلِرْ صار على الطرف الآخر من العالم، ليس أحمقَ كي يبقى قريباً من مسرح الجريمة، تماماً حيث يبحثون عنه —قال شارلوك هولمز.
- لم يرتكب أيّاً من الجرائم. صرنا نعرف ذلك —تدخّلت أباثا.
- يمكن أن يكون قد بقيَ في منطقة الخليج كي يعثرَ على الذئب، أظنُّهُ لا يَثِق بفعالية الشرطة —ارتأى كابِلْ، وهو يشير بإشارات خرساء لحفيدته كي تكون حذرة فيما تقوله.
- كيف سنعثر على جنديّ النخبة؟ —سألتِ إسمِرالدا.
- أنا آخذ هذا على عاتقي. لأمرٍ ما أنا مُعَلمة اللعبة —أكّدت لهم أماندا.
- هذا الرجل سيُساعدنا، أشعرُ بذلك هنا وسط جبيني، في العين الثالثة —قالت أباثا.
- ما دام جاهزاً —قال بادينغتون، آسفاً لوجوده في نيوجرسي، لأنّ الوضعَ يتطلب وجودِ استراتيجي عسكريّ من مستواه.
- لنفترض أنّ المعلمة عثرت على ريان ميلِرْ. كيف سيَدخل إلى واينهافن؟ —أصرّت إسمِرالدا.
- جنود النخبة البحرية اقتحموا ملجأ ابن لادن في باكستان. لا أظنّ أنّ ميلر سيجدُ صعوبةً في الدخول إلى مكان مهجورٍ في خليج سان فرانسيسكو —قال الكولونيل.

- موضوع ابن لادن خُطِّطَ له على امتداد أشهر، ونَفّذت الهجومَ مجموعةٌ من جنود النخبة في مروحية، مُعَزّزين بالطيران. دخلوا عازمين على القتل. هذه ستكون عملية مرتجلة من قبل رجل واحدٍ وبهدفِ إنقاذ شخص وليس لقتله. أصعبُ شيء هو إنقاذ الرهائن أحياءً. هذا مُبرهَن علَيه—حذّرهم شارلوك هولميز.
- هل عندنا خيار آخر؟ –سألت إسمِرالدا.
- لا. لكنَّ هذا لعبُ أطفال بالنسبةِ لجندي النخبة —قالت جِزابل وندمت على الفور، لأنّ التبجّح قبلَ القيام بالعمل فألٌ سيّئ، كما استطاع أكثر من جنديّ أن يتأكد.
- سنعود ونتواصل في السادسة مساءً، بتوقيت كاليفورنيا. في هذه الأثناء سوف أحاول أن أعثر على ميلر —أمرت أماندا.

انسحب أربعةُ مُشاركين في لعبة *نازع الأحشاء* من السكايب، بينما بقيت معلمةُ اللعبة ومأمورُها مع جِزابل، أي ميلرْ يصغيان إلى خطة عمله. وضح لهما جنديّ النخبةِ أن واينهافن يتكوّن من عددٍ من الأبنية وأنّ أكبرها هو الذي يضمّ أقبيةَ النبيذ القديمة، فيه ثلاثة طوابق وقبو، حيث بنت البحريةُ الملجأ المضاد للطيران. كانت النوافذ محميّة بشَبَكات والباب المؤدّي إلى الملجأ من ناحيةِ الخليج مغلق بقضيبين فولاذيين متقاطعين والمنطقة مُسَيّجة خوفاً من أن تستخدم لهجوم إرهابيّ على مصفاة شيفرون النفطية القريبةِ. كان هناك حارسٌ أمنيٌ يقوم بجولتين ليليتين، لكنّه لا يدخل أبداً إلى الأبنية. لم يكن هناك كهرباء وبحسب آخر كشفٍ، كشفِ أنطون فاركاس، فإنّ المكانَ غيرُ آمن بتاتا، ويغرق بشكل متكرّر أثناء العواصف أو حين ترتفعُ مياه الخليج. كانت ألواح الأرضية فالتة وهناك أنقاض ناتجة عن انهيارات في السقف وفجوات عميقة بين الطوابق.

- هل تعرف كيف هو الملجأ؟ –سأله بلاك.
- إلى هذه الحدّ أو ذاك. ليس واضحاً في المخطّطات. القبو هائل. في السابق كان هناك مصعد، الآن ما عاد موجوداً. لكن لا بد

أن هناك دَرَج. بحسب مخطّط البحرية للقبو قدرةٌ على استيعابِ فرقةً كاملةً من الجنود والضباط، إضافة إلى مشفى ميدانيّ.

– كيف تُفكر أن تدخل؟ –سألته أماندا.

– هناك باب في الطابق الثاني يُشاهد من الطريق –قال ميلر– بِّدرو في بوينت موليت، هتف لي توّاً. يقول إنّه نجحَ في أن يُصوّر من الشبك البابَ بالعدسة التلسكوبية . إنّه من الحديد وفيه قفلان صناعيان من السهل بحسب قوله فتحهما. طبعاً أيّ قفل بالنسبة إليه مثل شرب الماء.

– أعتقد أنّ بِّدرو سيذهب معك –قالت أماندا.

– لا. بدرو لا يملك تدريبي، سيكون حجر عثرة. ثمّ إنّ عليه أن يمضي بحذر، لأنّ أباكِ وضع له رجلَ تحر ليلاحقه. لا أعرف كيف ضلّله كي يذهب إلى بوينت موليت ولا كيف سيتدبّر أمره كي يوصل إليّ ما أنا بحاجة إليه.

– هل يستطيع أن يُعلّمك كيف تفتح القفلين؟

– بلى، لكنّ الأمرَ يتعلّق بواحد من تلك الأبواب التي تُلفّ. إذا حاولتُ أن أفتحه أو أن أكسر نافذة ستحدث ضجّة كبيرة. عليّ أن أبحث عن مدخل آخر.

يُسعدِني أنّكِ مستيقظة أخيراً، يا إندي. كيف تشعرين بنفسك؟ أنتِ ضعيفة، لكنّك تستطيعين أن تمشي، وإن كنتِ لا تحتاجين لفعل ذلك. في الخارج يسطعُ يومٌ رائع، لا يوجد برد، المياهُ بلورية، والسماء صافية وتوجد نسمة، يومٌ مثاليّ للرياضيين. تشاهد مئات الزوارق الشراعية في الخليج. ولا يخلو الأمر أبدا من متزلجين مجانين يطيرون فوق الماء. هناك أيضا نوارسُ كثيرة، يا لها من طيور صاخبة! هذا يعني أن الصّيد جيد وسيأتي الأجدادُ الصينيون ليصيدوا حولَ المنطقة. نحن على مقربةٍ من محطةِ سفن صيد الحيتان القديمة، المُتوقّفة عن العمل منذ أربعين سنة. الأخيرة التي كانت قد تبقت في الولايات المتحدة. كانوا يأتون بالحيتان من المحيط الهادي قبل قرن مضى وكان

ما يزالُ هناك بعضُها في الخليج. قاع الخليج مزروع بالعظام، يقولون إنّ فريقاً من أربعين رجلاً كان باستطاعته وقتذاك أن يُحوّل حوتاً إلى زيت ولحم للعلف وإنّ الرائحة كانت تصل حتى سان فرانسيسكو.

هل تعلمين أنّنا على بعد أمتار قليلة من الماء؟ ما هذا الذي أقوله! كيف ستعرفين إذا لم تسنح لك الفرصة كي تستنشقي الهواء. ليس عندنا شاطئ والعقارُ لا يمكن الوصول إليه من الخليج. كان هذا مستودع محروقات للبحرية خلال الحرب العالمية الثانية وما زال هناك نشرات تعليمات مغبرة، ومعدات صحية وبراميل مياه ذكرتُها لك في يوم سابق. تعود إلى عام 1960.

تُضحكني ابنتُك، إنها بنت ماكرة ومعاكستها باللعب مشجعة: وضعتُ لها بعضَ الرموز وراحت تكتشفها كلّها تقريباً. أنا واثق من أنّه خطر لها أنّ الذئبَ هو أنطون فاركاس، لذلك تتعقبه الشرطةُ الآن، لكنّهم لن يعثروا إلا على صناديق بريدٍ وبعض الهواتف، حيلةُ ساحر، أنا في هذا مُعَلم. حين عرفتُ أنّهم يبحثون عن فاركاس أدركتُ أنّ أماندا ستربط آجلاً أو عاجلاً بين مُفتّش العقارات وهذا الحصن. لكنّها لن تدرك ذلك في الوقت المناسب أبداً وعلى كلّ الأحوال أنا جاهز.

أخيراً جاءت الجمعة الحزينة، يا إندي، اليوم ينتهي اختطافُك، الذي لم أُطِلْهُ بهدف أن أُعاقبك. تعرفين أنّ القسوة تُثير قرفي، تحدث تشويشاً وقذارة وفوضى. كنتُ أُفضّل أن أوفر عليك بعضَ الإزعاجات، لكنّك رفضت أن تستعملي عقلَكِ، رفضتِ أن تتعاوني معي. وتاريخ اليوم لم يتم اختياره اعتباطاً أو ارتجالاً، بل لعلاقته بالتقويم القمري. التواريخُ مُهمّة وكذلك الشعائرُ، لأنّها تُضفي على هذه الأعمال البشرية معنىً وجمالاً وتُساعدُ على تثبيت الأحداث في الذاكرة. لي شعائري. مثلاً إعداماتي تكون دائماً في منتصف الليل، الساعة الغامضة التي يُرفع فيها الحجابُ الذي يفصل الحياةَ عن الموت. محزن أنّه لا

يوجد في الحياة الحديثة إلا القليل من الشعائر الدنيوية، كلّها دينية. المسيحيون مثلا يحتفلون في الجمعة الحزينة بطقوس وقورة. هي ثلاثة أيام من الحزن، يحتفلون بصلب المسيح، جميعنا نعرف ذلك، لكنْ قليلون من يعرفون على ما يقومُ الصلبُ بالضبط، تعذيب مريع، موت بطيء. المحكوم يُربطُ أو يُسَمَّرُ على خشبتين، واحدة عمودية وأخرى أفقية، هذه هي الصورة الأشهر، لكن هناك صلب بطرق أخرى، والاحتضارُ يمكن أن يدوم ساعاتٍ أو أسابيع، بحسب الطريقة، والحالةِ الصحيَّةِ للضحيّة والموت يأتي من الذبول، تَسمّمِ الدم، سكتةٍ قلبية، تجفافٍ أو من خليط من كلّ هذه الأسباب، أيضاً من فقدان الدم في حال وجود جروحٍ أو لأنّهم كسروا ساقَيّ المحكوم، كما اعتادوا أن يفعلوا قديما لتسريع العملية. هناك نظريّة تقول بأنَّ وضعيةَ الذراعين المدودين تُصعِّبُ بمقاومتهما لثقل الجسم عمليّةَ التنفس والموت يأتي اختناقاً، لكنّ هذا ليس مُثبتاً.

كان الربيعُ جليّاً في اليومِ المشمس وانفجار الألوان في محلات السوق، التي كان يجول بينها حشد بثَياب خفَيفة وروح احتفاليةٍ يشترون الثمار والخضار والأزهار واللحوم والخبز والطعام الجاهز. في المدخل فتاة عمياء بلباس الفلاحة الطويل ولفة شعر النساء المِنونيتيات[26]، تُغنّي بصوتٍ ملائكيّ وتبيعُ أقراصَ أغانيها، على بعد مئةِ متر منها فرقةٌ موسيقيين بوليفيين، بلباسهم التقليديّ وآلات موسيقى الهضبة، يُمتعون الجمهور.

عند الظهيرة اقتربَ بِدرو ألاركون ببنطلونه القصير وصندلهِ وقبعةِ قشّهِ من الظلّة التي كانت دنيس وست تبيع تحتها منتجاتِ خُمِّ دجاجِها ومطبخها. رجل تحرّي قسمِ جرائم القتل الذي كان يتبعِ بِّدرو منذ عدّة أيّام، خلع سترتَهُ وراحَ يُهَوّي لنفسه بمنشورٍ بيئي

26 فرع مسالم وتثليثي من تيار التعميد الجديد الذي يعتبر أتباعه بأن تعميد الطفل غير صالح لأنّ التعميد لا يكون إلاّ للمؤمن، ظهر في القرن السادس عشر في مدينة زيوريخ

وضعه أحدُهم في يده. راقب من مسافة أمتار قليلة، متخفياً بين الناس، الأوروغواني، الذي كان يشتري بيضاً ويُغازلُ البائعة، المرأةَ الناضجة والجذّابة، بجديلتها الرمادية على ظهرها وثياب الحطاب، لكنّه لم يرَ كيفَ مرّر لها مفتاحَ سيّارته. تبعَ بعدها وهو يتصبّب عرقاً بِّدرو ألاركون في مِشواره من بسطةِ إلى أخرى، وهو يشتري، ببطءٍ مُثير للأعصاب، جزرةً من هنا وبضعةَ عروق بقدونس من هناك. لم يعرفْ أنَّ دِنيس وست ذهبت في تلك الأثناء إلى موقف السيارات، أخرجتْ طرداً من سيارة بّدرو ووضعتْهُ في شاحنتها الصغيرة. لم يستغرب رجلُ التحرّي أنّ بِّدرو مرّ، قبل أن يُغادِرَ السوقَ، ليودّع المرأةَ التي كان يُغازلها قبل قليل، بل ولم ينتبه حين استعاد هذا مفتاحَهُ منها.

أوقفت دِنسي وست بيعها باكراً فكّت ظلتَها، وضعت أشياءها في الشاحنةِ وذهبت بالاتجاهِ الذي أعطاه لها بّدرو ألاركون، على مقربة من مصبٍّ نهر بِتالوما، وهو امتداد واسع من الأقنيةِ والسدود. كلفها جهداً العثورُ على المكان، لأنّها كانت تتوقّع شيئاً مثل خيمة رياضة مائية، لكنّ الذي حدث هو أنّه كان بيتاً في حالةٍ سيّئة، يبدو مهجوراً. أوقفت سيارتها الثقيلةَ في موحلةٍ ولم تجرؤ على المتابعة خوفاً من أن تبقى عالقة في الطين. ضغطت على الزمور عدّة مرات وفجأة انبثقَ كما لو بفعل سحر على بعد أقل من متر من نافذتها عجوزٌ مُلْتحٍ ومُسَلّحٌ ببندقية. صرخ بها الرجلُ بكلام غير مفهوم مسدّداً سلاحه عليّها، لكنّ دِنيس لم تصل إلى هناك كي تتراجع أمام أوّل عائق. فتحت البابَ، نزلت ببعض الصعوبة، لأنّ عظامها كانتَ تؤلمها وواجهت الرجلَ ويداها على خصرها.

- أنزلْ هذه البندقية يا مستر، إذا كُنت لا تريدني أن أنتزعها منك. أخبركَ بّدرو ألاركون بأنّني قادمة، أنا دِنيس وست.

- لماذا لم تقولي لي هذا من قبل؟ -دمدم الرجلُ.

- أقوله لك الآن.

- هل معك أشيائي.

ناولته المغلّف الذي أعطاه لها بِّدرو ألاركون فعدَّ الرجل الأوراقَ المالية ببطء وما إن رضي حتى أدخل إصبعين في فمه وأطلقَ صفرة مدوّية. بعد دقائق وصل فتيان ضخمان مع كيسَين كبيرين من الخيش ووضعاهما دونِ احتفالية في الجزء الخلفي من الشاحنة. كانت الشاحنةُ، تماما كما تخوّفت دِنيس، عالقةً ولم يجرؤ الثلاثة على الرفض عندما طلبت منهم أن يدفعوها كي تستطيع الخروج.

وصلت دِنيس إلى بيتها عند المغيب حين كان ريان ميلّرْ قد أعدّ عدّتَهُ بعناية، تماما كما كان يفعل في كلّ مهمّةٍ أيامَ كان جنديَّ نخبة. كان يشعر بالثقة، كما في ذلك الوقت، على الرغم من أنّ أخوته في السيل تيم6 ليسوا معه ولا يملك الأسلحة المتنوّعة التي يفوق عددها الأربعين وكانت هناك تحت تصرّفه. كان قد حفظ عن ظهر قلب مخططات داخل واينهافن. كان قبو التخمير قد أنْشِئ بعد زلزال 1906 في بوينت موليت، حيث لم يكن يوجد وقتها غير بضعِ عائلاتٍ صينية تصيدُ القُرَيدس، طُردت. كان العنب يصل من كروم كاليفورنيا في مراكب كبيرة ويُصنّعهاَ أكثرُ من أربعمئة عامل دائم، يُنتجون نصف مليون غالون من النبيذ شهريّاً، لتلبيةِ الطلبِ الكبير في بقية البلد. التجارة انتهت بشكل فجائيّ في عام 1919مع منع الكحول في الولايات المتحدة، الذي سيستمرّ ثلاثَ عشرة سنةً. بقي الحصنُ خاليا أكثر من عشرين عاما إلى أن حوَّلتهُ البحريةُ إلى قاعدةٍ عسكرية، حصل ميلّرْ على مخطّطاتها دون صعوبة.

أنزلت دِنيس وهو الكيسَيْن من الشاحنة وفتحاهما في الفناء: كان الأوّل يحتوي على الهيكل والثاني على غطاء زورق كاياك كلِبّبر السليل المباشر لكانوات الأسكيمو، لكنّ هيكله صنع، بدل الخشب وجلد الفقمة، من الألمنيوم والبلاستيك القابلِ للطي وغطاء كتّان كتيم. لم يكن يوجد ما هو أكثر صمتاً وخفة وعمليّة من هذا الزورق الكَلِبّر،

المثالي بالنسبة إلى خطة ميلِّر، الذي كثيراً ما استخدمه أيام عمله في البحرية في مياه أعلى موجاً بكثيرٍ من مياه الخليج.

- يدرو أرسل لك هذا —قالت له دِنيس، مُسلّمة إيّاه الطردَ الذي أخرجته من سيارة الأوروغواني.

كان فيه درعٌ من الكتّان لأتيلا والقميص الكشميري الطحينيّ الذي أهداه كِلِّرْ لإنديانا قبل سنوات. عثر عليه ألاركون في سيارة ميلر وقرّرَ الاحتفاظ به قبل أن يقوم بتنفيذِ ما كلّفه به للتخلص من السيارة. ترك الشاحنة الصغيرة في مرآبٍ سرّي مخفي بين مستودعات خشب هونترز بوينت، حيث ستقوم عصابة من اللصوص المتخصصين بتعديلها كي يبيعوها في المكسيك. لقد حانت لحظة استخدام القميص.

- أنت تعرف رأيي بهذا —قالت دِنيس.
- لا تهتمّي ستكون عندي رؤية جيّدة —ردّ ميلِّرْ.
- هناك ريح شديدة.
- لصالحي — قال ميلِّرْ، لكنّه امتنع عن ذكر عوائق أخرى محتملة.
- هذا تبجّح، يا ريان. لماذا ستذهب وحدك لتدخل في فم الذئب؟ حرفيا.
- للفحولة، يا دِنيس.
- يا لك من وحش! —تنهّدت هي.
- لا، يا امرأة. الحقيقة أنّ عديم الضمير هذا معه إنديانا والطريقة الوحيدة لإنقاذها حيّة منه هي أخذه على حين غرّة، دون منحهِ فرصة لردّ الفعل. لا يمكن فعل ذلك بطريقة أخرى.
- يمكن أن تكونَ مُخطئاً وصديقتك ليست مخطوفة في هذا المكان، أو يمكن أن يقتلها الذئبُ ما إن تقترب، هذا إذا لم يكن قد فعل ذلك.
- لن يحدث هذا، يا دِنيس. فالذئب شعائريّ سينتظر حتى منتصف الليل، كما فعل في كلّ الحالات. سيكون هذا سهلاً.

- بالمقارنة مع ماذا؟
- إنّه رجل وحيد، مجنون هاذٍ وترسانته تقتصر على فرد كهربائي، مخدراتٍ، وسم وسِهام. أشك

أن يعرف استخدامَ بندقية صيد. ثمّ إنّه يرتدي ثياب امرأة.

قد يكون هكذا، لكنّه ارتكب ثماني عمليات قتل.

أعلمت معلّمةُ اللعبة في السادسة مساءً لاعبِي *نازع الأحشاء* بأنّها عثرت على جنديّ النخبة، وحكت لهم الخطّة بخطوط عريضة فتمت الموافقة عليها بحماس من قبل السير إدموند پادينغتون وبالشك من قبل شارلوك هولميز وكانت أباثا أقل انسجاما من المعتاد، مستنفدَة على المستوى النفسي بسبب الجهد المرهق من التواصل بالتخاطر مع أمّ أماندا. كان هناك تداخلاتٍ والرسائل مبلبلة، وضّحت. في الأيّام الأولى كانت تتراءى لها طافيةً في ليل الأفلاك وتستطيعان أن تتكلما، لكنّ روحَ إنديانا ما عادت تُبحر بحرّيَة. الذنبُ كان أيضا ذنبَها، اعترفت، ذنب الحرُيرات الخمسمئة التي تناولتها في اليوم الماضي، التي تركت هالتها مشطبة مثل حمار الزرد وكرشها ملتهبا.

- أمّك ما زالت حيّة، لكنّها يائسة. في هذه الظروف لا أستطيع أن أدخل إلى عقلها- أضافت.
- هل تعاني؟ -سألتها أماندا.
- نعم، تُظهِرُ كثيراً منه. -قالت أباثا فردّت أماندا بإجهاش.
- هل فكرتمَ ماذا سيحدث إذا فشل ميلرْ؟ -قاطعتها إسمِرالدا.

دقيقة طويلة مرّت دون أن يجيبها أحد، لم يكن باستطاعة أماندا أن تطرح احتمال أن يفشل ميلرْ، لأنّه لن تكون هناك فرصة أخرى. عند اقتراب الليل راحت شكوكها تزداد، ويزيد من سعيرها جدُّها، الذي كان يُفكر جدّياً بأن يهتف لبوب مارتين ويعترف له بكلّ شيء.

- هذه مهمة روتينية بالنسبة لجنديٍّ نخبة -قالت لهم دِنيس وست في دورها كَجزابل، دون قناعة كبيرة.

- من وجهة النظر العسكرية، الخطّة جيّدة لكنّها خطيرة ويجب أن تُتابع من على الأرض —قال بادينغتون بشدّة.

- سيقوم بذلك بدرو ألاركون، صديقُ ميلر من خلال جوّاله ومنٍ خلال الـ جي بي سي. سيكون على بعد كيلومتر واحد، جاهزا للتدخّل. سنبقى أنا والمعلمة على تواصل معه —وضّح كابلْ.

- وكيف نستطيع أن نُساعد نحن؟ —سألت إسمِرالدا.

- بالصلاة، مثلا أو بإرسال طاقة إيجابية إلى واينهافن —اقترحت أباثا—. أنا سأصرّ على التخاطر، عليّ أن أقول لأمّ أماندا أن تتحمّلَ وتكونَ شجاعة، لأنّ المساعدةَ ستصلها سريعاً.

مرّت ساعاتُ المساء الأخيرة ببطءٍ خانق على الجميع وبخاصّة على ريان ميلرْ، الذي كان يُراقب بالمنظار عَيد الزوارق الشراعية في الخليج، يَعدُّ الدقائقَ كي تنسحب إلى أرصفتها. في التاسعة ليلا حين توقّفت حركة الزوارق تماماً ومرّت آخرُ عبّارة باتجاه فالييخو، تركته دِنيس وست مع أتيلا والزورق في سونوما غريك، أحدِ روافد نهر نابّا. كانت ليلة بلا نجوم والقمر بدرا، قرصا رائعا من فضّةٍ خالصة، يرتفع ببطء فوق هضاب الشرق. ساعدت المرأةُ ميلرْ على إنزالِ زورقِ الكلبّر إلى الماء وودعته دون حركات زائدة، متمنية له حظاً حسناً. سبق وقالت له كلَّ ما كانت تُفكّر به بما يخصّ العمليّة. كان جنديّ النخبة يشعر بأنّه جاهز، معه أنسب مسدّس لمهمّته، غلوك، نصف آلي صناعة أسترالية. كان قد ترك أسلحة أكثر فتكاً معلّقة على جدران شقّته لأنّه لم يشعر بضرورتها، لأنّها ما كانت لتفيده بشكل جيّد مثل الغلوك لإنقاذ إنديانا. أيضاً كان يحمل معه حربة كا-بار، النموذج ذاته الذي كان يُستخْدَم في الحرب العالمية الثانية، وعلبة الإسعافات الأوّلية النموذجي تحسّباً أكثر من أيّ شيء آخر، لأنّ عصبة جرح منعت نزفه في العراق والباقي قام به أتيلا. كان قد أوصى دِنيس بأن تشتري له أفضل نظارة للرؤية الليلية كلّفته مبلغَ ألف دولار، سيكون كلُّ اعتماده في واينهافن عليها. كان قد ارتدى

الأسودَ، بنطلوناً وقميصاً وبلوزة وحذاء ودهنَ وجهه بطلاءِ أحذيةٍ من اللون ذاته. عملياً كان غير مرئيّ ليلاً.

كان قد قدّر أنَّ عبورَ الخليج من تلك النقطة وحتى بوينت موليت سيستغرق معه ساعتينِ بسرعة أربع أو خمس عقد في الساعة، وهذا سيمنحُهُ هامشاً جيّداً قبل منتصف الليل. كان يثقُ بقوة عضلاته وتجربته في التجديف ومعرفته بالخليج. كان بِدرو ألاركون قد فتّش محيط واينهافن ونبّهه إلى أنّه لا يوجد هناك شاطئ ولا مرفأ وعليه أن يتسلق جداراً من الصخور كي يدخل إلى العقار، لكنّه لم يكن شديدَ الانحدار واعتقد أنّ أتيلا سيستطيع تسلقه أيضاً حتى في الظلمة. وما إن يصبح في المعصرة القديمة حتى يكون عليه أن يتصرف بحذر وسرعة وإلا فإنّه سيخسر مزيَّتَهُ. عاد ليراجع في ذهنه مخطط واينهافن بينما هو يُجدّفُ في مياه القنال الراكدة. كان أتيلا الجالسُ في الزورق منتصباً ومتيقظاً يتفحّصُ الأفق كبحار جيّد.

بعد خمس عشرة دقيقة دخل الزورقُ خليجَ سان بابلو واتجه نحو الجنوب. لم يكن الرجلُ يحتاج للبوصلة. كان يهتدي بأنوار ضِفتَيّ الخليج الواسع وبالعوّامات المضاءة التي تدلّ على المناطق التي يمكن للزوارق وعبّارات الشحن الإبحار فيها. كان باستطاعة الزورق أن يُبحر في مياه قليلة العمقَ وهذا ما كان يسمح له بأن يتوجّه مباشرة نحو بوينت موليت دون خوف مِن أن يرتطمَ بالقاع، كما حدث بزورقه ذي المحرّك. تحوّلت نسمة النهار اللطيفة إلى ريح شمالية، تصيبه في ظهره، لكنّها لم تكن تُساعده لأنّ المدّ كان يرتفع ويصبح قويّاً مع البدر، والريح تصطدم باتجاه الماء، محدثة أمواجاً؛ فيُجبره هذا على أن يُجدّف بجهدٍ أكبر من المطلوب عادة في تلك المنطقة. المركب الوحيد الذي رآه في الساعة التالية كانت عبّارة شحن راحت تبتعد باتجاه غولدِن غيت والمحيط الهادي.

لم يستطع ميلِّرْ أن يرى صخرتين كانت تعشش عليهما نوارس، وتحددان النقطة التي يتحول فيه خليج سان بابلو إلى خليج سان

فرانسيسكو، لكنّه تكهّن بالمكان الذي هو فيه، لأنّ المياه كانت تتموّج أكثر. تقدّم مرحلة أخرى ورأى أمامه أضواءَ جسر ريشموند-سان رافائل، الذي بدا أقرب مما هو في الواقع، والتيَ ستكون مرشده وأضواء المنارة القديمة، التي تحوّلت إلى فندق صغير وجذّابٍ للسيّاح المغامرين في واحدة من الجزيرتين الصغيَّرتين المسماتين بدوس هِرمانوس (الأخوين). سيجد واينهافن على يساره، قبل أن يصل إلى الجسر بقليل وبما أنّه كان يسير بلا أضواء سيكون عليه أن يُبحر قريباً من الشاطئ كيلا يتجاوزها. تابع تجديفه بعكس الموج، غير مبال بجهدِ عضلات يديْهِ وظهره، دون أن يفقد إيقاع حركاته الموزونَ. لم يتوقف إلا مرّتين كي ينشفَ العرق الذي كان يُبلِل ثيابهُ ويشربَ من ماء الزجاجة. "نحن نمضي بخير، يا رفقي"، أكدَ لأتيلا.

كان الرجل يشعر بالوجيف المعروف الذي يسبق المعركة. تبخّر كلُّ توهمه بأنّه يتحكم بالوضع وأنّه أخذ بالحسبان كلَّ الأخطار المحتملة حين ودّع دِنيس وست. كان جنديّاً مُجرّباً. يعرف أنّ الخروج من المعركة دون خدش مسألة حظ، حتى الأكثر خبرة يمكن أن يموت برصاصة طائشة. في سنواتِ الحرب كان دائماً على وعيٍ بأنّه قد يموتِ أو يُجرح في أيّ لحظة؛ وفي كلّ فجر كان يستيقظ ممتَنّاً وينام جاهزاً للأسوأ. ومع ذلك فهذا لم يكن يُشبّهُ الحرب التكنولوجية، المجرّدة وغير الشخصيّة، التي اعتادَها. ستكون هذه معركة عن مسافة قصيرة، وكان هذا الاحتمال يزيد من حماسه ولهفته. كان يرغب بها، يريد أن يرى الذئبَ وجهاً لوجه. لم يكن يخافه. في الحقيقة لم يعرف أحداً في الحياة المدنية يخافه، كان مُعَدّاً أفضل من أيّ شخص آخر، حافظ على لياقته، وفي هذه الليلة سيواجه رجلا وحيداً، كان واثقاً من هذا، لأنّه ما من قاتل على التسلسلِ يعتمد على شريك أو مساعِد. كان الذئب شخصية روائية، تافهاً، معتوهاً، حقيقة لم يكن خصماً جديراً بجنديّ نخبة. "قُلْ لي، يا أتيلا هل أنا أُقلّل من قيمة العدّو؟ أحياناً أقع في الغرور والغطرسة". لم يكن

باستطاعة الكلب أن يسمعه، كان جامداً في مكانه بعينه الوحيدة الثابتة على الهدف. "معك حق، يا رفيقي، إنّني أهذي"، قال ميلِرْ. ركّز على الحاضر وحده، على الماء، على إيقاع ذراعيه، مخطط واينهافن، على مينا ساعته الساطع، دون أن يستبق الفعل، دون أن يُراجع المخاطِر، دون أن يستحضرَ أخوتَهُ سيل تيم في وحدة النخبة 6، دون أن يأخذ بالحسبان ألا تكون إنديانا في الملجأ المضاد للطيران للقاعدة البحرية القديمة. عليه أن يُخرج إنديانا من عقله، فهذا الشرود يمكن أن يكون قاتلاً.

كان القمر قد أصبح عالياً جدّاً في السماء حين رسا الزورقُ أمام واينهافن، صرح من القرميد هائل، بأسوار سميكة حواجز فيها زغل وأبراج. كانت تبدو قلعة غريبة من القرن الرابع عشر في خليج سان فرانسيسكو الوديع، تشي تحتَ ضياءِ القمر الأبيض بالتهديد وسوء الطالع. كانت مبنية على جانب التلّ، بحيث بدت من جانب ميلر عالية جدّاً، لكنّ ارتفاع القسم الأمامي كان نصف ارتفاع الأجزاء الأخرى. كان المدخل الرئيسيّ من جانب الطريق يؤدّي مباشرة إلى الطابق الثاني، وهناك طابق آخر في الأعلى وآخر في الأسفل ثمّ القبو.

قفز جنديّ النخبة إلى الماء، الذي وصل إلى صدره. ربط المركب الهشّ إلى صخرة. تزوّد بسلاحه وذخيرته وبقيّة عدّته، انتعل حذاءيه اللذين كانا متدليين من رقبته وأشار لأتيلا كي يتبعه. دفع الكلب كي يصعد الصخور الزلقة وما إن أصبحا على اليابسة حتى جريا الأربعين متراً التي تفصل بين الماء والبناء. كانت الساعة الثانية عشرة إلا خمس وعشرين دقيقة. لقد استغرق العبور أكثر من المحسوب. لكن إذا تقيّد الذئب بعاداته، سيفيض عنهما الوقت.

انتظر ميلِّرْ دقيقتين ملتصقاً بالجدار، كي يتأكّد من أنّ كل شيء هادئٌ. فقط سمع نعيقَ بوم وحركةَ ديوك حبشية برّية على العشب، لم تفزعه لأنّ بدرو كان قد نبّهه إلى أن هناك أسراباً من تلك الطيور

الغبية في المنطقة. تقدّم في ظلّ الحصن، دار حول البرج الأيمن وواجه جدار الجانب الجنوبي، الذي رآه في إحدى صور بِدرو واختاره لأنّه لم يكن يُرى من الطريق، من حيث يمكن أن يمرّ الحارسُ. كان ارتفاع الجدار يتراوح ما بين الخمسة عشر والثمانية عشر مترا وعليه أنبوب معدني لصرف مياه السطح. عندما وضع الدرعَ لأتيلا، وهو عبارة عن صدرة كتانيّة لها أربع فتحات لتمرير السيقان وخطّاف في الظهر، شعر بارتعاش الحيوان العصبيّ. أدرك أنّ أتيلا كان يتذكر تجربتَهُ بارتداء صدرة مشابهة، "اهدأ، يا رفيقي، سيكون هذا أسهل بكثير من القفز بالمظلة"، همس له، كما لو أنّ باستطاعة الكلب أنِ يسمعه وداعب رأسه. "انتظرني هنا، وإيّاك أن تُلاحق الديوك الحبشية. علّق المرسةَ التي كان يحملها على خصره إلى الدرع وأشار إلى الكلب أن ينتظره.

بدأ ميلِّرْ صعوده راجياً أن يكون الإنبوب قوياً، دافعاً نفسه بعضلات جذعه وذراعيه ومثبتا جسمه برجله الوحيدة، كما كان يفعل حين يسبح؛ لم تكن رجله الاصطناعية ذات فائدة في تلك اللحظة. كان الأنبوب مثبتاً بشكل قوي، صرّ لكنّه لم يترنّح تحت ثقله ووصل بسرعة إلى السطح. استطاع من هناك أن يُقدّر مساحة البناء الهائلة ومنظر الخليج الرائع مضاء بالقمر وأنوار الجسر على يساره وألق مدينة سان رافائل أمامه. شدّ المرسةَ قليلاً كي ينبه أتيلا وبدأ على الفور يسحبه ببطء، منتبهاً كيلا يرتطم بالجدار. وما إن صار في متناول يديه حتى مرّره بين ذراعيه من فوق السور وفكّ المرسة، لكنّه لم ينزع عنه الدرع. استعاد أتيلا خلال تلك المسافة العمودية روحه الشجاعة التي استحقّ عليها ميدالية، لم يعد يُظهر عصبيةً، صار مشدوداً إلى الأوامر، مفعماً بالطاقة وبتعبير ترقبٍ ضار، لم يره ميلر منذ سنوات. هنّأ نفسه لأنّه استمرّ بتدريبه بصَرامة الماضي، حين كانا يُقاتلان معاً. لقد حافظ أتيلا على نظام الجندي تامّاً.

في شرفة السطح الكبيرة، المغطاة بالحصى، رأى ميلِّر ثلاث قبب زجاجية، واحدة لكلٍّ جسم من أجسام البناء. كان عليهما أن يدخلا من الأولى أن ينزلق حتى الطابق العلوي من واينهافن ويعثر على مسرب المصعد، الذي يربط بين الطوابق وينتهي إلى الملجأ المضادّ للطيران. امتنَّ لدقّة ألاركون، الذي أرسل إليه صورا للخارج بما في ذلك فتحة الإنارة. كان نزعُ لوحين معدنيين رقيقين من قاعدة القبّة البلورية سهلاً بالنتيجة لأنّهما كانا صدئين وضعيفين. أطلّ كي يُنير الفجوة بمصباحه، الذي كان قد قرّر أن يستخدمه أقل ما يستطيع، وقدّر مسافة تبلغ قرابة الخمسة أمتار. دقّ رقم ألاركون وكلّمه همسا:

- كلّ شيء جيّد. أنا على السطح مع أتيلا، سوف ندخل.
- أمامك خمس عشرة دقيقة، تقريبا.
- عشرون.
- انتبه. ليُحالفك الحظ.

وضع جنديُّ النخبة لأتيلا نظارةَ الرؤية الليلية، التي كان يحملها في الحرب واحتفظ بها للذكرى، دون أن يُفكّر بأنّه سيحتاج لاستخدامها. لاحظ أنّه غير مرتاح، لكن وبما أنّ الكلب استخدمها سابقاً فقد تحمّلها بصمت، لم تكنِ تفيده كثيراً، لأنّه كان يرى بشكل سيّئ، لكنّه سيحتاجها. علّق ميلِر الحبل إلى الدرع، داعب الحيوان النبيل أشار له وبدأ بإنزاله إلى الفضاء المعتم الذي انفتح أمامه.

ما إن شعر بأنّ أتيلا لامس الأرض حتى ربط ميلِّر الطرف الآخر من الحبل إلى إطار فتحة النور الحديدي واستخدمه للهبوط. "ها قد أصبحنا في الداخل، يا صديقي" تمتم وهو يضع نظارته الجديدة. كلّفه تعوُّدُ نظره على الصور الشبحية والمتحركة بالأخضر والأحمر والأصفر بضع ثوان. أشعل الأشعة تحت الحمراء التي كان يحملها على جبينه واستطاع أن يكوّن فكرة عن الصالة التي كانٍ فيها، الواسعة كعنبر طائرة. نزع الدرعَ عن الكلب، غير المفيد بدءاً من تل اللحظة، لأنّ

المرسةَ بقيت مربوطة إلى فتحة النور، من الآن فصاعداً عليه أن يثق بدقة المخططات المرسومة في عام 1995 وبتجربته والحظ الحسن.

كانت النظارة تسمح له بالتقدّم إلى الأمام، لكنّه ليس لها رؤية جانبية. كان الكلبُ بغريزته وحاسّة شمه الرائعة سوف يُنبّهه إذا كان هناك خطر. توغل متفادياً الأنقاض على الأرض وميّز على بعد قرابة العشرة أمتار مكعّب الشبك الحديدي حيث كان في السابقٍ مصعد الحمولة، الشبيه بالموجود في شقته. وجد بجانب البئر درجاً حديدياً تماماً كما كان قد تخيّل. افترض أنّ الذئب لم يقم جحره في الطابق الذي هو فيه ولا في الذي تحته مباشرة، لأنّهما يتلقيان خلال النهار بعض النور الذي يدخل من المناور ومن فجوة المصعد ومن شقوق النوافذ المسدودة. انتبه إلى أنّه لا توجد تغطية للجوّال ولا يستطيع أن يتواصل مع ألاركون. كانا قد توقّعا هذا الاحتمال، لكنّه لعن بين أسنانه لأنّه لا سند له الآن غير كلبه.

تردّد أتيلا أمام الدرج الضيق وشبه العمودي، لكنّه بإشارة من ميلِّرْ بدأ يهبط بحذر. عندما حضّر ميلِّرْ نفسَهُ في بيتِ دِنيس فكر بتقليص الضجة إلى حدوِدها الدنيا بتبطين أرجل الكلبِ، لكنّه رأى أنّ هذا سيعيقه فاكتفى بقصّ أظافره. لم يَندم، لأنّه لو فعل لما استطاع أتيلا أن يُناوِر على ذلك الدرج من دون أن يتشبّث بشيء.

كان الطابق الرئيس يمتدّ على طول وعرض الأبنية الثلاثة التي تُشكّل الحصن. استبعد ميلِّرْ فكرةَ أن يسبره. لم يكن هناك وقت لذلك، وعليه أن يلعبِ بكلِّ أوراقه في احتمال واحد: ملجأ باطن الأرض. توقّف مصيخاً السمعَ في الظلمة وأتيلا ملتصق برجله. اعتقد أنّه سمع في السكون المطلق السائد كلمات أباثا، الطفلة، فاقدة الشهية، التي وصفت هذا المكان الشبحيّ بشكلّ صحيح، من عيادة في مونتريال "أرواح من الماضي تحمي أمَّ أماندا" هكذا قالت أباثا "آمل أن يكون كذلك" تمتم ميلِّرْ. الوصلة التالية من الدرج كانت أوسع

وأقوى من الأولى. فتح قبل أن ينزل كيسَ البلاستيك الذي كان يحمله تحت القميص الداخلي، أخرج كنزة إنديانا الطحينية ووضعها أمام أنفِ أتيلا، ابتسم أمام فكرة أنّه هو نفسه يستطيع أن يقتفي أثر هذا الطيبِ الذي كان يُميّزها، مركب خلاصاتِ زيوتٍ كانت تسميها أماندا بـ"رائحة السحر". شمّ الكلبُ الصوفَ ورفع رأسه كي ينظر إلى رفيقه عبر النظارة، مشيراً إلى أنّه فهم. وضع ميلرْ الكنزة في الكيس كيلا يشوّش على الكلب وأدخلها تحت القميص الداخلي. ألصق أتيلا أنفه بالأرض وهبط بحذر إلى الطابق التالي. اَنتظرَ جنديُّ النخبة وحين تأكد أن أنّ الكلبَ لم يتعثّر بشيء مخيف، تبعه.

وجد نفسه في طابق سقفه أخفضُ وأرضيته إسمنتية، لا شكّ استُخدم كمخمرة لحفظ براميل النبيذ ثم مستودعا للعتاد والمحروقات. شعر بالبرد لأوّل مرّة فتذكر أنّ ثيابَهُ مُبلّلة. إلى حيث كان تصل الرؤية بالنظارة كان هناك أنقاضٌ وأثاثٌ وبراميل وصناديق هائلة مختومة، وهياكلُ دائرية من الخشب للف الخراطيم أو الحبال، برّاد قديم، عدد من الكراسي والطاولات. يمكن أن تكون إنديانا مخطوفة في أيّ ركن من هذا الطابق، لكنّ موقف أتيلا دلّهُ بكل وضوح إلىأنّ عليهما ألا يضيعا الوقت: كان منحنياً وأنفه على الدرج ينتظر التعليمات.

أظهرت الأشعةُ تحت الحمراء فجوةً وأوّل درجاتِ درجٍ ملتو ومتهالك، يقود بحسب المخططات إلى الملجأ. صفعه في أنفه نتنُ مكانٍ مغلق ومياه آسنة. تساءل هل سيكون باستطاعة أتيلا أن يتبع أثرَ إنديانا في ذلك الجوّ الملوّثِ فجاءه الجوابِ على الفور. كان شعر ظهرِ الكلب واقفاً وعضلاته مشدودة، جاهزا للعمل. كان من الصعبَ التكهّن بما سيجده في الملجأ المضادّ للطيران، لأنّ المُخطّطَ لم يكن يظهر إلاّ أربعة جدران سميكة والفجوةَ التي كان فيها المصعد والأعمدة الحديدية فقط. منِ الطرف المقابل كان يتمّ الوصول إلى المخرجِ الوحيد عبر درجٍ آخر مهجورٍ منذ سنوات طويلة وربّما لم يعد موجوداً. هناك

في آخر تقرير للبحرية تقسيمات مؤقتة مخصّصة للمشفى ومكاتبِ وغرفِ الضباط، وهو ما سيُعقّد الأمور، آخر ما كان يرغب به الجنديّ هو أن يضيع في متاهة الكتّان.

أدرك ريان ميلرْ أنّه أصبح أخيراً، كما قالت دِنيس وست، في فم الذئب. كان باستطاعته أن يسمع في صمت الحصن المشؤوم خفقاتِ قلبه كدقّات الساعة. كان مدخل الدرجِ فجوة بعرض نصف متر. سيكون عليه أن يحني نصفَ جسمه ويمرّ من تحت قضبان حديدية قبل أن يواجِهَ الدرجاتِ المعدنية الصدئة. لا يستطيع أن يفعَل ذلك برشاقة، فكر وهو يحسب حجمه وعائقَ الرجل الاصطناعية. لم يكن باستطاعة نور الأشعة تحت الحمراء أن يُضيء العمقَ ولم يبغِ أن يفضح نفسه بإشعال مصباحِهِ اليدويّ. ارتاب بين أن يهبط بتأن، محاولاً ألاّ يُحدث ضجّة وأن يرمي بنفسهِ إلى الهاوية باستماتةٍ كي يكسبِ الوقت. استنشق عميقاً ومحا كلَّ تفكير من عقله. سوف يتحرّكُ بدءاً من تلك اللحظة غريزياً، مدفوعاً بكراهيةِ الرجلِ الذي يحتجزُ إنديانا، تقوده تجربتُهُ ومعرفتُهُ بالحرب، المسجلة بالدم والنار، الجواب الآلي الذي كان مدرّبه في الأسبوع الجهنّميّ يُسميه بالذاكرة العضلية. زفرَ الهواءَ المحجوز، رفعَ أمان المسدس وربت ربتتين على ظهر رفيقِهِ.

بدأ أتيلا الهبوط.

إذا كان جنديٌّ النخبةِ يُريد أن يُهاجم مباغتاً فإن أظلاف أتيلا راحت تُجلجل في أعماق القبو وجعلته يتراجع. أحصى دوساتِ الكلب كي يُكوّن فكرةً عن الارتفاع وما إن شعر بأنّ أتيلا وصل إلى الأسفل حتى انحنى كي يتفادى عائق القضيبِ ورمى بنفسه في بئرِ الدرج والمسدس في يده، دون أن يُراعي الضجةَ التي يحدثها. تمكنَ من أن يطأ ثلاثَ درجات، لكنّ الرابعة انهارت محدثةً ضجة وعلقت ساقُهُ الاصطناعية في المعدن الصدئ. وفي ومضة سريعة فهم أنّه لو

كانت رجله الطبيعية هي التي علقت لكان حرف الحديد انتزع جلدها من لحمها. شدّ كي يحررها لكنّها كانت عالقة فاضطر لأن يلجأ إلى يده كي يخرج قدم الألياف الفحمية، العالقة بين أجزاء الدرجة. لم يكن باستطاعته أن يترك الرجلَ الاصطناعية، فقد كان بحاجة إليها. لقد أضاع ثوانٍ ثمينة وفضيلةَ المباغتة.

وصل إلى الأسفل بأربع قفزات دائراً بجسده كي يفحص المكان إلى حيث تسعفه الرؤية الليلة للنظارة، قابضاً على مسدّس الغلوك بكلتا يديه. بدا له من النظرة الأولى أنّه في مكان أصغر من الطابقين الآخرين، لكنّه سرعان ما انتبه إلى أنه يوجد على امتداد الجدران كتّان داكن، التقسيمات التي كان يخافها. لم يملك وقتاً كي يُقدِّر هذا العائق، لأنّه رأى بوضوح طيفَ أتيلا مرمياً على الأرض. ناداه بصوت مخنوق، دون أن يتصوّر ما حدث له.. يمكن أن يكون قد تلقى رمية لم يسمعها بسبب حادث الدرجة المكسورة، أو أنّهم رموه بكاتم للصوت. لم يكن الحيوان يتحرّك، كان مرميّاً على جانبه، ورأسه إلى الخلف في وضعية غير معهودة وأرجله متخشّبة. "لا!-صاح ميلرْ-. لا!" منتصراً على دافع الجري باتجاهه. انحنى متحرّياً القليل الذي نجح في أن يراه من حوله، باحثاً عن عدوّه، الذي لا شكّ كان قريباً جدّاً منه.

كان في أسفل الدرج قريباً من شبك المصعد المعدني، مكشوفاً من كلّ الجهات، يمكن أن يُهاجَمَ من أيّ زاوية. لم يكن ممكناً أن يكون المكان أسوأ من ذلك، كان الجزء الأوسط من الملجأ فضاءً كبيرا فارغا، لكنّ الباقي مقسّم، كان متاهة بالنسبة إليه والمخبأ المثالي للذئب. على الأقل كان متأكداً من أنّ إنديانا قريبة، فأتيلا تعرّف على رائحتها. لم يخطئ إذن عندما افترض أنّ واينهافن هي جحر الذئب وأنّه يحبس إنديانا هناك. بما أنّ أشعّته تحت الحمراء، القادرة على أن تكتشف حرارة جسد، لم تكشف له شيئاً، استنتج أنّ الرجل مختبئ خلف كتان أحد الأماكن، كانت حمايته الوحيدة هي الظلمة وثيابه السوداء، ما دام الآخر لا يملك نظارة رؤية ليلية مثله. كان

هدفاً سهلاً أكثر من اللازم. كان عليه أن يترك أتيلا مؤقتاً ويغطي نفسه بطريقة ما.

ركض منحنياً نحو اليمين، لأنّ الوضعية التي كان فيها أتيلا تفترض أنّه تلقى الصدمة من اليسار، حيث لا بدّ أنّ عدوّهُ موجود. وصل إلى الجدار الأوّل المسبق الصنع وبركبة على الأرض وهو يُفكر بالخطوةٍ التالية. تفتيش الخيام واحدة واحدة تهور مريع، سيستغرق منه وقتاً، ولا يستطيع أن يفعل ذلك وهو مستعدّ للرمي، لأنّ الذئب قد يكون بانتظاره في أيّ منها مستعِداً لأن يستخدِم إنديانا كدرع. مع أتيلا كان سيمضي واثقاً لأنّه سيدلّه بحاسّة شمه. لم يكن احتمال فقدانِهِ لرفيقه الوفيّ بين المخاطر العديدة التي تصوّرها عندما وضع إستراتيجيته لواينهافن. **466**

ندم لأوّل مرّة على قراره بمواجهة القاتل بمفرده. كان بدروا ألاركون قد نبّهه أكثر من مرّة إلى أنّه قد يكون ضياعُهُ في العجرفة. انتظر دقائقَ لا نهاية لها مشدوداً إلى أدنى صوتٍ أو تبدُّل في سكون الملجأ المُخيف. كان بحاجة لأن يرى الساعةَ ويُقدّر كم بقيً لمنتصف الليل، لكنّه لا يستطيع أن يكشف عن ساعته المغطاة بكمّ بلوزته، لأنّ الأرقامَ تلمعُ مثل منارةٍ خضراء في العتمة. قرّر أن يصِل إلى جدار العمق كي يبتعد عن الذئب، الذي يجب أن يكون قريباً من الدرج، حيث أطلق على أتيلا ليجبره بعدها على الظهور. كان واثقاً من تسديده، يستطيع أنْ يصيب بسهولة بمسدس الغوك هدفاً متحرّكاً على بعد عشرينٍ متراً، حتى بالرؤية القليلة لنظارة الرؤية الليلية. فهو دائماً كان رامياً جيّداً بعين صائبة ونبض ثابت، وكان منذ أن ترك الجيش يتدرّب بجديّة في حقلِ رمي، كما لو أنّه تنبّأ بأنّه سيحتاج ذات يوم لمهارته.

انزلق ملتصقاً بجدار الكتّان، واعياً لإمكانية أن يكونَ قد أساء الرهانَ ويمكن لعدوّه أن يكون خلف أيّ منها ويقتله من الخلف، لكن لم يخطر له شيء أفضل، تقدّم بحذر وبأسرع ما سمحت له به رجله

الاصطناعية مستنفراً حواسَّهُ كلها، متوقّفاً في كل خطوتينٍ أو ثلاث كي يُقدّر الخطر. رفض أن يُفكّر بإنديانا وأتيلا، مركّزا على فعله وجسده، كان مبللا بعرق الأدرنالين، يشعر بالوخز الذي يُسببه دهان الحذاء في وجهه، وبضغط رباطِ النظارة والمصباح على رأسه، لكنّ يديه كانتا جافتين. شعر بالتحكم التام بسلاحه.

نجح ريان ميلّر بالتقدم تسعة أمتار، حين شعر في نهاية القبو بوميض نور قوي لم يستطع أن يُحدّد ماهيته، رفع النظارة إلى جبينه، لأنّها كانت تُضاعف النور وحاول أن يضبط بؤبؤيه. بعد لحظة عرف بماذا كان يتعلّق الأمر فانبثقت صرخة مبحوحة من بطنه. في البعيد وفي الفضاء الأسود الهائل كان هناك دائرة من الشموع راحت أنوارُها المتذبذبة تُنير جسداً مصلوباً. كان معلّقاً على تقاطع عمودٍ وعارضة ورأسه متدلّياً فوقٍ صدره. عرفها من شعرها الأشقر: إنّها إنديانا. ركض نحوها ناسياً كلَّ حذر.

لم يشعر جنديُّ النخبة بصدمة الطلقة الأولى في صدره وخطى عدّة خطوات أخرى قبل أن يسقط على ركبتيه. الثانية أصابته في رأسه.

هل تستطيعين سماعي يا إنديانا؟ أنا غاري برونسفيك، غاري الذي ينتمي إليك. ما زلت تتنفسين، انظري إليّ. إنّني هنا، عند قدميك، كما كنتُ منذ أن رأيتُك لأوّل مرّة في العام الماضي. حتى الآن وفي ساعة الاحتضار هذه أنت جميلة... قميص الحرير يليقُ بك كثيراً، خفيف، أنيق وشهوانيّ. أهداه لك كِلْر كي يُمارس الحبّ وأنا ألبستك إيّاه كي تتطهّري من آثامك.

إذا رفعتِ رأسك قليلاً تستطيعين أن تري جنديّك. هو تلك الكتلة التي على الأرض التي أسدّد عليها بمصباحي. الكلب سقط أبعد، عند أسفل الدرج، لا تستطيعين أن تريه من هنا، كانت الصدمة الكهربائية قاتلة، بالنسبة لحجمه. مسدس الصدمة الكهربائية قضى على هذا الحيوان في ثانية. الجنديّ لا يكادُ يُميَّز، إنّه يرتدي الأسود.

هل تتمكّنين من رؤيته؟ لا همّ، ما عاد يستطيعُ أن ينتهك حبّنا. كان هذا حبّاً مأساوياً، يا إنديانا، لكنّه كان ممكناً أن يكون حبّاً رائعاً، لو أنّك أذعنت. في هذا الأسبوع الذي قضيناه معاً عرفنا بعضنا كما لو كنّا مُتزوِّجَيْن زمناً طويلاً. منحتُكِ فرصةَ أن تسمعي قصّتي كاملةً، أعرف أنّك تفهمينني: كان عليّ أن أنتقم للرضيع الذي كنتُهُ، أنطون فاركاس وللطفل الذي كنتُهُ، لي غالِسّبي. كان واجبي، واجباً أخلاقيّاً لا مناصَ منه.

هل تعرفين أنّني لم أعانِ من الشقيقة منذ ثلاثة أسابيع؟ نستطيع أن نقول أنّ معالجتك أعطت أُكُلَها أخيراً، لكنْ هناك عاملٌ آخر لا نستطيع أن نستبعده: تحرّرت من عبءِ الانتقام. لقد حملت هذه المسؤولية سنواتٍ طويلة، تصوّري الأذى الذي سبّبه هذا لجهازي العصبيّ. عانيت من تلك الشقيقة المريعة، التي تعرفينها أفضل من غيرك، منذ أن بدأتُ أُخَطّط لمهمّتي. كانت عملياتُ الإعدام تُحدث عندي حالة من النشوة الرائعة، كنتُ أشعر بنفسي خفيفاً، منتعشاً، أبدو وكأن لي أجنحة، لكن بعد ساعات قليلة كانت تبدأ الشقيقة وكنتُ أعتقد أنّني سأموتُ من الألم. أعتقد أنّني شُفيت الآن حين أنجزتُ مهمّتي.

أعترف لك أنّني لم أكن أنتظر زياراتٍ بهذه السرعة. أماندا أذكى مما فكّرت. لا أستغرب أن يكون الجنديُّ قد جاء وحدَه، ظنَّ أنّ باستطاعته أن ينتصر عليّ بسهولة، أراد أن يتباهى بأنّه أنقذ سيّدته من ضائقتها، عندما سيصل زوجُك السابق سأكونُ بعيداً. سيبقون يبحثون عن أنطون فاركاس، لكنّ أماندا ستنتبه في لحظة ما إلى أنّ الذئب هو غاري برونسفيك. هي مراقبة، تعرّفت على كارول أونرووتر في صورة لي من المرحلة التي كنتُ فيها لي غالِسبي، أظنّها ستستمرّ بالتفكير في هذه الصور وستنتهي كي تجمع اثنين مع اثنين وتُدركَ أنَّ كارول أندرووتر هي أيضا غاري برونسفيك، الصديق الذي كانت تلعب معه الشطرنج عبر الشبكة العنكبوتية.

أكرّرُ عليكِ ما قلتهُ لكِ البارحة، يا إنـدي، إنّـني كنـتُ أُفكّـر أن أحكي لك، ما إن أُنجِزَ مهمّتي، كلّ الحقيقة وأوضّحَ لكِ أنّ صديقتك كارول وأخلص زبائنك، غاري برونسفيك، كانـا الشخص ذاتـه وأنّ اسمي بالولادة أنطون فاركاس، غالِسبي أو برونسفيك، وأنّـني تحـتَ أيّ مسمّى كنتُ سأُحبّك الحبَّ ذاته، لو أنّك تركتِني. كنتُ أحلمُ أن نذهب إلى كوستا ريكا. إنّه بلد مضياف، دافـئٍ ومسـالِمٍ، حيث كنـا سنعيشُ سعداء. كان باستطاعتنا أن نشتري فندقاً صغيراً على الشاطئ ونعيشَ من السياحة. عرضت عليك حبّاً أكثر من كـلِّ الرجـال الـذين ملكتهم على امتدادِ سنواتك الثلاث والثلاثين. يا للمصادفة! انتبهـت للتوّ أنّكِ بعمرِ المسيح، لم أفكّـر بهـذه المصـادفة. لـماذا رفضـتني، يـا إندي؟ جعلتِنـي أتعذّبُ، أهنتِنـي. أنـا أردتُ أن أكـونَ رجـلَ حياتِـكِ بالمقابل اضطُرِرْتُ لأن أُذعِنَ لأن أكون رجلَ موتك.

بقي قليل جدّاً لمنتصف الليل، عندها سينتهي عذابُك، يا إنـدي، دقيقتان فقط. يجب أن يكون هذا موتاً بطيئاً، لكن بما أنّنا لا نستطيع الانتظار، فنحن مستعجلَيْن، سأساعدك على الموت، مع أنّك تعلمـين أنّ الدم يزعِجني. لا أحد سيستطيع أن يـتهمني بـأنّني دمـويّ. كـان بودّي أن أوفر عليك عائق هاتين الدقيقتين، لكنّ القمـر يحـدّد سـاعةَ إعدامك الدقيقة. سيكون سريعاً، رمية على القلب، لن أرميـكِ بسـهم في خاصرتك، كما كان يفعلُ الرومان مع المحكومين بالإعدام، الـذين يتأخّرون أكثر من اللازم على الصليب...

عادَ ريان ميلر من الموتِ بلحس أتيلا لوجهه. كان الكلب قد تلقى ضربة مسدس الصعق الكهربائي بقوَة حين وِطأ آخرَ درجة في الـدرج، حيث كان برونسـفيك ينتظـره. بقـي فاقـداً لوعيـه دقيقـتين تقريبـاً، مشلولاً تماماً، واحتاج منه نهوضُهُ على أرجله بمشقّة ونفضُهُ التشوّشَ الذي أدخلته فيه الكهرباء وتَذكّر المكان الذي كان فيه برهـةً أخـرى. عندها استجاب لأبرز غريزة عنده: الوفاء. نظارتـه كانـت قـد بقيـت

على الأرضِ، لكنّ الشمّ قاده إلى جسم رفيقه المطروحِ على الأرض. أحسّ ميلرِ بدفعات الرأس التي حاول أتيلا أن يُنعشَه بها وفتح عينيه مصعوقاً لكن على الذكرى الحيّة لآخر شيء رآه قبل أن يسقط: إنديانا مصلوبة.

كان قد مضى على عودتهِ من الحرب خمسُ سنوات وميلِّرْ لم يكن يحتاجِ لأن يلجأ إلى العزيمة الاستثنائيّة التيٍ سمحت له بأن يُصبح جنديٍّ نُخبة. العضلة الأقوى هي القلب، تعلّمَ ذلك في أسبوع التدريب الجهنّمي. لم يكنِ خائِفاً، وكان في غاية الوضوح. لا بدَّ أن الجرحَ في الرأس كان سطحيّاَ،فكر، وإلا لكان مات. لكنّ جرحَ الصدرِ خطير. هذه المرّة لا يوجدُ ضمادٌ ينفع، إنّني هالك. أغلق عقلهُ عل الألم والدم الذي راح يفقده، نفض عنه الوهنَ الأقصى الذي كان يدعوه إلى الراحة، إلى الاستسلام، كمٍا كان يفعل بينٍ ذراعيّ إنديانا بعد ممارسة الحبّ. "انتظر قليلاً" قال للموت دافعاً به جانباً. انتصب بمساعدة الكلب على مرفقيه، باحثاً عن سلاحه، الذي لم يعثر عليه، افترض أنّه رماه حين سقط، لم يكن هناك وقت للعثور عليه، نظّفَ الدم عن وجهه بكمّه ورأى على بعد خمسة عشر متراً مشهدَ الغولغوتا، المسَجّل على شبكة عينيه. بجانب الصليب كان هناك رجل لم يعرفه..

أعطى ريان ميلِّر لأوّل مرّة إشارة لأتيلا، لم يعطها له قط بجدّية، لكنّهم علموه إيّاها في اللعب أو التدريب. ربت بيدهِ ربتة قويّة على عنقه وأشار إلى الرجل في البعيد. كان أمراً بالقتلِ. تردّد أتيلا لحظةٍ، موزَّعاً بين الرغبةِ بحماية صديقه وواجبِ أن يُنفذَ الأمر. كرّر ميلّر الإشارة. انطلقَ الكلبُ مندفعاً إلى الأمام بسرعةِ واتجاهِ سَهْم.

سمع غاري برونسفيك الضربةَ وأحسّ بما حدث. استدار وأطلقٍ دون تسديدٍ في الظلمة على الضاري الذي كان قد صار في الهواء جاهزا كي يسقط فوقه. ضاعت الطلقة في القبو الهائل وأطبقَ فكا الكلب على

الذراع الذي كان يمسكُ السلاحِ. ترك برونسفيك المسدسَ يسقطُ على الأرض صارخاً، وحاول مستميتاً أن يتخلصّ منه، لكنّ أتيلا سحقه بثقله على الأرض. عندها أفلت ذراعه وعضّه على الفور من رقبته، مخترقاً إياها بأنياب التيتانيوم وراح يهزّها حتى مزّقها. بقي برونسفيك مرمياً وقد مزّق النهشُ رقبته وراح الدمُ ينفرُ من الوَدَج مثل نافورة كانت في كلّ مرّة أضعف.

في هذه الأثناء كان ميلرْ قدٍ راح يجرجر نفسه بذراعيه وساقِهِ الوحيدة، لأنّ الاصطناعية قليلاً ما كانت تفيده في هذا، واقترب من إنديانا ببطءٍ رهيب وهو يناديها ويناديها بينما راح صوتُهُ ينطفئ. كان يفقد وعيه لثوان وما إن يستعيده حتى يجرجرَ نفسه أكثر قليلاً. كان يعرف أنّه يُخلف وراءه مسيلاً من دم على الأرض الإسمنتية. قطع المسافةَ الأخيرة بمساعدةِ أتيلا، الذي كان يجرّه من ثيابه. لم يستطع الذئب أن يسمّر المرأةَ على الصليب، لأنّ العمود والعارضة كانا من حديد فاختار أن يربطها من معصمي ذراعيها المدودين بسيور، كانت مُتَدَلية على ارتفاع نصف متر عن الأرضِ. بقي ريان ميلرْ يناديها، "إنديانا، إنديانا"، دون أن يلقى جواباً. لم يُحاول أن يتأكد مما إذا كانت ما تزال حيّة.

وبجهد خارق نجحَ جنديُّ النخبة في الانتصاب على ركبتيه ونهض مستنداً إلى العمود وواقفاً على ساق الألياف الفحمية لأنّ الأخرى كانت تنثني. عاد ونظّف عينيه بكمهِ، لكنّه أدرك أنّ ما كان يغشى عينيه لم يكن دماً وعرقاً فقط. أخرج سكين الكابا، السلاح البدائي الذي يحمله كلُّ جنديّ معه دائماً من غمدها، وراح يقطع واحداً من السيور التي كانت تثبت إنديانا. كان يحافظ على السكين مسنونة مثل موسى ويُجيد استخدامها، لكنّ قطعَ السيرِ الجلدي استغرق معه أكثر من دقيقة. سقط جسد إنديانا المتخشّب فوقه واستطاع إسناده، لأنّه كان ما يزال معلقاً من معصم واحد. أسندها من

خصرها بذراع بينما راح يهاجم بالأخرى السيرَ الآخر. استطاع أخيراً وبآخر قواه أن يقطع الرباط.

بقي الرجلُ والمرأة واقفين، من بعيد لا بدّ سيبدوان متعانقين، هي مستسلمة إلى وهن الحبّ وهو يشدّها إلى صدرٍه بحركة امتلاكيةٍ بقدر ما هي رقيقة. لكنّ الحلم دام مجرّد ثانيةً. انهار ريان ميلرْ على الأرض ببطء دون أن يفلت إنديانا، لأنّ آخر فكرة دارت في رأسه هي أن يحميها من السقوط.

خاتمة

السبت، 25 آب 2012

استدعت أماندا مارتين المُشاركين في لعبة نازع الأحشاء لآخر مرّة كي تُنهي اللعبة وتودّعهم. بعد يومين ستكون في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، متفرّغة لاستعادة بِرادلي والدراسةِ في لحظات فراغها، لن يكن عندها وقت لتلعب دورا.

– البارحة ذهبتُ مع كابل لنودِّع أمّي في المطارِ. ذهبت إلى أفغانستان لتحاولَ العثورَ على طفلين في قرية – قالت مُعلمة اللعبة.

– لماذا؟ – سألت إسمِرالدا.

– عليها أن تفي بوعدٍ أعطته لريان ميلِّرْ. لا تعرفُ اسمَيّ الطفلين ولا اسم القرية، فقط تعرفُ أنّها قريبة من الحدود مع باكستان، لكنّها تعتمد على مساعدةِ مجموعة من جنودِ النخبة كانوا رفاقاً لريانْ.

– إذن ستعثر عليهما – أكّد الكولونيل بادينغتون، الذي كان جنودُ النخبة بالنسبة إليه أشباهَ آلهةٍ.

– هذان الطفلان ينتظران ريانْ ميلرْ منذ ستّ سنوات – قالت أباثا.

– كيف عرفت؟ هل تستطيعين أن تقرئي تفكيرهما؟ – سألت إسمرالدا.

– لم أحاول. أعرفُ لأنّ المُعلمة حكت لنا قصّتهما. أنتم ذاكرتكم ضعيفة – ردّت الطبيبة النفسيةٍ.

– أُمّي تحلمُ بريانْ كلَّ ليلة تقريباً. وهي الآن أكثر عشقاً له مما كانت حين كان حيّاً، أليس صحيحا يا كابل؟ – قالت أماندا.

- صحيح. إنديانا لم تعد الشخصَ نفسه. أعتقد أنّها لن تتعافى أبداً من موت ألان كِلِرْ وريان ميلِرْ ومن كلّ الرعب الذي عاشته في واينهافن. وأنا لنْ أغفر لنفسي أبدا ما حدث، كان باستطاعتنا أن نتفاداه — قال الجدُّ.

- أنا أيضاً لن أغفر لنفسي. لو أنّني أخبرتُ أبي قبلها بقليل، لكان ريانْ حيّاً الآن. الشرطة وصلت متأخّرة عشرَ دقائق. فقط عشر دقائق! - صاحت أماندا.

- تمكّن جنديُّ النخبة من إنقاذ أمّك ومات كبطل. قرّرَ أن يركَبَ مخاطرَ غير ضرورية ولم يقبل مساعدة من أحد. ربّما كان يرغبُ بالموت - ارتأى شارلوك هولميز.

- لا! ريان كان يريد أن يعيش، كان يُريد أن يتزوّج من أمّي. أراد أن يعودَ ليلتقي بطفليّ أفغانستان. لم يكن عنده أيّ رغبة بالموت.

ماذا سيحلّ بالكلبِ عندما تذهبين إلى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. - سألتها إسمِرالدا.

أنا سأتولى أمره - تَدَخَّلَ الجدُّ - فأتيلا يتحمّلنا أنا وسالب التون، لكن هذا أيضاً ستكلفه المعافاة كثيراً. يبقى ساعاتٍ بلا حراك ثابتَ النظر على الجدار، يبدو محنّطاً.

هَو أيضاً في حِداد. روح الجنديّ لا تستطيع أن تُغادر، لأنّ إنديانا وأتيلا يحتجزانها هنا، عليهما أن يُطلِقاها - أكدت أباثا.

يمكن أن يودّعنا ريان حين تفي أمّي بوعدها العالق ويتابع رحلته -غامرت أماندا.

هل سنعود ونلعبُ لعبة نازع الأحشاء ذات يوم؟ - سألت إسمِرالدا؟

نستطيع أن نجتمعَ في عطلة الشتاء - اقترح سير إدموند بادينغتون.

ما لم يطرأ شيء مريع علينا أن نُحقّق فيه - أضاف شارلوك هولِز.

وخلال ذلك سيكتب كابل قصّتَنا: رواية نازع الأحشاء - ودّعتهم مُعَلِّمَةَ اللعبة.

شكر

وُلد هذا الكتاب يوم 8 كانون الثاني 2012، لأنّ وكيلتي، كارمِنِ بالثلز، اقترحت علينا أنا وويلي غوردون، زوجي، أن نكتبَ قصّة جريمةٍ بأيدينا الأربع. حاولنا، لكن بعد أربع وعشرين ساعة تبيّن أنّ المشروع سينتهي بطلاقنا، وهكذا تفرّغ هو لموضوعه -روايته البوليسية السادسة- وأنا أغلقت على نفسي ورحت أكتبُ لوحدي، كما هو الحال دائماً. ومع ذلك فهذا الكتاب ما كان ليوجدَ لولا ويلي، هو ساعدني في البنية والتشويق ودعمني حين كنتُ أهِن. هناك أيضاً مساهمون آخرون أنا ممتنّة لهم كثيراً.

آنا ثِخاس هي الساحرة الطيّبة التي ألهمتني شخصيّة إنديانا جاكسون.

روبرت ميتشل هو جنديّ النخبة في الكتاب وإن كان له ساقان وكان نظيف الضمير.

سارا كِسْلِرْ كانت مُحقِّقتي الرائعة.

نيكولاس فريّاس، ابني، راجع النصَّ كي يُصَحِّحَ لي أخطاءَ منطقٍ متكررة، يعزوها قرّائي إلى الواقعية السحرية.

أندريا فريّاس، حفيدتي، علّمتني ألغاز لعبةَ *نازع الأحشاء*، لعب الأدوار.

الدكتور دي. بّي. ليل، خبيرِ التشريح الشرعي، ردَّ على أسئلتي حول جرائم القتل، الأسلحة، المخدّرات والسموم دون أن أرهق نفسي بالتحذيرات الأخلاقية.

لورناس ليفي، الطبيب النفسي الذي ساهم بتطوير الشخصية الأهم: الوغد.

النقيب سام مور ثقّفني بموضوعِ مياهِ سان فرانسيسكو.

لوري، كنّتي، وجولييت، مساعدتي، حمتاني من العالم بينما كنتُ أكتب.

كان لاعبو نازع الأحشاء مجموعة مختارة من المهووسين الموزّعين في العالم، يتواصلون عبر الشبكة العنكبوتية كي يمسكوا بجاك نازع الأحشاء، متخطّين العقبات وهازمين الأعداء الذين يظهرون في طريقهم.كانت أماندا، كمعلّمة للعبة تضع خطّةَ كلّ مغامرة بحسب مهارات وإمكانيات الشخصيات، التي كان كلُّ لاعبٍ يبدعها كأنَاهُ الأخرى.

دال للنشر والتوزيع